الأمير شكيب أرسلان

في تعريب وتقديم
وتعليق على حواشي

أناتول فرانس في مباذله لجان جاك بروسون



الدار التقدمية

أناتول فرانس
في مباذله

الأمير شكيب أرسلان / تعريب كتاب أناتول فرانس في مباذله

الدار التقدّمية

المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٩٦١ـ٥/٣١٠٥٥٥ ـ ٩٦١ـ٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http: //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى، حزيران ٢٠١٠

الأمير شكيب أرسلان

في

تعريب وتقديم

وتعليق على حواشي كتاب

أناتول فرانس في مباذله

لجان جاك بروسون

الدار التقدّمية

مقدّمة الناشر

يُعتبر الأمير شكيب أرسلان، من الأعلام الذين أتقنوا اللغة العربية غاية الإتقان، ودرسوها على مشاهير علمائها، كالشيخ عبد الله البستاني والشيخ أحمد عبّاس الأزهري. فالإخلاص للأمّة العربية يقتضي عند الأمير شكيب الإخلاص للغتها وعلومها وآدابها وسائر ثمراتها العقلية.

غير أنَّ عمله الدائب في سبيل أمّته وقضاياها الوطنية والسياسية الكبرى، وغيرته على لسانها، لم يمنعه من الانفتاح على الغرب، وتأكيده أنَّ العربية لا تجد حرجًا بالدخيل عليها من لغات أخرى؛ لأنَّ ذلك من أسباب مرونتها وحياتها. وقد سبق ودخلت في لغتنا علوم الأمم المتمدّنة وآدابها منذ عهدٍ بعيد. فنقل العرب عن الهند والفرس واليونان كثيرًا من علومهم وثقافتهم، كما نقل الغرب عن العرب ما لم يبلغوا إليه من شؤون الحياة وأركان العمران، وذلك بواسطة التعريب والاطّلاع على اللغات الأجنبية. يستند انفتاح الأمير شكيب أرسلان في هذا الكتاب إلى واقعيّته وموضوعيّته، وإيمانه بأنَّ العالم لا يتقدّم إلاّ باحتكاك الثقافات وتلاقي الحضارات بين الشرق والغرب.

فاختار أمير البيان أن ينقل في هذا الكتاب، أشهر ما جاء في الصحف، وعلى ألسنة مشاهير العصر، في «أناتول فرانس» بعد مماته، لأنه يعتبر هذا الأخير «آية فرنسا الحديثة في فنّ الإنشاء»، ومثالاً لا يزال إلى اليوم، نموذجًا للتهكّم والذوق الأدبي، وذلك في نظر الشطر الأكبر ممّن يكتبون في العالم الجديد.

وقد كان لفرنسا، عبر أناتول فرانس وأقياسه من الأدباء الفرنسيين، الفضل الأكبر على جميع الحركات الأدبية التي قامت في أوروبا وسائر بقاع الأرض؛ ففي النصف الأوّل من القرن السابع عشر، كانت باريس المركز الوحيد للمعارف الإسبانية، ولولا «كورناي» و«موليير» لما فتحت أبواب الشهرة للدراما والكوميديا الإسبانية، وفي القرن الثامن عشر اكتشف «فولتير» للمرّة الأولى سحر الأدب الإنكليزي، ونشره في أوروبا.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، شرع الأدباء الفرنسيون يهتمّون بالأدب الألماني، وكان الأوروبيون لا يقرأون من نتاج الفكر الألماني قبل ذلك العهد، إلاّ ما له علاقة باللاهوت والشرع والفلسفة، حتّى إنَّ «غوته» نفسه لم يكن معروفًا في أوروبا قبل سنة ١٧٥٠، وقُل مثل ذلك في الأدب النمساوي والبولوني واليوغوسلافي والأسوجي وسواها. كما كان لأدباء فرنسا الفضل

في تعميم أدب أميركا الجنوبية؛ فالأدب البرازيلي، على سبيل المثال، استمدّ عناصره الأولى من الأدب الفرنسي، وبقي المؤلّفون الأرجنتينيون زمنًا طويلاً يقلّدون المؤلّف الفرنسي وينتحلون أفكاره وصوره.

والأمير شكيب أرسلان، لم يصبح أميرًا للبيان بالموهبة وحدها، وإنّما كان له ذلك بفضل تعمّقه في اللغة ومعرفته الواسعة لعلومها وبيانها وأصولها وأساليبها، وإنَّك لَتجده، لا يريد للغة في العالم أن تتقدَّم على لغة بلاد العروبة، فهي عنده وعندنا «أُمُّ اللغات»!

الدار التقدّمية

في، ٢٩ أيّار ٢٠١٠



بسم الله الرحمن الرحيم

لم يعهد التاريخ دورًا من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين، وخلطة الغربيين بالشرقيين، ونسخ كلّ فريق عن الآخر واقتباس هذا من ذاك أخذًا وردًّا وجزرًا ومدًّا حتّى في أعرق الأدوار في القِدم وأوغل الأطوار في الظُّلَم. وقد عمَّ هذا التحاكُّ جميع أحوال الحياة وأركان العمران من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة، فكما تناقلوا فيما بينهم البضائع والمتاجر فقد تناقلوا الحكم والخواطر، وكما حمل بعضهم إلى بعض المهن والصناعات فقد حملوا الاختراعات والبراعات، وكما تسلَّط منهم الأشجع على الأجبن والأشكّ[1] على الأعزل[2] فقد تسلَّط الألحن[3] على الألكن[4] والأعلم على الأجهل. إذًا الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس وولي اليوم الأمس، لم ينحصرا في الأمور المادّية والحوالات المالية والآثار اليدوية، بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية. وما ترقّت في سلَّم الاجتماع أمّة في شرق ولا في غرب إلاّ كان الآخر عيالاً عليها جادًّا في محاكاتها ومتحسّرًا على مناغاتها. فقد أخذت يونان عن مصر، وأخذت بغداد عن يونان، وأخذت أوربة عن الأندلس، ثمَّ أخذ الشرق في جِدّته الأخيرة عن أوربة. إلاّ أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى، أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية، دورًا أثّت[5] فيه العلائق بين الشرق والغرب، وارتفعت فيه الحواجز على البعد والقرب، وتشارك فيه الناس في تناول كلّ مادّي ومعنوي كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق، ورأى الشرق أنَّ لا قِبَل له بمناهضة الغرب على وجهٍ كافل لنجاحه إلاّ بأن يقاتله بسلاحه، فاضطرَّ الشرق إذًا أن يأخذ عن الغرب طوعًا أو كرهًا ـ والضعيف مولع بتقليد القويّ ـ كلّ ما يتسنّى له أخذه من

(١) أفعل تفضيل من شكَّ. ورجلٌ شاكُّ السلاح وشاكٌّ في السلاح أي لابس السلاح التامّ.
(٢) الأعزل: مَن لا سلاح معه.
(٣) الأفطن والأفصح.
(٤) العيي الثقيل اللسان (الناشر).
(٥) كثرت والتفّت.

أسباب المدنيّة كأداة الحرب والمتاع والماعون والعلم والحكمة والقانون مجتهدًا في أكثر الأحيان أن يضمِّن هذه العلوم ألسنته الذليقة، ويطبع بها مدنيّته العريقة، ويلقي على غرابتها ديباجته الشرقية احتفاظًا بقوميّته واعتصامًا بأنانيّته، لأنَّ كلّ أمّةٍ نسيت أصلها ونبذت قديمها وفرحت بجديدها وأنكرت رميمها، فأحرّ بها أن تكون أمّة ساقطة عن أمم وأن تُعدَّ خلطًا لا تُعرف من بين الأمم. ثمَّ لم يكن للشرق أن يحكّم علوم الغرب قائدًا لدنيا اليوم أن ينقلها إلى لغاته ويبثّها في أكنافه ويثني عليها أعطاف ثقافه، إلاّ بأن يحفظ لغات الغرب وآدابه ويجرد لمطالعتها هممًا عالية، حتّى يأتي بحقائقها من أعينٍ صافية؛ فكان من الشرقيين مَن تعلَّم اللغة الفرنسية ، ومنهم مَن تعلَّم الإنكليزية، ومنهم مَن مال أخيرًا إلى الألمانية عندما عَظُمَ شأن ألمانية في العلم والصناعة. لكن لم تزَل اللغة الإفرنسية هي التي تمثّل الأدب الغربيّ عند الشرقيين لكونها لسان السياسة العامّ ولأنه إن زاحمتها سائر الألسن في التجارة والعلوم الطبيعية فلن تضارعها في الأدب وفنون الكلام.

فالأدب الفرنسوي لا يزال في الغرب والشرق على كمال رونقه مطرّزةً مجالس الخافقين برقائقه مزرّرةً محاضرات الطبقات العالية على بنائقه. لا يكاد الرجل يُعَدّ أديبًا تامّ الأداة، إن لم يضرب من الفرنسية ، بسهم ولم يحفظ من شعر راسين وكورنايل وفيكتور هوغو ولامارتين، ولم يكن قرأ كتب ڤولتير وروسّو وشاتوبريان ورنان ومَن في نحوهم. وحسبك شاهدًا أنَّ الألمان مع ما في لغتهم من استبحار الأدب ومع أنَّ مؤلِّفيهم صيّابة[1] مَن كتب، ومع العداوة المشهورة التي بينهم وبين الفرنسيس والتي يزداد بها العلم عن كثب تجدهم يستعذبون اللغة الفرنسية ويتدارسون آدابها ويتحسّون شرابها، وإنَّ الإنكليز مع ما هم فيه من العنجهيّة[2] التي يصحّ أن تكون مثلاً، ومن التعصُّب للغتهم التي لا يرضون بها بدلاً مضطرّون أن يدرسوا اللغة الفرنسية درس مَن يجعل التعبير عن أفكاره بها أكبر همّه ويحاول أن يتكلَّم بها كما يتكلَّم بلغة أبيه وأمّه، لا سيَّما مَن رشحَّ نفسه لمناصب السياسة الخارجية ولمَن أراد أن يكون خرّيجًا في العلوم السياسية والأدبية. فاللسان الإفرنسي طراز المجالس المُعلَم، ووشي المحافل المسهَّم[3]، والذي من علمه تكلَّم بكلّ نادٍ وتخلَّص في كلّ البلاد.

---

(١) لُباب وخيار (الناشر).

(٢) الكبر والعظمة.

(٣) المخطّط.

وما قيل عن حكم اللغة الفرنسية في أوربة هو جار في الشرق المتجدّد حذو القُذّة[1] بالقُذّة، لا بل مع المبالغة التي من العادة أن تكون خصلة الضعيف متى أراد أن يحذو حذو القويّ. فإذا سمر الإنسان مع ناشئة مصرية أو سورية لم يسمعهم يتذاكرون معاني المتنبّي، ومعالي أنفاس أبي تمّام، بلاغة الجاحظ، ورشاقة بديع الزمان كما يتذاكرون الرواية الفلانية «لدوماس» أو «زولا» أو «دوده» والقصيدة الفلانية من نظم «هوغو» أو «لامارتين» أو «موسيه»؛ ولو أنهم أقطعوا أساطين لغتهم وعرانين حضارتهم ما أقطعوه أدباء فرنسة وأعاظم رجالها من الاعتناء والاحتفال لكان ذلك منهم فضلاً وامتنانًا وعدوه جمالاً وإحسانًا.

وليس المقصود بهذا أنَّ محاضرات العرب بالآداب الأوربية لا تُعدّ من الأدب أو أنها نقص في ناشئة العرب، وأنَّ اللغة العربية ضيِّقة العطن لا تطيق علمًا حديثًا ولا أدبًا طريفًا وأنها تجد في صدرها حرجًا من كلّ دخيل، كلاّ فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدّنة وآدابها وأمثالها وأقاصيصها من قديم الزمن من الهند وفارس ويونان والرومان، فازدادت بها كمالاً وكسبت بها صقالاً وامتلأ حوض الدولة العباسية بالمعاني الجديدة والمناحي التي لم تكن معروفة عند العرب لدن كانوا منحصرين في الجزيرة، فتأثل بها للعربية لغة حاضرة بادية مستوفية شروط الحضارة، متمكِّنة من أزمّة الحكمة، جامعة بين فصاحة القرائح الفطرية ودقّة المباحث العلمية، واكتنزت في خزائن التأليف العربي ثروة بيانية لا نزال ننفق منها إلى يومنا هذا.

وكذلك يكون من تمام محاسن هذه اللغة أن تكون حاويةً من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائل نظمهم ونثرهم ما إن لم يكفِ ذوي الإخصاء مؤونة درس هذه الآداب في لغاتها الأصلية كان كافيًا السواد الأعظم مؤونة المشاركة بها في اللغة العربية نفسها.

والقسط كلّ القسط في هذه المسألة هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأمّ العربية البَرَّة أمًّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندًّا وأن يجعلوها قطب رحى المثافنة[2]،

---

(١) القُذّة: ريش السهم وحذو القذّة بالقذّة، مثل للشيئين المتساويين (الناشر).

(٢) المجالسة.

ويعلموا أنها نِعم السند يوم المماتنة[1]، فلا يرتِّبوا أفكارهم في لغةٍ قبلها ولا يضلوا في الإبانة عن ذات نفوسهم سبلها، حتّى إذا صفت لهم مشارعها وحنت عليهم أجارعها وصارت ملكتها جارية مجرى المُهَج من نفوسهم نازلة منزلة الأدمغة من رؤوسهم، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا، وتطالت إليهم عزائمهم، وأن يضمّوا إلى التلاد العربيّ القديم طريف البضائع ويضيفوا إلى الإرث العُدمليّ[2] الكريم حديث البدائع مشروطًا في نقلها إلى خزانة العربية لأجل تمام المقصد واجتناب الهجنة أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلّها وماءها وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها وأن تكون لغة الكتاب المُنزل على أفصح العرب ألفها وياءها، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة ونكون طلبنا المزيد فوقعنا في النقصان، وأردنا الانتصار فباء قومنا والعياذ بالله بالخذلان.

وسترى ممّا سيأتيك من قصص هذا الكتاب وترجمة صاحبه أناتول فرانس، آية فرانسة الحديثة في فنّ الإنشاء، أنَّ أدباء الأوربيين أنفسهم يخافون من تطرُّق الفساد إلى ألسنتهم خوف الجبان من المنون، ويحافظون على نقاوة لغاتهم محافظة الناس على أناسي[3] العيون، وحسبك أنه لم يوجد في كتّاب أوربة كاتب أشدّ شغفًا بالمحدثات العصرية وذهابًا مع النظريّات المادّية وأقلّ اعتبارًا للعقائد الدينية من صاحب هذه النوادر الذي كان معدودًا في آخر أمره من الاشتراكيين، لا بل من البلاشفة الملحدين، الذين نصبوا العداوة للدين وعدّوا أهله من المفسدين. ومع هذا فلمّا جاءت المسئلة إلى اللغة رأيته أعض الكتّاب بالنواجذ على النسق الفرنسي القديم والأسلوب التدريسي المتين، حتّى كان الأدباء لا يميِّزون بين كلامه وكلام راسين، الذي عاش قبله بنحو من مائتَين وخمسين من السنين. وإنَّ ما قلته في الفرنسيس من جهة المحافظة على لغتهم فلك أن تقوله في الإنكليز، عشّاق لغة "شكسبير"، والألمان المتولِّهين بحبّ "غوته"، عماد لغتهم الكبير، فلا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمّة ترضى بأن تكون آدابها فوضى لا نصاب ترجع إليه ولسانها خلَّيْطى يضمّ كلّ ما وقع عليه.

وأنا ناقل لك عن أشهر الصحف ومصاقع خطباء فرنسة يوم مات أناتول فرانس ما فيه مقنع لمَن أراد أن يطمئن قلبه، فأقول:

(١) المباراة والسباق.

(٢) القديم.

(٣) جمع إنسان، وإنسان العين: ناظرها أو سوادها (الناشر).

وفاة أناتول فرانس
وترجمة حاله

قالت جريدة الطان في عددها المؤرّخ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤:

«قد ختم الموت أخيرًا ذلك النزع الطويل الهادئ الذي بدأ بروح الأستاذ الأعظم الذي كان ذكاؤه الساطع يشعّ في الأرجاء كلّها. نعم، تمّت أنفاس أناتول فرانس بهذه الليلة (ليلة الاثنين ١٣ أكتوبر) في منتصف الساعة الثانية عشرة فكأنَّ شيخوخته المتينة النضيرة قد انتظرت آخر يوم من شهر أغسطس حتّى تلبّي الداعي الذي أهاب بها. فأجابت ذلك النداء، إجابة فيلسوف حكيم. وكان أهل الأستاذ وصاغيته[1] مع انقطاع أمل الأطبّاء لم يريدوا أن يقطعوا الرجاء بما كانوا يرونه من صفاء ذهنه وانتظام حديثه واطمئنان نفسه في أثناء النزع، إلى أنه من أربعة أيام غاب عنه حسّه وبدأت تلك الشعلة تنطفئ كالسراج إذا فرغ زيته. وكانت الدنيا بأسرها تتوقّع حلول الخطب بالقلق والوجوم وتراقب ذلك النفَس الضعيف المتصاعد من فم طالما نطق بألفاظ هي من أعذب ما نطق به البشر. فالأفكار بأسرها مجتمعة على رأي واحد من الإعجاب تحيي الأثر الخالد الذي تركه هذا الرجل المعدود من أعاظم كتّاب اللغة الفرنسية.

«وفي الساعة السادسة من صباح أمس غاب الأستاذ عن الرشد غيبة مطبقة وذلك للمرّة الأولى منذ بدء احتضاره. فتوفّي في تلك الغرفة التي كانت مملوءةً أنسًا بين هاتيك التحف والنفائس التي اختارها هو بمعرفته، وصعدت من فمه زفرات خفيفة سُمعت في أثنائها لفظة هي أقدس كلمة حنوّ نطق بها إنسان وهي نداؤه «يا أمّاه!».

«وقد طالت تلك المصارعة بين النور والظلمات فردّد المعلّم مرارًا جملة «أنا أموت» ومضى عليه يوم بتمامه وهو على هذا الحال، وأهله وأصحابه من حوله يخنقون عبراتهم أمامه إذ كانوا يعلمون أنه لا يريد البكاء. وكانت حليلته والدكتور مينيون يراقبان سير المرض. وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة والعشرين خرج النفَس الأخير. فألبسوه قميص نوم أبيض وجعلوا يديه الواحدة بجانب الأخرى. وأضجعوه على سرير من سُرُر عصر لويس السادس عشر» إلى أن ذكرت ترجمة الفقيد، فقالت:

---

(١) خاصّته.

«ولد أناتول فرانس في باريز سنة ١٨٤٤ واسمه تيبولت، وكان أبوه يبيع الكتب في رصفة «مالاكيه»[١] وكما كانت بداءة أميل زولا[٢] بيع الكتب عند «هاشيت»[٣] فقد كانت بداءة أناتول فرانس بيع الكتب في دكّان أبيه. وكان تحصيله العلم في مدرسة ستانيسلاس. وكان في صباه يؤازر في تحرير بعض المجلّات مثل «صيّاد التراجم» و«الجريدة المقفّاة»، وسنة ١٨٦٨ أصدر تأليفه الأول «القصائد الذهبية» وتأليفًا آخر سنة ١٨٧٦ اسمه «الأعراس الكورنتية»، ثمَّ نشر أسطورة منظومة «القدّيسة تاييس» وقصائد أخرى. وما عدا ذلك فجميع آثاره صارت نثرًا.

«وفهرس كتبه طويل متنوِّع المواضيع أكثره من الكتابات الموضوعة بقوّة الخيال ومن القصص والأخبار، فمنها: جوكاست والهرّ الهزيل، بلتشصر، جرم سيلڤستر بونار، رغائب جان سرڤين، كتاب صاحبي، تاييس، صدفة اللؤلؤ، آراء المسيو جيروم كوينار، مطبخ الملكة بيدوك، الزنبقة الحمراء، جنينة أبيقور، بيرسانت كلير، دردارة اللعب، زنبيل الصفصاف، حلقة الجمشت، المسيو برجريه في باريز، بيارنوريير، التاريخ الهزلي، الحجر الأبيض، قصص جان تورنبروش، النساء السبع، الألهة عطاش، ثورة الملائكة وقصص أخرى كثيرة. وفي أكثر هذه التآليف الخيالية كان يمتزج الخيال بالحقيقة، لأنّ من عادة أناتول فرانس أن يجعل أبطال رواياته تراجمة أفكاره ومبادئه وعواطفه. وكان يظهر دائمًا في كتبه، فترى على طائفة من تأليفه شكل تاريخ أو نسق تراجم لا سيّما كتابه «بطرس الصغير» وكتاب «الحياة أيام الزهر» اللذين يصف بهما أيام صباه.

«وكان أناتول فرانس دخل سنة ١٨٧٥ في إدارة «الطان» وأخذ يكتب في القسم الأدبي منه فنشر مباحث ممتعة عن شعراء فرنسة المعاصرين، ثمَّ صارت مؤازرته دائمة تحت عنوان «الحياة في باريز» ثمَّ تحت عنوان «الحياة الأدبية» ممّا كان له من الرونق ما لا يزال في خواطر الناس إلى اليوم. وقد نشر هذه المباحث الانتقادية في أربعة مجلَّدات تحت الاسم الذي كان عنَّنها[٤] به في الطان، ووضع في صدر هذه المجموعة، بمقام ديباجة، كتابًا إلى المسيو أدريان هبرار[٥]، أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومدير الطان، قال له فيه:

(١) Malaquais.

(٢) سيأتي ذكره.

(٣) Hachette: مكتبة أشهر من أن تُذكر.

(٤) عنونها.

(٥) أدريان هبرار Adrien Hébrard.

«اسمح لي أن أقدِّم لك هذا الكتاب الصغير الذي أنا مديون بوجوده لك لأنه لولاك لم يوجد. فإنَّك لمّا دعوتني إلى المؤازرة في الطان لم يكن النقد خاطرًا لي على بال. وقد عجبت من انتدابك إيّاي لهذا الغرض وما زلت مدهوشًا. ويحقّ لي الدهش من أن أرى فكرًا حادًّا عاملاً عامًّا، متَّصلاً بكلّ المسائل وبكلّ الناس متمكِّنًا من ملكة الحياة ومراغمًا دائمًا في معمعان الأمور يروقه فكرٌ خامل بطيء الحركة، أليف العزلة، نظير فكري.

ألم تقُل يومًا عنّي لأحد أصحابك وأصحابي؟:

ـ هذا راهب بنديكتيّ مخبّأ.

من العادة أنَّ المرء لا يعرف نفسه. ولكن هذا التحديد أراه غير بعيد. فإنّي أشعر بكوني راهبًا فيلسوفًا من رهبان دير تيليم[1]، الذي قانونه سهل وطاعته غير ثقيلة. وقد يكون الإيمان ضعيفًا ولكن التقوى لا شكّ فيها.

فالتسامح والسجاحة[2] وحرمة المرء لنفسه وغيره هي فضائل مهملة دائمًا. وإذا كان ثمّة شكّ، فإنَّ الشكّ لا يتمشى إلاّ مع التمسُّك المتين بالعادات والاصطلاحات. والآداب النفسية هي من الأمور التي اعتادها السواد الأعظم، إنَّما المتشكِّكون هم الذين يجمعون بين الآداب والواجبات الوطنية. فإنَّ الرجل المتشكِّك لا يعصي أبدًا القوانين، لأنه لا يرجو أبدًا أن يرى قوانين خيرًا منها.

وأمَّا البحث والنقد فبحسب مذهبي وبما تركتني أنت بالخيار فيه هما نظير الفلسفة والتاريخ من نوع القصص الخاصّ بالعقلاء ومحبّي الاطِّلاع. وكلّ كتاب قصص هو لمَن أراد التأمُّل ترجمة الكاتب لنفسه. وإنَّ أحسن المجودين هو مَن روى حادثات نفسه في أعطاف كتبه. فلا يوجد انتقاد خارج عن النفس. وكلّ مَن يظنّ أنه يضع في كتابه شيئًا غير روحه فإنَّه في ضلال بعيد. فالواقع أننا لا نخرج أبدًا من أنفسنا، وهذا من أكبر النقائص التي فينا». ثمَّ قالت الطان:

«وقد عالج أناتول فرانس أن يكون مؤرّخًا في الأحايين، لكنّه عالج هذا الأمر كقصّاص أو كعالِم بأحوال النفس أكثر ممّا عاناه كمؤرّخ. وقد حاول أن يكون مؤرّخًا حقيقيًا في «حياة جان دارك»، الكتاب الذي نشره سنة ١٩٠٨، مجتهدًا أن يبرز عنها صورة صحيحة».

---

(١) abbaye de thélème: عبارة أصلها للكاتب الفرنسي القديم رابليه (Rabelais) تُطلَق على دير يستجمع أسباب الرفاهة والقصف لا سيّما اللذّات المادّية.

(٢) السهولة واللين.

إلى أن تقول:

«وبقي أناتول فرانس مدّةً في خدمة مكتبة السنات[1]، وفي سنة ١٨٩٦ انتُخب عضوًا في الأكادمي مكان فرديناند دو لسبس[2]. ولكنّه كان يأتي المجمع في الندرى. والسبب في زهده في الاجتماع مع الأربعين النفور الذي جرى بينه وبين الكثيرين منهم على أثر دعوى دريفوس. فكلّ أحد يذكر أنَّ أناتول فرانس بقي بعيدًا عن المعارك السياسية إلى أن ثارت هذه القضيّة فانضمَّ إلى أنصار دريفوس بتلك الحرارة والشدّة اللتين ظهرتا منه على اعتقاد أنَّ نصرة دريفوس هي نصرة الشرف والحقّ والعدل. ومن ذلك الحين مال إلى الأحزاب المتطرّفة، وبقي على هذا الميل إلى آخر حياته. ووافق بالقلم واللسان على مبادئ الشيوعية الروسية.

«ونشر أناتول فرانس مقالات، وألقى خطبًا عديدة وكتب رسائل كلّها في تأييد المبادئ التي ارتضاها في آخر حياته سواء في الاجتماع أو في السياسة أو في الفلسفة».

«وعند الاحتفال بنصب تمثال أرنست رنان في «تريغيه»[3] ألقى خطبة نفيسة، كذلك في الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد رنان، أي العام الماضي، ألقى خطبة ثانية وكانت آخر مظاهر حركته في الأمور العامّة».

وفي العدد نفسه ظهرت في الطان مقالة بقلم «پول سوداي»[4]، المنشئ للقسم الأدبي في الطان، جاء فيها:

«إندرأ القضاء دفعةً واحدة على الآداب الفرنسية فأصابها في أعلى قننها، ففي أقلّ من حول ونصف حول فقدنا پيرلوتي[5] وپاريس واليوم أناتول فرانس: ثلاث مصائب مؤلمات وثلاث رزايا لا تعوَّض. فقد كان هؤلاء الثلاثة خيرة كتّابنا ونخبة الناثرين عندنا، وربّما كان سبقهم في حلبة النثر ناشئًا عن أنهم الثلاثة كانوا شعراء. أمَّا أستاذنا العزيز أناتول فرانس الذي كنّا نبتهج بشيخوخته النضيرة إلى أخريات هذه الأيام، وكان في مقاومته الشديدة للمرض أشبه بڤكتور هوغو، فقد ولد في سنة ١٨٤٤ وأتمَّ في ١٦ أبريل الفائت ثمانين سنة. ورأى في عيد مرور الثمانين حولاً عليه من مظاهر الإجلال له في الداخل والخارج ما كلّ أحد يذكره. وكان فرانس باريزيًا من باريز، نظير ڤولتير وموليير. فمَن لا يذكر أنَّ والده كان يتجر بالكتب في رصفة «مالاكيه»،

---

(١) مجلس الشيوخ.

(٢) فرديناند دو لسبس Ferdinand de Lisseps، فاتح برزخ السويس، ولد سنة ١٨٠٤ وتوفّي سنة ١٨٩٤.

(٣) Tréguier.

(٤) بول سوداي (Paul Souday).

(٥) سيأتي شيء من خبره.

وقد حكى هو نفسه قصص حياته وأخبار شبابه في بعض كتب من غرر تآليفه مثل "كتاب صاحبي" و "بييرنوزيير" و "بيير الصغير" و "الحياة أيام زهرها"، ومع أنه أفرغ هذه الأخبار في قالب القصص، فإنَّ الروايات في نفسها كانت صحيحة. وممّا لا شبهة فيه أنَّ توالي مناظر رصفات السين أيام كانت ناضرة ساكنة لم تذهب بهجتها بازدحام وسائل النقل الحديثة قد رسخ تأثيرها في ذهن ذلك الشاب الذي أوجد فيه طول التأمّل في "اللوفر" وفي كنيسة "نوتردام" حبّ الآثار والحنين إلى الماضي. وفي الشطر الأول من حياته الأدبية لأواخر أيام الأمبراطورية الثانية وأوائل الجمهورية نصّب نفسه للمباحث الانتقادية والتاريخية. وأول تأليف أخرجه هو بحث يتعلّق بألفريد دوفيني (١٨٦٨)، ثمَّ ألَّف تراجم عديدة جمعها فيما بعد في مجلّد اسمه "النبوغ اللاتيني" تكلَّم فيها على "راسين"[١] و"برناردين دوسان بيير"[٢] و"لوساج"[٣] و"كزافيه دو مايستر"[٤] و"الاب بريڤوست"[٥] و"سانت بوف"[٦] و"شاتوبريان"[٧] و"برنار پاليسي"[٨] و"سكارون"[٩] و"بنيامين كونستان"[١٠] و"لافونتين"[١١]...إلخ، وكتب مقدِّمة على ترجمة "فوست" تأليف "غوته"[١٢] بقلم "كميل بنوا"، فكانت أيام شبابه وعهود استكمال أدواته مع اتِّهامه نفسه بالفتور وحبّ الراحة ملأى بالأعمال. ثمَّ دخل إلى مكتبة مجلس الشيوخ وتلاقى فيها مع "لوكونت دوليل"[١٣]، وهناك لقّبه "أدريان هبرار"، مدير الطان، بالراهب البنديكتيّ

---

(١) راسين (Racine) سيأتي ذكره في حواشي الكتاب.

(٢) برناردين دوسان بيير (Bernardin de Saint - Pierre)، كاتب إفرنسي شهير، له كتاب "پول وفيرجينيا" و"الكوخ الهندي" و"مباحث الطبيعة"، وهو ممّن كانت لهم اليد الطولى في إدخال المباحث الطبيعية في الأدب الإفرنسي، (ولد ١٧٣٧ ومات ١٨١٤).

(٣) لوساج (Le Sage) سيأتي ذكره.

(٤) كزافيه دو مايستر (Xavier de Maistre)، كاتب إفرنسي حار النكتة، له كتاب "سياحة حول غرفتي"، (١٧٦٣ ـ ١٨٥٢).

(٥) الاب بريڤوست (L'Abbé Prévost)، قصّاص إفرنسي معروف، (١٦٩٧ ـ ١٧٢٣).

(٦) سانت بوف (Sainte - Beuve) سيأتي ذكره.

(٧) شاتوبريان (Chateaubriand) سيأتي خبره.

(٨) برنار پاليسي (Bernard Palissy)، كاتب إفرنسي، عالِم كيماوي، صناع اليد، هو الذي أتقن في فرانسة صناعة الخزف بالتصاوير، ولد سنة ١٥١٠ وتوفّي في حبس الباستيل سنة ١٥٨٩ قيل إنَّهم اعتقلوه لكونه دان بالبروتستانتية.

(٩) سكارون (Scarron)، شاعر ثائر، خفيف الروح، غلبت عليه النكتة، وذكر المثالب وقضى حياته عليلاً يشكو الدهر، وأمر أن يُكتب على قبره بعد موته أبيات هذه ترجمتها:

"الراقد الآن هنا كان أجدر بالشفقة ممّا هو بالحسد وقد ذاق الموت ألف مرّة قبل أن مات".

"أيها العابر لا تكدّر صفاء سكونه بضجيجك ودعه ينام لأنها هذه أول ليلة عرف فيها سكارون المسكين المنام"، (١٦١٠ ـ ١٦٦٠).

(١٠) بنيامين كونستان (Benjamin-Constant)، مؤرّخ متخصّص بتراجم الناس، (١٨٤٥ ـ ١٩٠٢).

(١١) لافونتين (La Fontaine) سيرد ذكره.

(١٢) أكبر شعراء الألمان وسيرد شيء عنه، وفوست اسم رواية شهيرة تمثيلية له.

(١٣) لو كونت دوليل (Le Conte de Lisle) سيرد خبره.

المتخفّي. وكان يندو كثيرًا عند "لومير"[1] حيث "البارناس"[2] العصري. لأنَّ أناتول فرانس كان شاعرًا حتّى في النظم[3]، لا بل كان شاعرًا مطبوعًا وحفظ سببب سليقته الشعرية حبّ الجمال الصوري. وكانت تتألّق على كلامه ديباجة الأوّلين لا سيّما ديباجة "أندري شينيه"[4] و"جان راسين"، فلهذا يقال عن أناتول فرانس إنّه كان في وقت واحد أعظم المجدّدين والمقلّدين في كبار كتّابنا. ولم يختلف اثنان في استيلائه على الأمد الأقصى من حسن الإنشاء، وما كابر في هذه المزايا سوى "برونتيير"[5]، الذي كان يقول إنّها محاسن مقتبسة بكلّ عناء. وما كان برونتيير أستاذًا في فنّ الأدب. وبالعكس كان يقول "باريس"[6]، الذي يختلف مع أناتول فرانس اختلافًا كبيرًا في السياسة والفلسفة، فالبرغم من هذه الهُوّى العميقة التي تفصل بينهما بقي بارس معجبًا به. وقيل له مرّة إنَّ فرانس يريد أن يهدم كلّ شيء، فأجاب: يكفي أنه حافظ على اللغة.

"وكان مبدأ شهرة فرانس عند نشره كتابه الموسوم "بخطيئة سيلفستر بونار"، فقد وُصف هذا الكتاب وصفًا مستوفىً، وأولع الناس بمطالعته، وطُبع طبعات مكرَّرة لا تُحصى، منها بالنسخ المزيَّنة ومنها بالنسخ البسيطة. وعمَّ الاعتماد على هذه القصّة في كلّ المدارس التي يدرَّس فيها اللسان الفرنسي في الخارج، وقد حفظنا جميعًا عن ظهر القلب كثيرًا من فِقر هذا التأليف وصفحاته التي هي غاية الغايات في المؤاتاة والتناسب وحسن النسق، فقد تلاقت فيه الدعابة المتناهية في الدقّة مع الشعور البالغ شأو الرقّة "بارك الله فيك يا حنّة أنت وبعلك إلى أقصى ما

---

(١) لومير (Lemerre).

(٢) Parnasse: جبل الشعر عند اليونانيين ويراد به مجمع الشعراء.

(٣) بعض الناثرين يكونون شعراء في نثرهم ومنهم أناتول فرانس، والكاتب يريد أن يقول إنَّ المترجم كان شاعرًا في نظمه أيضًا. وقد يجد القارئ هذا التعبير غريبًا إذ كيف يكون المرء ناظمًا ولا يكون شاعرًا؟ والجواب أنَّ كثيرين ينظمون وليسوا في الحقيقة بشعراء، بل كما قال واحد:

"فقل أنا وزّانٌ وما أنا شاعرٌ".

(٤) أندريه شينيه (André Chénier)، شاعر إفرنسي عظيم ولد في الآستانة ١٧٦٢ وله قصائد شوارد، وكان مذهبه حفظ نقاوة اللغة وإبداع طريف المعاني تليد الألفاظ، فلم يكن أجرأ منه على توخّي الجديد من المعنى ولا أثبت منه في التمسّك بالقديم من اللفظ. وحذا كثيرًا حذو شعراء يونان الأقدمين. ومن شعره هذا الشطر:

"لننظم طريف الفكر في تالد الشعر".

انضمّ في الثورة الفرنسوية إلى رجال الانقلاب ثمَّ لمّا تجاوزوا الحدّ في أعمالهم انقلب عليهم ينحت من أثلتهم فقتلوه (سنة ١٩٧٤).

(٥) برونتيير (Brunetière)، أديب فرنسي، نقّاد، كان مذهبه إدخال مبادئ النشوء والارتقاء في الأدب، ولد في طولون سنة ١٨٤٩ وكانت وفاته سنة ١٩٠٦.

(٦) بارس (Maurice Barrès)، من أدباء الفرنسيس في هذه الحقبة الأخيرة كان كاثوليكيًا محافظًا، قيل له مرّة في أناتول فرانس وميله إلى هدم كلّ قديم، فقال لهم: قولوا ما شئتم إلاّ أنه حفظ اللغة. مات بارس قبل فرانس بقليل.

يكون من ذريتكما»، وكان «جول لومتر»[١] لا يقرأ ذلك الخطاب النهائي الذي في هذه القصّة من دون أن يجهش بالبكاء. وكان بعضهم يتّهم أناتول فرانس بالفتور بعض الشيء في مقام العواطف، ولا ينكر أنه كان يذهب إلى حفظ المتانة التي رآها آباؤنا أَلْيَق بنا. وأنه كان قبل كلّ شيء كاتبًا مفكّرًا. مع هذا كانت له مواقف في الحماسة إمّا عن رحمة وإمّا عن أنفة. فكان إنسانًا تامًّا. وربّما كان في قنة مجده متألّمًا من كون الناس لم يعرفوا له هذا الخلق حقّ المعرفة».

ثمّ عدَّد بول سوداي تآليف المترجم ممّا لا حاجة إلى إعادته، وأفضى إلى مؤازرته في الطان، فقال:

«ولبث نحو عشر سنوات يقوم بحرفة نقد المؤلَّفات في الطان بعلم وإصابة نظر وحلاوة عبارة تُتعب كلّ مَن أتى بعده. ولا جرم أنَّ جمًّا من فصوله في هذا الباب تُعدّ من طرف فنّه. وأنَّ كتبه القصصية الكبرى هي من أنموذجات القصص الفرنسي. وقصّة «تاييس» هي التي حاكى فيها أسلوب فلوبير[٢] أكثر من الجميع. وإنَّما قِيسَ فرانس إلى رنان أكثر من غيره. ولا مشاحة أنهما يتشابهان في أمور كثيرة، إلاّ أنَّ رنان أعرق في السلتية[٣] وأناتول أميَل إلى الأسلوب اليوناني و اللاتيني. وكذلك كان فرانس شديد النزوع إلى أفكار ڤولتير، يتجلّى فيه هذا المشرب في كتابه «الحجر الأبيض» و كتابه الآخر «ثورة الملائكة» حيث «الأسيال» يخطب في التاريخ العامّ خطبةً هي من اتِّساع النظر والرونق بمقدار ما كانت خطبة بوسويه[٤] في التاريخ العامّ ضيّقة مجال النظر قليلة التوفيق».

«وكان فرانس منكرًا للوحي قائلاً بدين الطبيعة. وكان يرى أنَّ سلسلة التمدُّن انخرمت بظهور النصرانية على حسب ما كان يقول «جول تلّيه»[٥]، وأنَّ مدنيّة الأوّلين إنَّما عادت

---

(١) جول لومتر (Jules Lemaître)، من أشهر أدباء فرانسة المعاصرين، كان من أساتذة الأدب وجهابذة النقد لا سيّما في فنّ التمثيل، ولد سنة ١٨٥٣ وتوفّي سنة ١٩١٤، وكان صديقًا لأناتول فرانس. وقد ذكر نيقولا سيغور (Nicolas Ségur) في كتاب جمع فيه محادثاته مع فرانس طُبع في هذه السنة وسيأتيك تلخيصه أنَّ «جول لومتر» و«موريس بارس» و«مرريا» و«الشاعر كوپي» كانوا ممّن ينتابون «مغنى سعيد» وأنهم انفصلوا عن فرانس بسبب دعوى دريفوس. وأمّا مغنى سعيد فهو منزل كان لأناتول فرانس بظاهر باريز.

(٢) فلوبير (Flaubert)، قاصّ مجيد نزّاع إلى الحقيقة دون الخيال، كثير التنقيب في إحناء النفس، باهر الخصال في الإيجاز وسلاسة النظام، ولد في «روان» سنة ١٨٢١ ومات سنة ١٨٨٠.

(٣) الشعب السلتي Celte هو أحد الشعوب الهندية الجرمانية لا يُعرف مبدأ هجرتهم إلى أوربة وإنَّما يُعرف كونهم أوطنوا أثر ذي أثير أواسط تلك القارّة ثمَّ تقدّموا إلى بلاد الغال أو جليقية ثمَّ إلى إسبانية وإنكلترة وإيرلندة، وإنَّ أهالي بريتانية من شمالي فرانسة وأهل الغال وإيرلاندة هم سلتيون وآثار لغتهم باقية إلى اليوم.

(٤) ستأتي الإشارة إليه في الحواشي. وهذه الجملة هي غمزة من أناتول فرانس لبوسويه.

(٥) جول تلّيه (Jules Tellier).

فاتّصلت بالآخرين بواسطة عصر التجدّد[١]، وأنّ القاضي الروماني الذي لم يحفل بمار بولس في رومة كان على حقّ. على أنّ نظرية فرانس هذه لم تمنعه من أن يصف صورًا مسيحية كثيرة يودع في تصويرها منتهى الإبداع من "تاييس" الوصيفة المتديّنة إلى الأب " لانتانيه" الذي كان يرتاح إلى محادثته.

"وكان برغم ضربه بسهم في التشكّك متمسّكًا بمقالته هذه لا يحيد عنها. وقد دخل أخيرًا في الاشتراكية والشيوعية والبلشفة...إلخ، ولكن كان هذا منه تحوُّلاً نسبيًّا لا غير. فقد كان يرى أنّ التقدّم في الغلوّ هو ضروري لمقابلة التأخّر بالتلوّ. ولا يمكن أن يكون فرانس اعتقد تحقيق هاتيك المنازع، وإنّما هي عنده واسطة للتعديل والموازنة. ثمّ إنّ فرانس كان يكره إرهاف الحدّ، وفي كتابه "الآلهة عطاش" شدّد الوقيعة بحقّ غلاة الثورة الفرنسوية " اليعقوبيين "[٢]، مع أنه لم يكن ملكيًّا لقد أجمع الناس على معرفة فضل هذا الرجل، ولكن لم يخلُ الأمر من خروج أناس من هذا الإجماع. فبعض العلماء لا يرونه من ذوي القرائح المولّدة، أي الآتين بِبِدْعٍ جديد. وذلك لأنه أتى بما أتاه غرفًا من الينابيع القديمة. والحقّ، أنه في هذا المعنى على خطّة راسين وڤيرجيل وشكسبير[٣] وغوته[٤]، وحسبه بهؤلاء مثالاً. وقال قوم: لا يزيد على كونه منشئًا. ويردّ عليهم أنه اخترع أشخاصًا في أقاصيصه كالأب " كوانيار" والمسيو "برجريه"، يستدلّ ممّا تحدّث به عنهما أنه كان منشئًا مبدعًا مخترعًا.

"وبالإجمال فقد كان كاتبًا كبيرًا جدًّا معدودًا فيمَن لهم اليد الطولى بزيادة ثروتنا البيانية. فلهذا نحن نحيّي قبره بمزيد الخشوع والأسى".

---

(١) La Renaissance وهو العصر الذي تجدّدت فيه الآداب والعلوم والفنون الجميلة في أوربة مرجوعًا فيها إلى النصاب اليوناني واللاتيني، وصادف اختراع المطبعة فازدادت سهولة نشر الكتب وطبعت تآليف الأوّلين وأطاق الجميع اقتناءها وكذلك سهّلت النقاشة اقتناء تحف الفنّ. وهذا العصر يمتدّ من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر وكان بدء هذا التجدّد في إيطالية.

(٢) Jacobins قيل لهم كذلك لأنهم كانوا يندون في دير الرهبان اليعقوبيين في شارع "سانت أونوري" وفرطوا الجميع في الشدّة والعسف ولبثوا إلى الآخر متمسّكين بروبسبيير.

(٣) شكسبير (William Shakespear)، أكبر شعراء الإنكليز ومن أكبر شعراء العالم. هو في شعره أحد فتوحات إنكلترة العظيمة وقد تمتّع الإنكليز بفصاحته وشوارد قصائده كما تمتّعهم بممالكهم الواسعة، حتّى قال بعض أدبائهم: إنّ شكسبير أعزّ علينا من الهند. أطاعت شكسبير ممالك الكلام بأسرها فما امتنعت منه قنة معنىً دقيق ولا اعتاص عليه وادي مغزىً سحيق، وفرط الأوّلين والآخرين من قومه في الإحاطة بجميع أهواء النفوس التي قال المتنبّي عنها: "لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلَم" وذلك لشدّة خفاء مدارجها وتلوّي شعاب مسالكها وانقياد بعضها دون بعض لوصف الفصحاء واستغلاق كثير منها على إفهام الحصفاء فأسلست لشكسبير قيادها ووطّأت له مهادها ولم يدع معنى من المعاني المتخلّجة في الرؤوس ولا شهوةً من الشهوات المتبذبذة في النفوس إلاّ أوسعها إبانةً ووصفًا وبلغ منها الأمد وأوفى من غزل وحماسة، ورقّة وجزالة، ولطف وسخط، وطرب وحزن، وجد وهزل، وحكمة وسخف، ونفور وعطف فكان في كلّ ذلك البحر الذي لا ينزح والغاية التي لا تدرك، ولهذا بلغ هذه الشهرة التي لم يبلغها أحد. وكان مولده سنة ١٥٦٤ وتوفّي سنة ١٦١٦.

(٤) هو شكسبير الألمان وسيأتي نباه.

انتهى كلام الطان. وهاك ما جاء في جريدة «لاكسيون فرانسز» الملكية بقلم «شارل مورّا»، من الكتّاب الأدباء المعدودين الذين بينهم وبين فرانس في المبادئ ما بين الأرض والسماء:

«إنَّ الكتاب الذي قال: إنَّ فرانس هو حقبةٌ في تاريخ الآداب الفرنسية مستقلّة بنفسها، قد أخطأ بقدر ما يستطيع الإنسان أن يُفرط في الخطإ. فإنَّ فرانس هو بالعكس تتمّة هذه الآداب وديمومتها وسيرها المطرد المتّصل. ولقد استشهد «شارل ديرين»[1] أمس في جريدة «بونسوار» بذلك الدعاء اللطيف الذي في «سيلفستر بونار»، وهو: «أيّتها النجوم التي تلألأت فوق رؤوس جميع آبائي الغابرين من رصين وخفيف» أفتحسّ هذا أمدًا أو حدًّا؟ لا يقدر الإنسان أن يفهم شيئًا من أمر هذا العلم، إلاّ إذا علم أنه قبل كلّ شيءٍ شِنْشِنة ممثَّلة وعنعنة[2] مجسّمة. ولا يعاب أكثر ممّا يعاب «أندري شينيه» أو «مونتانيه» أو «باسكال» في الإقتداء بالأوائل والتحدّي بأساتذة الصناعة الذين كان أناتول فرانس كأنَّما يستخرج ما عندهم بالمناقيش، وإنَّني أشير على أدبائنا بقراءة الفصل الذي حرّره «غبريال هون» على انطباع أسلوب فرانس بأسلوب جان راسين فإنَّ الذي يقرأه يفهم كيف أنَّ الشاعر والكاتب والباحث، الذي هو أناتول فرانس، كان يتنفّس ويحسّ في جوّ أفكار راسين؛ وكيف كانت لغة راسين، ومخيِّلة راسين، وشهوة راسين هي مجال آدابه ومصدر أفكاره وأساس منطقه. ولا شيء أبدع ولا أصفى من هذه الموارد التي عوّل فرانس عليها وأقام عندها ينسج على منوالها ويأخذ عنها ويُبدع بواسطتها. وقد يقال إنَّ الصور التي كانت بديعة مشرقة في أيام شبابها تنصل وتخلق بتوالي الأزمان وكر العشيّ، والجواب أنَّ إسداءها من جديد وتطبيقها على الحوادث الحاضرة والتجاريب الأخيرة ويكسبها زيادة رونق ويعيد إليها شبابها، فالشعور يزداد بالذكرى قوّة إلى قوّة...إلخ».

وجاء في الجريدة المذكورة في عرض نقلها ما قالته الجرائد عن أناتول فرانس:

«قال المسيو ديكاف في جريدة الجورنال[3]: إنَّ هذا الفقيد العظيم هو بأجمعه ملك خالص للأدب، وليس لغير الأدب نصيب فيه. وكانت فيه روح النظام والمحافظة على القديم سليقة».

وقال «هنري بيدو» من جملة تأبينه:

«تقرأ له من الجمل ما لا يتناهى في الحلاوة والطلاوة، فإذا دنوتَ منها تدقّق فيها لم تجد إلاّ السهولة التامّة إنَّما هي السهولة التي لا تدرك ولا تحدَّد».

---

(١) شارل ديرين (Charles Drennes).

(٢) الشِّنْشِنة الخُلُق والطبيعة والعادة، والعَنْعَنة قول الراوي في روايته «فلان عن فلان عن فلان» (الناشر).

(٣) Le Journal، جريدة من الجرائد الكبرى معتدلة المشرب.

وقال المسيو "بيلي" في جريدة "الأوفر"[١]:

"لنهنّئ أنفسنا على أنَّ أناتول فرانس لم يمدَّ إلى صناعة الإنشاء رأيه في "الخَرِبات الضرورية"، بل وجد حبّ المحافظة فيه من هذه الجهة الركن الأعظم للغة، وبه اتّسق له هذا الفوز وعلى يده نجت اللغة الإفرنسية من ترشُّح الأسلوب الغونكوري[٢] والطريقة الرمزية[٣]. نعم به وبأسلوبه وتآليفه وبقوّة سحر بيانه، التي لا يقف في وجهها شيء نجت اللغة الفرنسوية فلم يمُت أناتول فرانس إلاّ وقد شهد تجدّد الإنشاء الإفرنسي الكريم كما بدا، ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتاباته من التأثير ما كان لتآليف أناتول فرانس". ثمَّ أفاض الكتاب في ذكر مبادئ فرانس ومنازعه وآرائه في الفلسفة، وخاضوا في تعليل سرِّها، فقال بيدو:

"ينبغي لنا حتّى نأتي بصورة أناتول فرانس مطابقة لحقيقته أن نصوّر اجتماع هذه الخصال في روح أديب سريع الانفعال قريب الانطباع يتلقّى الشيء وضدّه، وإذا عنَّت أمامه فكرة لم تذهب بدون أن تجذبه إلى ناحية في أثناء طريقه. فترى فرانس عدوًّا للنصرانية طورًا وطورًا ملتحفًا بها[٤] وتجده يبدي ويعيد في ذكر غباوة الناس، ثمَّ هو لا يقنط من هيئة اجتماعية تكون أحسن من هذه. وهو من جهة يرثي لحالة الطبع البشري، ومن جهة أخرى يسكر طربًا بآثار العبقريين من البشر". أمّا "مورّا" فإنَّه يرى في تناقضات نفسية فرانس عللاً أخرى، فيقول: "إنَّه محافظ على القديم بميل فطري مركوز في خلقته، وإنَّه منشئ ماهر متناهٍ في دقّة اللحظ وثقوب الفكر كاره لسفاسف الهيئة الاجتماعية الحاضرة. فإذا قيل له إنَّه "أريستوقراطي" أجاب: لا بل هو "شيوعي" وكِلا الحالتَين فليس من الطبقة الوسطى أي طبقة الأهالي"؛ وعلَّل هذه الحالة المسيو "أندري شوميه" في جريدة "الغولوا"[٥] بما يأتي: "ما من مريةٍ أنَّ الناس وجموا عندما رأوا الأستاذ الأعظم في هذه الأيام الأخيرة باذلاً قوّة مكانته في نصرةِ أشدّ الفرق، غلوّ ناصبًا

---

(١) L'oeuvre، جريدة منسوبة إلى الحزب الشمالي لكنَّها استعمارية.

(٢) نسبة إلى غونكور (Goncourt) وهو اسم ينتسب إليه أخوان أحدهما إدمون غونكور المولود في نانسي سنة ١٨٢٢ المتوفّى سنة ١٨٩٦ والآخر جول المولود سنة ١٨٣٠ المتوفّى سنة ١٨٧٠ وكانا قاصّين يذهبان في القصص مذهب الحقيقة لا الخيال وهو ما يقال له Réalisme أو الأشياء على ما هي عليه.

(٣) الطريقة الرمزية في البيان هي طريقة قام بها بعض الشعراء في فرانسة للتعبير عن المناسبات الخفيّة التي بين الواصف والموصوف ويسمّونها Symbolisme وهي خلاف طريقة البارناسيين التي تعتمد على الأسلوب القصصي في الشعر أو الشعري في القصص.

(٤) قالت جريدة "ليرنوفيل" L'ère nouvelle يوم مات فرانس: إنَّه أحرز رآسة عقلية مطلقة قامت عندنا مقام هاتف الغيب وذلك بجمعه بين مزايا العقل والقلب فكان يضمّ بين جنبيه نفس تولستوي إلى نفس فولتير وينظم بين هذين الوجدانين الكبيرين، أمّا الأول فبإيمانه المطلق بالعقيدة المسيحية وأمّا الثاني فبأنوار عقله المؤدّية إلى الريب. وكان أناتول فرانس يتابع تولستوي في قوله "مَن فهم كلّ شيء غفر كلّ شيء"

(٥) Le Gaulois، من جرائد الأشراف والمحافظين.

"أريل"[1] لخدمة "كاليبان"[2] موسكو. فكلّ عمله وأثره مخالف لهذه العاقبة. وما أحسن ما قال "شارل مورّا": إنَّ أثر الأستاذ من الأول إلى الآخر سالم لا شائبة فيه لولا هذه النهاية. فالقارئ يجد في كتب أناتول فرانس أشدّ الانتقادات وأقسى الأحكام على الثورات والانقلابات، لا بل على الهيئات الديموقراطية، ولا يفتأ أناتول فرانس يقبح خطّة أولئك الذين يتوخّون العجلة في كلّ عمل. وإذا فحصتَ مبادئه وجدتَها تنحصر في تصوّره الإنسان رجلاً حكيمًا متواضعًا حرًّا في مباءة بسيطة يفكّر في الأمور العامّة ويقدّم أحكام العقل على كلّ شيء، وتصوّره المرأة بجانب الرجل خلقًا كلّه حسّ يمثّل الطبيعة ويملك قوى هائلة ساذجة ويمثّل الجمال. فأمّا الشاب الناشئ المتخبّط الذي يعتمد على الألفاظ ويظنّ الهيجان نشاطًا، ويريد أن يقبض على مقاليد الإدارة وأن يسنّ القوانين وأن يرمّ الشعث، فهو يتراءى لأناتول فرانس رجلاً كلّه ادّعاء فارغ ويرى فيه قوّة مظلمة توقع الخلل في نظام العالم القديم"، وقال المسيو "بوري" في جريدة "الإكلير"[3]:

كانت الوطنية وحبّ النظام من الأمور القائمة في أصل فطرة أناتول فرانس، وعليهما تدور دائمًا حركاته أول وهلة. وكلنّا نذكر المقالات الجياد التي كتبها في بداءة الحرب الكبرى. لكن لمّا تمطّت الحرب بصلبها، وأبطأت النصرة في الورود وكان يتشكّك في مقدرة الرجال العسكريين والمدنيّين في فرانسة خالجه في الظفر وزرع الشكّ حواليه. ولم يوقّع فرانس على المنشور السلمي الذي قدّمته له "سيڤرين"[4] إلاّ سنة ١٩١٧، وكان مصدّقًا كلّ ما جاء فيه".

وقال المسيو "رويليارد" في جريدة "باري سوار" أي باريز عند المساء، ما يأتي:

"إنَّه وإن كان انتهى بالشكّ هذا الرجل الذي تغذّى بكلّ العلوم والفنون فلا يمكن إنكار ما جاء في كلامه من اليقين، فهو الذي يقول: إنَّ الإيمان الذي لا يقترن بالعمل فليس بإيمان".

وقال المسيو "جورج مارتين" في جريدة "بتي جورنال"[5] أي الجريدة الصغيرة، ما يأتي:

"إنَّ طبقة إنشاء "خطيئة سيلڤستر بونار" و"الزنبقة الحمراء" و"تاييس" و"مطبخ الملكة"، ونحو من عشرين مصنّفًا تجعل هذه الكتب في طبقة تحف الفنّ النادرة ومن الأوابد الباقية على الدهر".

---

(١) Ariel: كلمة معناها أشبه بالشيطان.

(٢) Caliban: شخص اخترعه شكسبير في روايته "الزوبعة" لتمثيل رجل متوحّش ثائر على قوّة أعلى منه.

(٣) L'Eclair: جريدة جمهورية صاحبها المسيو بوري (Buré) تتكلّم كثيرًا بلسان المسيو بريان.

(٤) سيڤرين (Severine)، كاتبة فرنسية شهيرة من حزب الاشتراكيين.

(٥) Petit Journal: جريدة إخبارية قومية المشرب.

وقالت جريدة «الإيكو دي پاري»[1] أي صدى باريز:

«تور، في ١٣ أكتوبر.

مات أناتول فرانس في الساعة ٢٣ والدقيقة ٢٦.

نعم، قد مات أناتول فرانس، فاليوم كلّ مَن في البلدان المتمدّنة يحبّ الجمال ويعتقد بسلطان العقل المبين لابس ثوب الحداد. ويكفي أن نتأمّل في إطباق الناس أجمع على هذا الأمر لنعلم عظمة الرزيئة التي حلّت بنا. فإنَّ أناتول فرانس هو الكاتب الذي أبعد ما شاء في شأو الإبداع، وقد كان أشهر المنشئين بلغتنا وأحسنهم في هذا العصر بها جرية قلم وكسبت له مهارته العظيمة وعبقريّته الساحرة مكانةً سامية في عالم الأدب لا يشاءيه[2] فيها أحد اليوم، فانطفاء هذه الشعلة المتوقّدة وخمود هذا الذكاء الوهّاج هما من المصائب التي نفهم الآن سعة مداها. وأنَّ ممّا يزيد في أعيننا نفاسة ذلك القلم المفرد المنقطع النظير أنه قد انقطع عمله إلى الأبد.

«وماذا يستطيع الكاتب أن يكتب عن عظمة هذا العمل الذي مهما قال القائل فيه بقي متأخّرًا عن شأو الوفاء؟ وماذا عساه أن يصف من قيمته وتأثيره وأخذه بمجامع القلوب؟ وماذا يمكن أن يقال عن هذا الرجل العظيم ممّا ليس معروفًا عند القاضي والداني؟ لا نقدر في فصل واحد أن نأتي على ترجمة هذه الحياة السنية، وإنّما نجتهد أن نشير إلى بعض حدودها ونذكر فاتحتها وخاتمتها وبعض مواقفها العجيبة».

«طالما قصّ لنا أناتول فرانس قصّة شبابه إذ كان في الحقيقة هو بطل أكثر الروايات التي حبرها. وهكذا يعرف رجال المستقبل أنَّ أناتول فرانس ولد في ١٦ أبريل سنة ١٨٤٤ الساعة السابعة صباحًا، وكان والده يسمّى «فرانسوا نوبي تيبولت» بائع كتب على رصفة «مالاكيه»، وعند ولادة أناتول كان أبوه في سنّ الثامنة والثلاثين، وكانت أمّه «أنتوانيت غالا» في سنّ الثانية والثلاثين (إلى أن يقول):

«وسنة ١٨٦٧ دخل أناتول فرانس في مطبعة «لومير» وصار يؤازر في تحرير بعض المجلّات ويهاجم الحكومة الإمبراطورية، مع أنه في حداثة سنّه كان بوناپارتيًا. وبعد حرب السبعين دخل في مكتبة السنات حيث كان «لوكونت دوليل» مديرًا، ثمَّ بدأ ينشر قصائده المسمّاة «بالمذهبات» و«بالأعراس القورنتية» ولم تكن من ذلك الشعر المرقص أو المسكر الذي ينسى به المرء نفسه

---

(١) L'Echo de Paris: جريدة معدودة من الجرائد المحافظة.

(٢) يسابقه (الناشر).

أو يخلع له جلبابه، ولكنَّها كانت آية في سلاسة النظام ولطف الانسجام وبها تجلّت روحه البيانية التي رافقت آثاره إلى الآخر. وكانت نزعة أناتول فرانس وثنية كأنه لم يكن سلالة شجرة مسيحية عريقة وإنَّما كانت نزعته هذه غير مشوبة بتكلّف، وإلحاده في الدين غير مقرون بشيءٍ من العدوان وحبّ الانتقام. ومن جملة أقواله: "مَن نظر إلى التقوى بغير نظر الأتقياء فليس له نصيب من معرفة التناسب". ولم تطُل شاعرية فرانس كثيرًا، بل تجرَّد من بعد نشر تلك القصائد لكتابة القصص، فمنذ صدرت أوائل كتبه عُرفت بنقاوة اللغة ورشاقة الأسلوب وأقبلَ الناس على قراءة تأليف هذا الشاب وسماع صوته الذي عليه جلالة القدماء. وإنَّما كان فنّه فنّ مَن اكتفى بقراءة الأوائل، وتصويره تصوير مَن انقطع في غرفته لا يفتح نافذة ولا يطلّ منها ليرى المارِّين في الشوارع؛ فإذا كان فرانس أبرع كتّاب عصره فلم يكن أدقَّهم شعورًا ولا أعلمهم بمواقع أهواء النفوس. لم يكن من القاصّين الذين أوسعوا هذا الفنّ بمذاهب جديدة وأوغلوا في البحث في دخائل القلب البشري لكنَّه وُفِّق لِما هو خير من ذلك بأن حفظ اللغة الإفرنسية من الفساد والتدنّي وأعاد إليها دولة النظام والجلاء. ونظنّ أنَّ رجال المستقبل يؤثرون من تآليفه "الحياة الأدبية" و"النبوغ اللاتيني" و"جنّة أبيقور"[1] و"الآلهة عطاش"، وهو الكتاب الذي يضاهي أبدع ما كتبه بلغاء القرن الثامن عشر. وكلّما أراد الناس أن يقيسوا بلاغة أناتول فرانس نسبوها إلى بلاغة أزهر أعصر البلاغة والأدب. ويُخيّل للمرء أنَّ موت أناتول فرانس ختام مدنيّة كانت تستقي في مواردها من اليونان واللاتين الأوَّلين. وإذا نظرنا ما يتهيّأ أمامنا وما يحيط بنا وما يتهدّدنا، نقول: إنَّه بموت أناتول فرانس قد مات الإسكندري الأخير.

---

(١) أبيقور (Epicure)، فيلسوف يوناني يقال له أبيقوروس الكلبي منسوبة إليه فلسفة الشهوة ومتابعة الحواس. وكلّ مَن ذهب هذا المذهب يقال له أبيقوري. ويقال إنَّ هذه النسبة لأبيقور بأنه لم يكن يقول إلاّ بالحسّ غير صحيحة. وإنَّ الصحيح منها هو كون اللذّة ينبغي أن تكون هدف الإنسان من هذه الدنيا. وليس المراد باللذّة هو الشهوة البهيمية، بل اللذّة هي في ثقافة العقل وممارسة الفضيلة. وقسّم أبيقور الفلسفة إلى ثلاثة أقسام: الأول الفلسفة القانونية وهي نوع من التمهيد للدخول وبها يعلم الإنسان كيفيّة الفهم وصحّة التصوّر، والثاني علم الطبيعة وبه يتعلّم الإنسان أسرار الكون حتّى يتحرّر من الأوهام ومن الخوف، والثالث الأخلاق وبها يعلم الإنسان ما يجب أن يأخذ به وما يجب أن يتركه ليكون سعيدًا. وكان أبيقور ينكر الوثوق بمعارف المرء بحجّة أنها آتية عن طرق الحواس وأنها تخدعه. وكان يقول بقِدم العالم وإنَّه لا يفنى شيء ولا يزداد شيء. وإنَّ العالم مركّب من ذرّات متناهية في الصغر لا تنقسم ولا تتغيّر وإنَّ هذه الذرّات فيها قوّة الحركة التي تتلاقى بها وتتركّب بعضها مع بعض وتؤلّف أجسامًا. وكان يُظنّ أنه بهذه النظرية يُستغنى عن الاعتقاد بالذات الواجب الوجود. وأنه إذا كان الله موجودًا فإنَّه تارك الكون بسير على أنظمة ثابتة لا يتدخّل هو بها. وكان أبيقور يقول بالمصلحة، أيّ أنَّ الإنسان يجب أن يتّخذ من مصلحته الشخصية واقيًا يقيه من المداحض ومن الأخطار التي قد يقوده إليها ضعفه. وكتب أبيقور إلى "منيسى" "أننا عندما نقول إنَّ سعادة الحياة ينبغي أن تكون مرمى همّة المرء لا نريد بهذه السعادة لذّة البدن كما يظنّ بعض مَن لم يفهموا طريقتنا". ومع كلّ هذا فالشائع عن مذهب أبيقور هو متابعة اللذّة أينما كانت وعدم الامتناع عنها إذا خيف من الإفراط فيها الوقوع في الحرمان منها. وكان هوراسيوس إذا أراد أن يتكلّم عن رجل لا همّ له إلاّ في بطنه أو فرجه يقول: هو خنزير من قطيع أبيقور. وولد أبيقور بقرب آثينا، وقيل في ساموس، سنة ٣٤١ ق.م. ومات سنة ٢٧٠.

«وإذا كان الأمر كذلك وكان هذا الرجل شديد التمسّك بأحكام العقل وبالنظام فلماذا رأيناه في آخر عمره ينزع إلى ما هو على تناقض تامّ مع أدبه وطبيعته؟ فقد يجوز أنَّ عالمًا جديدًا يتولّد وأنه لا مفرّ من مجيئه فهو سيظهر ويقوى من بعد مخاض شديد وأنَّ هذه هي عقيدة فرانس في هذه الحركة. لكن الناس إلى هذه الساعة لا يزالون يرونها نوعًا من البربرية ويجدون انعطاف أناتول فرانس نحوها مخالفًا لِما سبق من رأيه في المدنيّة». انتهى بتصرّف

وقالت جريدة «البتي باريزيان» أي الباريزي الصغير، وهي أوسع الجرائد الفرنسوية انتشارًا، يقال إنَّه يطبع منها كلّ يوم من مليونين إلى ثلاثة ملايين نسخة، وذلك ما يأتي:

تور، ١٣ أكتوبر.

«أتمّ أناتول فرانس أنفاسه مساء الأحد في نحو منتصف الساعة الثانية عشرة تحيط به حليلته وأصحابه. وكان من أول ذلك النهار بدأ التنفّس يصعب على الفقيد ويتخلّله زفرات متصاعدة (إلى أن يقول بعد ذكر تفاصيل نقل الجثّة والمأتم والتعازي والاحتفالات) ما يأتي:

«بموت أناتول فرانس غابت أكبر صورة بيانية في هذا العصر وأشدّها تأثيرًا على الأفكار وأغربها لدى العقول، ومات الكاتب الأتمّ الأكمل. وسيبقى على مائدة آلهة الشعر اليوناني مكان فراغ أبدًا. نعم، كان فرانس يستوحي من آلهة الشعر اليوناني واللاتيني كمال إنشائه بهذه اللغة الإفرنسية التي تجدها تحت قلمه أطهر ما كانت عرقًا وأصفى ماءً وأفعم إناءً، فتآليف هذا الأستاذ ستبقى بقاء أمثلة الأدب التدريسية.

«وكأنَّما أناتول فرانس أشار إلى إنشائه وتكلَّم عن أسلوب نفسه عندما وصف النسق البسيط أو الإنشاء السهل الممتنع في جنّة أبيقور»، فقال:

«أقول إنَّه إن لم يكن في الدنيا سهل ممتنع فإنَّه توجد كتابات ظاهر عليها أنها من الأساليب السهلة الممتنعة وإنَّ مثل هذه الأساليب مقضي لها بالشباب والبقاء. فإذا بحثنا الآن من أين تأتيها هذه المظاهر السعيدة، نجد أنه ليس كونها أقلّ مادّةً وأعدم تنوّعًا هو السبب في تفوّقها، بل لكون الأقسام فيها مستوية استواءً يتعذّر معه تمييز بعضها عن بعض. فالإنشاء الحسن أشبه بهذا النور الذي يدخل من نافذة غرفتي في أثناء ما أنا أكتب ويتولّد تلألؤه الصافي من شدّة امتزاج الألوان السبعة التي هو مركّب منها. والسهل الممتنع يحكي البياض الناصع الذي هو في الواقع مركّب تركيبًا لكن تركيبه غير ظاهر فلا يبدو منه إلاّ صورة مرئية، وبعبارة أخرى السهولة المطلوبة في الكلام ليست إلاّ مظهرًا من مظاهر الانسجام والاقتصاد التامّ في الأقسام».

«فهذا الوصف الذي لا يقدر الإنسان أن يزيد عليه شيئًا وإنَّما هو وصف لأناتول فرانس بقلم أناتول فرانس. ولقد جمع بيانه المحاسن كلّها فكأنه مخزن عظيم لجميع بضائع الخيال والعقل والحسّ، وهذا هو سبب ما يرى في هذا البيان من تموّج الأشعّة الآخذ بالأبصار، فإنَّ هذا المعلّم كان من المتشكّكين، وكانت فلسفته قائمة على أنَّ الأشياء غير ثابتة وأنَّ في كلّ مسئلة قولين كلّ منهما يجوز أن يكون الصحيح. وكان ينظر بأنظار متعدّدة الوجهات، فلهذا لم يكن في تحوّله من رأي إلى رأي مناقضًا لنفسه بنفسه. ومذهبه أنَّ الحياة شاقّة جدًّا على المخلوق لولا الأمل والخيال، ومن جمله السائرة «إنَّ أحسن ما في هذه الحياة الفكر الذي عندنا بأنها ستمنحنا ما ليس فيها».

(إلى أن يقول):

«كان أناتول فرانس مع ظواهر الرهبانية التي تلوح عليه من أجرإ الناس على نقض القواعد التي كانت قُدْمتها عنده غير كافية في حرمتها. فقد كان يقول «كلّ قاعدة بحثت في أصلها وجدت تحتها شيئًا ولم يطُل الأمر حتّى علمت أنها لم تكن قاعدة». وهكذا كان يسير مع فطنته الوقّادة الشاملة المتّسعة لكلّ شيء فكان مِعَنًّا مِتيَحًا[1] بالمعنى اللغوي.

«وبقي فرانس مدّة طويلة نظّارًا متأمّلاً متجنّبًا الدخول في المعامع إلى أن أذنت شمسه بالمغيب. ففي أواخر حياته أظهر مشربه السياسي وأراد الدخول في المعركة الاجتماعية في صفّ الصعاليك. وربّما جاء ذلك عجبًا من رجل مثله، هو من الطبقة العقلية العالية المتميّزة، فلعلّ جراثيم هذه النزعة كانت فيه عندما قال «كلّما فكّرت في هذه الحياة رأيت الاستهزاء بها والرثاء لها أجدر بأن يكونا شهودها»، فكان كثير الهزؤ بهذه الحياة وكان يقول «ما صار الإنسان إنسانًا إلاّ بالرأفة»، وغير عجيب أنَّ عقلاً واسعًا متراميًا كهذا العقل لا يتقيّد بوحدة مطلقة وأن ينتهي أمره بأن ينظر إلى الدنيا هازئًا ماجنًا آسفًا كاسفًا. ومع شدّة غرامه بالعدل لم يكن ممَّن يؤسّس ويبني، بل القوّة السالبة عنده أكثر من الموجبة».

(ثمَّ ذكر مؤلّفاته وعدّد مزايا أكثرها، وقال):

«ثمَّ فارق أناتول فرانس المرصد الذي كان يراقب منه صور هذا الوجود المنعكسة في دماغه وخاض في غمرة دعوى دريفوس التي أخرجت كثيرًا من الكتّاب من أبراج العاج التي كانوا منقطعين فيها. وكانت حركته هذا أشبه بانتفاض من عوارض الشكّ التي كانت غالبة عليه. فمَن خطب على قبر «إميل زولا» وفي عيد «ديديرو» وعند نصب تمثال «رنان». ومَن

---

(١) المِعَن: الذي يعرض في كلّ شيء، والمِتيَح، بكسر فسكون ففتح: كثير تنقل القلب.

نشر تآليف نظير "الآراء الاجتماعية" و"الحزب الأسود" و"الكنيسة والجمهورية" ومع بقائه متمسّكًا بهذه الآراء التي كانت غلبت على نحيزته[1] الأصلية رجع إلى الكتابة وأخذت تعادّه[2] المبادئ الأولى، وجاء في كتابه "الآلهة عطاش" بِما يدهش الذين شاهدوا تحوّله إلى الاشتراكية وذلك من شدّة الوقيعة بالغلاة من رجال الثورة الفرنسوية. وكتب تاريخ جان دارك مجرّدًا عن الخوارق والكرامات. وعاد يقصّ أيام شبابه وعِدّان[3] صباه. والرابط الوحيد الذي يضمّ هذه التصانيف بعضها إلى بعض أنَّ هو إلاّ النزول على حكم العقل الذي يجب تصريفه في تخفيف آلام البشر. وكان من شدّة انقياده لكلّ ما يعنَّ له قد أعلن ذات يوم "إذا أردتَ أن تخدم الخلق فاطرح كلّ أحكام العقل كما يطرح العبء الثقيل وطِر بجناح الحمية لا غير"، وهكذا كان سحر هذا المؤلّف مستفيضًا في جميع ما يحبّره...إلخ، انتهى باختصار.

❁ ❁ ❁

وكما أننا لا ننقل هنا إلاّ رواميز ممّا قالته أمّهات الجرائد التي يحرّرها فحول الكتّاب ليرى فيها القارئ الشرقي خلاصة أفكار الفرنسيس في أديبهم العصري الكبير فإنّنا سننقل أيضًا بعض شذرات من خطب عظماء تلك الأمّة وجهابذتها يوم مأتمه العظيم.

ملخّص خطبة المسيو فكتور باش باسم جمعيّة[4] حقوق الإنسان

"إنّه في هذه النياحة التي قامت في العالم المتمدّن لفقد أناتول فرانس والتي تتمثّل فيها جميع القوى الحيّة في هذه الأمّة لا يمكن القوّة الأدبية الكبرى التي تأسّست منذ ستّ وعشرين سنة تحت اسم جمعيّة حقوق الإنسان إلاّ أن تأخذ بنصيب. وذلك لأننا منذ وُجدنا كان هو منّا. وإنّه لمّا اجتازت فرانسة سنة ١٨٩٨ تلك الأزمة الوجدانية الكبرى التي تسمّى بدعوى دريفوس، انضمّ إلى إميل زولا الذي أبّنه عند وفاته أجمل تأبين وإلى جان جوريس الذي كان يرى فيه العبقريّة

(١) طبيعة (الناشر).

(٢) عادّه بالتشديد: عاوده ويقال في المرض.

(٣) عهد (الناشر).

(٤) جمعيّة حقوق الإنسان في فرانسة لا ينكر أحد حسن نيّة القائمين بها، ولكنَّها إلى هذه الساعة لا تزال في ضمن حدود النظريات نظير جمعيّة عامّة هي أكبر منها وأغنى وأقوى وهي عصبة الأمم التي لم تحقّق شيئًا مذكورًا من المقاصد السلمية والمبادئ الإنسانية التي تأسّست من أجلها. وذلك بطمع القويّ في حقّ الضعيف. قصدنا أن ننبّه على هذه المسئلة ليعلم القارئ الشرقيّ أنَّ الأوربيين يلقون كثيرًا من الجمل الطنّانة، وأنَّ بينها وبين العمل مساوف سحيقة، فليكن عارفًا بما هنالك حتّى لا يقع في خيبة الأمل.

العليا والإنسانية المتمثّلة بشرًا تامًّا وإلى زمرة قليلة من أبطال الحقّ الذين نبزوهم[1] بلقب "مفكّرين" ونِعم اللقب. وأعلن يومئذٍ أنَّ الحياة بدون عدالة لا تستحقّ أن يحياها الإنسان. ثمَّ إنَّه بعد إن أُحقَّ الحقّ وأُصلح الخطأ لمَ يرجع أناتول فرانس إلى القبوع في برج عزلته والتلذّذ ببدائع الفنّ، بل أقام معنا وصار عضوًا في لجنتنا المركزية.

"فهذا الشاعر الراسينيّ الرقيق والمفكّر المرتاب في صحّة الأشياء بعد أن أطاف سجيّة تطلّعه حول جميع الأمور من عالٍ ودانٍ لم يكشف منها مبدأً واحدًا راهنًا لا يقابله الإنسان بتلك الابتسامة التي قابله بها ڤولتير ورنان والتي هي أحدُّ من كلّ نصل رهيف. وقد وجد فرانس في برنامج جمعيّتنا الموسومة بعصبة حقوق الإنسان ذلك الجزم التامّ البات الذي لم يكن يعتقد إنفاذه. فقد كان يهوى أن لا يقتصر على نقشه على مدخل البناء، ولم يلبث أن وجده بهمّة نخبة القوم ومضاء الشعب حقيقة ثابتة مقرونة بالفعل.

"وإذ كان يعلم أنَّ الحقّ الأول لكلّ كائن هو حفظ الحياة، فقد آذن الحرب بحرب لا صلح فيها. ولم يبالِ بما كان يرمى به من العمل بالخيالات المحضة، بل اعتقد إمكان منع الحروب بتوحيد كلمة العملة من كلّ الشعوب. وكذلك نصب نفسه قرنًا للنضال عن الأمم الضعيفة التي استبدّ بها الأقوياء والمستعمرون".

"وإذ علم أنَّ الحرّية السياسية غير مستطاعة بدون الحرّية الاقتصادية، وأنَّ الحرّية الاقتصادية غير مستطاعة بدون المساواة، فقد وضع يده في يد جوريس سائرًا إلى الاشتراكية على سواء. وحمل نفسه على فهم الصور الفنّية الجديدة واعتيادها مع منابذتها لذوقه القديم اللطيف تفاديًا من أن يتعرّض لمس ذلك "البهاء المجهول" كما حدا نفسه على فهم الآراء الاجتماعية الجديدة الفارطة مع بعدها عن مشربه القائم بالرفق والتؤدة خشية أن يجهل شيئًا من مجاهيد البشر النبيلة. وهكذا رأينا هذا المتفنّن الرقيق قد انقلب خشنًا فظًّا في مقاومة الكذب والرئاء، يقول "إنَّه يستحيل التزام الاعتدال في شنان الكذب والغدر"، "وإنَّه يجب أن يحفظ الإنسان للآثام القديمة عداوة هي أبدًا جديدة".

"فهل هذه منه تعريجة عن الجادة التي يزعم حزب اليمين أنه وُجد بفطرته متّبعًا لها أو خيانة منه لمذهبه الذي نشأ عليه؟".

---

(١) النبز: التلقيب بما يقيّد صنعة (الناشر).

«لا نظنّ ذلك. فليس ثمّة فرانسان أحدهما غالٍ والآخر معتدل. أحدهما مرتاب والآخر راسخ العقيدة الديموقراطية. أحدهما بديع الصنعة والآخر وطني قويم. فالجمال والحقّ والعدل ليست عناصر يناقض بعضها بعضًا، بل هي كلّها مظاهر عقل واحد أزلي. فليس من باب الاتّفاق والمصادفة خروج أناتول فرانس من عزلته واندماجه في الدهماء، بل إنّه نزل إلى ذلك الميدان ملبّيًا ضميره الحيّ»...إلخ باختصار.

وقال المسيو جوهر بأسم مجلس جماعة العملة:

«إنّ طبقات الفعلة يتذكّرون أبدًا أنه في الأيام العصيبة من تاريخنا السياسي والاجتماعي حملت أناتول فرانس استقامة فكره وجرأة جنانه على ترك مقعد مجده العالي والنزول إلى المعمعة».

«كان أناتول فرانس مع شمول معارفه وعظمة مقامه العلمي كريمًا موطّأ الأكناف نصيرًا للحقّ على الباطل وللحرّية على الجور وللعدل على الاستبداد وللعمل الحرّ الراضي البهج على الاستغلال المذلّ القاهر. فدكلة[1] العمّال التي تُنصب كلّ يوم لإدامة الحياة وترقية الفنون لا تنسى أناتول فرانس، كونه نزل إلى ما بينها وفهم غاياتها وتجرّد للنضال عنها»[2].

«وكان يعظّم شأن العمل ولا يهمل شيئًا من الوسائل التي يراها كافلة لإسعاد البشر. وقد صرف أناتول فرانس في سبيل إغاثة الضعفاء جميع قوّة فنّه. ولمّا كان هو أستاذ المعنى والمبنى معًا أخذ على نفسه أن يجنّد مقدرته البيانية في نصرة العقل والعدل والحقّ. وهو الذي قال في كتابه «ثورة الملائكة» إذا تسنّى لنا هدم الجهل والخوف فقد هدمنا الطاغية المستبدّ لنا، فالحروب والآفات الاجتماعية التي تُهلك البشر وتستعبد العمَلَة وتقيّد الحرّية بأجمعها إنّما هي عواقب الجهالة والمخافة»، انتهى باختصار.

ملخص خطبة المسيو بلوم، نائب باريز ورئيس الحزب الاشتراكي

«يخشى أعداؤنا يكون ملكوت العدل بين الناس عهدًا للجهل والبربرية، وجوابنا لهم الإشارة إلى هذا الشاهد الحالي الخالد الذكر. فبعد جان جوريس عندنا أناتول فرانس. كان

(١) الدكلة: في اللغة الجماعة لا يطيعون السلطان من عزّهم وهذا الوصف يلائم حالة العملة الذين هم في نزاع تامّ مع الحكومات الحاضرة.

(٢) Touhaux، أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومن كبار زعماء الحزب الاشتراكي وهو الذي أنفذته الحكومة الفرنسوية في وزارة هريو إلى تونس للنظر في مطالب أهلها وفحص أحوال العملة من الأمّة التونسية ودرجة اتّحادهم مع عملة الفرنسيس. فلم يعمل بشيء من هذه المبادئ التي قعّر لها هذه الألفاظ الآن ولم يقصر في خلاصة تحقيقاته عن أحد من غلاة الاستعمار والاستغلال وهذا ممّا يجب على الشرقي أن يعلمه حتّى لا يغترّ بهذه القعاقع ويتذكّر قوله تعالى «ومن الناس مَن يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد».

فرانس أكمل وأصفى رجال الفنّ في عصره، وهو الذي جدّد في العهد الحديث ما كان عند الأوّلين من نيقة[1] وطلاوة وحكمة. وهو الذي جمع بين جنبَيه أعظم قوّة فكرية إلى ألطف ملكة فنّية، نظير "مونتانيه" و"ديديرو" و"لابروبار" أو نظير "ميشله" و"أرنست رنان" في العصر الحاضر. ومع هذا فقد كان منّا. وهو بلا مراء الصديق الأعظم لملايين من العمَلَة في فرنسة وفي سائر الأقطار".

"لا نقسمنَّ حياة أناتول فرانس إلى شطرين ولا نجتهدنَّ أن نبيّن كون دعوى دريفوس هي مبدأ نزعته الحرّة. نعم، إنَّ تأثير جوريس كان لا يقف أمامه شيءٌ سوى بعد الشقّة. لكن أناتول فرانس كان من أصله على صراط مستقيم. وما كانت الشكوك التي تعتريه إلا شكوك المفكّرين الذين لا ينزلون إلاّ على حكم العقل. وهو الشكّ الأصولي. وما كان فرانس يقول إلاّ بسلطان العقل المبين، وما كان يقاتل إلاّ السوادين: سواد الجهل وسواد الظلم. وذلك ليقيم مكانهما صورة العدل البيضاء الناصعة التي كان يرجو لها الظفر الأخير. وكان يذهب إلى أنَّ ملكوت الحقّ الذي يقبض فيه كلّ إنسان ثمن تعبه يعيد العالم أزكى ريعًا وأصفى وأجمل وأكثر استعدادًا لحرث العلوم والفنون والأخلاق. وعليه، نقول إنَّه لم يكن في أدنى تناقض مع نفسه، بل كان في أشدّ الاتّفاق معها ولهذا انتظم في سلك الذين يرشّحون الإنسانية لمصير أسعد من حالها الحاضرة. ولا ننسَ ما قاله أمام تابوت زولا، وهو: أنه يذكر له أبدًا جميل إقدامه على جعل مجده سلّمًا للحرّية وطريقًا إلى التجدّد. وأنه كان كلّما ازداد صوته قبولاً لدى الخلق ازداد به جرأةً في الحقّ. وكانت روح فرانس قريبة إلى الدهماء بسذاجتها ونزاهتها، وكان يقول إنَّ الملكات العقلية واللطائف الفنّية المتناهية تجد أحسن مباءاتها في النقائب البسيطة الميمونة. وأحبَّ الصنّاع والمهّان، وقال إنَّ على الأديب المؤلّف أن لا يهمل بلاغة لغة العامّة، وذكر أنَّ الأعمال اليدوية هي أعرق أعمال هذا العالم وهي أقدم أريستوقراطية. وما هفا قلبه إلى دور أعزّ عليه من الدور اليوناني أو دور التجدّد الطلياني لأنَّ الأفكار كانت منطلقة فيهما من عقالها والأعمال كانت خالصة. لقد فقدناه بعد جوريس بعشر سنوات، الأول عاثرًا في ميدان قوّته والثاني ضاحكًا باسمًا منتقلاً انتقالاً لا تكاد تفرّق فيه بين الحياة والموت. وكانا خليلين متصافيين. ونحن لا نفرّق بينهما في هيكل الحرمة والتعظيم ونرجو أن نجعل قبريهما متجاورين"[2].

---

(١) اسم من تنوّق في الشيء إذا أحكمه وبالغ في إتقانه (الناشر).

(٢) يشير إلى نقل رفات جوريس إلى البانطيون وما يرجونه من نقل تجاليد فرانس إليه.

خلاصة خطبة المسيو بول بانلفه، الذي كان يومئذٍ رئيس البارلمان، والذي هو اليوم رئيس الوزراء

«إنّه وإن كان أناتول فرانس استوفى من العمر قسطًا مديدًا مجيدًا وانطفأ نوره هادئًا في وسط هالة مجده وكان أمر الموت واقعًا لا محالة، فلا يوجد إنسان مفكّر إلاّ وقد رجَّ أرجاء قلبه هذا الخبر «أناتول فرانس أصبح غير موجود». نعم، ذهب ذلك الدماغ العجيب الذي كانت تصدر عنه الأشكال اللامعة والخطرات الشفّافة والواردات السماوية طائرة كنحلٍ من ذهب. نعم، انتهت تلك الفكرة التي كانت تدور مع الحقّ كيف دار ملائمة سيرها المستقيم مع تعاريج الأحوال الدنيوية متناولةً مرّة واحدة كلّ ما في أثناء هذا العالم الكثيف من قبسات نور وخلجات عطف وإحاطات حصاة[1] بحيث يحقّ لنا في هذه الساعة أن نتذكّر عبارة «لامارتين»[2] وهي «أنَّ سويَّ العقل البشري قد انحطّ هذه الليلة».

«هذا ما شعر به جميع أمم العالم المتمدّن، وما تشهد به البرقيّات التي لا تحصى واردة من أقسام الأرض بأسرها. فهذا الكاتب الفرنسي الصميم المعرق والحارس الأمين المتين لهذه اللغة الذي كانت جمله السيّالة أشبه بنفثات سحر هو سليل مدنيّات البحر المتوسّط، وعلى فصاحته لمعات شموس شواطئه التي ولدت عليها الفكرة اللاتينية ولم يكن كاتب العصر الذي انحصر تأثير أدبه في الأمم اللاتينية وحدها، بل عمَّ الأمم بحذافيرها برغم اختلاف لغاتها وأنواع تهذيبها.

وإنَّ هذا المؤرّخ الحافظ لسير القدّيسين المولع برقائق نسك القدّيس فرنسيس وأمثاله هو نفسه ذلك العالِم الجازم بالأمور الوضعية، المقاتل للخوارق والخرافات، القائل: «ليس في الطبيعة شيء غير طبيعي» تراه من جهةٍ يروض فكره بالنظر إلى مرمر الدمى القديمة ومن أخرى يسعد بغروب شمس المدنيّات العتيقة وينظر بالإجلال والإعظام إلى دكَالات العمَلَة والصنّاع الذين بدأوا يفكّرون وشرعوا يحلّون ويعقدون. وهو على ثقة بأنه كما كان التخيّل مصدر تخطيط أول مدينة في المعمور فسيكون هو الذي سيختط المدينة المستقبلة.

يقول بعضهم إنّ هي إلاّ تناقضات وإنَّ هو إلاّ شكّ واتّباع لكلّ ما يعنُّ وليس الأمر كذلك. فما كان الرجل قُبضة ورُفضة[3]. ولكنّه واسع الإدراك يشمل نظره كلّ شيء إنساني. فما من

---

(١) عقل أو راي (الناشر).

(٢) لامارتين (Alphonse Lamartine)، أحد أفذاذ شعراء الفرنسيس ورجال السياسة عندهم، من أعضاء الأكادمي ومن أعضاء الحكومة المؤقّتة ومن أعضاء الجمعيّة التأسيسية، له تآليف عديدة وقصائد سائرة. ولد سنة ١٧٩٠ وتوفّي سنة ١٨٦٩.

(٣) يقال رجل قبضة رفضة أن يتمسّك بالشيء ثمَّ يتركه (الناشر).

جمال إلاّ وقد صبا إليه قلب أناتول فرانس، وما من عقيدة ولا فلسفة إلاّ وقد حنا عليها، ولا من زهرة من زهر الحضارة إلاّ وقد تنشّقها. لقد أتيح لي أن أخالط فرانس في تلك الأيام التي خرج فيها إلى طور ظنَّه البعض جديدًا بعدم تبطّنهم الأسرار وبحصر نظرهم في الظواهر. فقد كانوا يرون فيه رجلاً أبيقوريًا، مسترسلاً إلى النعمة، متنطّعًا في اللذّات، متمتّعًا بوافر اطّلاعه ونادر إحاطته بجميع ما في هذه الحضارة من صور وأشكال وخطوط، عاكفًا على كلّ ما يصادف فيها من أزاهير ورياحين سواء في العالم الحسّي أو العقلي. فما هو إلاّ وقد نزل إلى ساحة الجمهور وأخذ وأعطى في سوق المشاحنات الاجتماعية. وهذا يوم الخلاف الأعظم الذي تمزّقت فيه ضمائر الأمّة الفرنسوية بين موجب وسالب. فخاض أناتول فرانس في هذه المعمعة بكلّ قوّته من بعد إمعان الرويّة، وأدهش بذلك كلّ مَن لم يفهموا ومَن لا يزالون يجهلون أنه إنّما أطاع بذلك دواعي وجدان صادر من أعماق كيانه. نعم، لم يفهموا أنَّ قوانين الجمال والأخلاق والعقل تتلاقى في جذرٍ واحد، وأنَّ رجلاً مثل أناتول فرانس بلغت ملكته في الإتقان والإبداع تلك الدرجة العليا لا يرى الجمال جمالاً إلاّ إذا ازدان بالعدالة وأنه يجد في الظلم والعسف الشناعة التي لا تطاق. وهو الذي قال: «لا يوجد في الدنيا إلاّ مملكة واحدة يمكن أن تتمّ فيها هذه الأمور العظام». فما أعجب هذه السجيّة العالية التي عند أمّتنا! حقًّا، إنَّ فرنسة هي وطن العقل المزيّن والفِكَر الكريمة ومنبت القضاة العادلين والحكماء الرحماء. ولم يكن كتاب من كتبه خاليًا من ذكر الرحمة والعاطفة، ووصف «ما في آلام الإنسانية من الجمال المقدّس»، وكان أكره الأشياء إليه الأهواء والأحقاد العمياء وحبّ الذات الغاشم والقواعد الضيّقة القاسية التي تحكي دخول السيف في اللحم الحيّ. وكذلك أكره الناس إليه آلهة الدماء الذين لا تجدهم أبدًا مرتوين من علّها ونهلها[1]. فكان يهتف لمقاتلة هؤلاء الأعداء بقوله: «على مثل هؤلاء ثوري أيّتها الزوابع المشتهاة»[2].

خلاصة خطبة المسيو فرانسوا آلبير، وزير المعارف الفرنسوية

إنَّ جميع ما يمكن أن يقال من العبارات والألفاظ في هذا المأتم الذي هو أعظم مأتم الآداب الإفرنسية لا يشفي غليلاً، ولا مناص من أن يبقى فاترًا ضئيلاً مهما تخلّله من الحسرات

(١) النَّهل: أول الشرب. والعلّ، والعَلَل ثانيه (الناشر).

(٢) لا شكّ في أنه لو كان أناتول فرانس اليوم حيًّا لكان من أكبر أضداد تورّط فرنسة في حرب الريف وسفكها دماء عساكرها ودماء الريفيين وتدميرها قرى الريف بقنابل الطيّارات على الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين واستعمالها الغازات السامّة. فأمّا صاحب هذه الخطبة المسيو بانفله، العالِم الرياضي الشهير، والذي يزعم أنه من زعماء الحزب الشمالي الحرّ فهو الذي بنفسه يتولّى اليوم كِبر هذه الحرب الطاحنة ويزيد الدماء تفجيرًا حال كونه قادرًا أن يحقنها في أيّ وقت شاء بقبول الصلح مع عبد الكريم. والحقيقة أنه ممّن تعجبك أقوالهم ولا تنطبق عليها أفعالهم. أو أنَّ السياسة تُفسد كلّ شيء كما قال المرحوم الأستاذ الشيخ محمّد عبده.

والزفرات. فإنَّ الذي أضجعه تراكم السنين في قبره بهذا اليوم كانت قد تقطّعت من حوله مناظرات الحسّاد وخرست بإزائه دعاوي الأنداد، فلم يثقل على أحد أن يلقّبه بالمعلّم. وإنَّ من أعظم الخصال التي جعلته بين الأفذاذ المشار إليهم بالبنان ما اجتمع في معالي أفكاره من عرفان الحقّ والغرام بالجمال متلازمَين متحالفَين حتّى جعله ذلك من الطبقة النادرة الخالصة النسب من صنّاع اللغة الفرنسية. كان يقال إنَّ أناتول فرانس يملك سحر البيان، وهو صحيح إذا أريد بسحر البيان استرقاق الآذان بخلابة النطق وعذوبة الإنشاء والأخذ بمجامع القلوب بالصور الجاذبة المستطرفة بدون أن يصادم ذلك شيئًا من أحكام العقل الذي مع طلاوة الكلام وتناسب النظام يمج كلّ ما ليس من الإمكانات البشرية. وعلى كلّ حال قد أدار أناتول فرانس بكأس فصاحته هذه من سلافة عصره على معاصريه شراب الحقائق الأبدية التي أخذ يبشّر بها منذ ثلاثين سنة.

ملأ أناتول فرانس دماغه اطّلاعًا وقتل أدوار المدنيّة المختلفة علمًا وتعقَّبها من العصر اليوناني القديم إلى العصر الإسكندري إلى القرون الوسطى إلى دور التجدّد إلى الدور الڤولتيري بشغف متساوٍ في استقصاء الأخبار وتبطّن الأسرار، مقيمًا لكلّ حالةٍ وزنًا ومؤدّيًا لكلّ فضل حقًّا، وقد ذاق لذّة الاستمتاع بكلّ حسن والتأمّل في كلّ سرّ والتفهّم لكلّ ما تكوَّن منه هذا التاريخ البشري العابس المتجلّي في مظهر الجلال. وكشف الستار عن الأباطيل التي كانت تخفيها فخامة الظواهر عن أعين المتأمّل الذي لا يرى إلاّ الأمور السطحية، فأبرز من ورائها وجه الأدوار الماضية على ما هي عليه، وأنزل الناسك الذي يدّعي القربى مع السماء إلى سويّ الطبيعة العامّة. وأحسّ بألم جان دارك التي زاد في فضلها أنها كانت تقاتل فطرتها المسكينة ولحمها وأعصابها[1]. وجمع تحقيقات رنان إلى هزؤ ڤولتير بالعقيدة ووضع ابتسامة الفلاسفة الآثنيين على شفاه مفسّري التوراة المتشنّجة ولم يكن غريبًا عن شيء من كلّ ما أكنهه العقل البشري أو حاول إكناهه. فقارب بقدر استطاعة البشر عتبة الكمال التي لم يقيّض دوسها لهذا النوع الإنساني الضعيف.

فهل ظنّ أحدٌ أنَّ حكيمًا نظيره يختار الخروج من جنّة عبقر[2] التي تسامره فيها آلهة الشعر في طيّ الخفاء، وأنَّ هذا الصانع الماهر المغرم بالتناسب والحسن يلبّي في يوم من الأيام نداء الحركة المغرية بتعدّي الخطوط؟

نعم، قد شهد الناس هذه الأعجوبة بدون أن يفقد ذلك الحكيم شيئًا من حكمته العذبة. وذلك أنه تحت ظاهر علمٍ محيط متساوية لديه الأشياء مائل بعض الميل إلى الأريستوقراطية كان

---

(١) أي لم يكن قيامها بوحي كما كانوا يزعمون.

(٢) موضع كثير الجنّ (الناشر).

يخفق فؤاد رقيق لطيف الشعور مملوء رحمة، فإنَّ ثقوب الذهن لا يكفي وحده لإعلاء النفس إلى هذه الدرجة إن لم يصطحب الحنان ورقّة القلب. فالأستاذ الأكبر في سعة علمه قد حفظ في صميم قلبه طراوة شعوره وغراضة[1] شبابه، وهو الذي يقول في كتابه "جنّة أبيقور": "كلّما فكّرت في الحياة وجدت الضحك والبكاء أحسن شهودها. فإنَّ الهزؤ والرثاء ناصحان رفيقان أمَّا الواحد فإنَّه بالابتسام يحبّب إلينا الحياة، ومّا الثاني فإنَّه بالبكاء يجعلها لدينا مقدّسة. والهزء الذي أعنيه ليس بهزؤ غليظ فهو لا يتوجّه إلى الحبّ ولا إلى الحسن وإنَّما يسكن سورة الغضب ويعلّمنا التهكّم بالأشرار والحمقى الذين لولا هذا الهزؤ ربّما كنّا نقع في معرة بغضائهم" وهو الذي يقول "كما أنَّ التلخيص يأتي من بعد التفصيل فالعواطف الشريفة يجب أن تتوّج كمال المباحث العقلية لتنشر الحركة في أعمال الحياة" ومن كلامه "أنَّ للقلب وحده القدرة على إيجاد الشوق فهو الذي يفيض الحياة على كلّ ما يتّصل به. وبالعواطف لا بغيرها تلقى زريعة الخير في الأرض ومَن أراد أن يخدم الناس فلن يستطيع ذلك إلاّ إذا طار بأجنحة الهيام".

وليس بصحيح أنَّ أناتول فرانس هدم كلّ الهياكل القديمة وزرع الفوضى في الأخلاق، بل هو الذي استقى من العلم الطبيعي الذي كان عند الأوّلين مصاص ديانة دانَ بها طول عمره بإيمان راسخ وهي "ديانة السعادة البشرية" وكان يبنيها على هذه القاعدة وهي "أنَّ الإنسان أنشودة إلهية لطيفة، فمَن اتّبع مجرى الطبع الحسن فهو السعيد الجميل وبمجرّد الحياة يكون قد مجّد صانع الأشياء المطلق" فالسعادة طاهرة والسرور مباح. وبهذه العقيدة أبطل فرانس ما كان شائعًا من تشكّكه. ومن قوله "بعض الأخلاقيين يقولون لكم إنَّه لا يجوز السير مع دواعي السرور في هذه الحياة فانبذوا كلامهم[2]. فإنَّ تعليمًا دينيًا قديمًا لا يزال يلقي علينا بعاعه[3] مآله أنَّ الألم والحرمان والشظف هي أشياء مستحبّة وأنَّ قهر المرء نفسه وحمله إيّاها على خشن العيش من أفضل الفضائل. فما أبعد هذا القول عن الحقيقة، فلا تستمعوا كلام الذين يعلّمون أنَّ التقشّف محمود، فإنَّ السرور وحده هو المحمود".

ثمَّ إنَّ الحقيقة لم تكن عنده كلمة فارغة تقال ولا يُعمل بها. نعم، إنَّ روح التسامح التي بدونها لا تمكن سكنى هذه الكرة توجب حرمة حقّ كلّ إنسان أن يعتقد ولو الباطل. ولكن جعل الباطل عقيدة رسمية تخدمها الأمّة وتسعى في ركابها الدولة مع أنَّ الحقيقة بإزائها غير مستمدّة

(١) طراءة (الناشر).

(٢) القرآن الكريم أحلَّ الطيّبات من الرزق ولم يجعل في طيّبات العيش من حرج على شرط التزام الحلال وعدم الإسراف الممقوت في كلّ شيء. قال الله تعالى: "يا أيّها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيّبًا ولا تتّبعوا خطوات الشيطان أنه لكم عدوٌّ مبين". وقال تعالى: "يا أيّها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إيّاه تعبدون".

(٣) كلّ ما فيه (الناشر).

قوّة الحكومة لا يقرّ عليه ضمير حيّ ولا عقل سليم. فهذا ما كان يذهب إليه. وبينما كان كثيرون يظنّونه متيّحًا[1] هائمًا في كلّ وادٍ إذ به أبصر أنّ القوّة الغاشمة لا تجتزئ بتعيين معالم الحقّ، بل تطمع أن تكون وحدها الناطقة بالصدق[2] بحيث أوشكت الحقيقة أن تفقد حقّ الوجود. ففي تلك الدقيقة رأى هذا الحكيم الحليم أنّ السكوت أصبح إثمًا وأنه لامحيد من إقامة الحواجز في وجه هذه القوّة القاسرة، وأيّ حاجز يقدر أن يصدّها خير من إرهاف الأسنة العقلية، وهنا تحوّل العالِم عاملاً والحكيم وطنيًا مجاهدًا ناصرًا للقوّة الأدبية في وطنه.

خطبة جبرائيل هانوتو[3] باسم الأكادمي الفرنسوية

أناتول فرانس هو الكاتب الأكمل أشدّ الكتّاب صراحة فرنسية وأقواهم توليدًا وألطفهم وأظرفهم حكمة. وقد أوتي منذ حداثته ما أوتيه جميع قُصّاصنا المجيدين من موهبة إيداع الحقيقة في الخيال. إذ ما الحقيقة إذا كانت مملّة ثقيلة، وما عسى أن يكون من تأثيرها في النفوس؟ وكذلك يستحبّ لأجل اقتياد النفوس والعمل فيها أن يكون للأشياء رنّة عامّة تجمع بينها على إيقاع واحد مختلط بالأنفس تتفاهم به جميعًا. فهذا الإيقاع الواحد العامّ المشترك بين الجماعات هو اللغة التي يتعلّمها الأولاد من شفاه الأمّهات. وفي زماننا هذا كان أناتول فرانس وارث اللغة الفرنسية وولي عهدها.

فهذه اللهجة الباريزية النقيّة الغريضة اللطيفة كانت لغته المحكية ولغته المكتوبة وتلقّاها في صغره حافظًا أمينًا، ودافع عنها في كبره حارسًا متينًا، وبواسطته امتزجت بقلوب ناشئة عصرية بأسرها وبواسطتها انتشرت في جميع أقاليمنا وزادت في فتوحاتنا البعيدة. وهي لغة السهولة والراحة والمناسبة والضبط والصراحة ـ صراحة فرانس التي كان روسكين[4] يضرب بها المثل ـ فكلّ ما كان يجذب ويسحر ويقنع قد جعل منه أناتول فرانس في تعبيره مثالاً وحيدًا ممتنعًا على غيره.

---

(١) يعرض فيما لا يعنيه (الناشر).

(٢) نظير ما أجبرت الدول الغالبة الدول المغلوبة بعد الحرب العامّة على الاعتراف بأنها هي وحدها المسؤولة عن الحرب التي تولّت كبر إيقادها واقتسروهنّ بقوّة السيف والحصر على هذا التصديق. فهذه هي القوّة التي لا تكتفي بالاستيلاء على الممالك حتّى تظنّ أنها تستولي على الحقيقة والتاريخ.

(٣) هو الذي وقعت المناقشة بينه وبين أستاذنا الإمام الشيخ محمَّد عبده، رحمه الله، وهو من أعضاء الأكادمي ومن الوزراء السابقين ومن أعضاء الهيئة الفرنسوية بجمعيّة الأمم اليوم.

(٤) (Ruskin) جون روسكين، كاتب إنكليزي، نقّاد أدبي اجتماعي، ولد سنة ١٨١٩ وتوفّي سنة ١٩٠٠.

وإنّني أكون قصّرت في الواجب إن لم أذكر أين انتهت بأناتول فرانس تلك العبقرية، فأقول: إنّ هذا الهازل العظيم كلّما توغّل في حبّ الطبيعة وعشق الإنسانية تقرّب إلى المسائل الاجتماعية. أنجبه الشعب فأراد أن يبقى من الشعب على حين أبهاء[1] القصور تحنو له رؤوسها. وكان معظم ألمه أنّ أذرعه لم تتّسع لعناق البشر كلّهم. وكأنّ البشر علموا حقيقته فوجدتهم بأجمعهم نادبين فقده. وكان فرانس قائلاً بالتجريد الأصولي القديم فلم يكن غرضه إنسانًا، بل النوع الإنساني.

ما تذكر براعة فرانس الفائقة إلاّ أوردت على خاطرك أسماء "رابليه"[2] و"مونتانيه"[3] و"ڤولتير"[4] و"لافونتان"[5] فإنّه منهم وإنّهم منه. وما كانت تآليفه إلاّ أنشودة لهم ومنهم، فهي تحتوي كلّ ما ترشح إليه من عبقريّة الأوائل والقريحة الفرنسوية. وإنّ هذا الباريزي التامّ والراوي المنقطع النظير والمحبّ الصميم والأديب الساحر، عاشق الكتب مداعب الأطفال صديق الضعفاء. انظروا المكان الذي اختاره ليموت فيه. قد اختار الموت في "توران"[6] قلب الوطن على ضفّة "اللوار"[7] الذي يجرّ في تموّجات مياهه كلّ ما في البلد الجليقي القديم من حلاوة ولطافة.

خلاصة خطبة المسيو جورج لكونت، رئيس جمعيّة رجال الأدب

كانت قريحة أناتول فرانس عصارة البراعة الفرنسية ولبابها تلخّصت فيها وتمثّلت بها. وضوح في الفكر وانتظام في النسق ولطف في المأخذ ودقّة في النظر وتسوية بين الأقسام وسلامة في الذوق وبلاغ في التمييز. هذا مع وفرة الاستشهاد بدون تنطُّع، وعمق الغور بدون إبهام ولا تحيُّر، وجيش في الفكر بدون طغيان، وحرارة في النكتة بدون إساءة، وشدّة في النفس بلا غلظة. لا إفراط ولا إسراف، بل التوازن في كلّ شيء والمناسبة التامّة بين المادّة والصورة. وبالإجمال فكان يدري ما يقول وما يجب أن يقول وكيف يقول.

---

(١) جمع بهو وهو المعروف بأسم "الصالة" (الناشر).

(٢) سيأتي ذكره في الحواشي.

(٣) فيلسوف إفرنسي أخلاقي شهير كان يميل في فلسفته إلى الشكّ في قدرة العقل الإنساني على الجزم المطلق ولكنّه كان كريم الطبع صفوحًا عن السيّئات عاذرًا للناس في ضعفهم. وله كتاب اسمه "الباكورة" موضوعه الأخلاق وهو يهيم فيه بكلّ وادٍ بدون برنامج ولا خطّة. وقد كان يعتمد في فلسفته على "لوتارك" و"سينيكا" ويمتدح زهد سقراط اليوناني وكاتون الروماني.

(٤) سيرد مجمل ترجمته.

(٥) سيأتي الكلام عليه.

(٦) Touraine: اسم المقاطعة والمركز هو "تور" وسيأتي ذكرها بمناسبة المعركة الحاسمة التي وقعت فيها بين العرب والإفرنج.

(٧) Loire: أطول نهر بفرنسة يطوف بأكثر مقاطعاتها وطوله ٨٩٠ كيلو مترًا.

قرأ أناتول فرانس كثيرًا واصطبغ بالصبغة التدريسية الفرنسية القديمة، وكان من فطرته شاعرًا بارناسيًّا[1] فذاق فنّ الوصف والتصوير صغيرًا وأتقنه كبيرًا. ولم يكن أسهل من ذلك الإنشاء الذي يلذّ العقل والأذن معًا، ويراه الإنسان مرتجلاً مطبوعًا إلاّ أنك إذا حاولت تشريحه وتفكيك أجزائه وفحصته عن قرب لم تجد أمنع منه عن التقليد.

وهذه هي مزيّة الصنّاع النوابغ أن يظهر كلامهم سهلاً ولا يلقي بمقاليده إلى أحد. وإذا كان تعريف الكاتب البارع الذي طالما حيّر المعرفين هو الذي بيانه يعرب تمامًا عمّا يلقى في روعه ويجد عند الحاجة الكلمات اللازمة أو الكلمات الوحيدة التي تعبّر عمّا يريد أن يقوله، فإنّ أناتول فرانس هو راموز الكتّاب البلغاء الكاملين.

ولنحذر من أن نظنّ براعته مقصورة على تنميق الألفاظ وإجادة الوشي وكونه استخدم اللغة كلوحة مصوّر يتوكّأ عليها ونشد في حسن ديباجتها ما شاء من لونٍ ولحن. كلاّ، بل هو بتعمّقه في علوم اليونانيين على اختلاف مشاربهم وعلوم اللاتينيين سواء أهل الرصانة منهم أو أهل الخلاعة، ودرسه علوم فلاسفة القرن الثامن عشر من الفرنسيس (هؤلاء هم الذين استقى من كتبهم على ما يظهر) كان قد اتّخذ لنفسه فلسفة خاصّة به رسم حدودها وأنعم فيها الفكر وجعل قائدها الريب ورائدها الضحك وهي فلسفة ترجع إلى مبادئ أبيقور ولوكريتيوس[2] وإلى الناموس الطبيعي والمنطق والعقل. ولم يكن أناتول فرانس يخضع إلاّ لأحكام العلم.

فمات فرانس عن مجد كامل وفلسفة عظيمة هي زبدة أفكار حقب عديدة وخلاصة فنون أعصر مديدة». انتهى باختصار.

❁ ❁ ❁

وجاء في جريدة «جورنال دو جنيف» السويسرية يوم نعي أناتول فرانس ما يأتي ملخّصًا:

«أسال موت أناتول فرانس أقلام الفرنسيس على اختلاف المشرب في وصف براعته

(١) نسبة إلى بارناس، وهو جبل في يونان القديمة، علوّه ٢٤٥٩ مترًا كانوا يقولون إنّه وطن آلهة الشعر، وقد سبق ذكره.
(٢) لوكريتيوس (Lucrétius)، شاعر لاتيني مولود في رومة سنة ٩٨ ق.م.، كان من دعاة الفلسفة المادّية المنسوبة إلى أبيقور
المشرب بفصاحة خارقة للعادة وله قصيدة اسمها «أمور الطبيعة» في ستّة كتب أهداها إلى صديقه سميوس وهي شرح مذهب أبيقور.
واختلف العلماء في حقيقة اعتقاد لوكريتيوس كما اختلفوا في عقيدة المعرّي فذهب قوم إلى أنه جاحد منكر لوجود الواجب الوجود وقال
آخرون إنّه كان يعتقد بالصانع تعالى وبانه قوّة مستورة لا يدرك كنهها العقل ولكن من المحقّق أنه حمل على الوثنية والخرافات والتعصّب
حملة شديدة. ويقال إنّه مات منتحرًا سنة ٥٨ ق.م.
وقد بثّ هذا

والاعتراف بأنه من نوابغ اللغة الفرنسية. وأنه يتعذّر ولو على وجه الإجمال نقل أبلغ ما كتب من تأبين المعلّم الأكبر الذي عرف أن يحلّي قلمه بهذه المزايا كلّها حتّى يمكن أن يقال إنَّ اللغة الفرنسية لم تعهد لنفسها إلاّ في النادر الأندر قوالب بهذا الجمال الرائع وأمثلة بهذا البهاء الرائق وصورًا بهذه الدرجة من الجلاء والصقال. فإذا جاء الإنسان يتذكّر تآليفه لا يجد في الأدب أخلص منها لغة فرنسية ولا أطبق على الأسلوب الأصولي ".

وذكرت هذه الجريدة في مكان آخر من عددها المؤرَّخ في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤:

" إنَّ أناتول فرانس في عصرنا هو أصفى مثال للعنعنة الكبرى اليونانية اللاتينية وتتمّة للقرن الثامن عشر الفرنسوي. وهذا سرّ قوّته. ولم يكن يعلم شيئًا من أفكار أهل الشمال ولا من آدابهم ولا كان ممّن يشاطر الأنسيكلوبيديين[١] آمالهم وخيالاتهم فلا كان يذهب إلى جودة نوع الإنسان ولا إلى الترقّي غير المتناهي ولا إلى إمكان السعادة على ظهر هذه الكرة "سيّارة الجوع" التي يبلو فيها الناس ما قيّضوا له من المحن. وكانت بشاشة فرانس وضحكه للدنيا من قبيل ضحك ڤولتير ورنان معلّمَيه. فقد كان رأي فرانس في العالم سيّئًا وكان التشاؤم عليه غالبًا ولم يكن عنده أمل في إصلاح حال العالم الذي لم يكن يرى من عامل فيه إلاّ قوّة السيف ".

وكان فرانس يقول:

" إنَّ البشر في حالة يرثى لها. ولست ألوم على ذلك الطبيعة لأنَّ الطبيعة غير عاقلة لتتكلّم معها. ولا فرق بين أن تطبّق طبيعة البشر على مجتمع البشر وأن تطبّق طبيعة النمل على مجتمع النمل ".

ولكن مع معرفة فرانس بكون أمر هذا العالم محزنًا يقول إنَّه منطوٍ على أمور تستحقّ النظر. فالأَوْلى بنا أن نأخذ الدنيا بجهاتها المطربة. وأيّ فائدة لنا في الحسرات ما دمنا لا نقدر على شيء. فما تيسّر من السرور فلنأخذه قبل مروره لأنه قصير الأمد. ولم يكن أناتول فرانس مع هذه الحالة السلبية سيّء السريرة، بل كان قلبه ملآن حنانًا وكانت نتائج قضاياه أشبه بنتائج قضايا "كانت "[٢] والفرق بينهما أنَّ "كانت " كان يقول بالواجب الأدبي وأنَّ فرانس كان لا يعتقده وإنَّما يقول بحركات القلب وعواطفه ".

---

(١) يعنون بالإنسيكلوبيديين العلماء المؤلّفين الذين كتبوا موسوعات العلوم وهيّأوا الثورة الفرنسوية الكبرى وهم دالمبرت وفولتير وروسو ومونتيكو وديديرو. وكانت إدارتها بيد دالمبرت وديديرو، ولدالمبرت عليها مقدِّمة فيها تلخيص فلسفة القرن الثامن عشر.

(٢) الفيلسوف الألماني المشهور وسيأتي ذكره. وقد نقل نيقولا سيغور حديثًا لفرانس عن نظريّات "كانت " في الفلسفة الأخلاقية، فقال: "إنَّ السماوات فاضية وهذا الفضاء يُحزن الإنسان ولكن الإنسان كشف شيئًا أفظع من خلاء السماوات وهو كونه غير مجهّز التجهيز التامّ لمعرفة الحقيقة، وأنه ما قدر أن يرى ولن يقدر أن يرى شيئًا راهنًا أبدًا، فهذا الإدراك الذي وصل به إلى معرفة الفراغ المحيط به هو نفسه إدراك =

وذكرت جريدة «جورنال دو جنيف» كيفيّة نشوء فرانس وأنه اختار لنفسه اسم وطنه[1]، ونقلت عنه هذه الجملة:

«إن كان أتيح لي أن أشعر بلذّة ولادتي في مدينة الأفكار الكريمة فما يكون ذاك إلاّ عندما أطوف على هذه الرصفات بين قصر «پالي بوربون» وكنيسة «نوتردام» حيث الحجارة تكاد تحدث بقصّة من أجمل القصص البشرية وهي تاريخ فرانسة القديمة والحديثة».

وجاء في جريدة «لاسويس»[2] السويسرية ما يأتي من مقالها عنه:

«إنّ فرانس في تطوافه بالأفكار كلّها نبذها واحدًا بعد واحد ولكنّه كان بالعكس من جهة اللغة. فبينما كان اللسان الفرنسي قد بدأ يفسد جاء أناتول فرانس فأقامه على بوانيه. وفي هذا المقام كان شديد المحافظة فلم يشأ أن يخترع شيئًا. وكتب ما لم يكتبه أحد لكنّه حرص أشدّ الحرص لا على زيادة التدقيق والتحجير في اللغة، بل على هذا الإنشاء الأصيل الذي هو حريً بأن تكتب به بدائع الأدب. وبهذا عُدَّ من حافظي اللغة الفرنسية، وأنَّ الذين ينكرون أفكار فرانس كفيلسوف لا يستنكفون أن يقتدوا به ككاتب».

وأمَّا جريدة «الديبا»[3] فقد وصفت أناتول وصفًا لم تجمجم فيه فكرها كجريدة محافظة فقالت من جملة كلامها عليه:

«كان يذهب إلى أنَّ الشرّ شرط في الخير ويصرّح بهذا بحرّية تامّة في كلّ مكان ويبيح كلّ الخلاعات وكسر القيود إلاّ في أمر اللغة فإنَّه لا يعهد أحد بلغ مبلغه من حرمة العنعنات التدريسية».

«وكان كلّما تقدّم في السنّ ازدادت أبيقوريته وضوحًا وأخذ تشكّكه شكلاً آكلاً عبوسًا،

= قاصر لا يستطيع أن يعتمد عليه وأنَّ هو إلاّ تخيّلات واردة من قبيل الحواس. بقي شيء يقال له الوجدان. فالفيلسوف كانت وغيره من الفلاسفة يؤكّدون أنَّ في أنفسنا دعوات جازمة مخلوقة في فطرتنا تهيب بنا إلى الواجب وتوحى إلينا الآداب وتعلّمنا أنه لا يجوز أن نصنع بالآخرين ما لا نريد أن يصنعوه بنا. ورنان كان مصرًّا أيضًا على حكاية المثل الأعلى، ومن بعد أن جحد وجود أقلّ أثر للنيّة الإلهية في العالم حفظ القول بالوجدان النفسي الذي هو في الحقيقة مستلزم للاعتقاد بوجود الصانع، ومثله هذا أشبه ببعض المسيحيين من علماء الفلك الذين لا يزالون مصرّين على الاعتقاد بالدين وممارسة شعائر الكنيسة، وبينما هم يؤكّدون لنا أنَّ النور يقضي مليون سنة حتّى يصل من بعض الكواكب إلينا وأنَّ الشمس وتوابعها تسبح في الفلك منذ مليارات من السنين فأنهم لا يزالون يقولون مقالة ذلك اليهودي القديم التي معناها أنَّ الله خلق الكون في سبعة أيام وأنه أدار الشمس حول الأرض وأنَّ مبدأ الخلق هو من سبعة آلاف سنة لا غير». ومن هنا يعلم القارئ سبب اشتهار فرانس بمذهب الشكّ أو الإلحاد. ومراده باليهودي القديم الذي كتب التوراة.

(١) France.

(٢) La Suisse.

(٣) Journal des Dèbats: من الجرائد الوطنية الشهيرة، هي أميل في صبغتها إلى المحافظة ولها المقام الأول في حسن الإنشاء ودقّة المباحث الأدبية.

وصار يستشهد بأقوال الدكتور «برنيه»[1] الذي كانوا يسمّونه في القرن السابع عشر بـ «الفيلسوف الحلو» والذي كان يكتب إلى «سانت أڤرمون»: «من أعظم الآثام أن يحرم الإنسان نفسه من لذّة» وفي كتاب «ثورة الملائكة» هزأ أناتول فرانس كثيرًا بالنوع الإنساني وكأنه يقول ما قاله ڤولتير: «قد صفع النوع البشري صفعات كثيرة ونحن نزيده على ذلك عدّة كسعات»[2] وممّا قاله أناتول فرانس: «إنَّه ليست العناية الإلهية، بل الشيطان الرجيم هو المحرّك الأول لكلّ حركة رقيّ في العالم».

وقد قام كاتب كاثوليكي شاب اسمه «هنري ماسي» فأظهر ما في «ثورة الملائكة» من المرامي التي يسمّيها اللاهوتيون «روح الخباثة» وأثبت ما ينطوي بين السطور من نيّة إفساد الأخلاق وإن كان مشهد الحياة الحقيقي يفوق في الفساد كلّ ما جاء في مجانات الخلعاء. وهنا يقدر أناتول فرانس أن يجاوب بجواب «موريس بارس»[3] في «بستان برينيس» وهو «نعم، يا سيِّدتي إنَّني قد اتّخذت المجون سبيلاً لأفكاري».

على أنَّ «هنري ماسي» لا ينكر أنَّ أناتول فرانس مع هذا كان يمثّل في الخارج لباب لغتنا وروح صفائها ورقّة شمائلها، ولم يعمل أحد عمله في استرجاع مكانتنا العقلية في أوربة».

ثمَّ ذكرت «الديبا» في عدد ثانٍ تحت عنوان «راسين وأناتول فرانس» ما يأتي مترجمًا بالحرف:

«كلّ مَن له سكّة في الأدب يقرأ بشوق مباحث «غبريال ده هون» في مجلّة «أساتذة القلم» وهي التي يريد أن يثبت بها تأثير أدب راسين في أناتول فرانس أو ما يسمّيه نوعًا من سحر أناتول فرانس ببيان راسين. وقد كان يظنّ أنَّ فرانس قد تغذّى بأدب ڤولتير، ولكن المقاربات العديدة التي أوضحها «ده هون» تثبت بما لا مجال معه للشكّ أنَّ راسين هو الذي كان معبود فرانس. فلم يكن يستظهر كلام راسين عن ظهر قلبه فحسب ـ وهو الذي يخبرنا بذلك ـ لكن العبارات وروابط الجمل والأساليب تجدها في كلامه كلّها راسينية. فراسين هو في الحقيقة مثال فرانس في الإنشاء كان يحفظه غيبًا ويعيده على لسانه ويلتمس عنده كلّ يوم سرّ الخواطر الصائبة والكلمات الصافية.

---

(1) برنيه (Bernier)، سائح إفرنسي طوحت به طوائح الزمن إلى الهند، وكان طبيبًا فاتّخذه السلطان أورنغزيب، إمبراطور الهند، سليل تمرلنك طبيبًا خاصًّا له، وأقام بالهند ١٢ سنة وكانت ولادته سنة ١٦٢٥ ودخل الهند سنة ١٦٥٤ وفي طريقه إلى الهند طاف بسورية ومصر وبعد رجوعه إلى أوروبة زار إنكلترة. وكانت فيه دعابة وحسن خلق وكان له أصحاب كثيرون من جملتهم الشاعران الكبيران لافونتان وبوالو. وهو ممّن اشتغلوا بالفلسفة وله فيها تصانيف. ولكن أشهر كتبه رحلته إلى الهند تعدّ رأسًا في التمحيص. ومات الدكتور برنيه سنة ١٦٨٨.

(2) الكسع ضربك دبر الإنسان بصدر قدمك. وفي الأصل الفرنسي: coup de pied dans le derrière.

(3) موريس بارس (Maurice Barrès)، الكاتب المعروف الذي مات قبل فرانس بقليل، وكان من الكتّاب الكاثوليكيين المحافظين، وقد مرّ ذكره.

فما عمله «ده هون» من جهة راسين يمكن عمله من جهة كتّاب آخرين، وعند ذلك يظهر للملإ أنَّ الإنشاء في الحقيقة هو حفظ بدون تذكّر. ولا يجب أن يحمل ذلك على السرقة. فالسرقة كلمة تافهة ليس لها معنى فيما إذا كانت الصورة وحدها هي موضوع البحث، وصنعة أناتول فرانس إنَّما هي امتلاء خزانة محفوظاته مع حسن النسق كما هي صفحة «اللوفر» أو بلاط فرانسوا الأول.

فلا تجد أناتول فرانس يضع كلمة في محلّ يكون وضعها فيه داعيًا لتوقّف أو تردّد لأنَّ المعاني التي يعطيها كلماته كلّها قد استخرجت من متون لغتنا القديمة. ولك أن تقول إنَّ أناتول فرانس لم يكن مبتدعًا من جهة اللغة كما هو شأن بعض الكتّاب الذين يبدأون بإدهاش قرّائهم بما يبتدعونه من الصيغ الجديدة. وكان راسين نفسه لا يعطي الألفاظ إلاّ معانيها اللغوية الاشتقاقية ويبحث عن تلك المعاني في كتب الأوائل. فيجب أن لا يخلو الزمن من كتّاب محافظين على الأقلّ في المباني لأجل حفظ كيان اللغة. وعدا هذا فقد يكون الإنسان مبدعًا في موضوع أخذه من هنا ومن هناك. وقد حدّثوا أنه في حريق حصل في «قورنثية»[1] ذابت مواعين كثيرة من معادن متنوّعة وامتزج بعضها ببعض فنشأ من هذا المزيج نوع أسمَوه فولاذ قورنثية لم يكن للناس عهد بمثله في النفاسة. فبيان أناتول فرانس هو شبيه بهذه القصّة والمسيو «ده هون» يبيّن لنا أحد مآخذه المعوّل عليها. ولهذا لم تكن لغة أناتول فرانس المحصَّلة من مطالعة الأوائل طراز مجالس لا غير، بل الأشخاص الذين اخترعهم فرانس في قصصه كانوا يتكلّمون جميعًا بلغة عالية[2] لا تشبه كلام المعاصرين، فالمسيو «برجريه»[3] إنَّما كان يتكلّم بلهجة العصر الكبير[4].

وإذا كان أناتول فرانس مدينًا لراسين بكثير من رقّة بيانه، وهو ذلك المعين العذب و«أحسن الشعراء وأعزّهم عليه» فذلك في نثره لا في شعره. إنَّ أناتول فرانس تعاطى القريض في أول عمره ولكنّه لم يكن بحسب قوله ممّن يدرك يومئذ حقيقة راسين. وله في هذا المعنى خطابًا لراسين «كانت عيوني يومئذ أضعف من أن تنظر في عين شعاعك» فهذه الكلمات تحقّق ما ذهب إليه «ده هون» من أنَّ راسين كان عند فرانس إله البيان». انتهى

(١) إحدى مدن يونان الكبرى كانت تناظر أتينا وسبارته.
(٢) ستجد في هذا الكتاب كلامًا لفرانس يذكر فيه اعتراض بعضهم على علوّ لغة أشخاصه وجوابه عن ذلك.
(٣) من أشخاص فرانس وهذا الاَسم Bergeret كان يعنى به نفسه.
(٤) عصر لويس الرابع عشر.

كتاب نيقولا سيغور *
على أناتول فرانس

وضع هذا الرجل مولّفًا يصف فيه فرانس وما عرفه من حقيقة أمره ويأثر عنه كثيرًا ممّا سمعه من آرائه في الحياة والخلق والعلم والسعادة والشقاء وغير ذلك من المواضيع الاجتماعية والفلسفية وسمّاه «محادثات مع أناتول فرانس» أو «هواجس العقل»[1].

فلم نشأ إغفال هذا الكتاب من بين التراجم التي قرأناها لأناتول فرانس علمًا بأنَّ أحسن التواريخ وأوثق التراجم ما كان عن مشاهدة بالعيان وسماع بالآذان. وانتخبنا منه الخلاصة الآتية:

بدأ هذا المؤلّف بالقول إنَّ كثيرًا من الناس يظنّون أنهم عرفوا مؤلّف «تاييس» والحقيقة أنهم لم يعرفوه لأنه كان يخاطب كلّ إنسان على قدر عقله ويقبل أيًّا كان في منزله فلا يتوخّى أن يجعل كلّ مَن دخل منزله مَجْرَسًا[2] يتحدّث إليه بدخيلة نفسه.

كان فرانس دائمًا تحت تأثير غيره سريع القبول سلس القياد بسبب سعة صدره ورقّة قلبه وشدّة طاعته لعادته، فلم يكن يُرى أضعف منه إلاّ في قضيّة واحدة وهي: رأيه. فلم يكن أحد ليزحزحه عنه، وقال لسيغور إحدى المرار:

«إنّني لأذهل عندما أسمع بعض الناس يصفون أحد بكونه أبله. فإنّني أنا أجد الناس طرًّا ألبّاء أي متساوين. وإن وجدت بينهم فروقًا فهي من الدقّة بحيث لا أشعر بها. على كلّ حال لا أرى أشدّ الناس بلهًا هم الذين يظنّ أنهم كذلك».

وقال مرّة أخرى:

ـ فقدت كلّ أمل بأن أتعلّم من أحد شيئًا جديدًا، ولست أعثر على شيء جديد إلاّ في كتاب قديم.

قال سيغور: كان فرانس نسيج وحده فذًّا في نوعه بسبب حدّة ذكائه وشفوف فكرته. فقد كان شفّاف البصيرة إلى الدرجة التي نغّصت عيشه وسمّت صفوه. ولم يكن مالكًا عادة

---

* نيقولا سيغور (Nicola Ségur)، من كتّاب الفرنسيس، له عدّة كتب في القصص ويظهر أنه كان صديقًا لأناتول فرانس.

(١) ومعناه «محادثات مع أناتول فرانس» أو «بلابل العقل» Conversations avec Anatole France, ou, Inqiétudes de l'intelligence.

(٢) فلان مجرس لفلان أي يستأنس بالحديث إليه.

الانخداع بألاعيب الطبيعة. جاء إلى هذه الدنيا ليكون ذا حظّ في لعبها فحسرت له عن وجه لعوب طائشة مكشوفة السرّ. وعرف أنَّ الناس إن هم إلاّ عبيد القدر محكوم عليهم بأن يحيوا محيّىً لا يعرفون له مبدأ ولا معادًا. وأنهم غير قاطعيه إلاّ بالألم والبكاء. ولم تعتّم إن افتضحت أمام عينيه أكاذيب الاجتماع الإنساني وخُدَع الحواس التي منها تتولّد مسرّاتنا المحزنة وآلامنا المضحكة، فظهرت له المخلوقات كما هي عليه وتجلّت له دائمًا لا بصورها الخلاّبة، بل بما هي مجهّزة به من الميول والشهوات وسرعة الوقوع في الخطإ. ورأى الناس يعيشون بدون عقل منطقي ولا نظر في العواقب جهلاء متهوّرين سذّجًا فخورين قساة مفترسين لا يبرحون جياعًا أو مترفين، وكان كأن شعاعًا فوق الطبيعة يجعل أمامه الحياة والإنسان أبدًا بصورة قفص عظام.

وإذ أردنا تعريف عمله لم نزِد على أنه بحث نظّار إلى أعظم مسائل الكون من جهتها السلبية. فكان شغله اللهو بهذه الأشباح العظيمة التي أطربت الإنسانية أو أرهبتها. وكانت أماني الوصول إلى الحقيقة وسرّ العدالة العميق وكنه الفضيلة المشوبة بالرثاء وحلم خلود النفس وقواعد الحبّ الواهية ووساوس العقائد هي المواضيع التي قضى حياته في تشريحها وهدمها.

وهل يوجد بلاء أعظم من عجز الإنسان عن الرؤيا اللذيذة؟ كلاّ، فإنَّه لا سبيل إلى مذاق طعم السعادة إلاّ بقبول الستر الذي تتلفّف به الأشياء.

وأناتول فرانس لم يستطع ذلك أبدًا لأنه لم يكن يقدر أن يتغذّى بالكذب فبقي طول عمره جائعًا.

لم يذُق لماظًا من السرور إلاّ في أيام صباه. ثمَّ لم يكن أسرع من فقده قوّة النسيان وشهوة العمل التي تقتضي هدفًا مقصودًا لهذه الحياة فعاش بدون نسيان ولا سلوان حاملاً في نفسه فكرته العظيمة المذيبة كما تحمل الثمرة في وسطها الدودة التي تقرضها.

لم يكن محبورًا ولا حزينًا. ولمّا رأى نفسه منفصلاً عن الحاضر حاول أن يخدع نفسه بمراجعة الماضي. وكانت تآليف البشر تبدو له حقيرة ملأى بالغلط والهوى والأماني فلم يجدها لائقة بأن تروق الرجل الحكيم، وإنَّما كان يسلّي نفسه بقراءتها التماسًا للذهل وكانت صواحبه الموحيات إليه هي خوالج الرثاء وخواطر الاستهزاء، أمَّا الرثاء فلكلّ ما تتحمّل هذه الإنسانية من الألم والبؤس، وأمَّا الاستهزاء فبما في هذه الدنيا من الكذب والسخف. وبالجملة لم تدع له طبيعة فكره سبيلاً إلى الأماني والأحلام، ولا استطاع كما استطاع رنان أن يتخيّل وجدانًا مرسومًا وغاية مقصودة ولا أن يترقّب ملكوت الإنسان الأكمل. كلاّ، لم يكن ممّن يقدر أن ينحت الأصنام.

خوى باطنه من كلّ شيء وتسأّل ما يشبع به عقله فلم يجد، فلم يقدر أن يثمل بما يثمل به سائر الناس. قيل إنَّ السجن الذي كان «سرڤانت» يكتب فيه قصّة الدون كيشوط[١] قد فاق حمراء غرناطة[٢] وقصر الأسكوريال[٣] بما كان يملأه من قوّة الخيال. أمَّا المكتبة البديعة التي كان فرانس ينشئ بها قصصه فكانت غارًا مظلمًا من حقائق أحوال الدنيا تختلج فيها الأشباح الباطلة التي يتمثّل بها هذا الوجود المحزن. فالعبقريّة التي أوتيها فرانس هي التي هدمت كيانه، فقد أعطته من بُعد النظر ولطف الشعور ما صيرت الحياة له عذابًا. ولكنّه كما أنَّ الطير إذا حُبس في القفص ازداد حنينه وشجنه وبذلك ازداد تغريده، فإنَّ هذا الرجل في قفص عزلته الروحية أتى بأشجى الأنغام التي يتصوّرها البشر. عرف أنَّ معاشرته للناس لن تكون إلاّ سطحية، فالتجأ في أكثر الأحايين إلى الأشباح جاعلاً حياته نوعًا من السياحة في القرون الماضية، ناثرًا قوّة بيانه الساحر وطبعه الشاعر على العلم والتاريخ، مؤثرًا من المواضيع أغمضها، متبطِّنًا من العقليّات البشرية أبعدها وأقدمها، عائشًا مع الآباء الأوّلين يبغي في الاختلاط بهم تتبُّع سير الحركة الفكرية في العالم. ولم يكن اَلتجاؤه إلى الماضي على ظنّ أنَّ الماضي كان أسعد من الحاضر، بل لأنَّ البُعد والإنقضاء وفقد التفاصيل وتعذّر الجزم خصال تُظهر الماضي بمظهر شيء من الجمال.

ولم يكن تعاطيه حرفة الأدب إلاّ نتيجة انقطاع أمله من كلّ شيء، فصار القلم عنده أداة لهو ومعزف تطريب يلتمس به الرويحة ممّا هو فيه من الألم وينشد السلوى عمّا يلحّ به من السأم وكأنه من قبيل الأفيون الذي يخرج فيه المرء من ضيق عزلته ويندر من دِخلة نفسه.

فهذا كان سلاحه الوحيد في مقاتلة ما كان يساوره من الهموم، ولهذا كان يميل إليه ميلة واحدة فيظهر جوهره في تآليفه وأحاديثه في مجالسه بما يحيّر العقول أحيانًا. فمَن يسمعه يتكلّم عندما يكون شيطانه هائجًا يظنّ نفسه مسحورًا ويشعر من تأثير خطابه أكثر ممّا يشعر من تأثير كتابه. فكان ساحرًا عليمًا ينثر الأنوار على الكائنات ويفسّر الحوادث والرجال بتفاسير مبتكرة

---

(١) سيأتي ذكرها.

(٢) قصر الحمراء الذي هو من مفاخر الحضارة العربية الباهرة الآثار، بل من مفاخر الدنيا لا تزال السيّاح من أطراف العالم تقصده إلى اليوم، وهو في الحقيقة عدّة قصور يكاد يكون بجملته مدينة. ومركز الحمراء على رأس ربوة مشرفة على غرناطة ووراءها جنّة العريف الذي يقول لها الإفرنج برطانتهم «جنراليف» وهو قصر تحف به حدائق وجنان فيحاء، وفي الحمراء عدّة قاعات تأخذ بالأبصار أشهرها قاعة الأسود التي فيها اثنا عشر أسدًا وقاعة بني سراج. وفي ترجمتنا لرواية آخر بني سراج تأليف شاتوبريان، وخلاصة تاريخ الأندلس التي جعلناها ذيلاً للرواية، كلام طويل على الحمراء. وأول مَن بنى الحمراء محمَّد بن يوسف بن نصر، المعروف بابن الأحمر سلطان غرناطة. وسمّيت بالحمراء نسبة إلى هذا البيت المنسوب إلى الخزرج الأنصار. ويقال إنَّ بناءها انتهى في سنة ١٣٣٨.

(٣) Exurial: قصر بناه فيليب الثاني، ملك إسبانية، سنة ١٥٦٧ بقرب مادريد وفاء لنذر نذره في حربه مع الفرنسيس ولم يتمّ بناؤه إلى سنة ١٥٨٤ وهو قصر ملكي وكنيسة ودير قيل إنَّ فيه ٢٢ ساحة و٤٠ ألف نافذة وثمانية آلاف باب وإنَّ الكنيسة فيها ٤٠ مذبحًا وإنَّه كان في الدير ٢٠٠ راهب.

لا عهد للناس بها ويسخّر لإرادته الفكَر والصور ويلعب بالأشياء لعب الرُّقاة والمشعوذين. وفي مثل تلك السويعات فقط كانت تتجلّى لك روح أناتول فرانس.

وذكر «سيغور» من خاطرات رحلتهم إلى أثينا نوادر عديدة من جملتها المحاضرة الآتية التي تدلّ على أنَّ القائلين بأنَّ أناتول فرانس كان وثنيّ المشرب عدميّ المعتقد لم يكونوا مبالغين. نُقل عنه عندما كانوا في الأخربة التي بأعلى أثينا L'acropole:

«كنت أودّ أن أعثر هنا على الحجر الشهير المقدّس باَسم الإله غير المنظور وهو الذي فاضت له كل ذلك الفيض فصاحة مار بولس. حقًّا، كانت ساعة في منتهى الفكاهة تلك الساعة الجليلة المضحكة التي وقف بها ذلك القدّيس الصغير ينادي عابري السبيل وحكماء أثينا بأنه هو قد عرف الإله المجهول. فلم يستمع قوله أحد. وكان الأثينيون يرون من قبيل صدى البوم أن يحدّثهم الإنسان لا سيّما بهذه النغمة المنكرة عن إله جديد. فكانوا يهزأون به قائلين «سنسمع البقيّة غدًا» فانصرف من أثينا خزيان آسفًا. ولكن هذا اليهودي الصغير كان حاملاً بيده المستقبل، فإنَّه لم يزَل حتّى نصب إله العبرانيين القديم وأدونيس فلسطين الحزين [١] بمكان آلهة يونان المشرقة».

فقلت له:

«أمَّا في الدين فلم أرَ اليونانيين أتوا بشيء يُذكر، فإنَّ تصوّراتهم الدينية بعيدة عن الطهر، وإنَّ هؤلاء الآلهة نراهم في شهواتهم شرًّا من البشر».

فقال:

«إنَّك لم تزِد على ذكر ما يكرّره الأغبياء من قديم الزمان تملّقًا وتلذّذًا بالخيال. يريدون أن تكون عقيدتنا خيرًا من الوثنية فيؤمنون بما يشتهون. أفلا ترى أنَّ عجز اليهود عن تمثيل الطبيعة المختلفة للناظر بالرموز المختلفة الأنواع هو الذي قادهم إلى هذا التوحيد الذي كان يطريه المسيو رنان. ولعمري، لا أفهم لماذا يجب إطراؤهم إلى هذا الحدّ على كونهم لم يخترعوا إلاّ إلهًا واحدًا. بل أرى اليونانيين أوسع فهمًا للألوهية بتصوّرها في جميع مظاهرها، فقد جعلوا رمزًا

(١) أدونيس (Adonis)، شابّ يوناني كان في أساطير يونان رمزًا للجمال التامّ. وهو هنا يقصد به السيِّد المسيح، صلوات الله عليه وسلامه. وما نظنّ أناتول فرانس عدا ميله إلى الوثنية اليونانية إلاّ محبًّا للمعارضة والمناقصة وإلاّ فأيّ مقايسة تجوز بين ما أتى به عيسى، عليه السلام، وبشّر به بولس وبين أساطير يونان المضحكة وبين القول بالإله الواحد الأحد الذي لا تدركه الأبصار والذي تقرّ به البصائر وبين الآلهة المتعدّدة التي لا تراها الأبصار ولا تفهمها البصائر «يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار» فإن كان أناتول فرانس يرى تعدّد الآلهة ألذّ في الخيال وأحلى في التصوير، فالدين شيء والفنون الجميلة شيء آخر، وما خرجت الأساطير مع حلاوتها عن كونها أساطير.

للريح التي تهبّ ورمزًا للطير التي تغرّد ورمزًا للسماء المزيّنة بالكواكب ورمزًا للجمال، وهلمّ جرًا. وكلّ شيء ذُهلت له عقولهم تصوّروا له مثالاً حيًا[1].

«وأحسن ما يعجبني منهم أنهم خُلقوا آلهة فاسقين متخبّطين في أعمالهم قاسطين متهوّرين، أي آلهة مخلوقين على صور البشر. فأظهروا بذلك أنهم على أتو[2] سديد. وكانت آلهتهم مقبولة محمولة. حال كون الإله الذي نعبده فطرنا على الشهوات وأوجد فينا كلّ هوىً ثمَّ أمرنا بأن نكون متطهّرين[3] ثمَّ أنذرنا بأننا إن اقترفنا الإثم يكون مأوانا جهنّم أو المطهر[4] مع أنه سوّى كلّ شيء ليجعلنا صائرين إلى هناك لا محالة».

«أمَّا اليونانيون فلم يخلطوا الفضيلة بالدين ولا أدخلوا الأخلاق في الدين ـ وهي أشياء اخترعها البشر من تلقاء أنفسهم ليزدادوا راحة في التعايش والتعاشر ـ وإنَّما اخترعوا «أولنبًا»[5] يأوى إليه آلهة فائقون للبشر في الجمال والقوّة ـ وهما من الصفات البشرية ـ لا فائقون للبشر في الفضائل والآداب وهي من الأمور الاصطلاحية التي تواطأ عليها الناس حال كونها خلاف الطبيعة».

وقال «سيغور»:

طالما تردّدت على «مغنى سعيد» حيث كان العلماء والأدباء والكتّاب والصحفيون والساسة ورجال الدولة يتردّدون ويقصفون ويأكلون ويشربون، وكانت كلّ يوم أربعاء عند فرانس مأدبة يدعو إليها نفرًا من أصحابه ويسمع الناس منه أحاديث وحكايات قلّما يحسن مثلها

---

(١) علّل بعض علماء أوربة توحيد الساميين بأنه نتيجة وحدة المناظر لأنَّ أكثر بلادهم صحارٍ وفيافٍ يشبه بعضها بعضًا، وأنّ إشراك اليونانيين وتعدّد الآلهة عندهم السبب فيها اختلاف المناظر التي وقعت عليها أبصارهم من برّ وبحرٍ وجزرٍ وخلجٍ ممّا لا يحصيه عدد، فأوجد فيهم عقيدة تعدّد الأرباب. ويرد على هذا كون تعدّد الآلهة وُجد في الشرق وعرفه الساميون وأنَّ اختلاف المناظر ثابت لكثير من مساكن الأمم السامية. فالاستدلال بقضيّة المناظر على التوحيد وعدمه ضعيف. ولكن علماء أوربة مولعون بالتعليل مهما كان، وقد ينتهي الأمر بمَن يكثرون التعليل إلى أن لا يعلّلوا شيئًا.

(٢) طريقة (الناشر).

(٣) نعم، إذ لولا قابليّة الشهوات لَما كان هناك فضل في التطهير ولكانت العفّة أمرًا طبيعيًا لا يستحقّ صاحبها الثواب. وغير صحيح أنّ الأهواء التي جُبل عليها الإنسان لا بدّ من أن تهوي به في الإثم، فإنَّ الغلبة في هذه المعركة وإن كانت صعبة فليست بمستحيلة. لا سيّما أنَّ الشرائع جعلت من الطيّبات الحلال ما فيه مندوحة عن الحرام. وأمّا برهان أناتول فرانس هنا فهو من نمط كلمات العشّاق المستهترين، مثل قول القائل:

وتأمرنا بغضّ الطرف عنه	كأنك ما خلقت لنا عيونًا
إلهي ليس للعشّاق ذنب	فإنَّك أنت تبلو العاشقينا

وهي نكات شعراء لا براهين حكماء. وقد حذفنا كثيرًا من الألفاظ التي استعملها في هذا المقام.

(٤) المطهر عند الكاثوليكيين هو مكان يمحص به مَن لم يستحقّوا الخلود في النار.

(٥) Olympe: سماء آلهة يونان.

أحد، فيلبث سامعه مبهوتًا مأخوذًا بسحر كلامه. وكما يقال عن بعض السحرة أنهم يعزمون على الجنّ فيستحضرونهم، يقال عن أناتول فرانس أنه يستحضر رجال الماضي وينشر النوابغ الغابرين وكبريات السيّدات والقدّيسين المعروفين أو المجهولين وعلماء دور التجدّد [١] في إيطالية ومصوّري الطليان المتميّزين وجميع دهاة القرن السابع عشر وأدبائه المتفوّقين. وكان يعزم أيضًا على يونان البعيدة ورومة القديمة والشرق النائي ويلبس كلاًّ من الأشخاص الذين ينشرهم ثوبًا غريبًا وزيًّا قشيبًا ويجعله للناظرين، فكان ينفق من خزانة فكر ملأى من الصور الشعرية بعبارة لا يدنو وصفها لقلم واصف مهما أجاد وأبدع في لطف النسج ودقّة الخيط. وكنت تسمع منه ما لم تجد به قريحة أديب من الكلمات الخلاّبة والألفاظ الطريفة والمقايسات القريبة والكنايات المطابقة مع عمق الغور وسطوع اللون، وهو ينشر فوق هذه البدائع كلّها ديباج دعابته ومزاجه.

وكان حبّ المخالفة عزيزًا على قلب فرانس [٢] فكان ينظر إلى الحقائق من أفق أعلى من الأفق الذي ينظر به سائر الناس ولا يشقّ غباره في هذا المجال. ومرّة خاطب أمامي "پول هرڤيو" [٣] في أمر الاشتراكية، فقال:

"لا آمل أن يكون للاشتراكية في زماننا دور طويل لأنَّ الاشتراكيين كثيرو العدد حال كون ذوي رؤوس الأموال فئة محدودة، وهذه هي قوّتها فإنَّها تقدر أن تجتمع وتتفاهم وتحلّ وتبرم بدون أن يعرقل عملها الأغمار الثقلاء. وهي تعمل في السرّ صابرة مفكّرة بدون ضوضاء ولا جراهية [٤]. والقوم الملاء [٥] ينافحون عن ثروتهم وعن كلّ ما يملكون فتراهم مستبسلين في المعركة، يرصّون صفوفهم ويصرّون بأسنانهم حال كون الشعب الصعلوك لا يخسر إلاّ ما ليس في يده فيعوزه النظام ويقاتل بمهجه عن أحلام وأماني ومقال جرائد وآمال مستقبلة لا عن أوراق بنوك. ولا عن حجج تملُّك ولا عن مساكن ولا عن حلي ولا عن حظايا حسان ولا عن سيّارات كهربائية... فحرارته تسرع إلى الفتور ومجرّد الجلبة لا ينفعه.

وجرى مرّة ذكر "دافنيس" و"شلوي" [٦]، فقال:

"هو ذا لص أدب مقبول فقد نسب تأليفه إليه بسبب نسخه إيّاه فيما يظهر، والحقيقة أنَّ

---

(١) La Renaissance: وقد جرى ذكر هذا الدور.

(٢) هذا الذي يتجلّى من أكثر كلام هذا الرجل وهو مخالفة ما عليه الجمهور والاستدلال بالحقّ وبالباطل والاستعانة بالأساليب الخطابية، على كون ما اعتمده الناس إلى اليوم على أنه هو الواقع أو الواجب لم يكن كذلك، فكأنَّ غرامه إنَّما هو في حلّ الأوضاع ونقض القواعد.

(٣) بول هرفيو (Paul Hervieu)، قاصّ مجيد ومؤلّف روائي قويّ العارضة جليّ البيان له عدّة تآليف ممتعة، (١٨٥٧ _ ١٩١٥).

(٤) جلبة (الناشر).

(٥) المليء: الغني المقتدر، وجمعه مِلاء ككرام ومُلئاء كشرفاء ولملئاء كانصباء وقد اخترتها بمقابلة لفظة Bourgois الفرنسية أو Buirger الألمانية.

(٦) Daphnis et Chloé: قصّة رعائية لكاتب يوناني اسمه "لونغوس" (Longus)، من رجال القرن الرابع ق. م.، أفرغها في قالب ساذج عذب لكنّه لم يتجنّب فيها المجون الصريح المقشّر.

كتابه يجب أن يكون غُفْلاً. لأنَّ "لونغوس" شنَّ الغارة على جميع شعراء يونان الذين انقطعت أخبارهم وجمع من كلامهم هذا الكتاب فجاء سلسلة سرقات وفسيفساء اختلاسات من هنا ومن هناك. فلنهنّئه على ما فعل إذ كم كانت تفقد لطائف وتنطوي لذاذات لو لا هذا اللص".

ثمَّ التفت إلى "هرڤيو"، فقال له:

"أليس كذلك يا هرڤيو؟ أفليست قضيّة السرقات التي جاءنا بها القرن التاسع عشر من المحالات؟ فقد كانت المواضيع في الماضي ملكًا مباحًا للجميع يأخذ كلّ منها ما يشتهيه. نعم، كانت السرقة معروفة لكن كان يقال سارق لمَن يسرق ولا يحسن السرقة [1] أو لمَن يسيء تحويل الصورة. ولهذا أقول إنَّ "كورنايل" [2] لم يكن سارقًا في أخذه أفكار "غويلهم دو كاسترو" [3] وابتكاراته وإعطائها رونقًا وجزالةً لم تكونا لها. كذلك "موليير" الذي أحبّه أنا أكثر من كورنايل لم يزِد على أنَّ مسخ كتاب "البورلادور" تأليف "تيرسو دو مولينا" [4] وجرّد منه شخصًا سُخَرة.

"والحقّ أننا بأجمعنا سُرّاق إذا أردنا أن نأتي بشيء مستجاد. فإنَّنا لا نقدر أن نبرز فكرة جليلة لامعة ولا أن نعبّر عن حالة راهنة بدون أن نسرق من أحد على علم أو بدون علم. وإنّما الفرق هو في صنعة الاستراق. فلا شكّ أنَّ "ساردو" [5] يقال له "سارق" وأنَّ "شكسبير" لا يسمّى

---

(١) العرب من قبل أناتول فرانس قالوا: مَن استرق شيئًا وقد استرقّه فقد استحقّه.

(٢) سيأتي ذكره.

(٣) غويلهم دو كاسترو (Castro)، كاتب تمثيلي إسبانيولي من بلنسية ـ بلد الحافظ ابن الأبّار القضاعي البلنسي، الفقيه الأديب الشهير. كتب كتابًا اسمه "شباب السيِّد" ولا يخفى أنَّ السيِّد هو لفظة عربية أُطلقت على الذريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو. من رؤساء مملكة قشتالة ومن أعظم أبطال الإسبانيول الذين قاتلوا المسلمين أشدّ قتال وأفحشوا فيهم النكايات لا سيّما مع ما اشتهر من تخاذلهم وقيام بعضهم على بعض. وكانت بلنسية من المدن التي افتتحها السيِّد فقد حصرها عشرين شهرًا ولمّا لم يبقَ فيها منّة على الدفاع عوّل أهلها على الصلح ودخلها السيِّد صلحًا وكان واليها القاضي أبو أحمد بن حجاف، وقيل لا بل كان واليها القاضي أحمد بن جعفر المعافرى، وقد استعهد من السيِّد أن لا يضرّ بالبلد، والسيِّد أخذ بذلك العهد على نفسه فلم تكد خيله تطأ البلد حتّى أحرقها وعاث فيها واتّخذ حجّة لذلك كونه طلب من القاضي أن يدلّه على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون فماطله في تسليمها أو الدلالة عليها. وأحرق السيِّد كثيرًا من أهل بلنسية، منهم أبو جعفر بن البناء، الشاعر المشهور، وأحرق القاضي نفسه الذي تجنّى عليه بأنه لم يدفع إليه تلك الذخيرة. وارتكب السيِّد فظائع كثيرة في بلنسية وغيرها. ومع هذا اتّخذه الإسبانيول علمًا للبطولة والفروسية وعلوّ النفس، وألّف "كاسترو" هذا المتوفّى سنة ١٦٣١. كتابًا ترجم فيه مناقب السيِّد وأخذ عنه "كورنايل" في روايته الموسومة بالسيِّد. وأكثر ما نحلوه إيّاه من الفضائل كذب وبهتان. ولقب السيِّد عند العرب القنطور تحريف الكميدور. وكان حرقه لبلنسية سنة ٤٨٨ هجرية.

(٤) تيرسو دو مولينا (Tirso de Molina)، عالِم إسبانيولي مؤلّف روايات تشخيصية، ولد في مجريط أو مادريد سنة ١٥٨٥ وصار قسّيسًا سنة ١٦٢٠ وله تآليف كثيرة روائية لم يتحاشَ فيها المجون ولكنّه أبدى فيها براعة تامّة ومن جملة كتبه المشهورة "بورلادور إشبيلة" الذي يشير أناتول فرانس إلى أنَّ موليير حوّله عن أصل ما وُضع له. ومات تيرسو دو مولينا سنة ١٦٤٨.

(٥) ساردو (Sardou)، مؤلّف روائي إفرنسي مولود في باريز سنة ١٨٣١ وكانت وفاته سنة ١٩٠٨ وله روايات مضحكة ومآسٍ كلّها مستحسن.

سارقًا مع أنه أسرق من ساردو بكثير. وهذا بالنظر إلى فقد ساردو المهارة فيما يستعيره. أمَّا شكسبير فكان يغير على كلّ الناس ولكن بحذق ولباقة».

❁ ❁ ❁

وروى «سيغور» أنَّ سيِّدة من جنوب أميركا من أجذب الحسان ملامح وأملكهنّ للقلوب دخلت على فرانس وهو في مكتبته في «مغنى سعيد» وكان الفصل ربيعًا والوقت ضاحكًا، فقام فرانس وتناول يدها وقبّلها بحرمة زائدة ولكن بإمعان زائد أيضًا. وكانت تدّعي الأدب وأناتول فرانس يتظاهر بأنه يقدّر قدر فصاحتها، والصحيح أنه لم يكن يهمّه منها سوى حلاوة عينيها. وكانت ترتضخ في الفرنسية لهجة أميريكية فيها جفاء الأميريكيين القدماء. فأخبرتنا ذلك النهار بأنَّ شابًّا صحّ له أن ينفرد بها وأنه عند ذلك خلا من التوقير اللازم تجاهها وأتى بحركات تدلّ على أنه من ذوي الإقدام...

فهتف بها فرانس قائلاً:

ـ آه يا سيِّدتي، لماذا لا تتركين لنساء العالم القديم هذه الأوهام؟ فأيّ توقير وحرمة للجمال أعظم من اشتهائه؟ اسمحي لي أن أروي لك ما كانت تقوله سيّدة إسبانيولية كانت منذ مائتَي سنة وقد فهمت أكثر منّا قضايا الحبّ. فقالت لإحدى صواحباتها مرّة إنَّها لو وجدت وحدها مع رجل بدون ثالث بينهما ولم تجد هذا الرجل تهالك عليها طامعًا فيها لعدّت ذلك منه غضاضةً من قدرها وطعنته بخنجر. ولسوء الحظّ كانت مربّيتها دائمًا معها لا تفارقها فلم تلح فرصة لأحد أن يبدي لها الحرمة الوحيدة التي كانت تراها لائقة بجمالها. فأنت يا سيِّدتي لماذا أنت حريصة كلّ هذا الحرص على الحرمة والتوقير؟ رويدك، فإنَّ هذا الوقار الذي تنشدينه سيأتيك بعد مائة سنة ـ لأنَّ جمالاً كجمالك سيعمَّر على الأقلّ مائة سنة[1] ـ فإذا مضى على جمالك هذا العدد من السنين انثال عليك التوقير من كلّ جهة وذقت حينئذٍ مرارة هاتيك الحرمة... أمَّا الآن فدعي الناس يشتهونك، فإن وجدت الشبّان مفتونين بكِ فارأفي بهم وبجنونهم. أفظننت أنَّ الطبيعة أعطتك هذه اللواحظ الدعج وهذه الجبهة الوضّاءة وهذا الثغر الذي يلتقط القُبَل وهي طائرة لأجل مجرّد الحرمة والحشمة؟

فنظرت إليه الأميركية حيرى، وقالت:

ـ أفلو كنت متزوّجًا كنت ترضى أن تكون امرأتك محلاً للحرمة بهذا الشكل؟

(١) من هنا تعرف أنَّ الأستاذ يمزح.

فقال لها:

ـ أكون أشدّ غيرةً من الإمبراطور بطرس الأكبر؟

والتفت نحوي وقال: أفلا ترى أنه لا يمكن المرء إمبراطوريًا أكثر من الإمبراطور ولا أغير على الحريم من قيصر الروسيّات كلّها؟ أفتعلم ماذا فعل بطرس الأكبر في حادثة تشبه هذه؟ سأقصّ عليك. كان عند بطرس الأكبر في حاشيته مُجَلْوِز[1] بريتوني يقال له «ڤيلروا» فكان مرّة معه في لهو وقصف وأراد أن يرسل إلى زوجته الإمبراطورة كاترينة خبرًا مهمًّا مستعجلاً فاختار للرسالة هذا البريتوني، وكان ڤيلروا قد كرع مقدارًا من العرقي فامتطى جواده وقصد القصر الإمبراطوري وأخبر على الباب أنَّ معه كتابًا محرمًا من الإمبراطور إلى الإمبراطورة، فاضطرّوا أن يوصلوه إلى الإمبراطورة، وصادف أنها كانت مضطجعة على سريرها فلمّا دخل ڤيلروا وكان العرقي قد دار في دماغه وشعر بحرارة الموقد وشمّ الطيب الذي يفوح عادةً في غرف السيِّدات ووقع نظره على ذلك الجسم المنيف الناعم، وكانت كاترين كما هو معلوم ريّا الخلق شطبة[2]، فنسي ڤيلروا المهمّة التي جاء بها ونسي الدنيا بأصبارها ووقع كأنَّما غاب عن الرشد. ولمّا بلغ الإمبراطور ما أصاب ڤيلروا، قال: لا عجب أن يجنّ الإنسان وقد رأى كاترين، فلو كنت محلّ ڤيلروا لأصابني ما أصابه، وقد أمر بوضع ڤيلروا في الحبس محافظة على الظاهر وما مضت بضعة أشهر حتّى أطلق سراحه».

«فكوني يا سيِّدتي إنسانةً ولا تخشي الإهانة إلاّ من الأيام». انتهى بتصرُّف

وذكر «سيغور» كثرة مَن كانوا ينتابون «مغنى سعيد» فقال إنَّه كان لأناتول فرانس غاشية لا يكادون يفارقونه. ثمَّ يأتيه من غير هؤلاء عدد من السيِّدات العقائل الرصينات ومن الغواني النواعم، ثمَّ كثير من الصحفيين القدماء والشبّان الأدباء والمرشّحين للأكادمي والقُصّاص والقاصّات والشعراء والشواعر والجرّاحيين المشهورين والفلاسفة النفسيين وأصحاب المطابع وصدور الرسّامين وفرسان النقاشة وترى شابًّا متخصّصًا في علم الميكروب وآخر من الإخصّائيين في الآثار الأشورية.

وعدا هؤلاء كان يأتي الفينة بعد الفينة[3] من المشهورين أضراب «جوريس»[4] و«طومسون»[5]

(١) المجلوز: الذي يخفّ بين يدَي الأمير.
(٢) الشطبة، بالفتح فسكون: الطويلة الحسنة.
(٣) لقيته الفينة بعد الفينة أي مرّة كل مدّة.
(٤) زعيم الاشتراكيين الفرنسويين له ترجمة في محلّ آخر.
(٥) عالِم إنكليزي.

و"كليمنسو"[1] و"بريان"[2] و"لوتي"[3] و"سولي برودوم"[4] و"لودفيك هاليفي"[5] و"ميشل بريال"[6] وكان لودفيك هاليفي شيخًا رقيق الحاشية خافض الصوت يحدّثنا بحكايات مطربة عن أيامه الماضية وكذلك اللغوي "بريال" كان شيخًا أقوَس كبر حتّى كأنه قُفّة ولم يبقَ فيه شيء حديد سوى بصره فكان يخبرنا عمّا كشفه من تاريخ القصائد الهوميرية.

فحدّث ولا حرج عمّا دار في ذلك المغنى من الأحاديث المستعذبة والأقاويل المستملحة والمحاضرات العالية إذ كان مجمعًا يندوه سلاطين الأذكياء وفرسان الكلام ممّن امتاز بالظرف الباريزي الأخلص أو بالظرف على الإطلاق. ولا أظنّ مجلسًا آخر يعوّض من هذا المجلس الذي كان أبهى مشرق لشعاع الذكاء فيما عرفنا.

وكان مؤلّف "تاييس" يتكلّم بدون انقطاع ويلذّه أن يتحدّث بما يعنّ له من الخواطر بدون انتباه إلى السامعين. وكان يجول في ميدان السياسة والفنّ والأدب والتاريخ ويأتي فيها بالمخالفات التي لا تجيء في بال أحد ويحشو محاضراته بالنكات والنوادر.

وإنّني لأتذكّر عشاءً كان فيه كليمنسو وقد جارى فرانس في حسن المحاضرة وروى لنا قصصًا

---

(١) كليمنسو (Clemenceau)، من أشهر رجال السياسة وأقواهم عارضة وأسرعهم بديهة وأحماهم أنفًا وأصلبهم عودًا، ترأّس مدّة مديدة حزب الراديكال في المجلس ودخل في الوزارة رئيسًا لها وثاني مرّة كانت رئاسته سنة ١٩١٧ أثناء الحرب الكبرى. وتمّ انتصار الحلفاء في أيامه فكنّوه في فرنسة بأبي النصر. وهو الذي مثّل فرنسة في مؤتمر الصلح. ولكن رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية بعد انتهاء مدّة بوانكاره فمال أكثر رجال البرلمان والسنات إلى المسيو دشانل للين عريكته وملاءمته لرئاسة الجمهورية أكثر من كليمنسو الذي كانوا يرون صلابته التي أفادت في الحرب قد تضرّ في السلم. وكان كليمنسو في أول مرّة ووسطه مفرطًا في السياسة اللادينية وعدوًّا لحزب المحافظين إلاّ أنَّ سيرته أثناء الحرب استمالت إليه هذا الحزب فرضوا عنه. وكانت ولادة كليمنسو في مقاطعة "فاندي" وقد بلغ اليوم من العمر السادسة والثمانين.

(٢) من أشهر وزراء فرنسة وأذكى أذكيائها وأفصح خطبائها وأعقل سواسها وأكثرهم حنكة تولّى رئاسة الوزارة ستّ مرّات. وسنة ١٩٢٢ أراد أن يتّفق مع لويد جورج على طريقة لتأمين فرنسة من هجوم الألمانيين في المستقبل، فرأى الفرنسيس يومئذٍ وجه الاتّفاق الذي قرّره بريان غير وافٍ بالمراد ونحّوه من الوزارة وجاءوا ببوانكاره. وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ عادوا يلتمسون على يد بريان ما كانوا رفضوه من قبل. وهو اليوم يعالج هذه القضيّة مع إنكلترة بما فيها من المشكلات التي لا تنحلّ من جهة إلاّ تعقّدت من أخرى. عرفت بريان في جنيف في العام الماضي.

(٣) لوتي (Pierre Loti)، اسمه الأصلي جوليان فيو، و"بيار لوتي" اسمه التأليفي. كان ضابطًا في البحرية، ولد سنة ١٨٥٠ وهو من أكتب كتّاب الفرنسيس وأرقّهم شعورًا وأبدعهم تصويرًا وأبعدهم مدى فصاحة لا سيّما في الأشجان وشفف الحبّ وذكرى العهود وكان في أسلوبه هذا لا يباريه أحد. وصادف أنَّ البارحة التي كان فيها رست مدّة في الأستانة فتعرّف إلى الأتراك ومال قلبه إليهم وأحبّهم حبًّا جمًّا بقي عليه إلى أن توفّي وذلك منذ سنتين. وحمله هذا الحبّ على النضال عن الأتراك في جميع معاركهم السياسة وله في ذلك كتابات لا يبليها الجديدان. وكان يميل إلى الشرق وإلى السلام أجمع. ونقلت جريدة الطان عنه أنه في أوان احتضاره سئل: أيّ الشعوب أحبّ إليه. فقال: العرب، لأنهم من آلاف السنين لم يتغيّروا.

(٤) سولي برودوم (Sully Prudhomme)، شاعر إفرنسي كبير، ولد سنة ١٨٣٩ ومات سنة ١٩٠٧، وكان القول مذللاً له في وصف خوالج النفس وعواطف القلب وتضمّن شعره كثيرًا من الفلسفة.

(٥) لودفيك هاليفي (Ludvic Halévy)، أديب إفرنسي مؤلّف قصص وروايات هزلية عذبة، كان عضوًا في الأكادمي، (١٨٣٤ ـ ١٩٠٨).

(٦) ميشل بريال (Michel Brèal)، عالِم لغوي إفرنسي له تحقيقات جليلة في أصول اللغات وفي علم الأساطير اليونانية، (١٨٣٢ـ١٩١٥).

سياسية وحكايات صحفية في غاية الحلاوة وحدّث عن «كارلسباد»[1] والخلائق التي تختلف إليها.

وأتذكّر عشاء آخر على أثر تغلُّب اليابان على الروس أشار فيه فرانس إلى الخطر الأصفر. وقال إنَّ الصين هي في دور انتقال وما دام الصينيون يحكّون أنوفهم عند السلام ويلبسون الأبيض للحداد ويؤدون إلى الطبيب الأجرة عن السنين التي لا يكونون فيها مرضى، ويأكلون أعشاش الطيور من دون الطيور ويعملون كلّ الأمور بالعكس فنحن في أمان ولكن متى ارتفع استعمال الحصير من الصين فقد دنا أجل أوروبة».

فأهابت به السيِّدة العقيلة وكانت تكره ذكر الأخطار البعيدة والقريبة، وقالت له: إنَّك تخلق أشباحًا من العدم. أفلا ترى كيف أنَّ شرذمة من الأوربيين على أثر خطبة حماسية ألقاها غليوم[2] دخلوا بكين برغم الملايين والملايين... إلخ.

فقال لها:

ـ إنَّ أحسن الأشياء لا بدّ أن تنتهي إلى أجل يا سيِّدتي. وإنَّ مدنيّتنا قد بهرت عقول الصفر فتراهم يتحرّقون حتّى يصيروا مثلنا، فإذا صاروا مثلنا تذكّروا «جنكيز خان»[3] و«تمرلنك»[4].

(١) Carlsbad: بلدة لطيفة يقصدها الناس من أطراف الأرض للاستحمام، كانت من مملكة لنمسا وهي اليوم تابعة تشيكو سلوفاكيا.

(٢) غليوم (Guillaume II)، إمبراطور الألمان وملك بروسية ابن فريدريك الثالث ابن غليوم الأول والألمان يقولون له ويلهلم. وكانت والدة ويلهلم الثاني ابنة فيكتوريا، ملكة الإنكليز. وولد سنة ١٨٥٩ وتولّى الملك سنة ١٨٨٨ ونزل عن العرش في أواخر الحرب سنة ١٩١٨ على أثر ثورة الاشتراكيين والشيوعيين في برلين، ولاعتقاد رجال الحكومة الألمانية وقتئذٍ أنهم بإقصائه عن الملك يخفّفون من حدّة الحلفاء الغالبين ويهوّنون شروط الصلح. فخاب أملهم هذا فيما خاب به الأمل من برنامج ويلسون وعصبة الأمم وغيرهما. وأمّا الإمبراطور فاقام بهولاندة وبدا للحلفاء مرّة أن يأخذوه من هولانده ويحاكموه فعرفوا أنَّ الحكومة الهولاندية تأبى تسليمه بعد أن التجأ إليها فلهذا وغيره تركوا هذه الفكرة.

(٣) مؤسّس السلطنة المغولية الأولى، ولد سنة ١١٥٤ ومات سنة ١٢٢٧ وقيل ولد سنة ١١٥٥ وقيل سنة ١١٦٢، وكان من أمراء التتر أي المغول وكان أبوه قائدًا همامًا وعند موته كان جنكيز في الثالثة عشرة من عمره ولكن منذ الصغر لاحت عليه مخايل الذكاء والبأس وصار قائدًا من قوّاد ملك ملوك الصين ثمَّ انتقض على مولاه وزحف بخيل كالجراد المنتشر فاستولى على بكين عاصمة الصين سنة ١٢١٢ وبعد أن استوسق له الأمر غزا آسية الوسطى فدوخها كلّها إلى حدود سلطنة خوارزم، ثمَّ قصدت جيوشه محمودًا، سلطان هذه المملكة، واستولت على بلاده وطاردته إلى المازرندان والعراق العجمي، ثمَّ دخلت القوقاس وفرّ من وجهها كلّ مَن هناك من الأهالي الجركس والقبجاق وانهزم أمراء الروس في واقعة دنيبر سنة ١٢٢٣ ومات محمود، سلطان خوارزم، شريدًا في جزيرة ببحر الخزر وخلَفه ابنه جلال الدين وأثخن في المغول مرارًا لأنه كان بطلاً مغوارًا إلاّ أنه اضطرّ أخيرًا أن يفرّ إلى البنجاب والهند. واستولى جنكيز على قسم كبير من مملكة الصين ومات في حصار عاصمة «هيا» وكان قسم المملكة بين أولاده الأربعة «تشوتشي» و«جغطاي» و«أوقوطاي» و«تولوي» وأوصاهم أن يكملوا فتح العالم. أمّا المخلوقات التي أبادها في غزواته والأمصار التي دمّرها والعمران الذي نقضه فممّا لم يرَه الراءون ولا رواه الراوون. وكانت عساكره تستأصل العاصي والطائع بدون استثناء. وهو الذي أخنى على أكثر مدنيّة الشرق ولا يحمد من أمره إلاّ إعطاؤه الحرّية للأديان وتنظيمه شرطة شديدة الضبط في داخل سلطنته.

(٤) ويقال له تيمور من النمط عينه وهو سلالة جنكيز من جهة النساء، ولد سنة ١٣٣٥ ومات سنة ١٤٠٥، دخل أولاً في خدمة سلطان كاشغر ثمَّ فتح بلاد ما وراء النهر بعد حروب أثبت فيها إقدامه وحزمه وأصيب في إحدى الوقائع برجله فأصبح أعرج، وسنة ١٣٧٠ بويع بالسلطنة في محفل من أمراء التتر ووضع هو التاج على رأسه بيده وجعل عاصمته سمرقند ثمَّ استولى على خراسان سنة ١٣٨٠ ثمَّ أغار =

فقالت له السيِّدة:

ـ أتخاف المدنيّة إلى هذا الحدّ؟.

فقال لها:

ـ لا أخافها وإنَّما أقول إنَّها الصاحبة الأمينة للحرب. ولا يوجد أمم غير محاربة إلاّ الأمم الساكنة الغافلة، فإذا بدأت الأمّة تهتف بالتقدّم لم تلبث أن تتناول السلاح. فالحضارة والحرب شيئان متلازمان.

❁ ❁ ❁

وكنّا عنده مرّة وقد حضر الاجتماع كثير من السيِّدات فأخذ يتدفّق كالبحر، ومن جملة ما قال: «إنَّ سرّ الكون هو الحبّ. فهو أساس الفنون والآداب ولأجله وُجدت الحرب ونيل المجد وهو الذي زيّن هذا العالم. فإنَّ الطبيعة في ذاتها لا حسنة ولا قبيحة، بل هي كما هي. وإنَّما حواس البشر هي التي تخلع عليها الحسن والقبح. فنحن ننظر إلى الأشياء بحسب حالتنا النفسية، فأحيانًا نشاهد أنوارًا مشرقة وأحيانًا ظلالاً مظلمة على لوح الطبيعة وهو باقٍ على جموده وعدم شعوره. فمتى اهتاج بنا الشوق أو متى كنّا في عنفوان الشباب وأخذ هذا السيال المغناطيسي يصدر عن المرأة فتنتعش له قلوبنا، ظهر الكون لأعيننا لامعًا جذّابًا غريضًا محبوبًا جديرًا بأن نرغب فيه، بل أن نتعشّقه».

قال هذا ثمَّ التفت إلى الزائرة الحسناء، وقال:

«ولمّا كانت المرأة هي التي بيدها زمام التصرّف بالقلوب فالمرء هو طوع يدها لا يملك معها مجيئًا ولا ذهابًا. فالرجال هم بطبيعتهم عبيد النساء. فأنا مثلاً أراني منبوذًا بالعراء مهملاً مُقمَحًا مُنظَرًا وأنت لا تبالين بي يا سيِّدتي».

= على فارس واستولى على أصبهان وشيراز وتبريز وقارص وتفليس، وقهر القبجاق وبلغ جبال الألتاي في الشمال واجتاز الأورال وطارد «طوقتاميش»، سلطان القبجاق وعاد إلى سمرقند. ثمَّ انتقضت عليه فارس ففتحها ثانية ودخل القوقاس وسار بأربعمائة ألف مقاتل في أثر طوقتاميش فغلبه وأمعن في الغزو إلى موسكو وأرسل حفيده محمودًا لغزو بولونية ودوخ جنوب روسيا وخرّب استرخان وبحجّة إظهار الإسلام ـ لأنَّ جنكيز كان مسلمًا شيعيًا ـ غزا الهند وبعد أن افتتح جانبًا منها عاد إلى فارس والأناضول واستصرخه ملك القسطنطينية على بايزيد ابن عثمان فزحف إليه قيل بثمانمائة ألف مقاتل وأخذه أسيرًا وضمَّ ملك ابن عثمان إلى ممالكه، وسنة ١٤٠٠ خرّب سورية لا سيّما دمشق وبعلبك وألهمه الله الإبقاء على حلب وسنة ١٤٠٤ عاد إلى سمرقند وتهيّأ لفتح الصين ففاجأته المنيّة وخلَفه الله شاه رخ. فأنت ترى أنه لم يقصّر في الفتح والغزو والقتل والتدمير عن جدّه جنكيز، بل ربّما زاد عليه.

فهتفت السيِّدة الزائرة وقد اعتراها الدهش:

ـ ماذا تقول؟ أنت تعلم عظيم حرمتي لك وأنني نذرت لك محبّتي كلّها.

فأخذ الأستاذ يدها ورفعها بكلّ وقار وقبّلها طويلاً، وقال لها:

«محبّتك كلّها؟ إنَّ محبّة المرأة كلّها هي بالنسبة إلى المرأة نظير ما يعطي روتشيلد قطعتين من البطاطا».

ثمَّ عاد فرانس، فقال لي:

«كلاّ، يا سيِّدي ليست الغلمة[1] هي سرّ الكون. وما سرّ الكون إلاّ الألم. فالألم هو مدار هذه الحياة الدنيا ونحن نصنع منه كلّ يوم بدون انقطاع فلهذا هو بلاؤنا وجحيمنا ولكنّه علاؤنا ونهوضنا. فإذا كان الإنسان يجيد فلا يجيد إلاّ بالتعب والبكاء. فلو وُجد سعيدًا لم يصنع شيئًا. فلو وُجد موفّقًا لَما تقدّم إلى الأمام. وكلّ مخلوق في الدنيا لا بدّ له من قاعدة يدوس عليها ليرتفع. وهذه القاعدة هي الألم. فالديانة المسيحية التي وجدت هذه العبارة الساحرة «طوبى للحزناء» قد استولت بها على جميع البائسين، أي على العالم. أمَّا الغلمة فهي ميّارة[2] عظيمة للألم. وليس ذلك بقليل».

وممّا قاله لنا في مجلس آخر:

«الجمال هو من جملة الاشراك العديدة التي تنصبها لنا الطبيعة لتحملنا على طاعتها. وهو السبب الأعظم الذي يتلألأ به لعلع الحبّ. فلا يجب أن نحذّره إذ لو احترزنا منه فبماذا نثق يا ترى؟ فالواجب هو أن نلقي بمقاليدنا إلى الجمال ونلتمس عنده دينًا وطريقة ومنهجًا للسعادة. فهناك هي النجاة إذ هناك هو السلوان. لا جرم أنه ليس بسهلٍ خروج المرء من نفسه. ولكن إن كان من أمل في الوصول إلى هذا الأمر فلن يكون إلاّ بالجمال الذي بالنظر إليه ننسى الحياة وما فيها. فالجمال هو الأفيون الأعلى وهو ينبوع الفنون والآداب ومصدر كلّ ما أنشأه الإنسان من عظيم وبديع وما يحقّ له أن يفتخر به. فالجمال إذًا هو ثمن العالم. إنَّ الذي أوجد خيال الحياة وألقى بنا هنا قد جعل لنا الجمال إقطاعًا ومكّننا من أن نحلم ونعشق ونهيم، وبهذا عاضنا ممّا عَنِتْنا[3]. وإن أمكن كشف غاية الوجود في يوم من الدهر فلا تكون إلاّ غاية عائدة إلى الحسن والتناسب».

---

(١) الغُلمة: أن يغلب المرء شهوة وهي تقابل volupté.

(٢) جالبة الميرة أي الطعام (الناشر).

(٣) أي ممّا لقينا من الشدّة والمشقّة (الناشر).

وكنّا مرّة عنده على غذاء في منزله بشارع «هوش» فبعد إنَّ طعم الأضياف أحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر وشرعوا يستنبطون غوره والحديث شجون فسألوه: لماذا الكنيسة ترتاح إلى التقشّف وقهر النفس؟

فقال:

«إنَّ الكنيسة في الحقيقة قد ادّخرت خزائن العفو للخاطئات كمريم المجدلية وتاييس... إلخ، وليس ذلك بداعٍ إلى العجب. فالكنيسة لا تكره عمل البدن وإنّما تكره التلذّذ به. ومن الثابت أنَّ كثيرًا من الغواني لا يتعاطين البغاء لمجرّد اللذّة، بل لضرورة المعيشة وللفرار من الانتحار. وقتل النفس أعظم من الفسق. ثمَّ إنَّ البغيّ تمارس فضيلة التواضع وناهيك بها من فضيلة. وتتصدّق بكلّ ما تملكه ولا تبخل بشيء، وهل من إحسان فوق ما تحسن به؟ وهي توقع الآخرين في الإثم فتجعل لهم سبيلاً إلى الندم. فالكنيسة لا ترى في مثل هذه عدوًّا» [1].

ثمَّ قال أحد الحاضرين:

ـ لماذا تكره الكنيسة اللذّات؟.

فأجاب الأستاذ:

«لأسباب عديدة. فإنَّ الديانة لا محلّ لها لولا العذاب والشقاء، وإنَّ أكثر جيش المتديّنين مؤلّف من البائسين الذين ألحّت بهم الآلام وأطرحتهم الأرض وجفتهم المسرّات. وهذا عدا كون عقيدة الصليب ظهرت في زمان كانت أنواع الآلام برّحت فيه بالعالم قبيل سقوط السلطنة الرومانية. فكان أشدّ الناس رغبةً فيها العبيد والفقراء الذين فاتتهم الدنيا فانتظروا الآخرة. ثمَّ إنَّ جميع آلات الكنيسة تدور على محور الخطيئة. فهي حجر الزاوية في الدين. وسواء كان الدين المسيحي أو غيره من الأديان، فقوام الجميع التطهّر والتوبة. فيجب أن يكون للإنسان خطايا حتّى يتطهّر منها ويُغفر له فعند ذلك يذهب مضطرًّا إلى الكنيسة ويحتاج إلى رجالها ويصلّي ويؤمن. من جرّاء هذا أعلنت الكنيسة أنَّ كلّ ما يستهوي قلب الإنسان يستغويه. وكانت الديانات الأخرى قبل النصرانية قد فهمت هذه الضرورة وصاحبي «سلمون ريناخ»، الذي هو بمكان من الألمعية، لا بل من النكر والمكر، قد قرّر أنَّ الديانة الأولى [2] كانت مبنيّة كلّها على بعض نواهٍ وتحريمات. فالوصايا العشر كلّها: لا تفعل هذا ولا تصنع هذا... إلخ.

---

(١) وهنا منزع من منازعه المعروفة في مناقضة ما عليه الرأي العامّ.

(٢) يشير إلى شريعة موسى، عليه السلام، وأمّا صاحبه ريناخ فيهودي.

فلا يخالط الإنسان قلب الكنيسة إلاّ متى لم ينته بنواهيها. فيجب أن يكون المرء خاطئًا قبل أن يكون مسيحيًا وإلاّ كان قدّيسًا. وإذا كان قدّيسًا لم تهمّه الكنيسة. فالكنيسة لا تعيش بالقدّيسين وإنّما تعيش بجيش الخطأة العديد. وإنّ الشيطان الرجيم هو المجنِّد الأكبر بين يدَي الكنيسة».

❁ ❁ ❁

وتكلّم مرّة أخرى أيضًا عن الأديان، فذكر المذهب اليزيدي الذي فيه عبادة الشيطان، فقال:

ـ أخذت تفاصيل هذه العقيدة عن سائح إنكليزي كان ينقِّب عن الآثار في بابل القديمة [1] فقال إنَّ أهلها أهدأ وأودع أقوام آسية وإنَّ أطوارهم ملكية ولو كانوا يعبدون الشيطان.

وقد سأل الإنكليزي الكاهن الأكبر للمذهب الشيطاني: لماذا يعبدون الشيطان من دون الرحمن؟

فقال الكاهن، ولله درّه: لأنَّ الله رحمن رحيم كريم فلا يصدر عنه الشرّ. ويكون صدور الشرّ عنه مخالفًا لجوهر طبيعته، بل هو موجود للكرم والرحمة والعفو. فلا حاجة بنا إلى أن نصلّي له، إذ لا نخاف ضرره. بخلاف الآخر، فإنّه خنّاس مترّع [2] إلى الشرّ سيّء النيّة فلا يصطلح إلاّ بكثرة الخضوع والبكاء والرجاء.

ولهذا تجد هؤلاء القوم المستبصرين يضحّون له بالقرابين ولا يلفظون اسمه. وسها السائح الإنكليزي مرّة أمام الكاهن فلعن الشيطان في حدّة اعترته، فما أتمّ كلمته حتّى وقع الكاهن مغشيًا عليه وخيف أن يُصعَق. وإنَّ هذه العادة بعدم ذكر أسماء المعبودات، هي قديمة جدًّا عند جميع الأمم، ممّا يؤكّد لنا أنَّ أصل الديانات هو الخوف. انتهى

قال سيغور:

وذهبنا مرّة إلى قصر ڤرساي وكان الأستاذ ومعه السيِّدة العقيلة، فصرنا نطوف بالأبهاء والمقاصر ونتأمّل ونتذكّر فالتفت فرانس وقال: «إنَّ سيغور يريد أن يهدم الخرافات القديمة بشرط أن لا تمسّ الخيال الشعري فإنّه شاعر قبل كلّ شيء. وأيضًا هو يحبّ الحقيقة والحسن. أمّا أنا

(١) قرأت في القاموس الإنسيكلوبيذي لغريغوار (L. Grégoire) الذي أتمه موريس فال (Maurice Vahl) ما يفيد أنَّ أتباع هذا المذهب منهم في كردستان التركي وكردستان الفارسي وأرمينية الروسية، وأنَّ منهم في الصين وفي جزيرة العرب وأنَّ مجموعهم خمسون ألفًا.

(٢) متسرّع (الناشر).

فبدون تردُّد أوثر الأساطير على التاريخ. لأنَّ الأساطير ليست أعرق في الوهم من التواريخ[١] ولأنَّ الأساطير مرتّبة محرّرة بشكل يعجب السامع أكثر من تاريخ الوقائع ».

❁ ❁ ❁

ثمَّ ورد ذكر لويس الرابع عشر، فقال فرانس:

« ماذا كان في الحقيقة ذلك الملك العظيم؟ لا أتعمّد الغضّ منه ولا أذكر إلغاءه أمر نانت[٢] إذ لست مرائيًا وأعلم أنه تابع في ذلك وقته. وإنَّما أقول عن هذا الملك العظيم إنَّ هو إلاّ رجل صغير شديد الهوى فخور الطبع، ليس فيه من مزيّة سوى كونه قد فهم قوّة التقاليد، فأظهر الجلال ليحمل الناس على الإجلال.

ولكي تقدّس الرعيّة أمر الملك بدأ هو نفسه بالتقديس. وإذا تروّى المفكّر في أمره رآه قديم العهد نائي العصر جدًّا، كأنَّما هو معاصر لشارلمان من وجوه عديدة ».

وبينما نحن نطوف وصلنا أمام الأعمدة القورنتية التي أمام قصر « تريانون »[٣] الصغير، فقال مؤلّف « تاييس »:

« إنَّ ما عمله « ميرابو »[٤] و« روبسبيير »[٥] بتقاليد المملكة لا يُحسب شيئًا في جانب ما خرّبه هذا الفلاّح الصغير « روسو »[٦] من أبنية الأدب. فإنَّ غارة الكتابة القصصية كانت أشدّ وأهول من كلّ صرخات الثوّار، لا بل النظام الاجتماعي بعد الانقلاب بقي كما هو تقريبًا، أمَّا نظام الأدب اللغوي فقد انحلّت أوضاعه.

فإنَّ روسو بسط أمامنا عيوبه ونقائصه الشخصية وطفق يحدّثنا بنفسه عن نفسه. وهذا الجفاء البرّي الذي أخذه روسو من منبته القروي والذي يفرّ منه راسين مذعورًا ويقنّع منه وجهه كورنايل حياءً، صار هو الطريقة المتّبعة في كلّ أوربة. ذهبت طريقة القرن السابع عشر المهذّبة التي لا شأن لها في زيد وعمرو، بل في الإنسان من حيث هو وحلّ محلّها طريقة هؤلاء

---

(١) يبالغ في التنظير بين الأسطورة والتاريخ لِما يعلمه من كثرة دخول الأكاذيب في التاريخ.

(٢) الذي حظر بإلغائه وجود البروتستانت في فرانسة.

(٣) Trianon: اسم قصرَين في فرساي، أحدهما يقال له تريانون الكبير بناه لويس الرابع عشر والثاني الصغير بناه لويس الخامس عشر.

(٤) سيأتي ذكره.

(٥) سيجيء مجمل خبره أيضًا.

(٦) جان جاك روسو، وفي حواشي هذا الكتاب كلمة عنه وعن ابتداعه طريقة القصص المسمّات بالرومانتيسم مخالفة للأسلوب المدرسي الصحيح.

المحدثين، الذين يريدون أن يخبرونا بحالات أنفسهم. وأغرب من هذا أنَّ الناس يظنّون أنَّ أصحاب هذه الطريقة المحدثة هم أشدّ شعورًا وأحيا نفوسًا من الأصوليين المدرسيين، ذلك لأنَّ المحدثين أشدّ صراخًا وأكثر إشارات وأنهم يحدّثون بأسرار حياتهم ويفضون بعجرهم وبجرهم».

ثمَّ قال:

«ليس بجفاء الصوت وكثرة الحركات بلا انتظام يتمّ الإعراب عن درجة شعور الزمن الذي أنت فيه. وإنَّما تقاس درجة الشعور بدرجة التناسب والانسجام في البيان. فالقرن التاسع عشر بشاتوبريان وهوغو [1] قد فقد عنعنة الإحساس البشري الحقيقي. وهي وحدها التي تصلح أن تكون مادّة للأدب اللغوي، كما أنه فقد عنعنة اللفظ أيضًا».

فقلت له: يظهر لي أنَّ شاتوبريان كان منشئًا. فتبسّم وقال:

«ما أحد عرف في القرن التاسع عشر أن يكون منشئًا، والذين يظنّ أنهم سروات الكتّاب هم أذنابهم. فإنَّ هؤلاء متعلّمون متكلّفون، تجدهم بعيدين جدًّا عن عصر راسين، بل عن عصر ڤولتير. ومزيّة اللغة الفرنسية في الدور الجيّد هي السهولة والإبانة. فالكاتب المعدود من الطبقة الثانية من القرن السابع عشر يكتب ألف مرّة من جهة اللغة أحسن من شاتوبريان. وليس مرادي بهذا أنه لا يوجد أدنى براعة في عصرنا، فأنا من أهل هذا العصر ولا يجوز لي أن أحقره. وإنَّما أقول إنَّ بيننا وبين الماضي هوّة سحيقة».

فأردت أن أبيّن أنَّ اللغة تتغيّر في ضمن التغيّر العامّ. فلم ينتبه لكلامي على عادته بعدم الانتباه لكلام مَن يتحدّث معه. ثمَّ قال:

«إنَّ تاريخ اللغة الفرنسية بسيط. فهي لغة متغذّية بمخّ اللاتيني واليوناني وفي دور التجدّد الأوروبي، أثمرت أحسن شماريخها بكتابات «رابليه» و«مونتانيه» [2]، وكانت يومئذٍ أوفر موادَّ وأكثر أنواعًا في التعبير وأسلس قيادًا تحت اقتضاء تفنّن المواضيع. لكنّها لم تكن رست على أصل ولم تكن لها هويّة معيّنة، بل كانت عيالاً على الينابيع التي تستقي منها. فالقرن السابع عشر جرّدها وشذّب أغصانها الملتفّة وأعطاها شخصيّة معروفة وأفرغها في قالب التناسب واللطافة. أمَّا القرن التاسع عشر بثورته فلم يحسن أن يردّ عليها المادّة التي خسرتها وإنَّما أدخل فيها ألفاظًا طنّانة وقعاقع بدون أن يقدر على إدخالها في جهازها العضوي... إلخ».

(١) وارد ذكرهما في موضع آخر.
(٢) سيرد ذكرهما.

وسنة ١٩٠٣ كان الاحتفال بنصب تمثال رنان في وطنه وخطب فرانس خطبته الشهيرة، وبينما نحن هناك أمتع بأحاديث كثيرة. فسألته مرّة: هل عرفت رنان كثيرًا يا سيِّدي فرانس؟ فقال:

«لم يكن من السهل معرفة رنان كثيرًا لأنه كان متواضعًا جدًّا وغائبًا غالبًا. وإنَّما تلاقيت معه كثيرًا. لم يكن رنان يحفل بالأدب وكان يظنّ أنني أُحسن غير هذا الطرز ويرغّبني في المباحث التاريخية. وأظنّ أنه لم يكن ليقيم وزنًا للفوج الجديد. فكان ينظر إلينا نظره إلى أولاد طائشين. والذي أمدحه في رنان هو استقامته ونزاهته وحرمته للعلم ودروس العلم. كان يبحث وينقر عن مفتاح السرّ الأعظم وهو يعلم أنه لن يجده. كان حكيمًا تامًّا.

كنّا نستغرب أطواره إلى حدّ أنَّ «لومتر» هذا المجنون كان كثير المداعبة له وأشبه بتلميذ ذي جرأة على معلّمه. مع أنَّ لومتر كان في نفسه مفتونًا برنان». ثمَّ قال:

«إنَّ رنان كاتب سيعيش ذكره بحسن إنشائه وسحر بيانه وطور معيشته الفلسفية. أمَّا متانة بنائه التاريخي فلا أعتقد بها. فالتاريخ هو كما وصفه رنان مجموع افتراضات والافتراضات تتجدّد دائمًا. فكتاب «حياة يسوع» يشيخ من يوم إلى يوم ويفنى من جهة موضوعه. ولكنّي واثق بأنَّ الناس سيقرأون أبدًا «حياة يسوع» كما يقرأون خطبة «بوسويه» في التاريخ العامّ، وكلاهما مقصود من أجل البلاغة لا من أجل التاريخ».

ثمَّ سكت هنيهةً، وقال:

«إنَّ ما لا أحبّه كثيرًا في رنان هو شدّة يقينه في العلم، فهو أكبر ممثّل للقَصص العلمي الذي تعلّقت به آمال كثيرين من بني عصره. وهي فتنة كريمة في نفسها لكنّها لا تخرج عن تبدّل الخيال بالخيال. فإنَّ العلم ليس إلاّ صورةً من صور جهالتنا. وهي أحسن الصور التي نعلم بها أننا لا نعلم شيئًا. وليس له ثمرةٌ سوى إعطائنا نظّارات مكبِّرة يتّسع لها نظرنا إلى سعة الجهل الهائل، الذي نجهله لِما حولنا من العوالم. فالعلم لسوء الطالع لا يقدر أن ينشر شعاعه إلاّ على العالم الذي نملكه في أنفسنا. وهو العالم الوحيد الذي يقع تحت حواسنا. أمّا العوالم التي نجهلها والتي تحيط بنا فستبقى أسرارها غامضة علينا إلى الأبد. فالعلم لا يزيد على أن يكوّن جانبًا من أوهامنا والسلام.

وقد وقف رنان موقفًا حميدًا بإزاء المعجزة. فهو يرفض الاعتقاد بها ويصيب المرمى بذلك ولكنّه يدحضها من جهة التجربة والعلم وليس هذا بيت القصيد. فالمعجزة ليست معجزة إلاّ بكونها تخرج عن قانون العلم ولا يمكن تعليلها. وليس من العدل إنكار وجود الظلّ لأنه يغيب

بمجرّد انتشار النور. وبعد فقد يكون إنكار العلم للمعجزة بسبب كون علمنا ناقصًا. وربّما وُجد في الماضي علم طبائع يعين على بعض الحيل ويُري الشيء بغير صورته وهذا العلم قد انقرض. خذ لك مثالاً: تحوُّل الحشرات الذي من جهل ناموسه عدّه من المعجزات. فالدودة التي تصير فراشة يوقع شأنها الناظر في الحيرة حتّى يتفهّم الناموس الطبيعي في هذا التحوّل. ولنفرض أنه بعد ألف سنة انقرضت مدنيّتنا الحاضرة ـ وليس ذلك بعجيب نظرًا لتزايد الغباوة يومًا فيومًا ـ وسمع أحفادنا بأنه في الماضي، أي اليوم، كان آباؤهم يتكالمون من باريز إلى نيويورك بسلك من معدن فلا شكّ أنهم يحسبون الخبر خرافة. فيكون أحفادنا على هذا التقدير مخطئين. وهذه الأعجوبة الكهربائية صارت اليوم غير عجيبة ولكنّها أيام «كالفاني»[1] كانت من الأعاجيب التي تسبي العقول».

فقلت له: إذًا أنت تعتقد بالمعجزات، فقال: كلاّ، لا أعتقد بها، ولكنّي لا أفتخر بردّها. وأرى عدم الاعتقاد بها ليس بشيء. وأظنّ أنَّ المسيو رنان كان لا يخلو من شيء من البأو[2] في قضيّة إنكارها».

۞ ۞ ۞

قال سيغور:

«وكان فرانس تحوّل من مدّة طويلة اشتراكيًا وقبل هذه الدعوة بكلّ إيمان وإيقان. فإنّه كان يضطرب كثيرًا لعذاب البشر ولعذاب العجماوات وللعذاب على الإطلاق.

ومع كلّ ما كان يظهر عليه من السكون والفتور ومن كونه لا يستطار لشيء كان ينقلب نارًا حمراء في منع الضرر ومعالجة الألم، فلم أعهد أرقّ منه قلبًا ولا أوفر حنانًا مستورًا. وقد تبلغ به الرحمة أن لا يقدر على رؤية المرضى والبائسين فيفرّ من مشاهدتهم. وقد يحيك في قلبه تصوّر الظلم ومصائب الناس فتفيض عيناه بالدمع.

وعلى هذا، أخذ يذب عن الاشتراكية ويعضد دعوتها. ولكنَّه بسعة إدراكه لم يكن يخفى عليه صعوبة تطبيقها كما يهوى اتّباعها فيقع له أن يتولّى هو الاعتراض على بعض مشكلاتها.

---

(١) كالفاني (Galvani)، حكيم طبائعي طبيب، ولد في بولونيا من إيطالية سنة ١٧٣٧ وقفه الاتّفاق على مبدأ الكهربائية بأنَّ أحد تلامذته
شاهد مرّة ضفدعًا مقتولاً يتخبّط كثيرًا بقرب قطعة من حديد فقتلوا عدّة ضفادع ووضعوها في طنف من حديد وسلكوها بسفافيد من
نحاس، فلحظوا أنَّ هذه الضفادع كانت ترتعش بصورة مدهشة كلّما احتكّت أطرافها بالحديد، ومن هناك انتبهوا لوجود الكهربائية في
الأجسام.

(٢) الفخر (الناشر).

وكان فرانس يحبّ جوريس كثيرًا وجوريس يحبّه. وعندما قتل جوريس حزن عليه فرانس حزنًا شديدًا. وطالما شهدت مجالسهما الممتعة، فأتذكّر أننا كنّا مرّة عند العقيلة وكان جوريس مدعوًّا. فتناول فرانس بحث الاشتراكية، فقال:

«الاشتراكية توجب العمل وتجبر كلاًّ أن يأتي بكلّ ما يقدر عليه، أمّا فيما سوى هذا فلا مناص من الملاءمة بحسب الضرورات. والهيئة الاجتماعية المستقبلة هي بين أمرين، فإمّا أن تموت وإمّا أن تعدل عن الحرّية والمساواة. فإنّ الحرّية ليست في الطبيعة، ولا مفرّ من أن نحسب حساب الضعف البشري. وإذا استمررنا على المطالبة بالمساواة التامّة، فقد جعلنا هذه المساواة حجر عثرة في طريق المجتمع الآتي». ثمّ التفت إلى جوريس، وقال: «ويجب عليكم أن تفكّروا في إيجاد مركز للتفوّق العقلي والنبوغ في مدنيّتكم المستقبلة».

فقال جوريس:

«بعد أن تصير الأرض مطبّقة كلّها بالعمل وتصبح الحياة سمحة بإلغاء عهد المظالم، فالسعادة تساعد الناس على حرمة النبوغ وتفوّق العقول ولا يكون هذا التفوّق ثقيل الوطأة».

فقال فرانس:

«نعم، إلاّ أنّ هذا الأمر ليس بسهل. فإنّ الأمّة ليست في الحقيقة إلاّ عبارة عن أفذاذ معدودين. وأنّ أوربة كلّها ليست إلاّ عددًا محدودًا من الرجال، يفكّرون ويفعلون أكثر من الباقين. وقد ذهب رنان إلى أبعد من هذا فقال: ليس السواد الأعظم إلاّ كالأرض القابلة للنبات التي تنحصر فائدتها في حفظ الأشجار الباسقة. وقد أرتنا الطبيعة أنها صانع غير صناع اليد، فإنّها تقدّم لنا ألوفًا من النسخ لا فائدة فيها ولا محلّ لها من الإعراب إلاّ السبيل لوجود مثال متقن من ألوف».

ثمّ عاد فنظر إلى جوريس نظر مَن يقصد مداعبته، فقال:

«من البين أنّ تحوّل الأنواع الحيّة لا يطابق المساواة. فنظرية «داروين»[1] في الانتخاب التي هي مفتاح التاريخ الطبيعي أو التاريخ بالإجمال، كلّ اعتمادها على الفروق. والمخلوقات لا

(١) داروين (Darwin)، عالِم طبيعي إنكليزي، ولد سنة ١٨٠٩ هو صاحب كتاب «أصل الأنواع بطريقة الانتخاب الطبيعي»، ظهر هذا الكتاب في لندرة سنة ١٨٥٩ وتُرجم في مدّة قريبة إلى جميع اللغات، وقد أبرز هذا المذهب إلى قرّاء العربية الفيلسوف الدكتور شبلي الشميل. وزبدة نظرية داروين أنّ النوع الذي يدخل عليه التغيّر بيد الإنسان يكون إذًا بطبيعته قابلاً للتغيير. وأنّ ما قدر المربّي أن يعمله تقدر الطبيعة أن تعمله تحت تأثير علّة هي الاختيار الطبيعيّ. وأنّ الحيوانات والنباتات تظهر بصورة لا محيد فيها من التنازع على البقاء، فالذي يبقى هو الأصلح، وهذا الأصلح الأمتن يورث سلالته الخواص التي ضمنت له الفوز على نظرائه وهكذا يتكوّن ما يسمّى بالنوع. وكتب داروين كتبًا عديدة. وخالفه فلاسفة كثيرون ووافقه آخرون. ومذهبه مشهور في الشرق، وقد سبق للعرب أنهم أشاروا إلى مبادئ هذا المذهب، فابن خلدون يذكر أنّ أرقى أفق في الجماد متّصل بأدنى أفق من النبات وأرقى أفق من النبات مختلط بأدنى أفق من الحيوان، ممّا يؤدّي إلى كون المخلوقات سلسلة. ومات داروين سنة ١٨٨٢.

تترقّى إلاّ بالبُعد عن المساواة. ثمّ متى خرجت الحياة من دور الاختلاط خلقت أشخاصًا يزدادون كمالاً بالامتيازات التي يحصل عليها أقواهم وأصلحهم وأقدرهم على التوليد. وفي توفيقها الأخير الذي هو ظهور الإنسان على الأرض كانت سنّة الانتخاب التي تسمّى سنّة الأفراد بإزاء الجماعات هي سبب الارتقاء، وإنّ في تاريخ الهيئات الاجتماعية وتواريخ الفنون والآداب والاختراعات براهين على أنه لا سبيل لوجود شيء عظيم إلاّ بوجود المتفوّقين والأمثلين، فالتفوّق هو نقيض التساوي وهو مفتاح البناء. وربّما كان هذا هو منشأ السائق الوجداني الذي يحفّز الإنسان الوارث لعدم المساواة من أدوار طويلة، على أن يحاول التملّص منها دائمًا».

فقال جوريس وقد عيل صبره من كثرة ما سمع:

«يا مسيو فرانس، ليست المسئلة مسئلة تسوية الأشخاص وإنّما هي تسوية الحقوق وتسوية درجات الرفاهية وتوزيع العدل بالسوية وإيتاء كلّ أحد قسطه من الهناء».

فقال فرانس:

«لست في الحقيقة ناظرًا إلاّ إلى الأدب والفنّ وأنه ليقلقني مستقبل العقل في الهيئة الاجتماعية الاشتراكية. وربّما كانت الناس أسعد حالاً كلّما قلّ بينهم الكتّاب والمفكّرون».

❁ ❁ ❁

قال سيغور:

كنت مدعوًّا مرّة عند فرانس فانفتح حديث الرقيّ، ولمّا كان الأستاذ من طبعه محبًّا للمعارضة أخذ يشرح ما كان من التناسب ومن الانتظام في الأيام الغابرة». ثمّ قال:

«نعم، كلّما ترقّينا ضعفت فينا قوّة الصبر ومنّة الجلد على النوائب، فإنّ المدنيّة لا تساعد الإنسان على الأمل ولا على تحمّل المصائب، لأنها تظهر الواقع بجميع مكارهه. فأنا أتحسّر على الماضي لأننا برغم اختراعاتنا ومعارفنا المتعدّدة وطيّاراتنا ورعّاداتنا [1] وتلغرافنا لا نجدنا في الجهة الأدبية اعتضنا ممّا كان عند آبائنا. كانت عند الأوّلين وسائل مدهشة لاستجلاب المنافع ودرء المضارّ وبلاسم يضمّدون بها جراحات الدهر، ولم يكن الأمل والوقار قد فارقا هذه الدنيا. ولا

(١) في الأصل Torpille وهو نوع من السمك مسطّح له في مغرز رأسه آلة كهربائية لها نزوات قويّة تقتل بها سائر الأسماك وتخدّر بها يد مَن يحاول مسكها من البشر، وفي العربيّ يقال لهذا السمك الرعاد، قال في لسان العرب: والرعاد ضرب من سمك البحر إذا مسّه الإنسان خدرت يده وعضده حتّى يرتعد ما دام السمك حيًّا. وقد استعار الإفرنج لفظة توربيل هذه للسفن الحربية الصغيرة التي تقذف بالمرميات المحرقة.

شكّ أنّ آباءنا كانوا يعلمون أنَّ الحياة الدنيا مشوبة بالأكدار ولكنّهم اعتقدوا أنَّ وراءها حياة سرور أبدية، فكان النكد عندهم علامة على الاصطفاء والموت مجازًا من دار الظلمة إلى ساحة النور. وكانوا إذا شخّصوا بأبصارهم في الصلاة يوقنون بأنَّ بصرًا آخر من العلى ملاقي بصرهم.

وأيُّ عزاء أعظم من أن نعتقد بأنه سينفخ يومًا في الصور فنقوم من قبورنا وأنَّ الخالق تعالى سيتجلّى علينا ولو لأجل أن يلعننا. وكذلك أحبّ أن أعتقد أنَّ الأرض خُلقت متعلّقةً بالسماء بجنود مجنّدة من الملائكة وأنها هي مركز الكون». فقلت له:

أأنت آسف على انتشار أنوار العلم؟ فقال:

«حاشا أن آسف على شيء ممّا جرى إلى اليوم ولا أريد الرجوع القهقرى. ولكنّي أقول: آه ما ألذّ الوهم عند الشدائد! فاليوم عرفنا أنَّ كرتنا هذه أنَّ هي إلاّ نقطة من وحل في الأوقيانوس المجهول غير المتناهي. وأنَّ الإنسان لم يكن المخلوق الذي اختاره الله، بل درجة صغيرة من سلم الكوائن وما حياته سوى شكل حركة شمسية أو نوع من ظاهرة كيماوية. وقديمًا كنّا نريد وكان ذلك يلقي شيئًا من الوقار على أعمالنا. أمَّا اليوم فلا نريد لأننا نعلم أنَّ الإنسان غير مختار. وما حركاتنا إلاّ نتائج لحركات أخرى تقدّمتها. وقد شرحنا أعصابنا فعرفنا من أين يأتينا الألم. أمَّا أجدادنا فلم يكونوا يعرفون مصدر الألم وكانوا يرجون عليه ثوابًا في الآجلة».

۞ ۞ ۞

ومن الكلمات التي أثرها سيغور عن فرانس، ما يأتي:

«المجد! العبقريّة! لا تثق بهذه الأشياء يا صاحبي، فلو اطّلعت عليها لوليت منها فرارًا ومُلئت منها رعبًا. ففي هذه الدنيا لا شيء أقلّ ثباتًا ولا أكثر اضطرابًا من صيت أعاظم الرجال. فكم من رجل عظيم نسيه قومه لسوء بخته لا لقلّة فضله. فنحن نحبّ «رونزار»[١] وبعد أن دفنّا ذكره نشرناه حال كون شاعر عصر رونزار كان «دو بارتا»[٢] وهذا هو على الأقلّ رأي

(١) رونزار (Ronsard)، شاعر إفرنسي شهير من شعراء القرن السادس عشر يقال إنَّ جدّه مجري أو بلغاري وإنَّ أباه كان خادمًا عند فرنسوا الأول، نشأ في خدمة البلاط الملكي الفرنسوي وترقّى في المملكة حتّى صار سفيرًا وواليًا ثمَّ أصيب بالصمم فتفرّغ للأدب ونظم القصائد الطنّانة وطار ذكره في الأقطار ونال الحظوة عند الملوك لا سيّما شارلس التاسع، ملك فرانسة. وما زال جدّه في صعود إلى أن مات سنة ١٥٨٤ وفي أثناء حياته كان رابليه يناظر ويطعن فيه. ثمَّ له بعد وفاته بمدّة طويلة أي في أواسط القرن السابع عشر انحنى عليه ماليرب وبوالو بالطعن والإزراء وبقي مهجورًا إلى القرن التاسع عشر إذ نهض الأدباء لا سيّما سنت بوفي وأعادوا لرونزار حرمته ومكانته. وكان سيّال القريحة مهلهل الشعر مجيدًا مكثرًا. وإنَّما عابوا عليه إفراطه في إدخال اللاتيني واليوناني في اللغة الفرنسية والكيل بهما جزافًا بدون ملاحظة الذوق الخاصّ بالفرنسيس.

(٢) دو بارتا (Du Partas)، شاعر إفرنسي معاصر لرونزار.

«غوته» الذي كان معجبًا جدًّا بـ «دو بارتا» والذي يظنّ أنّ عنده من الذوق بقدر ما عندنا. ثمّ إنّ الذين كسبوا الصيت لا يحفظونه دائمًا، بل مصفق القيم الأدبية يظهر لي أشدّ اهتزازًا صعودًا ونزولاً من مصفق القيم النقدية. وربّما هزأ جيل ممّا كان جيل آخر يعبده[1] وكم قرن بقي متحيّرًا ممّا كان قرن آخر يعمله. وكثير من الأسماء العظام تصير فيما بعد أسماء فارغة ما أنزل الله بها من سلطان[2]. وقد نستمرّ أحيانًا على تعظيم ما عظّمه آباؤنا ولكن بحسب الصورة الظاهرة أو لأسباب غير التي دعت آباءنا للتعظيم. والصحيح أنّ كلّ فكرة تموت مع الوقت الذي تلد فيه[3].

وما من شيء سخرة أكثر من قضيّة الكتب الشهيرة بأنها من طرف الدهر فما أشدّ اختلاف الأنظار فيها.

تأمل لو نشر «دانتي»[4] ورأى مقدار التفاسير والحواشي التي خنقوا بها كتابه «الهُزَيْلى الإلهية»، أو «هوميروس»[5] قد ردّ إلى الحياة واطّلع على هذه السخافات المحبَّرة التي نضدت فوق، «الإلياذة» أو «شكسبير» قام من قبره وقرأ شروح الناس على كتابه «هامليت»[6] لا جرم أنهم كانوا أُصيبوا بالجنون.

وأكثر الأوقات تجد هذه الشروح من عمل المعجبين بأنفسهم المتبجّحين الذين يذهبون في التفسير مذاهب غريبة ويجعلون لِما في المتن معاني بعيدة، ممّا يزيد في أعمار تلك الكتب ويجدّد من شبابها.

---

(١) ما أصدق هذا القول. أفلا نهزأ نحن بالأصنام التي عبدها آباؤنا في الجاهلية؟ بل كَمْ هزأ أناس من الصحابة بما عبدوه هم أنفسهم قبل الإسلام.

(٢) كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

(٣) وقد نسي أناتول فرانس أن يقول: وللكلمات والألفاظ أحيانًا أعمار كالآراء والأفكار.

(٤) دانتي (Dante Allighieri)، أكبر شعراء الطليان، ولد في فلورانسة سنة ١٢٦٥ في ٨ مايو ومات في رافين سنة ١٣٢١ وله دواوين ومنظومات جمّة أشهرها «المهزلة الإلهية» هي ثلاثة أقسام الجحيم والمطهر والنعيم. وقد جمع في هذا الديوان المعارف والمذاهب التي كانت في عصره. وكان دانتي من أبناء البيوتات ونشأ يتيمًا لكن على حشمة وسراوة ثمَّ صار من رجال الجمهورية الفلورانسية وانقسم أهل وطنه في حادثة وقعت فكان دانتي من الفئة التي لم يساعدها الوقت وقضي جانبًا من حياته في الغربة والنكبة.

(٥) أكبر شعراء يونان تنازعت سبع مدن منها شرف ادّعاء نسبته وقيل إنَّه كان أعمى مثل بشّار بن بُرد يطوف بالبلاد وينشد قصائده وقيل إنّه لم يوجد، وإنّ الإلياذة لم تكن إلاّ قصائد لشعراء متعدّدين ومثلها «الأوديسي» وقد رُتّبت فيما بعد وعزيت إلى اسم هوميروس. وقد ترجم الإلياذة إلى العربية نظمًا الطيّب الذكر العلاّمة سليمان أفندي البستاني، من أعلام الشرق، وجعل لها مقدّمة هي من أحسن ما كتب في هذا العصر. أمّا الإلياذة نفسها مترجمة إلى العربية فلها مزيّة تاريخية.

(٦) أو المتنبّي وقرأ الأربعين شرحًا التي قيل إنّها عُلّقت على ديوانه.

وكيف يثق المرء بالبراعة عندما يرى «بوتشيلّي»[1] نسيًا منسيًا والشهرة كلّها لأبناء «كارّاش»[2] و«لألبان»[3].

ولنعد إلى الإنشاء فنقول إنَّ أرقى الأعصر فكرًا وهو عصر ڤولتير، هزأ بشكسبير ودانت وهومير، ونبز شكسبير بأنه فلاّح جلف.

فلهذا، لا يجوز الكلام إلاّ على شهرة قريبة الزوال مبنيّة إمّا على اتّفاق أو على أوهام أو على مهارة في اكتساب الذكر. ولمّا أردت الدخول إلى الأكادمي قال لي «لودڤيك هاليڤي» إنَّه يجب معاملة الرصفاء بحرمة زائدة لأنهم يستحقّون الإعجاب والإعظام لمزيد حذقهم وتميّزهم على غيرهم باللباقة بحيث صاروا من أعضاء الأكادمي بدون أن يكونوا علماء. أي بلغ من حذقهم أن صاروا علماء، أي بلا علم.

نعم، وإنَّ ستاندال الذي لم يكن باقعة لكنَّه على جانب عظيم من دقّة اللحظ وحدّة الذهن، بقي مدّة حياته خامل الذكر لإعوازه فنّ كسب الشهرة. فالمجد يأتي مَن يناديه. وإنّني لأعجب بمكاني من الجهل بهذه الأمور وفتور الهمّة عنها، كيف عرف الناس مكاني! ولحسن الحظّ رُزقت أصحابًا مثل «كاتول منديس»[4] و«كوپي»[5] وغيرهما كانوا يشيدون بذكري، ومن البداءة وفّقت إلى بعض مقالات ملائمة كمقال «لومتر» وهكذا قطعت العقبة التي مَن سدّد إلى قطعها صار أمنع من أن يمضغه الحمقى وأن ينازع في مجده. أمَّا إذا كنت تظنّ أنني مغترّ بدرجة فهْم أبناء عصري فتكون واهلاً. فإنَّ كتبي لا تستحقّ هذا العدد العظيم من القرّاء الذي لا يبتهج به إلاّ الطابع لكتبي». ثمَّ قال:

«ما أحد فهِم أحدًا. والعادة أنَّ الذين يفهمهم الناس أقلّ من غيرهم هم الذين يندفع الناس في مديحهم أكثر من غيرهم. فهذا هو السرّ الأليم للمجد الذي يلتحف به «سوفوكل»[6] و«دانتي» و«شكسبير» و«إيبسن»[7]. المجد الذي يُعطى بمجرّد التواطؤ أناسًا نالوا الشهرة وقدّسهم الخلق بدون أن يفهموا لماذا. والحقيقة، أنَّ الناس قلّما يقرأون تآليف هؤلاء العظام».

(١) بوتشيلّي (Botticelli)، مصوّر طلياني، ولد في فلورانسة، (١٤٤٧ ـ ١٥١٠).

(٢) كارّاش (Carrache)، اسم لثلاثة مصوّرين طليان من بولونيه لويس وأغوسطين وأنيبال، وأشهرهم الأخير.

(٣) ألبان (Albane)، تلميذ لأبناء كارّاش المذكورين، كان يُلقّب بمصوّر الطلاوة.

(٤) كاتول منديس (Catule Mendès)، شاعر إفرنسي مولود في بوردو سنة ١٨٤١ وكانت وفاته سنة ١٩٠٩ وقد اشتهر بالنقد والتمحيص والكتابة التمثيلية.

(٥) كوپي (François Coppée)، شاعر المساكين، أجاد في وصف أحوال الطبقة الدنيا، وكان من أعضاء الأكادمي، (١٨٤٢ ـ ١٩٠٨).

(٦) سوفوكل (Sophocle)، شاعر يوناني روائي اشتهر بنظم المآسي وتجويدها وإدخال النغمة الطبيعية فيها. ولد سنة ٤٩٥ ق.م. ومات سنة ٤٠٥.

(٧) إيبسن (Ibsen)، كاتب نورفيجي، ولد سنة ١٨٢٨ ومات في كريستيانيا سنة ١٩٠٦ له روايات تمثيلية معروفة سلك فيها مسلكًا فلسفيًا.

ثمَّ قال لي، ولا تخلو كلمته هذه من مكر:

«مَن يدري إذا لم يكن في كلامي شيء من النفاسة عندما حملت في إحدى مقالاتي على «جورج أونيه»[1]، فهذا الرجل كان بالفعل حقيقًا بالمجد وكان يعرف مشرب الجمهور ويدري كيف يرضيهم ويعطي كلّ أحد حقّه.

إنَّ الناس لا يكترثون لشيء أقلّ من اكتراثهم للوقائع البشرية العظيمة التي يرويها نوابغ البلغاء. وإنَّما تعجبهم القصص الدنيوية التافهة التي يطرّزها الكتّاب الأذكياء، من مسائل مالية أو غرامية أو وقائع جنائية. فلا يوجد واحد من عشرة من القرّاء يفهم «هامليت»[2] أو يستعذبه. أمّا «سكريب»[3] فهو من مفاهيم جميع العقول فلا يتعنّى أحد حتّى يرتفع إليه، بل هو على سويّ الجميع».

❁ ❁ ❁

ثمَّ عاد إلى ديدنه المعروف في التشاؤم بحالة أوربة الفكرية الذاهبة بزعمه هبوطًا، فقال:

«عندما أقول لك إنَّ العبقرية شيء غير محقّق يكون كلامي عن الغابر، لأنَّ هذه المزيّة هي ثمرة التهذيب والثقاف اللذين عهدا في الأعصر المعروفة بالقوّة والتفوّق. ولكن غمرة الجهل والمادّية المسلوفة[4] وغلبة حبّ التوصّل التي تغمر أوربة لا تبقي مجالاً للتكلّم في العبقريّة في الزمن الحاضر وربّما في المستقبل. فالكتابة صارت فنًّا يملكه كلّ أحد لأنه لا يقتضي سوى الحذق. أمَّا الكاتب الذي يقدر الخلق أن يتّخذوه مرآة عصره والذي يستمرّ زمنه به والنابغة الذي هو وجدان الغابر ومنار الآتي فأصبح متعذّر الوجود».

❁ ❁ ❁

وكنّا مرّة عنده في مجلس حافل فجاء ذكر الحياة، فقال:

«إنّني أرى الحياة شيئًا كريهًا. ولم أجد أمرًا أبعد عن فهمي من قول رنان إنّه يرضى أن يستأنف هذه الحياة مرّة أخرى ويعود إلى هذه «المسخرة». فدهشت أنا والحاضرين لهذا الكلام.

---

(1) جورج أونيه (Georges Ohnet)، قاصّ إفرنسي معروف، ولد سنة ١٨٤٨ ومات سنة ١٨١٨.

(2) Hamlet، من أشهر تآليف شكسبير.

(3) سكريب (Scribe)، كاتب إفرنسي روائي له روايات تمثيلية كثيرة، (١٧٩١ ـ ١٨٦١).

(4) في الأصل Nivelé.

وقلت له إنَّني ما فكّرت قطّ في أنه هو ممّن يثور على الحياة. وهو الذي خرج له القدح المعلى في أزلام الحظوظ. وعرف كيف يجمع في نفسه الواحدة عالمًا ويتمثّل الأدوار الماضية ويجالس الحكماء والشعراء من كلّ عصر. وهو الذي أُوتي أن يكون مرآة عصره وأن يحرّك مادّة العالم المعقول بأسره. فقال لي: أتبغي أن تقول إنِّي مالك قوّة الفهم؟ أفتظنّ هذا مساعدًا على الشعور بالسعادة؟ ألا أنَّ العقل هو الذي يحول بين المرء وبين السعادة [1]. ومع هذا فلم أكن ذلك الدرّاكة الذي تصفه لأنَّ الحكيم فعلاً ينزوي في الحال فارًّا من خدع الطبيعة التي تحفّزنا على قبول هذه المعيشة المعذّبة».

لكنّك عشت سعيدًا.

«ما عرفت طعم السعادة طول عمري إلاّ ما كان في أيام حداثتي. فمَن شاء أن يعيش سعيدًا وجب أن ينسى نفسه ويفقد الشعور بأنه موجود. وهذا ممّا لم أُفز به».

وجئت مرّة أخرى إلى مغنى سعيد فلم أصبر أن راجعته في هذا الموضوع لِما رأيته فيه من السأم. فوجدته هذه النوبة أقلّ غلوًّا، ولكنَّه قال:

«أتسمّي أنت سرورًا ما هو سمّ قاتل للسرور؟ أتريد أن ننظر إلى وجه السعادة الحقيقي؟ أنه يجب للسعادة جهل كلّ شيء ما عدا الحاضر. فإن كان هذا لا ينال فيجب الاختلاط بالناس والتفاهم معهم أو التناسي بالاسترسال إلى الشهوات، فهذه هي أشراط السعادة إن كانت ممّا يتاح لبني آدم. وهذا ممّا لم أذُق منه شيئًا طول حياتي. فسواء كان السبب هو العقل الذي أردت أن تنحلني إيّاه ذلك النهار أو كان شيئًا آخر فإنّي لم أقدر أن أختلط بالناس إلاّ اختلاطًا سطحيًا. وأمَّا الحواس فإنّي لم أعرف هذه الشهوات التي تحصل بها الغيبوبة عن الحسّ والتي تقوم مقام الخمر أو الأفيون».

فحاولت أن أقنعه بكونه عرف اللذائذ وشعر بجمال النساء وذاق حلاوة الفنون الجميلة واستمتع على مذهب أبيقور بالجمال الصوري والمعنوي. فقال لي:

«نعم، ولكن ليس بهذا تستضيء حياة الإنسان. إنَّ بي كثيرًا من الأهواء الغالبة عليّ وأرى نفسي عاجزًا عن مقاومة هذه الشهوات التافهة التي هي السلوى في الصغار واللذّة في الكراهية. وما هذه الغلمة البدنية لو تأمّلنا فيها...». ولكن في الحبّ لذائذ أخرى.

---

(١) قال المتنبي من قبل فرانس:

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

«كلّ هذا ممّا يستحقّ الرثاء. ولقد وصفت في كتابي "الآلهة عطاش" كيف أنَّ ذلك الأبيقوري القديم شعر بأعظم لذّات البدن عندما أُغشي عليه من اللغوب وفقد الحسّ واضطّجع على قليل من التبن في مكان ملوّث بالقاذورات. هذا أحسن وصف وصفته لحقيقة الغلمة. وهو الإغشاء والفناء، لا يوجد غيره».

ولذّة الفكر؟

ولذّة الفكر! وما زلتم تكرّرون ذكر لذّة الفكر! ألا أنَّ الفكر هو الذي يعرّفك سعة هذا هذا الفراغ المنفهق[1] الكريه الوحشي الذي تجده في الناس وهذه الحالة البائسة التي أنت فيها. وأيّ الأفكار لعمري هو اللذيذ؟ أتراه الفكر الذي نعلم به أننا لا نعلم من أين جئنا وإلى أين نذهب[2] وأنَّ الحياة التي هي عبودية طبيعية ولغز مستغلق، وأنها أسفل وأسرع زوالاً وأقلّ ثباتًا من كلّ ما نراه؟ أهو الفكر الذي يرنح له الإنسان عندما يفكّر أننا نسكن قطرة صغيرة من نهر المجرة العظيم الذي هو أيضًا لا يزيد على كونه جدولاً صغيرًا من جداول الكون، وأننا سنذهب في لحظة[3]، ونحن والنوع الإنساني معًا وأنَّ سائر المواكب النجمية سائرة، ربّما تتريّث قليلاً ثمّ تأتي نوبتها في الهلاك؟

أيُّ فكر؟ أهو الفكر بكون الإنسان باقيًا بقوّة الصراع لا يرى غير نفسه. يكره نفسه وهو ظانّ أنه يحبّها. يعيش في بحبوحة الجهل والخوف. غافلاً في أيام شبابه، عاجزًا في أيام هرمه. تساوره بدون انقطاع ألوف من الأخطار وتنتابه ألوف من الشرور. وهو مجهّز للموت منذ ولادته وميت بأمله قبل أن يموت بجسمه.

أيُّ فكر؟ أهو التفكّر بماضي البشر المظلم بالعبودية والأسر، الحافل بالغيلان، القائم بعضهم في وجه بعض يتناهشون ويتهارشون، عائشين بثمن الدموع والدماء، مصدّقين ألوفًا من الخزعبلات والأباطيل؟ أم فكرة المستقبل الناهض بدون مقصد عالٍ، منصرفًا إلى المنافع الخسيسة والمطامع الوبيئة. هذا المستقبل الذي سيعيد التوحّش الماضي والذي بآلاته الفظيعة واختراعاته المخالفة للإنسانية ونظّاراته التي يسمّيها علمًا، وليست تزيده إلاّ سعة اطّلاع على الشرور التي هو فيها، سيردّ الناس في الحافرة[4] ويدخلهم عودًا على بدء في القرون الوسطى. وهذه القارّة الأوربية

---

(١) المتّسع (الناشر).

(٢) كأنه يتكلّم بلسان أخيه المعرّي:

أمّا الجسوم فللتراب مآلها ... وعييت بالأرواح أنى تسلك

(٣) يشير إلى أنَّ عمر الأرض هو لحظة من الزمان لو عمّرت ملايين من السنين.

(٤) أي فيما كانوا عليه (الناشر).

الموضِعة في الفتن المتكبّرة المتجبّرة المتنفّجة المنتنة بالمطامع الدنيئة، التي أصبحت لا تمسك بأصابعها البارزة العظام سوى قطع النقود، سوى نحاسات الدراهم، سوى أوراق البنوك الملطّخة بالدماء[1].

ـ إيذن لي أن أقول إنّه يوجد لذّة اطّلاع على الأشياء الجديدة، وإنّه توجد مآدب الحكماء البديعة، ومن وصف هذه أحسن منك؟.

ـ «نعم، إنّ انتجاف[2] شيءٍ جديد والإتيان بفكرة غير مسبوقة وتركيب عبارة متناسبة ودرس تراجم الماضين للتلهّي عن الحاضر بمراجعة أخبار سالفة أو نشر دماغ يتبحّث عنه الإنسان ليعلم ماذا كان فيه أو يصوّره على مثاله! والإيجاد والاستغراق في عمل ينسّيك ما أنت فيه، هذه أشياء لا تخلو ممّا قلت. ولكنّها نوع من المسكّنات والمخدّرات العقلية ولذّات قليلة البقاء، وإذا انتبه المرء من نشوتها كان أكثر استرخاءً وفتورًا.

كلاّ، لا قيمة للوجود إلاّ بسهو المرء عمّا هو فيه أو بقدرته على كشف ما لا يتناهى في نفسه أو بإمكانه أن يخدع نفسه بنفسه. أمّا الإيمان والحبّ، فهما من الألفاظ الخلاّبة التي صرت أرتعش عند سماعها. وإنّني كثيرًا ما أعاني سبر ما تعنيه ولا يتهيّأ لي ذلك لتعذر ذهولي عن نفسي.

أمّا الشعور الذي يغلب عليّ فهو الرأفة. رأفتي بالشقاء البشري. رأفة شديدة بنفسي وبالناس. ولست أجهل الروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض ـ لا أعني بها روابط الفكر والحسّ، فإنّي لم أجتمع مع أقراني بروابط كهذه ـ بل العلائق التي يصير بها الناس إخوانًا وهي الأعصاب التي تتألّم جميعًا والرغبات التي تلحّ بنا جميعًا والمسارّ القليلة والأوصاب الكثيرة! فهذا هو الذي حداني أن أكون اشتراكيًا وأن أبسط يديّ إلى الفقراء وإن كنت لا أرتاح إلى الرثاء الذي تتضمّنه الصدقة. وهذا ما أسال من عيوني دموعًا سخنةً وجعلني أنظر بعاطفة وحرمة إلى هؤلاء الكلاب الصغار، رفاقي في الهيام الذين ليسوا بأشدّ تحيُّرًا منّي في هذه الهُزَّيْلى التي نحن فيها من الوجود».

وسمعت منه كلمات أخرى رقيقة وهو في «تور» سنة ١٩١٩، وكنت ذهبت إليه من أجل المقدّمة التي وعد بأن يحبرها على أحد كتبي القصصية بعد أن قرأه وراقه.

فوجدته في بهوٍ أشبه بمعرض صغير من كثرة ما فيه من المتاع والصور والخُرثيّ[3] إذ كان يفرّ من الضجر إلى هذه الأشياء ويأتيه بها التجّار والأصحاب والمحترفون بها فكان يملأ منها بيته وإن لم تكن بالحقيقة كلّها تحفًا.

(١) ليتأمّل القارئ الشرقي أنّ هذا هو وصف أوربة الحاضرة من فم ابنه، كاتب عصري في فرانسة، وهو الواقع القائمة عليه الأدلّة المحسوسة كلّ يوم.

(٢) استخراج (الناشر).

(٣) الخرثيّ: أثاث البيت أو أردأ المتاع (الناشر).

فتلقاني ضعيفًا ضئيلاً واجمًا قلقًا على صحّته التي كانت أقصى همّه. وكان عنده المسيو... أحد أخلاّئه وكان طبيبًا أديبًا فدار البحث على مسئلة الإحاطة بالمعلومات البشرية بعد الآن.

فذهب فرانس والطبيب المذكور إلى أنَّ توسّع المعارف لا سيّما العلوم الطبيعية والتاريخية سيؤدّي حتمًا إلى الإخصاء. وأنَّ نبوغ علماء محيطين أو مشاركين في كلّ علم وفنّ نظير "لبنيتز"[1] مثلاً، أصبح مستحيلاً.

وفي ذلك اليوم لم يكتب المقدِّمة وضرب لي موعدًا في اليوم التالي فوافيته وتكلّمنا في الأدب والطبّ وكان بحث الأمراض في الآخر غالبًا عليه. ولم يكن يعتقد بالأطبّاء وإنَّما كانت له بهم ثقة ظاهرة سطحية أشبه بثقة الناس قديمًا بالعرّافين. ثمَّ ركبنا سيّارته الكهربائية الحمراء التي كانوا يتحدّثون عنها كثيرًا في تور وذهبنا نطوف، من مكتبة إلى مخزن أثاث إلى دكّان خُرثيّ إلى دكّان كتب قديمة إلى مخزن عاديّات، كما هو شأن أناتول فرانس. وفي هذه الدورة جرى ذكر الشعر، فقال:

"سألتني الدوقة... وهي من شواعر الوقت، عن رأيي في أحد شعرائها. فتحيّرت في الجواب وأخيرًا قلت لها إنَّ رأيي فيه حسن. أفلا يجب حسن الظنّ في القريب؟ والصحيح أني لا أعرفهم ولا طاقة لي بالجَلَد الذي تستوجبه قراءة كتبهم حتّى أفهم معانيها. والشعر مسئلة شباب فنحن معشر الشيوخ، علينا أن نفهم أننا أصبحنا لا نفهم هذا الشعر الجديد".

ثمَّ وصلنا في الحديث إلى أدباء الأجانب، فكان فرانس قليل الاحتفال بهم إلاّ "غوته" فإنَّه كان لا يضع فوقه إلاّ كبار القدماء المدرسيين، ولكنَّه قال:

"لا يعجبني من غوته كتابه "تورغاتو تاسو" وموضوعه أجمل من موضوع "فاوست" فإنَّ إيضاح مصيبة التفوّق الذي لا يزال سرًّا مغلقًا وتحديد مسحة العبقرية التي هي مسحة البلاء، لأنها تفرد صاحبها عمّن يحيطون به وتزويه وتجعله في غاية الاستكراه. هذا كلّه مقام عظيم.

---

(١) لبنيتز (Leibnitz)، فيلسوف ألماني، ولد في لابيسيغ سنة ١٦٤٦ ومات في هانوفر في ١٤ نوفمبر سنة ١٧١٦، وكان من أفراد الدهر في الإحاطة بجميع العلوم، وله تآليف لا تُحصى. واختلف في هل هو أم نيوطن وضع قواعد الحساب المسمّى بالحساب الفرقي، وأثبت بعضهم هذا الكشف للبنيتز وآخرون لنيوطن، وتعارف لبنيتز بنيوطن في سياحته إلى إنكلترة وذهب إلى باريز وتلاقى مع الوزير كولبر وقدّم له طريقة حسابية وافقت عليها جمعيّة العلوم بباريس، وعمل للويس الرابع عشر خطّة لغزو مصر. وفي سنة ١٧١٠ نشر كتابًا في علم الكلام اسمه "إظهار وجود الله في آثاره" أيَّد فيه القول بالعناية الإلهية. وله كتاب آخر في الفهم البشري ومن رأيه استمرار المخلوقات على خطّ واحد عامّ، وأنَّ الطفرة محال في الطبيعة. وكان يرد فكرة الخلاء المطلق ويقول بوجود تشابه قديم سابق بين الروح والجسد هو سبب اتّحادهما. ومن أقواله ما يشبه "ليس في الإمكان أبدع ممّا كان" وقد كان فولتير يهزأ بهذه العبارة. وأسّس لبنيتز جمعيّة العلوم في برلين وصار لها رئيسًا وكانت له منزلة عالية عند ملوك الألمان وسنة ١٧١١ تلاقى مع بطرس الأكبر، صاحب الروسية، وأجرى عليه وظيفة وأطلق عليه لقب مشاور العدل. وسنة ١٧١٣ قوبل مقابلة حسنة في بلاط فينا، ويقال إنَّه كان يريد التأليف بين الكاثوليك والبروتستانت. وكانت له مراسلات مع بوسويه في هذه المسألة.

ويجب إظهار فظاعة السكون الذي يحيط بمثل «تاس»[١] و«ميلتُن»[٢] فإنَّ أصوات مثل هذين ترتفع عن مفهوم الدهماء فتصبح غير مسموعة. وضروري تبيين هذا العجز الفاضح الذي يقع فيه العبقريون، حتّى تجدهم يموتون من الفقر فإنَّهم من كونهم فوق البشر يصيرون من غير البشر».

ثمَّ حملق نحوي بعينيه الواسعتين، وقال:

«التفوّق! والنبوغ! أتريد أن أحدّد لك بعض مظاهر التفوّق والنبوغ. هذا نوع من النور الباطني يتجلّى على المرء فيريه العظام حيث يرى غيره البدن الناعم ويضع تحت عينيه حركات الأعصاب العريانة بكلّ كراهتها حال كون الآخرين يرون هناك الثغور البواسم، لا بل نور أقوى منه، يُري العظام وحركات الأعصاب ويكشف الفضاء الواسع الذي حول الرجل ويقطع كلّ صلة بينه وبين أقرانه ويلقي به في عزلة قاتمة».

فكنت أسمع كلماته هذه وصدري منقبض، لأنه لم يكن يفتأ يعيد هذه النغمة ولأنَّ هذا الموضوع المحزن كان يخالجه أبدًا، فهو نفسه لشدّة ما فاق البشر بنفوذ نظرته صار كأنه ليس من البشر. ثمَّ قال:

«إذا أردت أن تفهم بليّة العقل وجب أن تعلم أنه يلاشي القوى التي تثبت بها الحياة، أعني بهما الإرادة والعمل. فالإرادة كلمة لها عمل ساحر فيما لو نظر إليها بنسبتها إلى الأشياء البشرية الحقيرة. فكلّ تقدُّم في الدنيا الأصل فيه الإرادة. فكلّما ازداد فهم الإنسان ضعُفت إرادته. ومتى توصَّل الإنسان إلى أن يفهم كلّ شيء لم يرِد شيئًا.

وبالجملة، فالإرادة هي النظر إلى غرض معلوم بدون اَلتفات إلى غرض مقارب أو مخالف. أي أنها نوع من الاختيار الواقع. وكيف يختار الإنسان وقد رأى أمامه كلّ شيء موجبًا للحيرة جالبًا للتأمّل. وكيف يقدر الإنسان أن يرجّح بين هذه الحوادث والرغائب والأهواء التي تعرضها الطبيعة في هذا العالم غير المتناهي. لا جرم أنَّ الإرادة هي محرّك العمل وهي ضدّ أعمال الرويّة الذي هو شأن الحكماء».

---

(١) تاس (Tasse أو Torquato Tasso)، شاعر طلياني عظيم، له ديوان «أورشليم المنقذة» وهو كتاب خالد رفع صاحبه إلى مصاف
أعاظم شعراء التاريخ بعلوّ الأفكار وسلاسة النظام وسموّ التخيّل. وكان تاسو شديد الخنزاونة وقد نقم على أمراء وطنه قلّة الوفاء وسوء
العهد، ومات فقيرًا حزينًا، (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥).

(٢) ميلتن (Milton)، شاعر إنكليزي عظيم، ولد في لندن سنة ١٦٠٨ وتوفّي سنة ١٦٧٤ وكان في مبدأ أمره كاتب سرّ كروميل، فلمّا
مات هذا انقطع للتأليف وكفّ بصره وأخذ يملي على امرأته وعلى ابنتَيه ديوانه «الفردوس المضاع» وهو كتاب فيه أبدع بدائع الشعر في
جانب كثير من الأغلاط سواء في المادّة أو الصورة. وله كتاب آخر «الفردوس الملتقى». ومات ميلتُن فقيرًا مسكينًا.

ثمَّ قال لي:

«من شدّة ما أفهم أصبحت عاجزًا عن الحياة. أقول هذا لك فيما بيننا. فإنَّ الفهم والاطّلاع هما مرضان من الأمراض. وإنَّ ادّعاء الوقوف على أسرار جميع الحوادث ليس مرضًا فقط، بل هو انحلال في تركيب الطبع. فالفكرة المستمرّة تجرّد صاحبها من كلّ وسائل المقاومة. لم يكن نابليون وقيصر والقدّيس فرنسيس ويسوع ممّن يطيلون الفكرة. وبهذا أمكنهم أن يريدوا ويعملوا ويملكوا. لقد كانوا أقوياء فتولّوا المدن والأرواح. ولو أنهم أعملوا عقولهم في الفكر بدلاً من العمل لكتبوا هم أيضًا أجلادًا ضخامًا».

فقلت له:

«تتكلّم يا سيِّدي فرانس في العبقرية كأنها مجرّد العقل والذكاء. والحال، أنك أنت قلت لي مرّة إنَّها ليست العقل والذكاء فحسب. وإنَّ أكابر الواضعين في العالم لم يكونوا أذكياء.

فتبسّم، وقال: «نعم، إنَّ العبقرية ليست العقل وحده، بل هي بخاصّة رقّة الإحساس. فلهذا العبقريّة والعذاب مترادفان. فكلّ الناس يرون أشباحهم في العقل الكليّ وكلّ شيء يرجع له صدى في الأعصاب والدماغ، كأنَّ هذه الأعصاب وهذا الدماغ هي منتهى ألم الدنيا ونصبها وشقائها.

إنَّ رقّة الشعور هي البلاء الأعظم [1]. وإنَّ رقّة الشعور تخلق للعقل أسبابًا جديدة لسبر غور شقائنا وقياس هذا الفراغ الشامل، فيجب أن نتمكّن من تبيين حقيقة هذا الإحساس الذي هو موحي الألم، وكيف أنَّ أدقّ الخواطر وأخنس الهواجس وأتفه الحوادث تنقلب به منبعًا للغموم والأشجان».

فقلت له:

ـ تأذن لي أن أقول لك يا مسيو فرانس إنَّ الأشخاص الذين يمثّلون الحكمة والفهم والإدراك في كتبك ليسوا عابسين، بل نجدهم ضاحكين إلى الحياة.

ـ «نعم، هم يضحكون لها رأفةً ورقّة. ثمَّ إنَّ هذا يا صاحبي صنعة بيانية. فأنا أصوّر «كوانيار» سكران باغي بنات سارقًا حجيرات ريمة. وأمثّل «برجريه» في مواقع ضعفه من حبّ المجد وشهوة المعافسة [2]. وما ذاك إلاّ لأنهم كَيْسى مألوفون والواجب عليهم أن يخفوا عن الخلق

---

(1)

تمتّعتما يا ناظريَّ بنظرة	فأوردتما قلبي أمرّ الموارِدِ
أعينيَّ كفّا عن فؤادي فأنه	من البغي سعي اثنين في قتل واحدِ

(2) المداعبة (الناشر).

دخلة أنفسهم حتّى لا يعود الفراغ الذي في طيّ أفكارهم غير محمول، أشبه بهيكل العظام الذي كان المصريون القدماء يضعونه أمامهم وهم على الموائد.

وبعد، فما الفائدة من الشكوى؟

فقد يمكن أن يركب الإنسان بإزاء هذه الشدائد مركب اليأس ويقترح على حدّ ما قال واحد لا أتذكّر اسمه من تلاميذ شوبنهور[1] اقتراحًا هو الانتحار العامّ. وهذا أيضًا خيال كاذب لأنه لا فائدة من الثورة على هذه الحال، بل هو دليل على وجود أمل واعتقاد. والحال، أنَّ الذي يعلم أنَّ السماوات فارغة وأنَّ الطبيعة صمّاء وأنَّ لا أمل بإصلاح شيء فإنَّه يسكّن غضبه ويتبسّم ويجتهد أن يلقي رداءً على عري هذه الحياة وأن يجد غطاء لهذه المأساة العقلية». انتهى ملخصًا

خلاصة الكلام على هذا الرجل

إنَّ الزبدة التي تمخضها مطالعة هذا الكتاب المجموع من تأليف «نقولا سيغور» وتأليف «جان جاك برسون» وأقوال كبريات الصحف الفرنسية، هي الأمور الآتية:

أولاً- أنَّ أناتول فرانس هو صدر كتّاب الفرنسيس وقريع عصرهم، هذا الذي انعقد على تفضيله الإجماع وعلت رآسته عن النزاع لا سيّما في الأسلوب السهل الممتنع الذي جمع فيه نقاء اللغة وتعديل الأقسام وطلاوة النسج وتوزيع القسط بين المعاني والمباني، ممّا أفاض كتاب الفرنسيس في وصفه كما رأيت.

ثانيًا- أنه كان أشدّ المحافظين على الأسلوب الأصولي التدريسي المسمّى «كلاسيك»[2] المستمدّ من الأدب اليوناني والأدب اللاتيني وإنشاء فحول القرن السابع عشر حتّى أقرّ له الفرنسيس بأنه الذي حفظ اللغة الفرنسية وحرس بستانها وأنه لولاه لتنكّرت معالمها وتكدّرت مناهلها.

ثالثًا- أنه مع شدّة محافظته على القديم من جهة اللغة كان مفرطًا في مخالفة القديم من جهة الفكر. فكان مقلّدًا في اللفظ مجتهدًا في المعنى. فأودع الآراء الحديثة والأنحاء العصرية قوالب ليست من المعاصرة في شيء، بل عليها كلّها مسحة القرن السابع عشر.

(١) شوبنهور (Chopenhauer)، فيلسوف ألماني بنى فلسفته على الإرادة وكان متشائمًا جدًا، تقرب مبادئه من مبادئ الديانة البوذية. وله مؤلفات عديدة وكان يناقض آراء «فيشته» و«هيجل» و«شلينغ»، ولد شوبنهور في دانتسيغ في سنة ١٧٨٨ ومات ١٨٦٠.

(٢) قال الفيلسوف رنان وكان مع الفلسفة أستاذ صناعة الإنشاء في وقته: التعليم الأصولي المدرسي هو علم العقل، وبدون العقل لا يوجد لا من هذه الجهة ولا من الأخرى إلاّ ظلمات ومهالك.

رابعًا- أنه كان رجلاً متشكّكًا في أمر الكائنات معذّبًا بما يخالج ضميره من حسّ الخلاء وما يهفو به من قلّة الإيمان بالغيب، وأنه أميل إلى مذهب الأبيقوريين الذين لا يرون إلاّ اللذّة سواءً البدنية أو العقلية. وأنه لم يكن يجد فيها إلاّ مخدّرًا.

خامسًا- أنه كان سيّء الرأي في المدنيّة الأوربية الحاضرة، عظيم السخط على غشم الاستعمار واستثمار القويّ للضعيف وابتلاع الكبير للصغير وتكالب أوربة على المال دون غيره، وما أشبه ذلك ممّا كان الباعث الأهمّ له على دخوله في الاشتراكية ومسايرته للشيوعية.

سادسًا- أنه كان مولعًا بالمناقضة، نزّاعًا إلى القول بما لا يقول به الجمهور ولو لم يكن في نفسه جازمًا بما يدافع عنه. وأنه كسائر الأدباء تغلب عليه النكتة وتستهويه النادرة، فكثير من كلماته هو من هذه الطائفة.

الغرض من نشر هذا الكتاب بالعربية

أمّا الغرض الذي توخّيته من نشر هذا المجموع فيشتمل على عدّة مقاصد:

الأول- لمّا كان قد استفاض البحث في القديم والجديد ورأينا أعناق بعض المحدثين عمدًا أو غفلة، تشرئبّ إلى أحداث بِدَع سيّئة في اللغة العربية وتطمع أن تعمل بها عملاً يأتي عليها من القواعد وذلك بحجّة وجوب التغيير والتبديل، وبأنَّ الارتقاء يقتضي التجدّد وبأنَّ التجدّد لا يجب أن ينحصر في الأفكار، بل يجب أن يتعدّى إلى القوالب، وكان مذهبنا أخذ الأحسن من كلّ شيء وأنَّ مَثل الفصاحة الأعلى لهذه اللغة هو دور السلف من الجاهلية إلى صدر الإسلام إلى الدولة الأموية إلى أوائل الدولة العباسية، ولم يكن أحد ليطمع في طرز أبدع من طرز القوم في هذه الأدوار ولا في لغةٍ أنقى من لغتهم ولا في ديباجة أنفس من ديباجتهم، وكان ما بعد ذلك كلّه تدنّيًا وكان العدول عن الفصيح إلى الركيك وعن الأصيل إلى الدخيل لمجرّد حبّ التجديد هبوطًا وتردّيًا، وجب أن ننسج في بياننا على منوال السلف كما نسج أناتول فرانس، وهو عصري الأفكار على منوال الأعصر السالفة وعدَّ له الفرنسيس ذلك أعظم فضيلة.

الثاني- أنه يتحتّم على الناشئة العربية السير مع العصر الحالي في كلّ ما يتمحّص من الحقائق الكونية وتتقرَّر فائدته من المناحي الاجتماعية على شريطة أن لا يخلّ ذلك بوحدة اللغة وصفائها ونصابها الذي حفظه لها القرآن الكريم، وأن لا يمسّ ذلك روح العروبية، التي ينبغي أن تكون هي الغاية القصوى ويكون ابتداع الطريف خادمًا لها لا عابثًا بها. وقد رأينا أنَّ أناتول

فرانس وغيره، ممّن مرَّ ذكرهم في هذه الكتاب، قد عرفوا أن يجمعوا الطريف إلى الشريف، ويودعوا الحديث في القديم.

الثالث- رأينا الذين لهم في الشرق نصيب من الأدب الأوربي هم الذين يحسنون اللغات الأوربية ولا سيّما الفرنسية ويطالعون مؤلّفاتها القديمة والحديثة وينقلون إلى العربية سواءً ضمن المجلّدات أو في الكراريس أو في الصحف السيّارة كثيرًا ممّا يستعذبونه منها مع أنَّ الذين لم يساعدهم الوقت على درس هذه اللغة يكادون لا يفقهون منها حديثًا ولا يذوقون شيئًا ممّا ينقله لهم أولئك المترجمون لخلوّ أذهانهم من المعارف الضرورية لفهم تلك النكات. فقصدت بنشر هذه الخلاصة عن أكبر أديب إفرنسي أو أوربي في هذا العصر أن أقوم ببعض الخدمة للمتأدّبين الشرقيين الذين لم يحسنوا اللغة الفرنسية أو لم يتضلّعوا في أدابها مع اختلاطها بالآداب الشرقية وكثرة العلاقات العلمية والاجتماعية بين الشرقيين والغربيين ممّا أشرت إليه في صدر هذا الكتاب.

الرابع- ورد في كلام أناتول فرانس مَن حدثوا عنه ذكر جمّ غفير من أعاظم رجال الأوربيين وأعلامهم المشهورة والمسائل الاجتماعية والآراء الفلسفية المتداولة عندهم ممّا هو حريّ بكلّ أديب عصري أن لا يفوته علمه، فوضعت لهذه الأشياء التفسير اللازم لها في الحاشية: إذ كان إغفال تفسيرها مخالفًا للغاية التي انتحيناها كما أنَّ الإفاضة في هذه التفاسير لم تكن ممكنة، إذ لو سلكنا فيها مسلك الإطالة لاستغرق كلّ منها كتابًا. فاجتزأنا فيها بما ينقع الغلة ويشدو القارئ الشرقي منه البلغة ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيّد[1].

هذا ولم نقدر أن نطرد الترجمة الحرفية في جميع المظان، بل اقتصرنا في مواضع كثيرة على ما يعني الشرقيين. ففي الصفحة ٣٦ والصفحة ٣٧ من كتاب بروسون فصل عن "كورنايل" طويناه على غرّه لأنه لغويّ صرف فيه انتقاد عبارات من جهة اللغة لا حاجة للقارئ العربي بها. وطوينا من الصفحة ٣٨ إلى ٤٢ لأننا لم نجد ثمّة ما يفتقد فوته. وطوينا من الصفحة ٥٤ إلى ٥٦ لأنها تفاصيل زيارة لم نجد فيها طائلاً. وفي الصفحة ٦٨ فصل عنوانه، الهيجان والغلمة، تركناه لأنه لا يليق. ومن الصفحة ٧٨ إلى الصفحة ٨٥ كلام كثير عن طريقته في تصحيح مسودّات الطبع لم نجده ضروريًا. وفي الصفحة ٩٤ أشياء تأباها الفضيلة والعفّة، والكتاب قد يقع في أيدي الأحداث والعذارى. ومن الصفحة ١١١ إلى الصفحة ١١٥ تفاصيل ليست بذوات بال.

(١) بمناسبة الحواشي يخلق أن نورد هنا نكتة للأستاذ اللغوي المحقّق إسعاف أفندي النشاشيبي تاج أدباء فلسطين، فقد أهديته مؤخرًا كتاب "
حاضر العالم الإسلاميّ" للعلاّمة ستودارد الأميركي وعليه الحواشي المطوّلة التي زادت على المتن إضعافًا، فكتب إليّ، حفظه الله، بما يأتي:
ذكّرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين. قيل لأبي الخوارزمي عند موته، ماذا تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب. وقال أستاذ الدنيا جار
الله: الزيت مخ الزيتون والحواشي مخخة المتون.

كذلك في الصفحة ٣٢ تحت عنوان "مدفع العفّة" ما لا يصحّ نشره بقلمنا. ومثله فصل "الحياء نقص في الخلقة" في الصفحة ١٣٦، ومن الصفحة ١٥٢ إلى ١٥٦ تفصيل زيارة لا فائدة فيه. ومن الصفحة ١٦٦ إلى ١٦٨ قصّة لا تُروى ولا بالمعاريض. ومن الصفحة ١٩٣ إلى الصفحة ١٩٨ تخيُّل رواية على المرزح على ولادة الدوقة "دوبرّي"[(١)] وفيه ما فيه. ومن الصفحة ٢٦٦ إلى ٢٦٩ ما يستغنى عنه. ومن الصفحة ٢٩٠ إلى ٣٠٢ تحت عنوان "درس في جدول الضرب" فصل متزايد الخلاعة. ومن الصفحة ٣١٨ إلى ٣٢٨ أشياء لا تعني كثيرًا قرّاء العربية. وفي الصفحة ٣٣٦ إلى الصفحة ٣٣٧ ما لا يرضاه أهل الديانة، ولا بدّ من مراعاة الزمان والمكان فأسقطناه. ومن الصفحة ٣٤٦ إلى ٣٤٨ قصّة مساومة بين أناتول فرانس وبين تاجر خرثيّ رومي على آنيّة قديمة. والصفحة ٣٥٧ فيها ذكر فراقه لصاحبته. والصفحة ٣٦٣ إلى ٣٦٦ فيها ما يتجاوز الحدّ في المجانة وما يعجز التلميح والتلويح عن ستر هجنته.

وقد يحار بعض القرّاء لكثرة ما ورد من المجون في كلام فيلسوف كهذا ممّا ينزله إلى مستنَ العشّاق المستهترين. والجواب عن هذا، أنَّ الراجح كما قلنا كون فرانس أبيقوريًّا بالمعنى المعروف. ومع هذا نظنّ الأحاديث التي أفضى بها إلى "بروسون"، كاتب سرّه، كانت أحاديث تبذُّل وكلمات كان يرميها على عواهنها، لا لتُنشر وتؤثر، بل ليسرّي بها عن نفسه، وما زال الأدباء بعد عناء الجدّ يروّحون من همومهم بالفكاهة والمزاح، فالتقط بروسون كلّ هذه الممازحات ونشرها وكشف عورات أستاذه وأطلع الخلق على عُجَره وبجره. فلهذا استهجن كثيرون ما أتاه، ومن الجملة جريدة "الطان"، فقد اتّهمت بقلم "پول سوداي" جان جاك بروسون بخبث النيّة. وقد كتب إليّ الأستاذ علاّمة العلماء الدكتور يعقوب صرّوف، أحد صاحبي "المقتطف"، بأنه لو كانت بينه وبين بروسون معرفة لَما تأخّر عن لومه فيما شوّه به سمعة أستاذه. ولكن هؤلاء الناس في أوربة صار الغالب عليهم حبّ الكسب والاقتراش وهم يعلمون أنَّ الكتب التي تشتمل على أنواع الخلاعة وأحاديث الغلمة والغرام هي التي تزداد رواجًا وتُنفق منها مئات الألوف من النسخ، فلا يهمّ الواحد منهم أن ينقص أدبه إذا ازداد نشبهُ. وأمَّا الشرق فمع كونه عرف مثل هذه الأدوار قديمًا لا يصحّ فيه اليوم ما يصحّ في الغرب الذي بلغت فيه حرّية التهتّك مبلغًا دعا

(١) دو برّي (Duchesse de Berry)، ابنة فرنسوا الأول، ملك نابولي، تزوّجت بالدوق دو برّي سنة ١٨١٦ وكانت محبوبة في فرانسة بسبب مزاياها الكثيرة ولمّا قُتل زوجها ظهر منها جرأة زائدة، وولدت ولدًا كان مناط أمل البيت الملوكي. ثمَّ لمّا نُفي الملك كارلوس العاشر لحقت به وأقامت برومة وهناك تزوّجت سرًّا بالكونت "لوشيزي بالي"، وسنة ١٨٣٢ انسلّت من إيطالية إلى فرانسة خفية قاصدة أحداث ثورة في مقاطعة "فاندي" فلم يتمّ لها ما أرادت واختبأت في "نانت" حيث أخبر عنها رجل يهودي متنصر اسمه "دوتز" فقبضوا عليها واعتقلوها في قلعة "بلاي" تحت نظر الجنرال بوجو. ووقعت الحكومة الفرنسوية في حيرة من أمرها وأجبرتها أن تعلن زواجها السرّي في إيطالية. وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣ أعلنت الدوقة كونها متزوّجة في إيطاليا. وفي ١٠ مايو ولدت ابنة وسيقت بعد الولادة بشهر إلى حدود إيطالية. وهذا موضوع الرواية التي كان يريد أناتول فرانس تحريرها.

عصبة الأمم في جنيف أن تبرم قرارًا بمنع الكتب المفسدة للأخلاق. واللغة العربية وإن عرفت التصريح في هذه المواضيع ووجدت فيها كتب أبعد مدى في بذاءة الألفاظ من روايات أناتول فرانس فإنّ أدباء العرب الخيّرة كانوا دائمًا يشمئزّون من قراءة مثل هذه الخلاعات في الأغاني وألف ليلة وليلة وأشباههما، كما يشمئزّ كثيرون من رؤية الصور المعرّاة والتماثيل المجرّدة من كلّ ستر في متاحف أوربة وقصورها. ومن عادة الناس سواءً في الشرق أو في الغرب الإقبال على هذه المواضيع أكثر من سواها، كأنّ الإنسان وقد خُلق ضعيفًا يتأسّى على ضعفه بأخبار ضعف غيره. وقد أصاب ابن خلدون في قوله إنّ الخلق بطبيعتهم متهافتون على أخبار العشق وقصص المجون. وليس هذا بمبرّر لإبراز الكتب الفلسفية والاجتماعية في القوالب التي تثير الشهوات وتفسد طهارة الفتيان والفتيات لا سيّما أنّ الجميع تقريبًا صاروا قارئين وقارئات. وقد ذهب بعض المفكّرين إلى أنّ الحجر في هذا الموضوع لا يفيد شيئًا وأنّ الأَوْلى عدم كتمان شيء حتّى يفسد مَن فسد عن بيّنة ويعفّ مَن عفّ عن بيّنة. وهي طريقة روسية. وقال بعضهم إنّ الاقتصاد في هذه المعلومات والمواربة في أخبار الحبّ والتماس التخفيف بالتمويه، هذا أشدّ خطرًا من الصراحة التامّة. وهذا أشبه بما يقوله ابن المقفّع من أنّ المرء إذا رأى المرأة متلفّفة متحجّبة صور لها في قلبه الجمال وهام في أثرها، فإذا حسرت له عن وجهها قد يقع منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة. فالكتب التي يتعمّد أصحابها التغطية والتورية قد تزيد هوس القارئ في معرفة طيّات الخبر. وذهب آخرون إلى وجوب المنع البات وقالوا إنّ كلّ هذه المطالعات مضرّة ومفسدة وأنها لغوٌ يجب أن يعرض عنه. وسئل الكردينال «دوبوا Cardinal Dubois»، رئيس أساقفة باريز اليوم، عن رأيه في هذه القضيّة، فقال: «لا يجوز للشابّة أن تقرأ كتب القصص التي فيها الوله كثير في الحبّ. فإنّ مثل هذا لا يخلو من إدغال أفكارها، ولا شيء أسرع انطباعًا بالخير والشرّ من روح الآنسة». إلاّ أنّ الكردينال استدرك، فقال: «على أنه يجب تنبيه الشابّة إلى حقائق الحياة حتّى تقدر أن تتجنّب ما يعن من الأخطار في طريقها». وقالت الأميرة «لوسيان مورا Princesse Lucien Murat»: إنّ البكر العاقلة يجب أن تكون من نوع السمك الذي يمرّ بلهب النار ولا يحترق بها. فيباح لها أن تقرأ بعض الشيء بحيث لا تُفسد».

ويظهر أنّ فقهاءنا أميل إلى هذا المشرب عندما يقولون: «لا حياء في الدين» ويشرحون بعض ما لا بدّ من معرفته من القواعد. وهذه الطريقة هي عندي ألف مرّة أقلّ خطرًا على أخلاق الأوانس من قراءة القصص المغطّاة أفاعيها بالأزهار والتي لا تزيد النفوس إلاّ تطلّعًا، لا بل الطريقة الفقهية هي أسلم عاقبة من الجميع، لأنها تبرز في القالب الذي يزيد الحشمة والانقباض أثناء تقرير الحقيقة. وما الآفة إلاّ خلابة القول وسحر البيان.

ولم أجد بدًّا من إبقاء بعض الشيء من المواضيع التي أشرنا إليها في أقوال فرانس لتعلّقها بالفلسفة ولكون الكتاب مجرّدًا منها بتمامها يخلو من أروق ما فيه للمتفكّهين، فاضطررت فيها إلى استعمال الألفاظ التي تلطف عن الصغير ولا تجفو عن الكبير. وصنعت بكتاب "سيغور" ما صنعته بكتاب "بروسون"، فحذفت منه بعض ما تثقل وطأته على مسامع رجال الأديان وما ينبو عن آذان الذين يكرثهم تهذيب الشواب والشبّان وإن كان ما في كتاب سيغور من هذا النمط أقلّ جدًّا ممّا في محفوظات بروسون.

وقد جزت في كتاب سيغور التفاصيل التي يطيل فيها الأوربيون على عادتهم من وصف الدخول والخروج والقيام والجلوس وملاحظة الأشياء المادّية التي يمرّ بها الكاتب ممّا يعرفه مَن عانى كتبهم واقتصرت فيه على لبّ أقوال فرانس وأطايب أحاديثه. فجاءت منه ومن كتاب بروسون ومن أقوال الجرائد الكبرى صورة مطابقة وترجمة صادقة لذلك الأديب العظيم.

وقد وافقت هذه الترجمة أيامًا عدتني فيها عُدواء الأشغال عن إيتاء التنقيح حقّه وإبلاغ التمحيص شأوه، بل كنت أنقله من النصّ الإفرنسي رأسًا إلى المسودّة المعدّة للطبع بدون تبييض حتّى أخرجته كلّه في ثلاثة أشهر لا غير. وأنا أتمنّى لو كان في الوقت منتدَح أوسع، فأبذل فيه أكثر ممّا بذلت من الجهد وأراجع عليه النظر كرّة بعد كرّة حتّى لا يلتوي فيه شيء عن القصد، ولكنّي رأيت مشادهِ[1] الزمن كثيرة وعوادي الأيام مستطيرة والوقت لا ينتهي من ضيق إلاّ إلى أضيق والاستيلاء على أمد الإتقان غاية لا تدرك ولا تلحق وليس المرء بحاكم على الزمن، وجاء في مَثل إفرنجي "الأحسن عدوّ الحسن" فاقتنعت بما تيسّر لي وأبرزته بهذه الحلّة وأنا أستخير الله فيما عملت وأرجو بلوغ بعض المرام ممّا أملت، والله وحده حسبي وعليه توكّلت.

مرسين، في ١٥ يوليو سنة ١٩٢٥

شكيب أرسلان

---

(١) مشاغل (الناشر).

كتاب جان جاك بروسون
نحوٌ من المقدّمة

كنّا متغدّين عند «لابيروز Laperouse» مع السيِّدة[1]. وكان الأستاذ ذلك اليوم عابسًا بيّن الانقباض بسكوته المقصود وإفراطه في أدب المجاملة. فكنت تراه يقدّم ألوان الطعام بكيس ظاهر التكلّف «عليك بالعودة إلى هذا الدجاج يا صاحبي لأنه من الطراوة بمكان. هو يصلح لك. هل تمنّ عليّ بأن تناولني الخردل؟» وهلمّ جرّا. وكانت تصحب هذه التقعُّرات منه على الطعام حركات تعظيمٍ وانحناء تخطر ببالك صلوات ما بعد الظهر. وكانت الزوبعة محلّقة في سماء تلك القاعة المزيّنة بشجيرات صناعية من دور نابليون الثالث.

ولمّا صرنا إلى الحلواء كانت السيِّدة تشير إلى ما حصل في هذا الزمان من التحوّل. فأمّا الأستاذ فكان يتكلّم كلامًا مطّردًا على إيقاع واحد بدون قطع نفس، نابرًا بجمل قصار زواجر جوازم، كأنها صلصلة منبّهٍ عند الصباح قد حلّ وقته.

قال الأستاذ: يظهر يا ولدي أنك ماسك سجلاً بكل ما أقول.

فأجبته: بكلّ ما تقول يا مولاي.

ـ وأنك تريح في المساء ما سمعته في النهار العقيلة.

ـ هذا غير جائز.

فقلت: لمّا كنت جالسًا على أفخر سفرة ملوكية أحببت أن ألتقط بعض الفتائت لأجل الفقراء الذين في الخارج ولأجل الأعقاب الآتين. فهذه الكلمة جعلت شيئًا من الزرقة في تلك السماء التي كانت متلبّدة الغيوم.

فقال الأستاذ: لأجل الأعقاب. لأجل الأعقاب! مَن هم الأعقاب؟ هم أنت وأنا والسيِّدة العقيلة. لا بدّ من كون كلّ إنسان عقبًا لآخر.

ـ أنا أصنع لك أيّها الأستاذ ما صنع «فلوريانيه Florianet لڤولتير».

ـ لست بڤولتير، وأمَّا أنت ففلوريانيه.

(١) وفي الأصل «مادام» وهي سيِّدة يظهر أنها كانت متزوّجة ولكنّها كانت تروق الكاتب العظيم فشغلت قسمًا من حياته. وقد مرّت الإشارة إليها في ترجمة كتاب سيفور.

ـ لست بفلوريانيه وأمّا أنت ففولتير. أو قل ما صنع الأب ليديو (l'Abbè Ledieu) لبوسويه[1].

ـ أنت تفوق في الورع الأب ليديو حال كوني أنا لست بنسر "مو" ثمَّ أيّ لذّة تجدها في التقاط أحاديث ملقاة على رُسَيْلاتها، سائلةً على طول لحيتي البيضاء؟ ولا جرم أنَّ هنالك زيفًا كثيرًا. على أنه إن كان هذا يلذّ لك...! ثمَّ مَن يقدر أن يمنعك؟ وغاية ما أتقدّم به إليك يا ولدي هو أن لا تنشر شيئًا من كلّ هذا ما دمت أنا حيًّا. لا سيّما أنه ليس عليك أن تنتظر طويلاً. فإنَّك إن فعلت أوقعتها بيني وبين كثير من الناس. فمتى صرت مضطجعًا تحت البلاطة فاجعلني أقول كلّ ما تشاء[2]. ثمَّ التفت إلى العقيلة وقال: الآن أيّتها الحبيبة يعدّ ذلك خلقًا مِذياعًا، وأمّا فيما بعد فيعدّ علمًا واطّلاعًا.

شابٌ من الأقاليم[3] يأتي إلى باريز

في تلك الأيام قدم إلى باريس شابٌ من أهل المقاطعات غض الأهاب حديث العهد بإكمال التحصيل محتقبًا محفظة صغيرة مكتظّة بالشهادات والكتب الخطّية كان يعيش منزويًا في كنّ صغير من شارع "سربانت" ويقضي وقته منكبًّا على التنقيب في خزائن الكتب، إجابةً لمَن يكلّفه ذلك من كبار القوم الذين لهم عناية بالآثار القديمة، هذا إلى أن تكون اتّسقت له المطبعة والمجد.

ففي صبيحة يوم انتدبه أحد رؤساء طائفة الهوغنوت[4] وكان كلّفه ببحث تاريخي عن مذبحة سان بارتلمي[5] فقال له هكذا: أناتول فرانس ينتظرك صباح غدِ الأربعاء الذي هو نهار مقابلاته، فتدفع إليه هذا المكتوب، فإنَّه محتاج إلى مؤازر في تأليف كتابه على جان دارك[6].

---

(١) بوسويه (Bossuet)، أشهر من نار على علم، ولد سنة ١٦٢٧ وتوفي سنة ١٧٠٤، وكان مطرانًا على بلدة مو (Meaux) فلُقّب لفصاحته ولنبوغه بنسر "مو" واتّفق أدباء فرنسا على أنه أفصح مَن ارتقى منبرًا في وقته.

(٢) وقد سمع بروسون رجاءه فما كاد أناتول فرانس يغمض عينيه حتّى نقل عنه ما لا يخطر على بال.

(٣) في الأصل الفرنسيّ provincial ومعناه إقليمي أي من سكّان المقاطعات لا من سكّان العاصمة، وهذا كما يقال بمصر: من أهل الأرياف. وكما كان يقال بالعراق: من أهل السواد. وكما يقول الأتراك: طشره لي. والمراد بهذا الشابّ هنا نفس صاحب الكتاب.

(٤) لقب للبروتستانت الفرنسيس.

(٥) ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٥٧٢ في أيام شارل التاسع، ملك فرانسا وبامره. قيل إنَّه لمّا تزوّج هنري الرابع، قبل أن تولّى الملك بمارغريت، أخت شارل التاسع، وفد جمّ غفير من أمراء البروتستانت إلى باريز لحضور الفرح. فألحّت على شارل أمّه بقتلهم فأجابها: إن كنت تريدين ذلك فليقتلوهم ولكن فليقتلوهم جميعًا. فاندرأ الكاثوليك يقتلون البروتستانت أينما ثقفوهم وأذنت أجراس الكنائس بالنفير، فكانت أفجع مذبحة عرفها التاريخ، ذهب فيها النساء والأطفال مثل الرجال وعمّ الذبح جميع فرانسا واستمرّ عدّة أيام، وكان كثير من أمراء البروتستانت ضيوفًا على الملك في اللوفر. فدخلوا عليهم واحدًا بعد واحد وجرّدوهم من أسلحتهم ثمَّ جزروهم جزر الشياه، والملك ينظر من النافذة. (وتجد تفاصيل هذه الفاجعة التاريخية في "رواية باردليان، ترجمة الأستاذ طانيوس عبده". الناشر).

(٦) قهرمانة فرنسوية معدودة في صفّ أبطال الدهر، ولدت في دومريمي (Domremy) سنة ١٤١٢ وكانت على جانب عظيم من الاعتقاد، حتى كان يخيّل لها أنها تسمع أصواتًا أكثرها من القدّيس ميخائيل والقدّيسة كاترين. وفي أيامها كان الإنكليز استولوا على قسم من بلاد فرانسة فكانت تسمع أصواتًا توحي إليها بأنها تذهب وتنقذ فرانسة من أيدي الإنكليز. ومازالت حتّى تمكّنت من الدخول على الملك شارل =

لا حاجة إلى وصف الدهشة التي استولت على هذا الشابّ القروي النابت في أرض غاليّة رومانية، يحفظ المتون العلمية كلّها، لكنّه يجهل الآداب العصرية. وما كان يعرف أناتول فرانس إلاّ بسبب كونه أستاذًا أصوليًا، بل خاتمة الأساتذة الأصوليين المدرسيين.

فقضى الشابّ ليلة نابغية، لم يكتحل فيها غامضًا إلاّ قليلاً عند الفجر وطافت على خياله جميع صور المقابلات ونهض من الفراش الساعة التاسعة، مع أنّ ميعاد الملاقاة كان الساعة الحادية عشرة. فكانت سفرة يقال في مثلها: إلى الشيطان العظيم vau vert [1].

فمن شارع سرپانت إلى مغنى سعيد [2]، مسافة ستّة كيلومترات عزم الشابّ القروي أن يجتازها ماشيًا على رجليه، لا على سبيل الاقتصاد فقط، بل بعامل الخشية الذي استولى عليه. ومن العجيب أنّ هذا الشابّ كان يتحرّق لمشاهدة الكاتب الأكبر ومن جهة أخرى كان يملأه الفَرَق من أن يتمثّل في حضرته. وفي طريقه كان يعوج على بيوت الزراجين [3] التي يشرب فيها العامّة وقوفًا أمام دكة الحساب، كأنهم حول مائدة القربان، فكان يشرب من القهوة التي الطاسة منها بنحاستين ويحسو أقداحًا أخرى من المنعشات لتشد من قلبه. وماذا عساها تنفع الأنبذة في معالجة الهيبة.

•

فلمّا انتهى إلى مغنى سعيد رانت عليه جلالة المكان، فظنّ أنه أضاع المكتوب الذي دفع عليه والصحيح أنه لم يقع منه إنّما تغبّى عليه بين الأوراق من شدّة دهشه. فالتاط بالأرض أمام الأسكفّة وأُلقي في روعه أنّ الأستاذ قد يخرج، فيقول له: «ماذا تصنع هنا يا عزيزي الشابّ. أأنت هو الذي أرسله إليّ المسيوم؟» فتكون القضيّة في غاية البساطة. وهكذا أجمع أن يبقى أمام العتبة إلى المساء. فلم يخرج أحد من ذلك البيت الأبيض. وإنّما أقبل بعد مدّة شبّان غرانيق جبذوا الجُرَيْس بدون أدنى تردُّد كأنهم من أُلاّف المكان. وجوه مشرقة وقدود ممشوقة وحركة مرسلة على سجيّتها. فجاء غلام ساكن الطائر [4] عبل الجسم ساجي العينين، بقل عارضيه أشبه بالصوف، تشتمّ منه رائحة خادم دائرة رسمية أو وافه بيعة [5]، نصفه كنّاس والنصف الآخر

= الثاني عشر أثناء حصار أورليان وأقنعته بصحّة دعواها وسارت تقود جيشًا صغيرًا فاضطرّت الإنكليز إلى الرحيل عن أورليان ثمّ كسرتهم في باتاي (Patay) وتوّجت شارل الثاني عشر في ريمس. ومازالت تجالد حتّى وقعت أسيرة في أيدي البورغونيين فباعوها من الإنكليز حلفائهم فأحضروها أمام محكمة دينية حكمت عليها بالبدعة وبالحريق. فحرقوها حيّة. وأظهرت شجاعة خارقة للعادة.

(١) مثل عند الفرنسيس Au grand diable vauvert وهو كقولك: في داهية.

(٢) الأصل الفرنسي Villa Saïd وهو منزل أناتول فرانس الذي توفّي فيه. ومعنى كلمة «فيلا» البيت الذي في البرّية فاخترنا له كلمة مغنى لأنّ المغنى هو البيت الذي ينزل به الإنسان أحيانًا.

(٣) اخترناها لكلمة Bars التي أصل معناها محل بيع المسكرات ولكونها واردة في كلام العرب.

(٤) أي حليم هادئ وقور (الناشر).

(٥) الوافه: قيّم البيعة.

كنسيّ. ففتح الرتاج وتناول قبّعات الزائرين ومن جملتها قبّعة الشابّ القروي. فلم يبقَ على هذا إلاّ أن يوطّن نفسه على اقتحام المأزق، فسار في أثر أولئك الشبّان الأماليد الذين لم تكن منهم إلاّ ثلاث أو أربع قمصات حتّى صاروا في ذروة السلّم المحاط بالأمتعة القديمة والتصاوير والصلبان. وفي القسم العليّ الأعلى من القصر بناء أشبه بالبرج له رواق أشبه بأروقة القرون الوسطى، مملوء بالذخائر والدمى وصور القدّيسين أيضًا. وفي السقف زوايا من الجلد القرطبي في منجور من خشب السنديان. وكيفما أدرت لحاظك وقعت على الخزائن والأسفاط، تلمع وراء زجاجها التحف والنفائس الغريبة. أمّا الكتب هناك فلا نهاية لها.

ولمّا صار الزائرون رهطًا فيه البركة تجلّى المعلّم في مظهر قدسه. وكان في بذلة [١] الغرفة، في رجله خفّ من صوف وعلى رأسه قلنسوة حرير وفي يده صورة ونظّارة مكبّرة. فسلّم سلامًا خفيفًا مجملاً على الحضور وجلسوا. فاندسّ الشابّ الإقليميّ وراء درج المكتبة يشاهد أناتول فرانس عين عنّة [٢].

قال أناتول فرانس: قد جئتم في حين الحاجة، فها أناذا أبغيكم تحكمون في قضيّة: أترون من الواجب أنَّ المصوّر الذي يصنع التصاوير الدينية يكون معتقدًا بالدين؟ فقد اشتريت منذ أيام هذه الحمراء البكر من تصويره بوشه [٣] من عند صاحبي بروته [٤] فالبكر ليست مثالاً للعفاف كما ترون. وربّما كان المصوّر قد مثل في هذه الصورة حليلته أو ولده. أفلم يكن رافائيل، مصوّر الباباوات، يأخذ مثالاً لجسم مريم العذراء من أجسام الشبّان الغرانيق؟ [٥]. وقد اطّلعت له على مبدإ تصويرة كان فيها غلام طلياني بغاية الجمال حاملاً بيده عيبة ثياب. فقد عاد سانزيو [٦] على هذه الصورة بعد أن بدأها فألقى على الغلام حجاب الحياء وأكبر حنجرته وهيّأ من مجموع تلك القراطيس ببراعة قلمه الرصاصي ذلك الطفل الأقدس ضاحكًا من فحصة ذقنه».

فالشابّ الإقليميّ كان حائرًا مبهوتًا حينما كان يسمع الكاتب العظيم يتكلّم على أمور تتعلّق بالفنّ الجميل، لأنه لم يكن حكَّ في صدره وهو في قريته أنَّ رجلاً من نوابغ الكتّاب

(١) البذلة: من الثياب ما يُلبس في البيت والمباذل كذلك.

(٢) رأيته عين عنة أن أراه ولا يراني.

(٣) بوشه (Françàis Boucher)، مصوّر فرنسي، مات سنة ١٧٧٠ ترك رسومًا في منتهى الذوق واللطف ولكنّه كان يميل في تصويره إلى الخلاعة.

(٤) بروته (Prouté).

(٥) جمع غرنيق أو غرنوق أو غرناق وهو الأبيض الجميل.

(٦) اسم رفائيل، وهو المصوّر الأشهر الذي مع ميكال أنجلوس يمثّل نبوغ هذا الفنّ في العالم. لم يعِش طويلاً إذ ولد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٢٠ وكانت عبقريّته قائمة برشاقة الحركات ووضعها في محلّها وتناسب الخطوط مع تناهي الألوان في اللطافة. ولم يكن أحد من بعده يقدر أن يشقّ غباره في تصوير العذراء بشبابها ونعومة أهلبها مع سيماء طهرها.

يكترث بالتصوير. وكان أثناء الحديث يحدج أناتول فرانس ببصره بتحديق شديد. فرآه طوال القامة عبلاً، مائل الوجه إلى الطول. وكان يظنّه أقلّ شيخوخة لأنه كان يراه من خلال بلّور إنشائه ريّان من الحياة. ومع هذا فقد كان يلوح على الأستاذ أنه لا يريد أن يتمشيخ ولا أن يتهارم ولكنَّه يريد أن يعيش معيشة البطاركة. وفي آخر المجلس دنا إليه كثير من الجماعة بقصص لهم، فلمّا شاهد الشابّ القروي ما هناك، من اِلتماس التواصي والشفاعات ومن استكتاب الرقاع، جبن عن إخراج المكتوب الذي معه وأبلس هكذا، لا يدري ماذا يصنع وراء درج المكتبة التي كان قابعًا عندها. وتقوّض المجلس ولم يبقَ فيه سوى رجل دميم أعور، قصير القامة، كثير الحركة، غاسقونيّ الطبع [1]، ألقى على الأستاذ بعاعه [2] وحبسه مدّة وهو يسرد له قصّته. فمدّ فرانس يده إلى جيبه وأخرج منه محفظة استلَّ منها ورقة بمائة فرنك ناولها ذلك المُلحِف ثمَّ ضمّه طويلاً إلى صدره وقذف به شديدًا صوب الدرج. ولمّا سمع صكة الباب صاح من عن قرص الدرج: جوزيفين جوزيفين أنا لا أقدر أن أتحمّل أبدًا هذا العفريت. إنَّ هذا إلاّ ملك الشحّاذين.

ثمَّ دخل أناتول فرانس إلى غرفته فقام الشابّ القرويّ على رؤوس أصابعه وانصرف وقد طار قلبه شعاعًا. ولمّا صار إلى الشارع مزّق الكتاب الذي كان أخذه واسطةً للقبول وأخذ ينظر إلى قصاصاته وهي تتطاير تطاير الهوام. نعم، نبا به الإقدام وكان في الحادية والعشرين من عمره فهو حرٌّ بالغ، إلاّ أنه كان منذ التاسعة من عمره قد وُضع في مدرسة داخلية.

ثمَّ بينما هو في البيت وجد على مائدة غرفته التي كانت من خشب أبيض رسالة وصلت إليه بالسريع بخطّ الكاتب الأكبر نفسه رقعة يقول له فيها:

- «انتظرتك الصبيحة بطولها فلم تجئني. أفتراني أخيفك؟ سأكون في مغنى سعيد متفرّغًا لك غدًا صباحًا. أناتول فرانس». ففي النهار المعيّن حاولَت الخادم عبثًا أن تمنعه من الدخول، لأنَّ الفتى الإقليمي وضع لها أنفها كتاب الأستاذ فقهرها. ودخل فوجد الأستاذ في المكتبة ودار بينهما الحديث الآتي:

- كم يؤدي إليك المسيو فلان... على الذي تجمعه له؟

- لا شيء.

- إذًا أنا أضاعف لك راتبك.

ثمَّ شرح له ما يبغي منه وهو أنه منذ عشرين سنة يشتغل بسيرة جان دارك. وكان قد أضرّ

(١) نسبة إلى بلاد غاسقونية، والفرنسيس يقولون غاسقوني للخفيف أو للهبال.
(٢) ألقى ثقله.

بإتمام قصّة هذه العذراء التنقّل من بيت إلى آخر والتحوّل من حال إلى أخرى، فضاعت الوثائق والشواهد التاريخية فهو الآن يتوخّى أوثق الروايات وأبدعها وأعلمها وأجزلها بركة ليخيط أفواه الذين يقولون إنَّه لم يكن إلاّ رجلاً قصّاصًا.

«أفلا يأتي عن ذلك وَرَق [١] كثير؟ ولا جرم أنه يأتي عنه أيضًا وِرق [٢] كثير!».

أيتها الطبيعة احفظيني ممّا وراء الطبيعة

ثمَّ سألني فجأةً:

ـ هل أنت مُعتَق؟ [٣].

فتحيّرت بما أجاوب وأُغلق عليّ. فإنَّني لم أفقه ماذا يعني بقوله «معتق» هل يريد أنني طليق من الخدمة العسكرية، أم ماذا؟

فقال وأوضح:

ـ هل أنت معتق من العقائد الدينية. إعلم أنه ليس في هذا السؤال شيء من الخفّة، بل أنا أقول لك هذا كما لو قلت لك:

«هل لك معدة قوية؟ أو هل تشكو من كبدك؟ فإنَّ الإنسان يولد مؤمنًا أو غير مؤمن كما يولد صلب الشرايين أو كما يولد مسلولاً أو مُصابًا بالسرطان. ولا تنفع الدعوة والإرشاد من بعدها شيئًا. أتظنّ أنه يوجد ملحدون اليوم، أكثر ممّا كان يوجد في القرن الخامس عشر؟ لا أظنّ ذلك. وإنَّما في ذلك الوقت كانوا يخافون العذاب فيتظاهرون بالتقوى. فمَن يولد واهن العقيدة يبقى طول حياته واهن العقيدة، والعكس بالعكس.إنَّ فاقد الإيمان ناقصًا فيه العضو اللازم لقبول الوسواس. فهو أشبه شيء بالخصي بالنسبة إلى السماء.

إنَّني أنا مصاب بهذا النقص وإن شئت فقل بهذه الموهبة. ولهذا تراني أسائلك عن هذا الموضوع باهتمام. وأرى أنَّ علماء التشريح سيجدون في يوم من الأيام مكان العقيدة من أعضاء الإنسان والعلّة في وجودها. ولا أعلم شيئًا أشدّ على المعتقدين من فكر أبداه لابرويار [٤] في فصله ـ المتناهي في الضعف ـ على العقول القديرة.

---

(١) وَرق بالفتح: القراطيس.

(٢) وِرق بالكسر: الدراهم.

(٣) في الأصل الفرنسي libéré.

(٤) لابرويار (J. de la Bruyère)، أحد حكماء الفرنسيس والفلاسفة الأخلاقيين، ولد في باريز ومات سنة ١٦٩٦ وكان معلّمًا لحفيد البرنس كوندي (Condè) الشهير، وهو معدود رأسًا في علم تصوير الأخلاق. وجرى منه كلام جريء مدهش بالنسبة إلى عصره على المظالم الاجتماعية وحمل على تفاوت درجات المعيشة بين الأغنياء والصعاليك وعلى فقد المساواة بين البشر، وأشار إلى تمتّع كثير من الكبار بنعم الحياة من دون استحقاق، وله كلمات تجري مجرى الأمثال.

ثمَّ تناول كتابًا من كتب لابرويار عن مكتبته وأخذ ينوّه بفضل المطبعة التي صدرت عنها هذه النسخة وأنها أشرف المطابع. ثمَّ وصل إلى محلّ الشاهد الذي يريده فقرأ: "يحصل الشكّ للإنسان في ذات الله وهو في حال الصحّة فإذا استمصلت كَرِشُهُ مرّةً ترك حظيّته ونادى القسّيس". قال أناتول فرانس: "نعم، في الغالب يكون استدعاء الكاهن مصاحبًا لاستدعاء الطبيب، لأنَّ التياث الجسم يحدث اختلاط النفس وما كان الاعتقاد والإيمان إلاّ أمراضًا وهي في أكثر الأوقات ممّا ينتقل بالوراثة. وقد يعيش معها الإنسان طويلاً من دون أن تشتدّ مشاحّتها له كما يعيش طويلاً مع السلّ ومع تصلّب الشرايين ومع السرطان. ولكن إذا أزفّ موعد التقاضي فسرعان ما يعكف الإنسان على الله وعلى العقاقير. وبالاختصار، فبضعة غرامات من السكر تزداد في بول مَن كنت تعهده واهي العقيدة وإذا به ذهب إلى القدّاس". ثمَّ عاد إلى لابرويار عذيقه المرجّب وقرأ: "حقًّا إنَّ الموت أمرٌ عظيم" فأطبق الكتاب باشمئزاز وأخذ يهزأ قائلاً: "ما هذا التخليط! لعمري، ليس الموت بأصعب من الولادة. وإنَّما هو منزع قوس وغلوة مرمى ينجح ببلوغ غايته كلّ الناس على السواء. وهذا الخطّ قد يكون أطول أو أقصر وأميل أو أقوم، والنهاية يخرج الإنسان من الرحم ويدخل في بطن الأرض التي يبلى فيها"[1].

المعلّم

دعوته مرّة بـ "يا معلّم" فندهني قائلاً:

"هل جحدت إيمانك يا صديقي الفتي؟ عهدتك قد غذيت بالأسفار المقدّسة، فهل عصفت بها ريح المعاصرة وكنستْها من دماغك؟ إنَّك لتذكر من الإنجيل هذا النصّ الذي لا مساغ فيه للاجتهاد: لا تدعو أحدًا يقل لكم "ربّي" لأنَّ واحدًا أحدًا هو ربّكم وكلّكم أخوان. وأنا قد دعوت أيضًا بـ "يا معلّم" أناسًا من الأكادميين[2] لعهد حداثتي. وأعلم ماذا يراد بذلك. فالمراد من هذه الكلمة ليس المفهوم اللغوي أي "أستاذ" أو أنك تساوي ثلاث مرّات واحدًا مثلي أو ثلاث مرّات سائر الناس، بل المراد من النداء بها "أنك أنت يا معلّم المدرسة المسكين الهرم

---

(١) وما الكون إلاّ أرحام تدفع وأرض تبلع.

(٢) أعضاء الأكادمي academie وهي كما لا يخفى الجمعيّة العلمية الفرنسية الكبرى وهي تُطلَق على خمس جمعيّات. الأولى الأكادمي الفرنسية التي أسّسها الكردينال ريشليو سنة ١٦٣٤ وهي مركّبة دائمًا من ٤٠ عضوًا ومهمّتها تحرير معجم اللغة. والثانية جمعيّة الآثار الكتابية والآداب الظريفة أسّسها كولبر سنة ١٦٦٣ ومهمّتها المباحث التاريخية والآثار الحفرية، وأعضاؤها ٤٠ أيضًا. والثالثة جمعيّة العلوم الأدبية والسياسية وهي كذلك أربعون وتُعنى بالمسائل الفلسفية وبالاقتصاد السياسي وبعلم الحقوق والتاريخ العامّ أسّستها الجمهورية بعد الثورة. والرابعة جمعيّة العلوم المطلقة أسّسها كولبر سنة ١٦٦٦ لدرس الرياضيّات والكيمياء والطبيعيّات، وأعضاؤها ٦٨. والخامسة جمعيّة الفنون الجميلة، وأعضاؤها ٤٠ كلّهم من الرسّامين والنقّاشين والنحّاتين والموسيقيين الذين نبغوا في عصرهم وقد تأسّست في سنة ١٧٩٥ وكلّ هذه الأكادميّات يدخل الإنسان إليها عضوًا بالانتخاب.

الماج[1] السائل اللعاب أكثر من إناء خردل أنك تتطرّح ذات اليمين وذات الشمال تطرُّح شيخ كبير فانٍ وتردّد الكلمات بعينها. وكأنك تطمع أن تكون إلهًا. فلا تتريّث كثيرًا بعد في هذه الحياة الدنيا فقد طال مقامك وآن الأوان أن تترك المحلّ فارغًا للشبّان".

نعم، يا عزيزي هذا ما يفكّر به المجرمون الصغار، الذين يبخّرون بقوّة أولئك الأصنام الكبار الذين بلغوا من الكبر عتيًّا. لا تحتجّ على كلامي! فقد كنت مثلك، وإنّي أتذكّر الزمن الذي كنت أقول فيه لرنان[2]: يا معلّم. وسيأتي يوم تصير فيه مثلي ويقال لك فيه يا معلّم. نعم، نعم، أنت أيّها المعلّم بروسون! وتصل إلى هناك بأسرع ممّا تظنّ، عندما تكون أستاذيتي صارت طعام الدود.

ولكنّني على شاطئ نهر جهنّم أكون حككت بيدي وعند ذلك أكون أخذت بثأري".

الصباح حبيب آلهة الشعر

"تعالَ غدًا صباحًا لنشرع في الشغل"، قال هذا وهو يومئ بيده إلى سقف غرفته المزيَّن برموز إيطالية: إحدى آلهات الشعر، مضطجعة على فراش ناعم من خَمَل السحاب، بيدها لوح وخنجر مثلّث النصل ولها منظر يأخذ بمجامع القلوب. وقد لعبت حولها غادة رعبوب مرخاة الذوائب. وفي زاوية من تلك الصورة خيل الإله فيبوس[3] وهي تشبّ به ذاهبة بإله النهار إلى مروج السماء. وثمّة رأية مكتوب عليها: Aurora Misis Amica أي الفجر حبيب آلهة الشعر.

فقال: يا عزيزي اجعل برنامجك هذه الحكمة: الفجر هو أحبّ حبيب إلى آلهة الشعر. فأتِ غدًا صباحًا في أيّ ساعة أردت وكلّما بكّرت كان ذلك أحسن. فإنّي أبغي الخلاص من قصّة هذه العذراء جان دارك وأنا لا أنام إلاّ غرارًا ولا أنام بملء عيني، فأهلاً وسهلاً بك في أيّ وقت جئت.

ففي صباح اليوم التالي كنت في الساعة السابعة في مربع سعيد فجبذت بيد مرتجفة النحاسة الحمراء التي من زيّ القرن السادس عشر المتّصلة بالجُريس الكهربائي. فإذا بهذه الهنة الفلورانسية الأصل غير شديدة الملاءمة للاختراعات العصرية. فحرن الجُريس ولم يجب. وكأنّما كان نائمًا

(١) الماج: في اللغة الشيخ لا يقدر أن يمسك ريقه من الكبر، وفي الأصل الفرنسي baveux.

(٢) أرنست رنان الفيلسوف الشهير، صاحب كتاب "حياة يسوع" و"أصول النصرانية" وغيرها من التآليف التي أحدثت ثورة عظيمة في الأفكار. وكان كاتبًا سحارًا ومؤرخًا بلغ ما لم يبلغه غيره من الإحاطة، فانفرد بنظريّات جريئة وصار في وقته نسيج وحده، (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢).

(٣) فيبوس (Phæbus Apollon)، ويقال له أبولون هو إله الشعر والطبّ والفنون ورعاية المواشي والليل والنهار في أساطير اليونان والرومان.

مع سائر أهل المنزل. فجبذته كرّة أخرى فلم يجب أيضًا: وكأنَّ المنزل كان كلّه ميتًا لا حركة له. ففي المرّة الثالثة شددت الجبذ بعض الشيء وتذكّرت ساعتئذٍ أيام الحداثة، عندما كنت أقرع الجرس لصلاة الفجر تذكارًا جميلاً ولكن ربّ هذا البيت لم يتجلَّ أصلاً. فماذا العمل؟ قعدت أتأمّل في الباب فرأيته أشبه بكوّة غير نافذة يساعد منظره على التفكير، فكان مرصّعًا بتماثيل عتيقة: امرأتان من نحاس أصفر عليهما الخوذ «بلّون»[١] و«منيرڤا»[٢] هما فيه مقبض اليد والمسامير وصفائح الحديد وعنق القفل كلّها قديم في قديم. جبذت الجُريس مرّة أخيرة فلم أجد إلاّ السكوت فحينئذٍ جثمت على الدرج التي أمام الباب وفغرت فمي وصرت أنظر نظر المبهوت.

وكان ذلك في شهر يونيو، والجوّ بديع الصفاء ونسمات الربيع تهبّ على وجهي من نواحي غابة بولونية. وكانت في ذلك الوقت المخارف المؤدّية إلى مربع سعيد مخضرّة بالعشب سائدًا عليها السكون كأنها صحن دير ـ بُني فيها بعد ذلك فنادق باذخة ـ وكانت ثكنة[٣] من العصافير الدارية الوقيحة تعيش في ذلك المكان وتنثر ذراقها. وكان الوقت بدأ يمرّ وأنا أشعر بهروبه.

وإذ بغلام بائع زبدة، على رأسه طاقيّة يهزّ صحافه مختالاً قد أقبل فطارت العصافير ذعرًا، وجاء هذا الطامث وعلّق صحفة اللبن برأس مينرڤا. فجذبت الجُريس جذبًا مديدًا وعوّلت على أنه إن لم يبرز أحد أغادر تلك القرية الأسطورية التي هي من قبيل الحسناء في الغاب النائم[٤].

وبينما أنا في هذا الفكر إذ سمعت كطَلَق مرزح[٥] صرير الحديد من فوهة السقف وتلا الصرير صوت حادّ خالٍ من اللطف خارج من بين جدائل الشعر.

ـ ماذا تصنع هناك؟

ظنّوني سائلاً أو سائحًا.

---

(١) بلّون (Bellone)، آلهة الحرب عند الرومان.

(٢) منيرڤا (Minerve)، آلهة الحكمة والفنّ، وهي ابنة جوبتير.

(٣) الثكنة: السرب من الطير.

(٤) هذه إشارة إلى قصّة من حكايات القصّاص الفرنسي بيرلوت (Perrault)، وهي أنَّ جنّية نامت مئة سنة ثمَّ استيقظت وتزوّجت بأمير صبوح الوجه فولدت ولدين الفجر والنهار وعاشت سعيدة بالرغم من سوء خلق حماتها.

(٥) أنا لا أعتقد أنَّ المرسح هو مقلوب المسرح ولذلك لا أصحّحها بمسرح كما جرت عادة الكتّاب في تعريب «التياترو»، بل أقول إنَّ المرسح هو تحريف مرزح وهو ما اطمأنَّ من الأرض، وبعبارة أخرى الساحة، ومعلوم أنَّ الألعاب كلّها إنَّما تكون في الساحات ومن ذلك قيل للمكان الذي يجري فيه اللعب أو التمثيل مرزح وحرّفها العامّة مرسحًا كما يحرّفون كثيرًا من الزاي إلى السين ومن السين إلى الزاي.

فمسكت قبّعتي بيدي واعتذرت، وبعد أن حملقت جوزيفين فيَّ قليلاً عرفتني، وقالت لي:

ـ أهو أنت الذي يعمل هذه الجلبة؟ ماذا أصابك، أسقطت رأسًا عن سرير النوم؟

ـ الأستاذ أعطاني موعدًا الساعة الأولى.

ـ الساعة الأولى؟ وهل يعلم ماذا يقول؟ الساعة الأولى هي الساعة التاسعة في باريز، وأنت ابن بلدك. فانتظر أن أفتح لك، ثمَّ انحدرت وهي تزمجر. وفتحت ذلك الرتاج الغيّور الضيّق الصدر. ولمّا شرعت تفتح شيئًا بعد شيء عرفنا كَمْ يحمي رقاد الأستاذ من عوارض حديدية وسلاسل فولاذية وإقفال بضعها فوق بعض. فولجنا في الدهليز، فما هو إلاّ صومعة كنيسة. فأول ما يستقبلك مستدبرًا العمود الذي يحمل الدرج تمثال العذراء حاملة الطفل الإلهي.

وكانت جوزيفين قد هدأ روعها، فقالت لي:

ـ هل طعمت شيئًا أم لا تزال على الريق؟

ـ لا أزال على الريق.

ـ أمجنون أنت؟ فالإنسان في مثل سنّك يجب أن يعتني بأن يقيم صلبه وليس من شيء أضرّ من الخروج بدون غداء. وإذا أصابك السلّ الرئوي...

وإن كنت تريد أن تنتظره فنأتيك بسخن تشربه.

ـ مَن هو الذي تعنين؟

فوضعت جوزيفين إصبعها على شفتيها غاضة من صوتها، وقالت:

ـ اصمت، هو لا يزال راقدًا.

ـ الأستاذ؟

فاستفزّت لفظة "الأستاذ" جوزيفين وردّدت:

ـ الأستاذ، الأستاذ، وأنت أيضًا أستاذ. ماذا أصابهم جميعًا حتّى يقولوا له دائمًا أستاذ؟ أيّ أستاذ يا عزيزي؟ أأستاذ المرق الذي يأكله؟ وليته يعرف أن يأكله؟ مسكين هذا الأستاذ! لولاي ما كان يقدر أن يلبس سراويله.

ثمَّ ألقت السمع، وقالت:

ـ هو يتركنا بسلام إلى الساعة التاسعة لأنه غريب العقل ولا يعلم ماذا يريد. وبينما هي

تقول هذه الكلمات أشارت إلى رأسها ودقّته بأصبعها في موضع الإيماء إلى ضعف عقل الأستاذ.
ثمَّ دخلت إلى الطبقة السفلى من الدار حيث كانت تنبعث رائحة الخبز المحمّص والشوكولاتة.

فلبثت أنظر إلى متاع الدهليز. وكان في مبدإ الدرج نحو من عشرين مفتاحًا معلّقة صفًا كما في فندق منتظم. وقد نيطت إلى حلقة محفور عليها Nisi Dominus custodierit domum أي أن لم يكن سيِّد البيت حارسًا...

وكانت تلك المفاتيح الجميلة رومانية ولاتينية وقوطية وكان أحدثها عهدًا ابن ثلاثمائة سنة بالأقلّ. فهناك آلهة يونانية تتبسّم نحو العذراء. وهنا على متاع ألماني بين مرفعين قطعة من شغل مرسيلية القديم تتدلّى منها عناقيد العنب والدراقن من لامع الخزف.

ثمَّ عادت جوزيفين وبيدها جفنة فيها كوب يتصاعد منه عُثان الشوكولاتة المتموّجة وصحن من الشواء من تلك الصحاف المنسوبة إلى شركة الهند. كما أنَّ نصاب السكّين الذي توضع به الزبدة على الرغيف هو من عهد شركة الهند أيضًا. وكذلك السكّرية وسائر أدوات السفرة إلى ملعقة الفضّة الصغيرة ذات الرسوم كلّها من الصناعات العُدْمُلية القديمة وكلّها في غاية من سلامة الذوق.

فوضعت جوزيفين الجفنة على سهوة [1] (أسكمله) وأخرجت من جيب مئزرها قنّينة من هذا الخمر الطيّب الذي فيه من الكولا المقوّي للأعصاب المنبّه للقلب ممّا اعتاد أعاظم رجالنا أن يتغنّوا بخواصه المنعشة. فملأت نصف قدح وأفرغته في فمي إفراغًا.

ـ يلزم قتل أسود.

ثمَّ صبّت فوق قدح واحتست هي جملة أقداح، وقالت:

ـ هذا لا يكلّفه شروى نقير فليس إلاّ أن يكتب كلمتين، فتأتيه صناديق مسفّطة ولمّا أخذ منها الشرب مأخذه أبانت لي عن ذات صدرها فرأيت روحها ملأى هياجًا وحسرات.

ـ أتظنّ أنه من الأمور التي تلذّ المرأة أن تعيش في وسط هذه الشيخوخة؟ وأخذت تدلّ على هذه الأمتعة العتيقة.

ـ ثمَّ رشفة أخرى. إنَّك لمخطئ. فإنَّ هذا ممّا يقوّيك.

ثمَّ قالت: إذًا هكذا ستكون كاتب سرّه. لا جرم أنه لا يمضي عليك قليل حتّى تتبرّم لأنه لا يوجد أغرب منه عقلاً، آه لو لم أكن أنا هنا...

(١) السهوة: ثلاثة أعواد أو أربعة بعضها على بعض فيجعل فوقها مكان لوضع المتاع.

قل لي: ألك خطّ جميل؟ واحسرتاه على ولدي الذي كان يمكن أن يكون كاتبًا موافقًا، فقد كان خطّاطًا بديعًا حاز في المدرسة جوائز الخطّ المدوّر والقوطيّ [1] وذي الأوصال المستديرة. وكان أرفق مَن في المدرسة يدًا. وهو الذي كان ينمنم التقاريظ التي تقدَّم للمعلّم. ومتى انتدحت الفرصة أُطلعك على الرسائل التي كان ينمّقها لي في عيد رأس السنة. وكان الناس يقصدونني ليأخذوا رقاعًا من خطّه.

ثمَّ أومأت هكذا بيدها مع شيء من الاستخفاف إلى الطاق الذي ينام فيه الأستاذ، وقالت:

ـ أمَّا هذا فكلّ عمله تخليط ومجمجة [2]! آه لو تعلم ثقل يده وكم يقضي من الوقت في التمزيق والإعادة. آه شتّان ما بين خرمشته [3] وبين خطّ ابني الذي سأريك مكاتيبه.

ثمَّ شرعت تبكي بملء مآقيها، ثمَّ قالت:

ـ مات وهو ابن ثماني عشرة سنة. وكان مستقبله بسّامًا. ولو كان بقي حيًّا ما كنت أنا هنا. فاعلم أنني لم أكن طول حياتي بائسة، بل إنَّني سليلة بيت معروف كان والدي من أكبر تجّار الجوخ في جنيف، وكان في عرسي ثلاثة أختان شرف، لكن مات بعلي وترك لي تركة معقّدة فاضطرّني الأمر إلى أن آكل خبزي من عند الآخرين.

وإذا بالساعة التاسعة قد دقّ جرسها.

فقالت لي: خذ البريد. فإنَّه صار يلزمني أن أوقظه من رقاده. فإذا لم أكن هناك فهو لا يستيقظ أبدًا هذا الذي تلقّبونه بـ «الأستاذ».

وتناولت الجفنة وكانت الشوكولاتة قد جمدت وصعدنا معًا السلّم، وهي سلّم تحف بها من جانبَيها صور القدّيسين والذخائر الدينية والمباخر والصلبان، ولمّا صرنا إلى الطاق الأول الذي فيه غرفة منام الأستاذ وخزانة الكتب قرعت جوزيفين الباب. فخرج صوت فيه أنّة ضجر مع شيء من الغنّة يقول: ادخلي.

ووراء هذه الصوت دندنة تأوّه:

ـ كنت ظننت أنك متّ وكنت تسلّيت بذلك، فقد أهملتموني كأني لم أكن شيئًا.

ثمَّ زيحت السجوف فأشرق الضياء على الغرفة الغريبة الشكل وظهر من تحت مظلّة

---

(١) القوطي: يقال لِما هو غير روماني أشبه بالعجمي بالنسبة إلى العربي.
(٢) التخليط في الخطّ: هو المجمجة، وفي الأصل gribouillage.
(٣) إفساد السطور يقال له خرمشة، وفي الأصل barbouillage.

مريشة فوق سرير نسويّ رجل مكتّل سوداوي معتمٌّ بقطعة حرير مرقوم من الوشي الهندي نصفه الأعلى محزّم بأصواف لا تُعدّ ولا تُحصى. خلقةٌ تخطر ببالك المريض الوهمي. ولكن ما لبث الأصواف أن أخذت تتقلّص فظهر من ورائها الشعر الأبيض الفضّي سائلاً فوق شقق الخزّ وبدت أرنبة أنف محدّدة تهزأ وتنخر.

ـ ما هي حال الجوّ؟

ـ جوّ الفصل؟

ـ لا تريدين أن تحملي مسؤولية شيء. ومَن هذا الذي هناك؟

ـ المسيو بروسون.

ـ سامحني يا صديقي الشابّ على أني حمّلتك رؤية مكارهي. أتعلم كيف قضيت ليلتي؟ مثل المحكوم عليه بالسجن المؤبّد، إذا دخل المطبق. فالحمّى لم تمهلني ساعة واحدة فأخذت أتلهّى بقراءة تأسيت[1] وكازانوفا[2] فإن دام هذا فأنا تقريبًا في المقبرة.

فاعترضت جوزيفين:

ـ لا تصدّق ممّا يقول ولا كلمة. فقد سمعته من غرفتي التي هي في الطاق الأعلى يغطّ غطيطًا كأنّما ينفخ في الصور.

وكان على مائدة صغيرة، من زيّ لويس الثالث، عشرة مجلّدات في وسطها مقاريض ورق غريبة الشكل. وقنّينة ماء معدني مجاورة لدواة من قصدير ومسرجتان من مسارج الكنائس عليهما شموع من النوع الأصفر، قد فني نصفها وهي شموع لا توجد إلاّ في الكنائس. ولا شكّ أنَّ جوزيفين كان ينبغي لها أن تقصد مخازن مخصوصة لشرائها فلم يكن ينقص عندها إلاّ القدّاس، وكانت أنوارها الدينية تضيء ما هناك من صور كازانوفا[3] الطبيعية.

وبينما صاحبنا يشكو تلك الحالة السيّئة التي قضي عليه فيها بالضعف والهرم والعجز والموت إذ رأيته نطح الزاد بحماسة شديدة فلا الشوكولاتة ولا الفطاير ولا الشواء بقي منها شيء. فكانت حرارة معدته دامغة تكذّب ما سبق من شكواه. وكان مع ذلك يقول: أنا شيء تافه. قل لي بعيشك ماذا أصنع هنا؟ ويا ليتهم يتركونني براحة، بل جميع مزعجي الدنيا تعاطوا كلمة واحدة وهي أن ينغّصوا عيشي.

(١) جاءت هكذا في النصّ، والمقصود هو تاسيت، وهو مؤرّخ روماني بليغ العبارة طائر الذكر.

(٢) كازانوفا رحّالة من البندقيّة، كان قصّاصًا لطيفًا ولكنّه كان ماجنًا خليعًا.

(٣) هذا أخو كازانوفا الأول، وكان مصوّرًا ماهرًا للرياض والطبيعة.

ثمَّ أشار بملل زائد إلى البريد الملقى على اللحاف. وبين اللقمة واللقمة جمع ما هناك من مكاتيب وجرائد ومجلاّت وكتب وانتهى من النظر إليها. ثمَّ قال وهو يرمي الكتب إلى الأرض.

ـ إلى المغطس، إلى المغطس!

فلمّا رآني عجبت من ذكر المغطس في هذا المقام، قال:

ـ هناك على جنب هو الحمّام. وفيه مغطس كسائر المغاطس لكنَّه مغطس مسحور. مغطس جنّي. أراك تضحك أيّها الشقيّ الصغير! فإذا قلت لك إنَّ هذا المغطس هو أكبر من الحمّام نفسه لم تصدّقني. ومع هذا فهذه هي الحقيقة. لا شكّ أنَّ المهندس الذي هندس هذا الحمّام كان ذا عبقريّة قائمة بذاتها. فقد أراد أن يوفّر من المساحة فأحدث هذه الطرفة البديعة: حمّامًا لطيفًا إلاّ أنه يستحيل الاستحمام به لضيقه. ولمّا كان لا بدّ من أن يكون لكلّ شيء فائدة في هذه الدنيا فقد جعلت هذا المغطس الذي لا يسعني أدخل فيه لوضع الكتب التي أُرشَق بها. فإذا امتلأ الحوض وقال قطني، جاء أحد تجّار الكتب العتيقة فاشترى ما فيه. والسعر محدود. فمهما كانت الكتب وأيًّا كان مؤلّفوها وسواء كانت نظمًا أو نثرًا فالسعر خمسون فرنكًا. وأول مرّة جاء الكتبي وساومته على الصفقة كنت أرتجف قليلاً. وكنت أقول في نفسي لو تقاضاني خمسين فرنكًا، بل مائة فرنك على أن يرفع هذه الأكمة من هذه السفاسف لما كان كثيرًا، وإذا به هو قد أخرج ورقة بخمسين فرنكًا وناولني إيّاها: هذا، ثمَّ انتهى من الكتب إلى الجرائد والمكاتيب فوضع على حدة «الأومانيته»[1] و«الأكسيون»[2] و«الفيغارو»[3].

ثمَّ قال لي: يا حضرة الناموس[4] خذ هذا البريد. فإنَّ صاحب السرّ ينبغي كما لا يخفى أن يكون حافظًا أسرار سيِّده. هذه الأسرار العظيمة التي هي في هذه الأوراق! فأنا أعتمد على أمانتك في حفظها. والحقّ أنه لا يجوز الاعتماد على أمانة أحد فأقذف بهذه الكناسة كلّها في النار فيكون أقرب طريقة.

---

(١) L'Humanité: جريدة الاشتراكيين الكبرى والآن هي لسان حال الحزب الشيوعي.

(٢) L'Action: جريدة كان أناتول فرانس يكتب فيها.

(٣) Le Figaro: جريدة شهيرة بحسن الإنشاء، تميل إلى حزب اليمين.

(٤) الناموس: صاحب السرّ.

فلمّا رآني تردّدت قليلاً في القذف بها ندهني: في النار! في النار! إلاّ إن كنت تريد أن تجاوب على جميع هذه المكتوبات، فهذا شغلك إن كنت تريد.

انظر إلى نفسك

على أنه أنقذ من النار مكتوبًا واحدًا، قال عنه: أمَّا هذا فإنِّي أقرأه. هو من مجنونة تكتب لي كلّ يوم، داعيةً إيّاي أن أنظر إلى خلاص نفسي. تطلّع إلى الغلاف فإنَّه محرّر عليه بألوان مختلفة، ف "مسيو" هي بالأزرق و"أناتول فرانس" بالقرمزي و"من الأكادمي الفرنسوية" بالأخضر ولا أعرف هذه الململومة [1]، وإنَّما أشكرها على اهتمامها هذا كلّه بخلاص نفسي. وعلى فرض أنها ملموسة، فليست بأشدّ جنونًا من كثير من بنات جنسها. ولاحِظْ أنها تغريني بإنقاذ نفسي، ممّا يدلّ على أنَّ قضيّتي ليست ممّا لا تقبل فيه التوبة. لا جرم أنَّ رسِيلة رنان كانت أشدّ قسوةً فقد كانت تكتب إليه كلّ يوم: "اعلم أيّها السيِّد أنَّ هناك جهنّم" آه أيّتها الململوسة عندنا الأرض فهي كافية.

ثمَّ قفز أناتول فرانس عن سريره برشاقة الشباب وأخذت جوزيفين تعاونه على لبس سراويله التي من نوع سيقان الفيل وتناوله قباءه الناعم وكانت وهي تعقد له زمّاماته تقوّيه قائلة له:

مَن تراه أشدّ منك عضلاً وأنت لا تزال تشكو وتئنّ، مع أنك تنام نوم القطط وتأكل أكل الذئاب.

ثمَّ اتّخذتني شاهدًا.

ـ قد رأيت ساقَيه؟ يظنّ الإنسان جسده جسد غلام من شدّة غَدَنه، فهو أبيض مثل شحم الدجاجة. لكثيرٌ من الشبّان يشتهون أن يكونوا مثل السيِّد.

فهذا التقريظ لم يغظ الأستاذ، فقال لها بصوت رقيق:

ـ جوزيفين، أنت امرأة جيّدة وأنا مسرور جدًّا بوجودك عندي لأنك ذات قيمة عظيمة لي.

يا لها من كُمّة

فأتت جوزيفين بسلّة صغيرة ملأى بأصناف الكُمَم [2]، فصار الأستاذ يأخذ الواحدة

---

(١) الململوم: الذي به لَمَم أو طَرَف من الجنون.

(٢) جمع كُمّة، وهي للقلنسوة المدوّرة لأنها تغطّي الرأس (الناشر).

ويجسّها ويتقلنس بها ثمَّ ينزعها ويرمي بها ويأخذ غيرها. وكان هناك ما يستحقّ التردّد لكثرة الكمم وكون كلّ منها أحسن من الأخرى. فمنها من الخزّ ومنها من القطيفة ومنها من الكتّان ومنها ما ينزل إلى ما فوق الأذن، مثل قلنسوة البابا وبعضها كقالب السكّر يشبه الطربوش. فاختار في الآخر قلنسوة من نسيج جوي (١) ولبسها، وقال: الآن سنشتغل. فما لبث أن تكاثر الزوّار.

حامية المنزل

التجأنا في هذا الصباح إلى المكتبة الكبرى بإزاء غرفة النوم. وكان فيها موقد كبير على شكل قفص من حجر وسجّادات مقلوبة تجعل ما وراءها أشبه بمنتبذ عزلة. وفي الخزائن، وراء ألواح الزجاج تماثيل من تناغرا (٢) وآنيّة أترورية (٣) وآنيّة مصرية. وفي خزائن أخرى مجلّدات عليها رسوم وشارات ومداليّات، وإلى جانب النافذة مائدة واسعة من خشب السنديان. وبالإجمال فهذه الغرفة كسائر هذا القصر أشبه بدار التحف المنسوبة إلى ڤيكتور هوغو. وقبل أن يجلس على الكرسي التي فيها، من طراز لويس الرابع عشر، أخذ أناتول فرانس يرثي تمثال الزهرة (٤) المهشّم المنصوب على قاعدة متحرّكة ثمَّ شرع بواسطة مِلوىً بيده يدير تلك الآلهة ويجسّ لها بطنها وحقوها.

ـ انظر ما أجملها! هذه حامية المنزل، اشتريتها من رومة لكنَّها من بلاد اليونان في الأصل، تعرف ذلك من شكلها ومن جنس المرمر. فلنضع نفسنا تحت حمايتها قبل أن نبدأ بشغل العذراء (جان دارك).

أتظنّ أنها كانت حقًّا بكرًا؟ فلتكن كذلك من سوء حظّها. لو تعلم كم عانيت حتّى تمكّنت من أخذ زهرتي هذه من رومة، فإنَّ الحكومة الإيطالية كانت تمنع إخراج التحف من رومة ولكنّي تعرّفت إلى الأب فلان الفرنسوي الذي كان من حاشية البابا. وكان في الوقت نفسه أشبه بمدير مصلحة أثرية. ومن غريب أمره أنه يتوسّط للناس بمقابلة البابا وبأخذ ذخائر مقدّسة وبنيل رخص زواج وطلاق وألقاب شرف ومداليّات وتماثيل الزهرة وغانميد (٥) ولم يكن فاتحًا دكّانًا

---

(١) Jouy بقرب فرساي.

(٢) Tanagras من بلاد اليونان، كانت في الغابر موصوفة بصناعة التماثيل.

(٣) بلاد أترورية، هي ما يقال له اليوم توسكانة من إيطالية، أهلها من الجنس الآري أصلهم من آسية الصغرى، تفوّقوا على سائر أهل إيطالية بالعلم والتهذيب وكانت لهم في القرن الخامس عشر قبل المسيح اثنتا عشرة جمهورية متحالفة فيما بينها. ويُنسب إلى أترورية أجمل الآنية الخزفية. وأتقنوا كثيرًا من الصناعات كالبناء والحفر والترصيع ممّا نقلوه من الشرق وأخذوه عن اليونانيين.

(٤) آلهة الجمال في أساطير اليونان، وُجدت من زبد البحر ويصوّرونها دائمًا خارجة من بين الأمواج تثني ذوائبها.

(٥) غانميد (Ganymède)، أمير طروادي، في الأساطير أبوه "تروس" وأمّه الجنّية "كاليروهة"، اتّخذ المشتري مرّة شكل نسر فاختطفه وجعله ساقيًا عند الآلهة.

علنًا ولكنَّه كان يترقّب السيّاح عند ورودهم فيدلّ على باعة الآثار العتيقة وعلى الشريف الروماني الذي مسّه الفقر فصار يتخلّى عن بعض التحف النادرة. وكان الأب المذكور يأخذ العُمالة من البائع والشاري. جاءني إلى الفندق وبيده جدول آلهات وعناوين وكان يطري بضاعته أيّما إطراء».

مخطوط جان دارك

جذب أناتول فرانس جرسًا صغيرًا كنسيًّا فجاءت جوزيفين، فقال لها: هاتي الكيس.

فذهبت وأتت بكيس يكاد يكون طنفسة، فقال: ضعيه على السجّادة.

«أتعرف يا صديقي الشابّ ما هذا؟ هذا مخطوط جان دارك. تجد هناك نحو ستّين كيلو من الورق، فهي كلّها لك فاحرق ومزّق واطلس [١] ما شئت، أصبحت لا أريد أن أضع هناك أنفي. فإنَّ هذه العذراء قد أعيتني. فقد مضى عليّ عشرون سنة وأنا أدور حولها. فلا أعلم من أيّ طرف أمسكها وكيف ما أراد أن يقصّ قصّتها الإنسان وجد ساخطًا أو معترضًا. فأهل الاعتقاد يرموننا بالزندقة وأهل الإلحاد يتّهموننا بالرئاء. والعقيلة [٢] لا تريد أن تسمع بقصّتها، وتؤثر التواريخ العصرية. إنَّ حياة جان دارك يجوز أن تكون كـ «حياة يسوع». أفلا ترى أنهم جادّون في درج جان دارك في صفّ القدّيسين؟ فيجب أن نكمل بناءنا الجمهوري الحرّ قبل أن ينصّ القسّيسون جان دارك على مذابحهم. فحيهلاً بهذه المخطوطات ولا تضع الوقت».

ففككت هذه الدفاتر التي كانت ملزوزة بملفّ مربوط بدبابيس من دبابيس المرضعات، فتناثرت على البساط المكاتيب والغُلُف وبطائق الزيارة والمناعي وبشائر الأفراح وقصاصات الجرائد ورقاع الباعة وتذاكر من كلّ نوع.

«إنَّك لم تكن تنتظر يا حبيبي القرويّ الصغير هذه البلبلة كلّها: فاعلم أنني أنا أشتغل في محاطّ السكك الحديدية وعلى الطرق، لأنَّ السيِّدة العقيلة عندها هوس السفر فلا تستقرّ بمكان. ففي القيظ كيبرون [٣] وبريتانية [٤] وفي الخريف الجيروند [٥] وقصور اللوار. وفي كلّ يوم على

---

(١) طلس الكتابة محاها ثمَّ كتب محلّها.
(٢) Madame هي التي سبق ذكرها في أول الكتاب.
(٣) من سواحل فرانسة.
(٤) ولاية ساحلية أيضًا.
(٥) جهات بوردو.

الأقلّ ثلاث كنائس وخزانتا تحف وعشرة دكاكين عاديّات هذه تبغي أن تطوف بها. وإنّما هي ترضى بباريز أيام الشتاء، حتّى إذا بدت تباشير الربيع لزم أن نقمص من قطار إلى قطار ونطوف بين رومة وفلورنسة ونابولي. فأنا جوّال في الآفاق. وليس هذا بعائق لمَن يعاني تحرير التواريخ العصرية أو جمع النوادر ولكنّه لم يكن ليلائم مَن يعاني جان دارك. إنَّ ثمّة فِقَرًا كثيرة منسوخة عن كتب لم أعد متذكّرًا لها. ولكنّك ريّان من الاطّلاع والصبر وميعة الشباب. فأنا أفوّض أمري إلى محبّتك. ومن باب الرأي عندي توزيع العمل، فإذا قسّمنا الأبواب فالكتاب كلّه يصير في ذهني وأظنّه سيكون مجلّدَين. ويجب أن نجيد قسمتهما بحيث يكون الأول آخذًا برقبة الثاني. ومن اللازم الاعتناء باستدراج القارئ، لأنَّ هذا ـ وقد لحظت ذلك أكثر من مرّة ـ عندما يبدأ بالجزء الثاني من كتاب يكون قد شبع من الأول وأجَم [1] الزيادة. فتفاديًا من أن تقلّ رغبة القرّاء في الجلد الثاني علينا أن نوكئ هذا جيّدًا».

ثمَّ فتح كتابًا مجلّدًا بأديم مراكشي مقروظ اسمه «قوانين الأساقفة» فتصفَّحه فلم يجد فيه شيئًا، فغضب وقال:

«هذه هي دائمًا الحال بعينها. جوزيفين. جوزيفين. (ثمَّ قرع الجرس). وقال: لا يمكن أن تعرف كم هذه المرأة، التي لا مزيّة لها بشباب ولا بجمال، هي ماهرة في تهيئة أسباب منعي عن الشغل. كان هناك عدّة كفوف من الورق الجيّد المتين الصالح للغُلُف. فلا أرى منها ولا ورقة! ربّما تكون عملتها للفّ الشعر أو اتّخذت منها أغطية لقوارير الحلواء. جوزيفين. جوزيفين. (ثمَّ يقرع الجرس ثانية). ويقول: ألعلّها ماتت. أفتراني أُحييها بدقّ الجريس؟ فلنعمل ظروفًا من هذه الجرائد».

فعملنا الظروف ولم يبقَ علينا إلاّ أن نضع الأرقام عليها.

وكان على المائدة العريضة متاع عظيم من أبدع ما يوجد ومن أندر ما يتصوّر العقل وكتيبة من المحابر من جميع الأعصر وجميع البلدان، منها قصدير ومنها رصاص ومنها خزف ومنها صيني وكلّها ناشفة ناضبة.

فما زال يدقّ الجريس حتّى جاءت جوزيفين.

ـ هل السيِّد مريض؟

ـ كلاّ، لست مريضًا ولكنّني غضبان.

---

(١) كره وملّ (الناشر).

ـ على مَن؟

ـ عليك. لأنه لا يوجد نقطة حبر في كلّ البيت.

ـ ماذا أصنع بالحبر، أأشربه؟

ثمَّ هبطت من السلّم وصعدت وبيدها قنّينة. وما انتهينا من الحبر حتّى جئنا إلى الأقلام. فإنّ جميع المحابر كانت مراشة بأبدع ريش الأوزّ ولكنَّها بأجمعها تصرّ وتحرن عند الكتابة. وثمّة أقلام لطيفة ولكنَّها كلّها تبقّ الحبر. فأرجأنا إكمال الظروف إلى اليوم التالي.

قُبَل غير مطبوعة

عثر على كتاب «القُبَل والمراثي» لجان سكوند [١] وأخذ يشرح أسماء الأبواب والفصول فوصل إل فصل يقول فيه «ملحق ببعض قُبَل غير مطبوعة» لتيسّو [٢].

فقال: يا للحماقة! يجب أن يكون ساذجًا مَن يعتقد أنه يوجد في هذا الموضوع المضطرب شيء غير مطبوع يمكن العثور عليه. فمنذ أول يوم من تكوين العالم بعد أن تلاقى آدم وحوّاء في جنّة عدن بساعتين أو ثلاث عرف كلّ منهما من هذا الأمر بقدر ما عرف سكوند وتيسّو. وإنّي لا أثق كثيرًا بهذه القُبَل الرسمية.

(ثمَّ أورد ملاحظات غير منتظرة على قهرمانات پول بورجه [٣]).

ثمَّ قال: ألا تحبّ الملامسة؟ أمَّا أنا فإنَّني شديد الظمإ إلى المعافسة. أتسامح في كلّ شيء: العمر والحسن ودرجات المعيشة... أميرة أو سُبروتة [٤] هذه كلّها رسوم لا طائل تحتها. فأنا على دين أشدّ ملوكنا غرامًا وهو لويس الخامس عشر الذي كان يقول لوصيفه «لوبل Lebel»: «فلتكن مَن كانت ولكن خذها في الأول إلى الحمّام ثمَّ إلى طبيب الأسنان». فهذا الملك كان رجلاً عظيمًا ولو قالوا فيه ما قالوا فهو يستحقّ بأن يُلقَّب بالملك المحبوب. الحمّام وطبيب الأسنان، فكلّ شيء هو هناك. فالحمّام وحفظ الصحّة هما أدب الحبّ. إذ يلزم أن يكون الجسم كلّه متهيِّئًا. ولا أظنّك أنت من شخوص الجفصين الذين إذا قبّلوا الحسان قبّلوهن بهذا النوع

---

(١) جان سكوند (Jean Second)، شاعر لاتيني هولاندي، ولد في لاهاي سنة ١٥١١ ومات في ١٥٣٦.

(٢) تيسّو (P. Tissot)، أديب فرنسوي، ولد في فرساي، له مباحث ممتعة على فيرجيلوس (١٧٦٨ ـ ١٨٥٤).

(٣) پول بورجه (Paul Bourget)، من أعضاء الأكادمي الفرنسوية، ولد في مدينة أميان عام ١٨٥٢، له تآليف ممتعة ومباحث دقيقة في علم النفس البشرية.

(٤) Soubrette ومعناها الخادم وهي تشابه في اللفظ سبروتة التي معناها صعلوكة بالعربية ولعلّها منها.

البسيط على خدودهنَّ كأنَّما يقبّلون ذخيرة مقدّسة أو حُقًّا كنسيًّا، فأنا أبتغي الزُّهَرة بأجمعها. أمَّا الوجه فهو للأهل والأصحاب والزوج والأولاد. ولشدّة ما يتكرّر هذا الاستعمال تتولّد في الخدود خشونة وشثونة. فالعشّاق لهم الحقّ في المواضع غير المطبوعة، أو إن جاز لنا القول لهم الحقّ في الطبعات الأولى. لقد عرفت بطلان جميع المباحث التي قام بها البشر وفهمت كم قرأوا ما لا طائل تحته وكم حرّروا معلومات ثقيلة باهظة على حياة متناهية في القصر تنقضي في وسط الجهلاء. فيا ليت شعري ما معنى هذه الحمولة كلّها إذا كانت المرحلة إلى هذا الحدّ قصيرة؟ يعجب الناس بسعة اطّلاعي وأمَّا أنا فما عدت أريد أن أكون واسع الاطّلاع إلاّ في مسائل الحبّ. فالحبّ قد أصبح اليوم هو مبحثي الوحيد الخاصّ. وعلى الحبّ أريد أن أحبس ما بقي من حرارة قريبة الخمود. ولا أراني مليًّا بنصّ كلّ ما يُقذَف في روعي من هذا الموضوع. فروح الطهر والصيانة أصبحت غالبة على آداب الدرس. إنَّ المرأة صارت عندي كتابًا يُقرأ وليست كتابًا مفسدًا كما قلت لك. ولا بدّ لكثير التصفّح فيه أن يسقط على موضع منه يجد فيه مكافأته على أتعابه. فأنا أتصفّح وأتصفّح كثيرًا يا حبيبي... ومتى أظفرني الله بمخلوقة من مخلوقات الله فإنّني أطالع هذا الكتاب البديع سطرًا فسطرًا ولا أجوز منه نقطة ولا شكلة وقد أضيّع فيه أحيانًا نظّاراتي.

الكياسة والذوق

كان الغداء يومًا عند السيِّدة العقيلة [1]، فوصلنا عند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر. فقالت: كنّا قطعنا الأمل منكم. وقال زوجها: «ظننتك تترأَس إحدى حفلات الثَّورانيّين. مع هذا هؤلاء يأكلون كسائر الناس وربّما أكلوا أكثر من سائر الناس».

---

(١) يظهر أنه كان لفرانس علاقة مع سيِّدة يقال لها «مادام س.» Madame de C... ولم يتعرّض بروسون لتسميتها باسمها كما لا يخفى من وجوب التكتيم في مثل هذه الأسماء وإن كان مرّ ذكرها كثيرًا في كتابه وظهر من سياق الكلام أنها كانت مالكة لقلب أناتول فرانس. ولكن المسيو نيقولا سيغور في كتابه الذي قيّد فيه كثيرًا من أوابد أناتول فرانس على نمط بروسون قد أشار إلى هذه السيِّدة بمناسبة سفرها إلى أثينا مع فرانس وكان سيغور معهما فأطرى سرعة خاطرها ورجحان عقلها وعلوّ همّتها وكرم طبعها وقال إنّ الغريب كان يمكن أول وهلة أن ينخدع في أمرها، إذ لا تظهر له حقيقة خلقها إلاّ بالمعاشرة. وذكر أنها كانت نافذة الكلمة على أناتول فرانس تقوده كيف شاءت وأنّ نفاذها عليه وقع في مصلحته لأنها كانت تدفعه دائمًا إلى الأمام وتستوري زنده بلا انقطاع، حريصة على أن يبقى لها وحدها دون غيرها ولكن حريصة أيضًا على أن يزداد صيتًا وعلوّ منزلة وسعة عيش ورخاء لبب.
ويقال إنَّه قبل استيلائها عليه كان قليل المبالاة بالسمعة كليل الحدّ، تمضي بضع سنوات بين الجلد والجلد من تآليفه، فما زالت هذه العقيلة تداوله وتساوره حتّى أرهفت حدّ نشاطه ورغبته في أن يواصل التأليف ويوالي أسباب الشهرة وهي التي حببت إليه كتابة القصص الطويلة بعد أن كان مقتصرًا على قصار الأخابير وسرد الأحاديث وكذلك هي التي أنزلته في ميدان السياسة وحفّزته على الجراهية برأيه في دعوى دريفوس. وكانت تفتخر بأنه لولاها لم تكتب «الزنبقة الحمراء» ولا كان «الحجر الأبيض» ولا «مطبخ الملكة بيدوك» إلاّ صفحات قلائل. وهي التي حملته على كتب أخرى لولاها لم تتجلَّ عرائسها ولا برزت نفائسها وكانت هذه السيِّدة بريتونية من وطن أرنست رنان.

ثمَّ قال البعل:

ـ قرأت مقالتك في «الأكسيون»، يظهر أنك غادرت «الأومانيته» هكذا يراءى لي. ألعلّك تركتها حيث رأيتها أملقت. لم أفهم من مقالتك في هذا الصباح شيئًا.

ـ لم أعجب من ذلك لأنني أنا لا أكتب لمثلك.

جيّد. تراني أبلد من أن أفهم آياتك! فإذا كان الإنسان أحمق بليدًا إلى هذا الحدّ فلا يأتي الناس ويتغدّون عنده منذ عشرين سنة.

أناتول فرانس:

ـ هذا ما أقوله لنفسي منذ عشرين سنة.

فوبّخت السيِّدة كلاًّ من الاثنين وقالت: تذكّرا أنَّ هنا سيِّدة.

فقال لها فرانس:

ـ حاشا أن أنسى ذلك. ثمَّ انحنى ومسح شفتيه وسَبَلَتَيْه بمنشفة السفرة وقبّل يدَي السيِّدة.

ثمَّ التفت صاحب البيت إلى أناتول فرانس، فقال:

ـ أقرأت في جريدة «الغولوا» مقالة فلان؟ هذا جواب في محلّه (والعبارة بالفرنسية ça,c'est tapé) وضرب بيده على المائدة.

فقال له أناتول فرانس: c'est tapé! c'est tapé![1] وردّدها.

ـ هذه اللفظة تقال لبعض الفواكه كالكمثرى المسطّحة المجفّفة بالفرن.

السيِّدة:

ـ ها هم أولاء عادوا إلى السياسة.

السيِّد:

ـ على كلّ حال هذه المقالة مقالة رجل وطني وفرنسوي جيّد.

فقال فرانس:

ـ ألا أنَّ هؤلاء الفرنسيس الجيادات لا يكتبون أبدًا بالفرنسي.

---

(١) Tapé تأتي بالفرنسية بمعنى جواب في محلّه، وتأتي بمعنى مجفّف مرقّق بالفرن، فالأول استعملها في المعنى الأول والثاني صرفها إلى المعنى الثاني.

ثمَّ إنَّهما عندما وصلا إلى الشواء أخذا بالمناصحة أحدهما للآخر في أمور الصحّة. فقال صاحب البيت لفرانس:

ـ يا حبيبي فرانس إنَّك لتخطئ في الإكثار من المرق والصِّبْغ فإنَّ الشحوم لا تصلح لك ولا شكّ أنَّ كبدك تؤذيك وهذا ظاهر على وجهك فقد جئتنا بهذا الصباح بوجه كقرص العجين.

فرانس:

ـ ما هذا التغيّر فيك فتوشك أن تصير أهتم. انظري أيّتها السيِّدة فقد سقطت له سنّ وسنّ طاحنة. ومَن يسمع كلام أهل العلم يعلم أنَّ هذا هذه هي الأسنان المفيدة في المضغ. فانتبه لنفسك يا صاحبي، ففي السنّ التي أنت فيها يعتبر سقوط السنّ علامة سيِّئة.

ـ أمَّا أسنانك أنت ولله الحمد فجيّدة متينة. ولكنَّني لا أتمنّى لنفسي الصفراء التي عندك.

فرانس: .

ـ ومَن قال لك إنَّني سأنزل لك عنها؟

وما كادا يصلان إلى الحلواء حتّى شرعا يتقارضان النصائح بإعادة النظر. فأخذا يحصيان الغضون والشعرات البيض والأضراس المتقلقلة والعاهات الأسواء. وكانا يشخّصان أدوى الأمراض، حتّى تخال أنه لم يبقَ إلاّ استدعاء كاتب العدل والقسّيس وترتيب برنامج المأتم. فحاولت السيِّدة أن تطهّر المكان من رائحة المستشفى التي ملأته فخاضت في حديث التحف النفيسة وذكرت ما عند الدكتور ب. من هذه التحف وقالت إنَّه ذو ذوق لا مزيد عليه. فامتعض زوجها من هذا الاقتضاب، وقال:

ـ ما هو الذوق يا سيِّدتي. متى كان الإنسان غنيًّا كان سليم الذوق. لأنه إن لم يكن صاحب ذوق مباشرةً أمكنه بماله أن يستخدم مَن هم أصحابه.

فرانس:

ـ يوجد أناس يملكون الذوق ولكنَّهم لا يملكون الأدب والكياسة، إذ قد يوجد هذا بدون ذاك. فالذوق هو الشعور بالجمال وأمَّا الكَيس فهو حسّ الإنسان بما هو لائق.

صاحب البيت:

ـ معلوم سيِّدي فرانس أنك صاحب ذوق وكَيس معًا. وأنت يا سيِّدتي فهل أنت من أرباب الذوق؟

فتبسّمت العقيلة ولم تجاوب أولاً. ثمَّ أخذت تلعب بأدوات السفرة وبعد هنيهةٍ نظرت إلى زوجها، وقالت:

ـ لم أكن دائمًا صاحبة ذوق...

ثمَّ نظرت إلى وجه أناتول فرانس، وقالت هذه الجملة:

ـ إلاّ أنني والحمد لله قد اقتبسته.

صندوق المرائي

وبعد الطعام تناولوا القهوة في البهو الأحمر من الطاق الأول وأخذوا يتسلّون في النظر بصندوق العدسيّات إلى صور ومناظر قديمة. فكان فرانس هو الذي يضع الصور في الصندوق وراء البلّورة وينغم من أنفه: هذه بيعة ماري بطرس، أُمّ الكنائس كلّها... مائتا كنيسة في وسط كنيسة! وخمسة وثلاثون رتاجًا! ومائة وخمسون صومعة! وخمسون قصرًا وستّة عشر قوس نصر...إلخ، ألف صورة وألف تمثال... الكوليزه[1] الملهى الذي بناه فسبسيانوس[2] ودشّنه تيطس وحسّنه دوميتينوس، كان يسع خمسة وأربعين ألف مشاهد.

فسألت السيِّدة:

ـ أأنت على ثقة بما تقول؟

ـ نعم، يا سيِّدتي كما بالإنجيل.

ـ هناك يا سيِّدي كان يؤتى بالمسيحيين لتطلق عليهم السباع الضواري.

ـ نعم، هناك وفي أماكن أخرى ولم يوفّوهم كيلهم غير منقوص.

ـ ماذا تقول أيّها السيِّد. ألا أنك دمويّ شديد.

---

(١) يقال إنَّه كان لهذا المرزح ثمانون صفًّا وإنَّه كان يسع ثمانين ألف مشاهد، ولكن أناتول فرانس أعلم.

(٢) فسبسيانوس (Vespasien)، إمبراطور روماني، ولد سنة ٧ للمسيح ومات سنة ٧٩ وأهله من قرية بقرب "ريات Réate"، ترقّى في الدولة ووُلّي المناصب العالية وعهد إليه نيرون بالتنكيل باليهود، سنة ٦٦ وفي أثناء مقامه بالشرق حصلت ثورة في رومة فقام أعوان فسبسيانوس وأسقطوا الحكومة ونادت به الولايات الشرقية كلّها إمبراطورًا فأقام مدّة بالإسكندريّة ثمَّ ذهب إلى إيطالية وفوّض إلى ابنه تيطس إكمال التنكيل باليهود وانصرف هو في رومة إلى الاصلاحات الداخلية وأرضى الخاصّة وأظهر الحزم ولكنَّه بالغ كثيرًا في ضرب الضرائب والمكوس وكنز الأموال. وكان من جملة الرسوم المضروبة شيء على المراحيض العمومية فقال له ابنه تيطس في ذلك فناوله الإمبراطور قطعة من الفضّة، وقال له: خذ فشمّها. ثمَّ قال له: ليس للدراهم رائحة. فسارت هذه الجملة مثلاً في معنى الربح الذي لا يحمد أصله. واشتهر فسبسيانوس في العمارات والأشغال النافعة وجدّد معاهد كثيرة منها الكابيتول والفوروم وهيكل السلام. وعند موته أشار إلى قرنائه أن يشيلوه عن سريره قائلاً: إنَّ الذي يكون إمبراطورًا يجب أن يموت واقفًا. وهكذا مات بين أذرع قوّاده. وترك ولدين تيطس ودوميتينوس.

ـ دموي! دموي! انظري إلى الصورة تري الثلمة.

ـ قد رأيت الخراب.

ـ مَن ذا الذي خرّب بناء ديوكلاتينوس؟ مَن ذا الذي كان أشدّ القوم قسوة؟ هم المسيحيون يا سيِّدتي. المسيحيون. لا أحد لا يعلم عدد الكنائس والصوامع والقصور والأيوانات التي بُنيت من حجارة هذا الملهى الحزين. فلو كانوا دفعوا إلى الضواري تلك الحشارة اليهودية كان البناء سالمًا وكانت نفوسنا هي سالمة.

ـ مهلاً يا سيِّدي لا يأخذك كلّ هذا الغضب، هذا جرى في الأزمان الغابرة. أتريد أن تحسو شيئًا من الشراب؟

ـ نعم، شيئًا من الشارتروز. وأخذ يشرح على الصور التي يلقيها في الصندوق، ثمَّ قال:

ـ ربّما تعجب يا حبيبي من كوني أقمت بنفسي دليل بلد فإنَّ لي أسوة بسلفٍ كبير هو ڤولتير الذي كان عند مادام شاتليه يطلع الحضور على الفانوس السحري بينما الحسناء إميلي في زاوية من البيت تهامس "سان لامبر"[1] وهكذا فقد آل الأمر إلى أن ولد لها منه وكان ولد الفانوس السحري. والحالة هنا غير تلك لأنني أنا رقيب!

سينّا[2] في الفونوغراف

بعد المرائي جاءوا إلى الحاكي.

ـ أيّة أسطوانة؟ سارا برنار؟

ـ رحماك، هذه ملكة ذوات الخُنّة.

ـ مونَه سولّي.

ـ يبغم كتيوس الظّبا عند الهِياب.

ـ ل.

ـ آه اعفوني من هذا الخروف الثاغي.

ـ پول مونه.

ـ هذا يهلكني. هو عبارة عن حدّاد.

(١) لعلّه سان لامبر (Saint Lambert)، الشاعر الفرنسوي المولود في نانسي سنة ١٧١٦ وكانت وفاته سنة ١٨٠٣، وله ديوان الفصول Les Saisons.

(٢) مأساة لكورنايل، الشاعر الفرنسوي الشهير.

أخيرًا أزلجوا في فم الحاكي أسطوانة سينًا. ومضى الحاكي بها حتّى أتى على خمسين بيتًا. فوثب أناتول فرانس من كرسيّه ووقف بالآلة حتّى كاد يكسرها وتحوّل لونه قرمزيًا وصار يفحص برجله ويصخب، ويقول:

ـ أما سمعتم هذا الوغد القَدم ماذا يقول:

«من مكسيميوس ومنك لا غير أخذت النصائح بالرغم منه فلم أتبع إلاّ التي منك» فانتقد كيفيّة الإلقاء وبيّن أنَّ الإيقاع ينبغي أن يكون على «التي منك» لا على «بالرغم منه»، وقال: هذا المشخّص لا يفهم شيئًا من الدور الذي هو قائم به ولا يحسّ بشيء من اختلاف الألوان.

المطارحتان

ممّا كان بلغ مبلغ التواتر عن أناتول فرانس في شيخوخته أنه نقّاد لامع من أمثال ديدرو[1] أو ريڤارول[2]. وذهب قوم من أرباب المطارحات الحرّة من أهل الصناعة الأدبية إلى أنَّ أناتول فرانس في حديثه كان عبارة عن ثريّا أنوارها من كلّ جهة أو شلاّل يثرّ بالأخبار والشواهد ثرًّا. بحيث يخرج السامع من عنده مخبولاً.

والصحيح، أنَّ هناك فرقًا يجب تمييزه. فإنَّ الكاتب الأكبر كان له طريقتان في الأحاديث: أحدهما طريقة الجلال والأخرى طريقة التبذّل. فأمّا طريقة الجلال فكانت منظّمة مرتّبة كترتيب القطع الموسيقية. فكَمْ من مرّة سمعت العقيلة تقول: «قصَّ علينا القصّة الفلانية» فلم يكن يتدلّل في الإجابة، بل كان يلبّي دائمًا. فإذا انتهى أبدت السيِّدة استحسانها، فقالت: جيّد! عظيم! قد أبدعت! قد تجاوزت نفسك هذه المرّة! وما أشبه ذلك. أو قالت: قد كنت من دون عادتك هذه النوبة. أو: نسيت المحلّ الفلاني، وهلمَّ جرّا. وكانت في أحاديث الجلال هذه تأتي النكات آخذًا بعضها برقاب بعض. وكانت نغمة الحديث تتغيّر بحسب الموضوع ويعلو الصوت وينخفض وأكثر ما تكون النهاية بنغمة فيها شيء من الغنّة. وليحدث أيُّ شيء في المجلس، ولتدخل الملكة سبأ أو الملك سليمان ولنفرض أنَّ الكونتة ز... غشي عليها، فالأستاذ ما كان وهو يقصّ في مجلسه ليقف أو ليقطع ما كان ماضيًا فيه، بل كان يحكي كأنه فونوغراف.

ثمَّ إنَّه كان إذا أتى على موضوع استطرد من نكتة إلى نكتة. وإذا أورد ذكر شخص أتى على ذكر مَن كان يألفه. وما قيل فيه من الشعر. وإذا أنشد شعرًا جاء فيه ذكر رجل، قصّ عنه

(١) ديدرو (Diderot)، فيلسوف فرنسي كبير، كانت له اليد الطولى في النهضة العقلية في القرن الثامن عشر، وكان كاتبًا بليغًا مفكرًا عميق الغور، نقادًا أديبًا، وهو من مؤسّسي الإنسيكلوبيدية، (١٧١٣ ـ ١٧٨٤).

(٢) ريڤارول (Rivarol)، أديب صحفي فرنسي اشتهر بقوّة عارضته وقارص لفظه.

حكايات. وإذا تكلّم عن عصر نقلك إليه كأنك فيه مخالط لرجاله فلان وفلان...إلخ. ويستمرّ هكذا ما دام الناس راغبين إليه في الحديث أو بالأَوْلى ما دامت العقيلة راغبة إليه فيه. لأنها كانت تلعب به كما يلعب المطرب بالسنطير وكان يكفي أن تذكر بعض أسماء مثل شاتوبريان، أو هوغو أو كورناي أو رودين[1] حتّى ينبعق. وكانت هذه الأحاديث المقرونة بالجلال والأبهة هي نعيم الإخباريين والرواة الذين كانوا ينقلون عن الأستاذ ما يجود به، لا سيّما أنّ أناتول فرانس كان محيطًا بكلّ الآراء ومليًا بالدفاع عنها كلّها بحماسة واحدة فكان كلّ فريق يجد عنده ما يغلي به قِدره.

ولكن مَن كان يظنّ أنّ فرانس انتهى هناك فلا يعرف عنه شيئًا، إذ إنّ لفرانس محاضرات أخرى غير رسمية يكثر فيها الأخذ والردّ الصرير والزحير والناقض والمنقوض ملأى بعبارات كهذه «أليس كذلك؟ ومع هذا... ومن الممكن أن... واحذر أن تظنّ... وبعد هذا كلّه فلا نبالغنّ في شيء... هذا صحيح بدون شكّ ولكن نقيضه صحيح أيضًا».

فهذا النوع الثاني من المحاضرة فيه كثير من النجاوى المعقولة. وإذا كان ليس نظير الأول في الجلال فإنّه يمتاز عنه بالتنوّع والتفنّن. فلا يعلم أحد إلى أين يفضي به الحديث ولا هو نفسه يعلم. وهو لا يفيض بذات صدره إلى الخليّ، بل يعنيه مخاطب يصغى إليه فيكفيه ولو لم يكن إلاّ واحدًا.

وأمّا مبدأ هذا النوع الثاني من أحاديثه فسهل جدًّا. فقد يكون تافهًا جدًّا، إمّا ملاحظة بسيطة على زائر أو على عابرة سبيل أو فقرة وردت في كتاب أو في جريدة أو اسم رجل معروف أو امرأة تتحدّث عنها الناس أو متاع اشتراه أو يريد أن يشتريه. وكلّ هذه الأسماء لا تكون إلاّ علّة لانفجار الميزاب. وفي الغالب تجد فاتحة الخطاب في غاية الثقل. وإنّ الإنسان ليحار عندما يرى الرجل الذي اشتهر بكونه أفطن أهل عصره وأحدّهم ذهنًا واقفًا يبحث في سفاسف وهنّات ممّا يرد في تقاويم المنهاج[2] فكأنها عنده أشبه بحصوات ديموستان[3]، لم تكن إلاّ وسيلة لفتح الموضوع وللهينمة اللازمة في أوله. ويمكن أن يقال إنّ أصفى كتّابنا بيانًا كانت بداياته في الأكثر عَكِرة. ثمّ لا يلبث أن يروق السيل ويتكشّف عن شذور الذهب. وما شئت بعدها من شواهد

(١) الثلاثة ورد ذكرهم في غير هذا الموضع. أمّا رودين (Rodin) فهو نقّاش إفرنسي شهير، ولد سنة ١٨٤٠ ومات سنة ١٩١٧.

(٢) Almanach: ظنّ بعضهم أنها محرّفة عن المناخ بالعربي، لكن العلاّمة الطيّب الذكر الدكتور فانديك قال لي إنّها تحريف المنهاج وهو كتاب عربي في التقويم.

(٣) أعظم خطيب يوناني خاصم مدّة خمس عشرة سنة فيليب المكدوني الذي كان طامحًا للاستيلاء على وطنه. يقال إنّه كان يذهب إلى شاطئ البحر ويخاطب نفسه تحت عجيج الأمواج ليتمرّن على المحاورات في مجالس الأمّة، (٣٢٢ ـ ٣٨٤ ق.م.).

وتذكارات وأنساب ومناقشات فهو من بوق صغير من حواشي تقويم بسيط ينفخ حياته كلّها ومكتبته جميعها وأمّا إذا اندرأ فلا يملّ ولا يكلّ ـ ولك أن تقول ـ ولا يرحم. قد اتّفق لي أنني عندما كنت أخرج من عنده على أثر محاضرة من محاضراته هذه أشعر بالإعياء التامّ حتّى كأنّي نقلت جميع المجلّدات التي في خزانة الكتب الوطنية على رأسي.

المظلّة الجنّية

أيًا كان الجو فهو لا يخرج بدون مظلّته وكان في الماضي يحمل محجنًا فقال عنه: "كان محجنًا ذكرًا. أفلم تلحظ إنَّ المحاجن كلّها ذكور أو يقال إنَّها ذكور عندما تباع؟ فالذكور هي أعلى من الإناث في العصي وهي أغلى ثمنًا وهذا ممّا يرضينا نحن الرجال. وكنت حيث مررت أسلك بعصاي فتخةً عليها اسم المكان والتاريخ. وهذه الحلقة تكون فضّة أو ذهبًا بحسب طاقتي المالية إذ ذاك إلى أن انتهى الأمر بأن صار محجني أشبه بعصا مطران. وصرت مفتخرًا بها فعاقبني الله على كبري وسرقوا لي إيّاها. فلهذا أنا أحمل المظلّة عوضًا عن العصا، فكيف ترى مظلّتي؟ لشدّ ما أراك باردًا بالنسبة إلى مظلّتي. مع هذا فإنّي اشتريتها في رومة في ظلّ بانطيون أغريبّا[١] وستقول لي إنَّ هذا لا يزيد قيمتها. قد دفعت في ثمنها ١٨ فرنكًا و٩٥ سنتيمًا، فانظر ما أصلب عودها. لقد تحمّل هيكلها المعدني بدون أن ينثني ريح جبل "سورّات" الذي طالما أورث هوراس[٢] الزكام. وأمّا نسيجها فهو من استبرق شديد الحبك، فيه جانب غير قليل من حرير أميركا. وكان لونها أسود فتحوّل بسبب الأمطار إلى لون خوخي كَرِك[٣] ولم يشنع ذلك منظرها. ثمَّ إنَّ هذه المظلّة وإن كانت رومانية فهي ألمانية الأصل. لأنَّ المخازن هناك والصيدليّات ودكاكين الكتبية كلّها جرمانية. وليس ذلك ببدْعٍ فألمانية جِنّة عبقر. لو لم أكن أخشى غضب هؤلاء السيِّدات المشؤومات الجامحات لسردت عليك قصصًا عديدة تحملك على أن تبجّل مظلّتي[٤]. ولكنّني لا أراك جديرًا بحمل هاتيك الأسرار. وقصاراي أن أقول لك إنَّها شمسية لا تضيع أبدًا. فطالما أضعتها عند بائع العِتقي أو الكتبي أو بيّاع التصاوير فكانوا دائمًا يعيدونها إليّ. وما هو السبب يا ترى؟ ألكون باعة الآثار العتيقة هم أحفظ الناس للأمانات؟ الجواب: قد يكون ذلك. وربّما كان من كونهم لم يستلطفوها. فلو كانت أجمل ممّا هي لربّما كان أطغى الشيطان

---

(١) Panthéon d'Agrippoa: بناء في رومة لعبادة جميع الآلهة شاده فيسبسانيوس أغريبا، القائد الروماني، صهر أغسطوس ووزيره (١٢ ـ ٦٣ ق.م).

(٢) شاعر روماني، عاش في زمان أغسطوس.

(٣) الكرك الأحمر: يُستعمل للون الخوخ. وفي الأصل الفرنسي Prune de Monsieur وهو من أنواع الخوخ.

(٤) ليت شعري ما عساه أن يقول أكثر ممّا قال عن مظلّته؟

أحدهم بأخذها. ولمّا كنت أضيّعها كلّ أسبوع ثلاث مرّات وكلّما أعيدت لي أدفع دائمًا فرنكين اثنين حلوانًا فكَمْ كلّفتني مظلّتي إذًا منذ ستّ سنوات. مذ اشتريتها تحت ظلّ البانطيون؟ ليس دماغي رياضيًا وإنّي لآسف من جرّاء ذلك.

دستور الإيمان

قال بروسون:

ـ بينما كنت أقرأ الوصايا العشر مفتتحًا بالأولى "إلهًا واحدًا تعبد" عقّب أناتول فرانس بقوله: "كلاّ، تعبد جميع الآلهة وجميع الهياكل وجميع الآلهات".

ثمّ قال:

ـ الزمان لا يحفظ شيئًا ممّا يُعمَل بدونه.

وقال:

ـ أجمل المواضيع أبسطها وأعراها للناظرين.

وقال:

ـ إذا عثرت على قول أحسن قائله فلا تتردّد أن تنقله وأن تشير إلى منبعه. فإمّا أن يكون قرّاؤك عارفين بمأخذ تلك الجملة وعليه فالاحتياط عبث، وإمّا أن يجهلوه فتكون أخجلتهم وبذذتهم.

وقال:

ـ أصقل دائمًا عبارتك فينتهي الأمر بأن تنجلي.

ملاهي نهار الأحد

كان صباح الأحد عنده يوم زَوْر[1] في مغنى سعيد، لكن الزوْر كانوا من خُلصائه، فالجلسة لم يكن فيها من الجلال والأبهة ما يكون عادةً في جلسات نهار الأربعاء. وكان الفصل الأول من المقابلة في المكتبة والفصل الثاني في غرفة النوم. وكان فرانس قد رجع إليها ليلبس ثيابه. فارتدى يومئذٍ سترة وقميصًا مكويًا مرشوشًا بالنشا له بَنِقة[2] واقفة وبدلاً من ربطة الرقبة الزرقاء ذات

(١) الزوَر: بالفتح، الزيارة والزور أيضًا الزائر، يقال للمفرد والجمع والمذكّر والمؤنّث. ويوم الزوَر بالفتح أيضًا من أيام الحروب عند العرب.
(٢) البَنِقة: ما أحاط بالعنق من القميص، استعملناها مكان القبّة التي ليست من فصيح اللغة بهذا المعنى وإنّما قد ورد القب بالتذكير لِما يدخل في جيب القميص من الرقاع.

الحمّصات البيض لبس صدرية زرقاء مفضفضة من حرير مرقوم وغرز في وسط هذه الصدرة لؤلؤة. وكان يلبس ثيابه على مرأى من الزائرين بدون أدنى احتشام، فجوزيفين تناوله القميص والكلام لا ينقطع يخاطب به نفسه ولم نشعر بوقفة عن الكلام إلاّ لحظةً بينما أخذ ينظّف أسنانه.

ثمَّ انصرف الزائرون فخرجنا إلى جادة هوش Hoche وكان الأستاذ عابسًا باسرًا لا يروق له منظر هؤلاء المتنزّهين نهار الأحد.

ـ هؤلاء أحسن مشوارًا [1] في ثياب الشغل. انظر كيف هم في هيئة مستعارة بهذه الأثواب التي واحدها التامّ بخمسة وثلاثين فرنكًا. وكان هذا شأننا نحن لو كنّا نلبس الدرّاعة طول الأسبوع. ثمَّ أخذ يتأوّه على حالة الصغار المتزيّين بالبزّة البحرية.

ـ أرأيت هذه العائلة يا حبيبي؟ هؤلاء عند من أبصرهم مأمورون صغار في النظّارات أو تجّار زبدة. قد كلّفوا أنفسهم الخروج ليتغدّوا عند نسيب أو صديق أو حريف. وهم يرون حتمًا أن يلقوا بجرانهم ذلك اليوم على أحد. فالسيِّدة ارتدت ثوبها الأطلس يومئذٍ وعطفت عليه رداءها القصير. والسيِّد متحزّم كما في يوم عرسه العصيب. ولكن جميع الشدّ وقع على الولد الصغير، فانظر إليه وهو يحرّك أصابعه في قفّازه الجديد، فإنَّه لابس قفّازًا وأحذية لامعة وعنده صفّارة معلّقة ببند وهي علامة القيادة. وهو ضعيف قليل الدم كأكثر أولاد باريز وعلى جبينه يقرأ «غير قابل الانقياد» فالسيِّدة مزهوّة كشهر أيّار. والسيِّد معجب بالسيِّدة وبغلامه. والثلاثة فرحون جدًّا بما لديهم. فهل تدري كيف تنتهي هذه القصّة؟ تنتهي دائمًا بعراك وكسعة من وراء الألية. ويا ليت اللبطة للسيِّدة! كلاّ... بل الغلام هو الذي يأكلها على أليتَيه الصغيرتين. وعلى كفله تجمع فذلكة حساب نكبات اليوم كلّها. ولا يعدمون لذلك علّة. أمَّا أنه أحدث في سراويله وفي سراويله الجديد! إذ لو كان في القديم لهان الأمر. أو أنه أضاع أحد فردتَي قفّازه أو لم يجلس جيّدًا على السفرة. أو تشهّى أكلاً لم يكن على الخوان. أو رفض طعامًا قدّموه له. أو قال شيئًا غير مناسب... أي أنه تكلّم كما يتكلّم الأب أو الأمّ. يا حبيبي لا يوجد شيء أشدّ هولاً على غلام باريزي من حصّة نزهة في يوم أحد. عرفت ذلك بنفسي.

استنطاق

كنّا على المائدة عند السيِّدة. فإذا بالنغمة قد تغيّرت وصارت أشبه باستنطاق في دائرة شرطة. والسيِّدة هي المستنطق.

---

(١) منظرًا (الناشر).

ـ مَن كان عندك هذه الغداة؟
ـ ما كان أحد.
ـ ما كان أحد؟ أو عشرون مملّقًا ومستشفعًا ومن طلاّب المقدّمات لكتبهم أو التقادم أو الأوسمة أو بغيان التواصي الخطّية أو سماسرة النساء أو وسطاء الوزراء...
ـ ما من أحد سيِّدتي. اسألي بروسون.
ـ تعوّذت بالله. ما عليك إلاّ أن تنظر إلى أنفه! ألم يكن عنده نساء؟
ـ كلاّ يا سيِّدتي.
ـ لعلّهن نساء أدب.
ـ إذًا لا يحسبن نساء.
ـ كلّه يمشي عندك نظرًا لقلّة ذوقك.
ـ استجدّ ذوقي هنا (قال هذا وقبّل لها يدها).
ـ إذًا تركوك هذه المرّة بسلام. وماذا صنعت إذًا هذه الصبيحة؟
ـ اشتغلت أنا وبروسون بجان دارك.
ـ يقول إنَّهما اشتغلا بجان دارك! بالعذراء (قالت هذا والتفت إلى زوجها).
زوجها:
ـ هذان كذّابان هبّالان. انظري إلى وجوههما يتّفقان كلصَّين في سوق. ربّما كان عندهما عذراء هذا الصباح، لكن ليست بعذراء أورليان.

إثبات وجود في غير محلّ الجرم

ـ عذراء أورليان عندي هي سدّ الصين. فإنَّ السيِّدة قد شنّت الغارة على حياتي كلّها. وهي تقحم أنفها في كلّ شيء. وإنَّما تمقت جان دارك. فلهذا صارت جان دارك موئلي وغابي المقدّس وهي «أرقاديتي»[1] ووادي «تمبي»[2] عندي، كلّما ساء خلق السيِّدة معي هربت منها إلى عذرائي فلهذا لست مستعجلاً في أمرها.

(1) Arcadie: جبال في بلاد اليونان، يقال إنَّها كانت مأوى الرعاة الذين على الفطرة السليمة.
(2) وادٍ بديع في بلاد اليونان تغزّل به الشعراء.

مشدوه[1] وسهوان[2]

نهض هذا اليوم نشيطًا ضاحكًا بخفّة الشباب فأسرع في لبس ثيابه وأقصر من تزيّنه وتشوّفه وزرّر بنفسه نعاله تفاديًا من أن تشعر جوزيفين فتأتي فتزعجه لأنها "امرأة مفتّنة مُدْنقة[3] إذا بدت لا تنتهي"، ثمّ قال: الجوّ ضاحك اليوم فما من جان دارك هذا النهار وإن النزهة لإحدى اللذّات، قال عنها ڤولتير "هي أولى الملاذ التافهة" فيمكننا أن نغتنم فرصة هذه الصبيحة الفضّية لنذهب على الأقدام إلى شارع مازارين وشارع السين، تلك الأحياء التي فيها باعة الكتب القديمة، والآثار العتيقة والطروس المصوّرة فإن ثمّة خزائن تحف في الفضاء الواسع.

ثمّ نزلنا مهطعين نمشي على رؤوس الأصابع وفتح الباب بكلّ تؤدة فتحة عاشق أو سارق، قائلاً: "لا ندعنّ السعلاة[4] تنتبه" ثمّ خرجنا جادّين في المشي وهو آخذ بذراعي وإذا بصكة باب وراءنا وصوت يصيح: إلى أين أيّها السيّد؟ إلى أين؟

ـ لا تبالِ بصدى هذه البومة. ولنسرع للخلاص منها. ماذا تريد منّي؟

ـ يا سيّدي. يا سيّدي. أفلا تسمعني. (ثمّ قالت): يذهب إلى السيّدة بجلباب النوم.

فقال لي:

ـ لنفرّ يا حبيبي، فإنّ هذه المرأة تحت شكل أنها تحدب عليّ جعلتني مسخرة ومَن سمعها تتكلّم عنّي ظنّ أنني لا أزال قاصرًا. وأمس أمام عشرة أشخاص أرادت أن تغيّر لي سراويلي. وكلّ هذا بأو وتظاهر. فهي تريد أن توضّح للملإ أنه لا يساوي سذاجتي إلاّ حذقها وفطنتها. إنّني متعرّض لخطر عظيم أن أخنقها في يوم من الأيام. آه لو كنّا نصادف عربة الآن. على أنّ جوزيفين مع كونها نَصَفًا[5] لها ساق أيّل. فأدركتنا عند الجدار المشبّك بالحديد وأخذت الخالد[6] بحاشية سترته وقادته مثل الشاة إلى المنزل.

ثمّ التفتت تستشهد المارّة، وهي تقول:

ذهب خلسةً من البيت بدون أن يغيّر قميصه. وغدًا السيّدة تمسكني أنا. فقد قالت لي

---

(١) Abstrait.

(٢) Distrait.

(٣) المرأة المفتّنة: هي التي تكثر الكلام، وفي الأصل الفرنسي Jaseuse؛ والمدنقة: هي التي تدقّق كثيرًا، وفي الأصل Méticuleuse.

(٤) الصخابة السيّئة الخلق، وفي الأصل Harpie.

(٥) المرأة المتوسّطة في السنّ.

(٦) Immortel وهو لقب كلّ مَن صار من أعضاء الأكادمي، والحقيقة أنه ما كان مَن دخل الأكادمي أناتول فرانس ولا خالد الاسم.

هكذا: "جوزيفين كلّ اعتمادي عليك في السهر على السيِّد، فأنت تعرفين أنه أشبه بولد".

وقد أرسلت غلامها هذا الصباح تنبئ بأنَّ عندها مأدبة حافلة ووزراء وأميرات وممثّلات... فيلزم أن تلبس درّاعتك[1] ولا تقدر أن تذهب إلى ما بين هؤلاء من عليّة القوم بقميص من صوف هفّاف[2] يا سيِّدي المسكين.

فلم ينبس أناتول فرانس ببنت شفة. وكان قصاره أن رفع عينيه إلى السماء نظرة الدرويش الذي يستسلم للقدر. فرجعنا إلى الغرفة واستؤنف التزيين. وكانت له عند كلّ قطعة من الثياب جملة يدندن بها. وبالاختصار هذا الرجل العظيم انقاد في كلّ شيء إلاّ في قضيّة شعار النوم. فاضطرّت جوزيفين أن تدثّره بالقميص المخصوص بالظهور وكان صلبًا من كثرة النشا. فتنفّس الصعداء، وقال:

ـ كان له قلب مثلّث من الفولاذ هذا الذي اخترع هذه الصدرة من تنك. هذه النواويس التي يودعوننا إيّاها ونحن أحياء كأننا محنّطون.

وهكذا زمّلته جوزيفين وحزّمته ووضعت له ربطة رقبته وأخذت تمدّ يدها إلى جيوبه.

ـ هل معك دراهم؟ أين محفظتك؟ أين ساعتك؟ أين المفاتيح؟ أين المنديل؟ أين النظّارات؟ ألا تعلم أنك بدون نظّارات أشبه بالنفس الواقعة في العذاب أو الحمار الذي يُعذّب[3]؟

ثمَّ قالت:

السيِّد هو أشذّ أهل باريز طبعًا وأشدّهم سهوًا Distrait. فعندما قالت هذه الكلمة رأيت هذا الرجل الحليم الذي تحمّل جميع أنواع التعزير والردع والجبه من صانعته وعومل معاملة الأكرة التي يلعب بها، وثب من مكانه وهو يقول: أسمعتَ يا بروسون ماذا تقول؟ تقول إنّي ساهي العقل غافل. فهذه الخادم الورهاء تعامل اللغة الفرنسوية كما تعامل سيِّدها. ثمَّ رفع يدَيه إلى السما، وقال:

ـ سهوان. سهوان! هل تعلمين يا أسلط النساء معنى هذه الكلمة؟ السهو أو الغفلة تأتي من خفّة في العقل، وليس في عقلي خفّة. فأنا لست ساهيًا Distrait ولكنّني مشدوه[4] Abstrait. ثمَّ انحدر وهو يردّد لفظة مشدوه أو مدهوش وما زال طول الطريق يقرّر درسًا لغويًا على سهوان ومدهوش.

---

(١) اخترناها للجاكت Jaquette لكونها الجبة القصيرة المشقوقة المقدم.

(٢) الهفّاف: الرقيق الشفّاف، وفي الأصل الفرنسي Flanelle.

(٣) النفس Ame والحمار Ane، وجوزيفين أرادت الجناس وهو مذهب معروف عند الإفرنج وإن كان العرب أشدّ فيه رغبة.

(٤) يقول الفرنسيس écrivain abstrait كاتب مشدوه أو مدهوش.

ـ كلّ مشدوهٍ ساهٍ لكن ليس كلّ سهوان مشدوهًا. فالرجل المشدوه يتبع فكرة معلومة عنده. أمّا المدهوش فيتتبّع ألف فكرة أي لا يتتبّع شيئًا. والرجل المشدوه تشدهه الحياة الداخلية عن الخارجية فلا يرى منها شيئًا حال كون الرجل السهوان يمرّ ببصره على كلّ شيء فلا يميّز شيئًا. والسهوان لا يملك الحسّ المشترك، أمّا المشدوه فيجوز أن يكون نابغة عبقريًا.

الصحو من النشوة

ثمّ تنهّد، وقال:

ـ الإنسان هو أشقى المخلوقات. يقولون: الإنسان ملك الكائنات "والصحيح أنه ملك الآلام. لا يوجد شيء يسوق إلى الجحود مثل الحياة".

فقلت له:

لكنّك يا أستاذي العزيز معدود في المغبوطين الموفورين طالما يحسدك الناس على عقلك وصحّتك وبقائك متمتّعًا بميعة الشباب.

ـ حسبك . حسبك! ... آه لو كان يمكنك أن تقرأ في أعماق نفسي لامتلأتَ خوفًا". ثمّ جمع يديَّ إلى يديه وهما محمومتان ترتجفان وحدّق في عينيَّ فرأيت عينيه تفيضان بالدمع ووجهه باسرًا. وتأوّه قائلاً: ليس في العالم مخلوق أعظم بلاءً منّي. يظنّونني سعيدًا ولم أكن في حياتي سعيدًا يومًا واحد ولا ساعة واحدة.

ـ هونًا ما بالألقاب.

ها هي مادام س. قد جاءت... لا تعلم مَن هي مادام س... هي خليلة عَبِقة لَبِقة حاذقة تتفضّل بزيارة مغنى سعيد مرّة كلّ شهر وتعرض خدمتها في المطوّحات[1] اللذيذة. فمادام س. جلاّبة[2]. وهي كما تراها صغيرة القدّ ممتلئة ضحوكة عَروبة لكنّها دميمة كأنها معلّمة أولاد أو بالأَوْلى مديرة مدرسة. وهي تدير بالفعل مدرسة يأوي إليها الأولاد الذين فوق الطفوليّة بدرجة. والعجب كيف أنها لم تنَل الأوسمة الأكادمية لأنها بحسب ما قالت لي كانت تمير بالمحاسن السمحة عددًا من زملائي في الخلود[3] أو اثنين أو ثلاثة من وزراء المعارف العمومية والمذاهب. فأنت ترى أنها تسدي أيادي بيضًا للأدب والسياسة. لا أراك متعجبًا من أمر مادام

---

(١) المطوّحة: تعريب Aventure.

(٢) خلاّبة.

(٣) يشير إلى أعضاء الأكادمي.

س. فانت مخطئ بهذا». وإذ ذاك دخلت مادام س. فقال لها: عمي صباحًا كيف أنتِ والأشغال اللطيفة؟ فأجابته: كيف أنت والأدب؟

ـ هاتي ما عندك من جديد.

ـ أُنظر أنت بعينك.

فناولتني مجموعة رسوم مجلّدة بالمراكشي الدبيغ تستصحبها دائمًا.

ـ ماذا تقول في نمرة ٢ هذه شقراء حسنة الدلّ. فهي امرأة وزير. ونمرة ٣ سمراء بارعة الحسن إسبانيولية الخُلق، كانت مدّة مديدة حظيّة أحد السفراء. ونمرة ٥ هذه فرصة لمَن انتهزها بذلك الشعر الأصهب كشعر أهل البندقيّة. وهي ضليعة في الأدب تعرف اللاتيني واليوناني والطلياني وبيدها شهادتها، فهي تلبق لك كقفّاز في يدك.

فقلت لها: مادام س. مادام س. أقلّي من الألقاب واكثري من الأثداء[١].

الرسوم

كان يتقيّد بالرسوم المدنيّة على قدر الإمكان فلم يكن يخاطب بيا سيِّدتي كلّ امرأة. وكان يختلف إلى بائعة عروض مختلفة في ضواحي «سان جرمان المروج»، فيقول لها «ام س.». ولكنَّه يسمّي بمادام ت. الصغيرة تاجرة العاديّات التي مخزنها على مسافة بعض أقدام من هناك على رصَفة فولتر. فإنَّ تاجرة العاديّات بأثمانها وأجرة مخزنها وحسن فِضلتها[٢] ومشيتها تستحقّ من الاحترام أكثر من تاجرة الخُرثيّ[٣].

فأمّا المرأة التي لها دكّان الكتب الفاخر على الضفّة اليمنى من السين والتي لا يوجد عندها إلاّ الطبعات العذارى المجلّدة بدبيغ الجلود المراكشية، عليها الرسوم والأشكال فإنَّه لا يتردّد في ندائها «مدام».

وهو يعتني بإعطاء الناس ألقابهم فيخاطب الأساقفة بالسيادة والوزراء بالسعادة. وإذا رأى أحدًا حاملاً في عروة ثوبه نسيلة أرجوانية لم ينسَ أن يخاطبه بـ «يا صاحبي الفارس»[٤] أو بـ «يا صاحبي القائد»[٥] وكان يتفصّح في النطق بألقاب الشرف ويجمّلها بأوصاف من عنده. فيقول عند

---

(١) إن كانت هذه القصّة صحيحة فما أليق مادام س. بأن تكون مديرة مدرسة.

(٢) هيئة لبسها.

(٣) السقط من المتاع.

(٤) Chevalier de la Légion d'Honneur.

(٥) Commandant de la Légion d'Honneur.

ذكر مادام نواي [١] مثلاً «الكونتة الكاملة الرخيمة» ثمَّ يردف ذلك بقوله «هي من حزب الجمهورية».

أمّا النساء اللائي لم يتميّزن بكبير فضل فلسن عنده بعقائل وإنّما يقول عنهن «خلائق» أو «مخلوقات الله» أو «فرافير» أو «أطلاء» [٢] وما أشبه ذلك. وهو يبذّر نعوت التعظيم مثل «الشريف» و«المجيد» وما ماثلها تبذيرًا.

وقال مرّة بمزيد الصلصلة [٣] لفتاة صغيرة عمرها سبع سنوات تلحس بأصابعها: «أين والدك الشريف» ووالدها كان رسّامًا. وإذا لم يكن يعرف شيئًا عن الناس الذين يكالمهم ينهال على التشابيه. وهناك لا يتعب ذهنه كثيرًا. فكلّ محام عنده شيشرون [٤] أو على الأقلّ بريّه [٥]. وأمّا الأطبّاء فأبيقراط وجالينوس [٦] وكان يقول كثيرًا لطبيبه الخاصّ «منقذي» أو «الرجل الذي سحبني من أبواب القبر».

وإذا خرج من حفلة محاضرة فإن أقلَّ تمتام [٧] عنده ميرابو [٨]. ومرّة كان يقول لمصوّر: يا عزيزي روبنس [٩]... ثمَّ التفت نحوي وقال لي: بروسون، دعني أقدّمك لإنغر [١٠] عصرنا لفنّ التصوير المتمثّل بشرًا سويًّا.

وكلّ شعرور عنده ڤيرجيل [١١] أو هوغو [١٢]. ومن الغريب أنهم كانوا يقبلون منه هذه التيجان الغليظة ولا يشعرون.

---

(١) Noailles: اسم لبعض أشراف فرانسة.

(٢) الفرفور: الحمل والغلام والعصفور؛ والطلي: الصغير.

(٣) التقعير في الكلام.

(٤) شيشرون (Cicéron)، أفصح خطباء الرومان، ولد سنة ١٠٦ قبل المسيح، وكان من أنصار قيصر فلمّا مات قيصر انحاز إلى أوكتاف، ابن أخته، فأرسل أنطونيوس مَن قتله. وكان قريع دهره في المدافعات القضائية بقوّة تصوّره وشدّة عارضته ولطف مدخله وسداد حجّته ولكنّه لم يبلغ درجة ديموستان في الخطابة السياسية.

(٥) بريّه (Nicolas Berryer)، محامٍ فرنسي شهير، كان في زمان نابليون الأول وخلفه في الشهرة بالمحاماة، ابنه أنطوان الذي كان خطيب الحزب الملكي مقاومًا للحزب البوناپارتي في زمان نابليون الثالث.

(٦) أشهر أطبّاء الأقدمين، ولد في جزيرة كوس من بحر إيجه سنة ٤٦٠ ق.م. وجالينوس من أشهر أطبّائهم، وآراؤه كانت تخالف آراء أبقراط.

(٧) التمتام: الذي يعجّل في الكلام ولا يُفهمك، والأصل الفرنسي Bredouilleur.

(٨) الكونت ميرابو: أفصح خطباء الثورة الفرنسوية، (١٧٤٩ ـ ١٧٩١).

(٩) روبنس (Rubens)، مصوّر فلمنكي عظيم اشتهر بقوّة خياله ونصوع ألوانه، (١٥٧٧ ـ ١٦٤٠).

(١٠) إنغر (Ingres)، مصوّر فرنسي كان يقلّد رافائيل، (١٧٨٠ ـ ١٨٦٧).

(١١) ڤيرجيل (Virgile)، أشهر شعراء اللاتين اشتهر بلطف الحسّ وشفوف الطبع وصحّة العبارة وانسجام القول دون الجزالة والحماسة، ولد سنة ٧٠ ق.م. وتوفّي سنة ١٩.

(١٢) هوغو (Victor Hugo)، أعظم شعراء الفرنسيس، كان أبوه قائدًا في الجيش، ولد في بيزانسون سنة ١٨٠٢ ولمّا بلغ العاشرة من العمر قرض الشعر وظهرت علائم نبوغه. وكان جامعًا بين عظمة الصور وأسلاس قياد اللغة فيضع اللفظ الذي يريده للمعنى الذي يريده، وكان عميق الغور جزل الألفاظ تنهال القوافي عليه انهيالاً قد أثّرت فصاحته في أبناء عصره بحيث لعب دورًا سياسيًا كبيرًا ووقف بيانه الهائل على نصرة الحرّية. توفّي سنة ١٨٨٥ ودُفن في البانطيون وكان له مأتم يتيم لم يسبق له نظير.

وكان سريع القبلة. فيكون قد سمع صوت الجريس، وقال لجوزيفين لا تدعي هذا الرجل يصعد، فمتى تمكّن هذا من الصعود انعطف على عنقه يقبّله، ويقول له:

ـ آه ما أسعدني بلقائك فقد كنت أضنى لأراك، لا جرم أنَّ مشاهدتك قد أعادت عليّ شبابي.

ثمَّ إنَّ عناقه كعناق الممثّلين في المرازح لم يبقَ من نمط هذا العناق اليوم. فإنَّه أولاً يضمّ الزائر بأذرعه التليعة ثمَّ يلزّهُ إلى صدره وهو أثناء ذلك ينحطّ[1] شوقًا ووجدًا. ويحكّ له عوارضه بلحيته الفضّية ثمَّ يغمض عينيه كأنه يريد أن يرقأ دمعهما المؤذن بالانبجاس. ثمَّ يقوقي كالدجاجة... يقول الناظر إليه أنه سيرنّح عليه. وتراه يتمايح رقّة وحنوًّا فيعيد القبلة، ويجد صعبًا عليه أن يرخي معانقته، وهكذا إلى أن يأتي آخر فيعانقه أيضًا وهلمّ جرّا.

كان مرّة يعانق زائرًا على هذه الصورة فصدّق أنه مغرم به وتمادى في طعمه أن أخرج نسخة من قصّة تاييس[2] من الطبعة الأولى وترجّاه أن يكتب له عليها عبارة أنه أهداها له. فنظر إليّ أناتول فرانس وقد اغبرَّ وجهه وضاق صدره. وكأنه يقول لي: «مَن هو هذا الأبله؟» ثمّ اعتذر بكونه ليس عنده قلم ولا دواة. وإنَّ المذنب في ذلك جوزيفين، فألحّ عليه الحبيب المقبّل بإجابة سؤاله فأحاله عليّ.

معرض ثياب بيض

إذا أراد أن يتنقص خصمًا لم يجد له كلمة أقلّ من «عاجز».

وكان الكاتب القاصّ ب.[3] أبغض الكتّاب إليه، فكان كثير من انتقاده في جلساته الخاصّة، ويقول:

ـ يتكلّم دائمًا عن النساء ولا يعلم شيئًا عن النساء. والذي اشتهر به من علم النفس أشبه بعلم خصي أسود قد دعك قمصانًا وسراويلات في مخزن ثياب يوم معرض بياض. والمومسات اللاءي يصفهن يذكّرنني أبدًا بشخوص الخشب التي في قصر اللوفر فتجد ثمّة كلّ شيء: الأقمشة المطرّزة كأغطية المذابح والتخاريم والهنات المعلّقة وكلّ شيء سوى الحرارة والروح والحركة.

---

(١) من النحيط كالزفير.

(٢) تاييس (Thais): رومان لأناتول فرانس فيه وصف أخلاق الإسكندريين في أواخر الدور اليوناني وأوائل الدور المسيحي (وقد ترجمه إلى العربية حضرة الأديب أحمد أفندي الصاوي محمَّد ونشرته المطبعة العصرية. الناشر).

(٣) ب.B: أظنّه يشير إلى Bourget.

العصر الجيّد

كان عند أحد تجّار العاديّات فعرضت عليه سلعة فنبذها قائلاً: هذه ليست من العصر الجيّد. فقلت له: ما هو العصر الجيّد؟ فأطرق هنيهةً ثمَّ قال: العصر الجيّد يا ولدي هو كلّ الأعصر إلاّ عصرنا الحالي. ففي الأدب ينتهي العصر الجيّد بـ «نوديه»[1] وفي التصوير بـ «أينغر» وأمّا من جهة الأثاث فلم يصنع شيئًا فيه لطافة منذ القنصليّة[2].

ـ إذًا أنت تقضي على زماننا هذا بجملته؟

ـ نعم، صبرةً. لأنَّ الجمهورية في فرانسة هي حكم السماجة. انظر إلى مدارسها وثكنها ودور حكومتها وتماثيلها ففي السماجة لا تخطئ المرمى أبدًا.

مولع ببقايا القدّيسين

جئته مرّة فوجدته جاثمًا على متكإٍ في الدهاليز، فقال لي:

ـ ربّما تستغرب جلوسي هنا والمطرقة بيدي. نعم، هو ذا أنا أغرز مسامير. ولست ماهرًا في غرز المسامير لأنني أضرب أحيانًا ضربات ترتدّ على أظافري. ولكن هذا هو العمل اليدوي الذي كان مار بنديكتوس قد فرضه عقب الشغل العقليّ في قانون رهبانه. فأنا أرى هذه المعاقبة في محلّها على أثر زلّة صغيرة أزلّها. نقل تصاوير وألواح من محلّ إلى آخر ووضع ما كان في اليمين على الشمال وما كان في الشمال على اليمين كما فعلت أنا هذه الغداة. ألك في مساعدتي على هذه الحركة؟ لا جرم أنني متعسّف في دعوتي لك أن تشركني في الندم على حين لم أدعك تشركني في العمل.

ثمَّ قال لي وهو ينقل هذه الألواح والأُطر:

ـ كيف ترى ذخائري الدينية؟ إنَّ عندي من كلّ شيء ومن كلّ شيء أحسنه. اقرأ الأسماء: مار فرنسوا دو سالس، مار ڤنسان دو بول، القدّيسة شانتال. كلّهم قدّيسون فرنسيس. فإذا كنت بعظام هؤلاء القدّيسين لا أتوصّل إلى الخلاص فيا ضيعة الأعمار! لأنك تعلم أنَّ أصغر شظيّة وأقلّ سنّ من بقايا عظامهم عليه الرائحة القدسية إلى يوم القيامة. كأني بك أيّها المنحوس

---

(١) نوديه (Nodier)، أديب فرنسي ذو كتب ممتعة، (١٧٨٠ ـ ١٨٤٤).

(٢) الحكومة الفرنسوية من انقضاء الديركتوار سنة ١٧٩٩ إلى الإمبراطورية سنة ١٨٠٤.

الصغير لا تصدّق بتأثير هذه البقايا، لأنَّ روح العصر قد صوّح نضارة تلك الواعيد التي تلقّيتها في حداثتك. ناولني هذه الصورة باحترام. فإنَّ لهذه تأثيرًا من الداخل على الخارج ومن الخارج إلى الداخل، حتّى على غير المؤمنين.

ـ قد وجدت هذا الصندوق المعدّ للذخائر عند امرأة يهودية مفرطة البخل من على الضفّة اليسرى. وكانت أنتن النساء وسكرى الليل والنهار. فالصبوح تشربه لقتل الدود. ولكن الدود يرجع فتقتله في الغبوق. ولا تزال مع الدود في المقيم المقعد. وإذا كان الجوّ حارًا شربت لأجل تبريد الجوف وإذا كان باردًا شربت لأجل تدفئته. ومع شربها المستمرّ لا تجد الخمرة يدبّ دبيبها إلى موضع سجيّة الكسب التي هي مزيّة بني إسرائيل. وجدتها أمس في حال نشوة لا تستطيع معها القيام فأخذت بيدها حتّى استفاقت ثمَّ لم تلبث أن صدمت بمرورها صندوق الذخائر فأحسست أنه أصابه صدع.

ولقد حفظت في نفسي شعورًا كاثوليكيًا قويًا فيعزّ عليّ أن أرى الملائكة والقدّيسين وعظام الشهداء في أيدي تجّار الهيكل [1]. فلهذا تجدني أتهافت على التقاط جميع الأمتعة المقدّسة التي صارت من الأسقاط وسيغدو منزلي أشبه بخزانة كنيسة.

سألتها: كَمْ تريدين في هذا اللوح المصوّر؟ فلم تقدر أن تفصح من السكر ولكنّها لم تضيّع المعنى لأنها كلّما ازدادت سكرًا ازدادت مكرًا. فلم يبقَ لي إلاّ أن آخذ هذه العظام وأترك فصل الثمن إلى وقت آخر لأنني خفت أنَّ هذه اللخناء تنجّس تلك المقدّسات بفُواقها. فاذهب إليها يا حبيبي ولك الفضل وقل لها: هذا ثمن الذخيرة ٤٠ فرنكًا. فستصيح وتصخب وتحاول اطّلاعك على دفاترها، فلا تدخل معها في جدال وابقَ على كلمتك: أربعون فرنكًا. فعظام القدّيسين من أرخص ما يكون هذه السنة. فإن لم يعجبها هذا الثمن فلتسترجع متاعها. أنه لم يبقَ أحد غيري ممّن يشري هذه الذخائر.

الصبابات الأول

إنّي لفي الثامنة إلى التاسعة من العمر وفي الطاق الأعلى من بيتنا على الشاطئ تسكن غادة حسناء. ولم أكن في تلك السنّ ممّن يفهم مَن هي وإنَّما كنت ألحظ أنها غادة من محيط يفوق محيطنا كثيرًا في الرونق والثروة. وكان الازدراء الذي يظهره الناس لها منطويًا على شيء من الافتتان والحسد. وكانت تتزيّق [2] كلّ يوم عدّة مرّات، فكانت قوس قزح تذهب وهي بلون

(١) اليهود.

(٢) تتزيّن وتتبرّج.

وردي وتعود بلون أزرق. ولا تخرج إلاّ في عربة. وفي يوم سفيرها ـ يهمسون أنه كان سفير أوستريا ـ كانت عربة فاخرة يقودها حوذيّ حسن الشارة تأتي فتقف أمام الباب. وكانت تتزاحم على درجها غلمان الأفران بأنواع الأقراص الطرية العطرة وغلمان باعة الأزهار يختفي الواحد منهم تحت أكاليل الزهر. وكانت سبطة اليد منبسطة للمعروف فصارت الألسن تنثني عليها أنها كانت برّة بوالدتها وأنها فعّالة خير. ولمّا كانت تصادفني على الدرج كانت تمرّ يدها التي يتضوّع منها الطيب على خدّي وكانت تجدني فرفورًا ـ أو هكذا تقول ـ وكانت تحبّ الأطفال وربّما كانت تتجلّى عقيلة بيت كريمة لو صادفتها العناية الإلهية أو الثروة، والحقيقة أنّ العناية الإلهية والثروة واحد. لأنّ الله يحبّ الأغنياء. وفي ذات يوم ناولتني ثمر قسطل مجمّدًا بالسكّر ومرّة أعطتني شوكولاتة، فصبا قلبي إليها وصرت أستحلي جدًّا صورتها وأقضي الساعات في انتظارها، إلى أن وجدت مرّة فرصة فزلجت إلى غرفتها ففتحت لها قلبها وسفط ثيابها وأبرزت لي حليّها، ولكن لم تلبث أن أعرضت عنّي وألقت بي في ظلمات الدرج بنفور شديد، وقالت لي:

ـ ارجع إلى أمّك فإنّ ولدًا حسن التربية لا يقضي وقته عند الجيران.

فلا تسل عمّا نابني من الألم لهذه الواقعة، فانقطعت الحلويات واللطائف والقُبل وصارت لا تردّ سلامي. ولكن هذه القسوة لم تكن إلاّ لتزيد غرامي. فهجس في خاطري إحدى الليالي أن أكتب إلى جارتنا الحسناء كتابًا، وثاني يوم اقتطعت ورقة من دفتري وحاولت أن أكتب، ولكن فاض عليّ الموضوع حتّى تحيّرت من أين أبدأ. وأخيرًا أجمعت على ما يأتي:

«مادام أرنستين! مادام أرنستين! مادام أرنستين! ارحمي أناتول الصغير جارك التحتاني» فهذا أول كتبي في الحبّ ولم يكن بكرًا في بابه. وإنّما يقال عنه إنّه رسالة حبّ. فقد كثرت فيه علامات الاستغاثة والاستعطاف ولا أظنّه منذ خمسة آلاف سنة أي منذ بدأ الرجال يكتبون إلى النساء اهتدوا إلى أحسن من هذا الأسلوب، لأنك إن أردت أن تحذف علامات الاستغاثة من كتب الحبّ فليت شعري، ماذا يبقى منها؟

ولا يروعنّك ما قصصته عليك من أمري مع هذه الغانية وتجده عجبًا فقد كان مثل هذا من خواص الأدباء. أفلا تتذكّر قصّة كرقصة «ستاندال[1]...؟» أنسيت خبر «شارل نوديه» الذي تعشّق حسناء من معارفه وهو ابن عشر سنوات وكتب إليها على ورق جميل، من ورق أبيه وبأحسن أقلامه بريًا، كتابًا يشكو إليها فيه جوائح حبّها في قلبه. ونظير كلّ خجلان خائف لم

(١) ستاندال (Standhal)، قاصّ فرنسي مشهور امتاز بتعمّق أسرار النفس، (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢).

يتطلّب المنحنيات والثنيّات، بل من أول يوم طلب موعد لقاء. فجاءه الجواب سريعًا جازمًا بالقبول وعُيّن المكان والزمان. فقضى ذلك اليوم بطوله على مثل الجمر وفي الساعة المعيّنة ذهب إلى الحديقة التي كان الموعد إليها ليلاً فشاهد تحت الظلام شبحًا أثيريًا وكان قرأ في كتب القَصَص (الرومان) أنَّ الرسوم في مثل هذا الموقف تقضي بالجثو على الركب أول واهلة فسجد لذلك الظلّ الملتحف بالرداء المخرّم فامتدّت يدان ناعمتان ولكن قويّتان فأنهضتاه وجمعتا بعضه إلى بعض ورقعتاه أشدّ الكفوف إيلامًا وكانت له تأديبة لم يرَ مثلها من والديه. فيقول نوديه: فبقيت من بعدها طول حياتي إلى أن بلغت الستّين لا أقرب من امرأة إلاّ وأنا خائف أن آكل جلدة.

خطأ في الإملاء

وكان أعظم العيوب البشرية عند الأستاذ العنانة والعجز. وكان خفيف الوطأة على المخالفين في مذاهب الحبّ فلا يسمّي ذلك إلاّ خطأ إملاء، فيقول:

ـ بعضهم يؤنّث المذكّر وبعضهن تذكّر المؤنّث. وكلٌّ في هذه الدنيا يعمل على شاكلته.

وكان أناتول فرانس يرى أنَّ البدع تؤيّد الشريعة. وكان يقول: لا يوجد محصّنون وإنّما يوجد مراءون ويوجد مسلوسو العقل. ويوجد مرضى ويوجد مجانين. أعلم أنه بدون شهوة لا يوجد شعور وبقدر ما نكون شهوانيين نكون أذكياء. وأحسن فصول الحياة هو فصل اللذّات. فالحكيم مَن يجتهد في إطالة هذا الفصل. بعض الناس يسخرون من الشيخ الذي يعشق. فيا للحماقة البالغة. فأمّا أنا فأقلب قضيّة «ده كارت»[1]، فأقول: أحبّ، إذًا أنا موجود. ما عدت أحبّ، ما عدت إذًا في الدنيا شيئًا.

سيّدتي البلاغة

يصير الإنسان كاتبًا بارعًا كما يصير نجّارًا حاذقًا وذلك بالصقل، هذا يصقل الخشب وذاك يصقل العبارة. فالبلاغة اليوم سوقها كاسدة مع أنها تعلّم الذوق وتنوّر الذهن وتهزّ القلب. والخواطر تذهب والبلاغة خالدة. كانوا في القرون الوسطى يقولون «سيّدتي البلاغة». نعم، والإنشاء أنواع: الإنشاء السهل، والإنشاء العالي، والإنشاء المعتدل. وقد يُضحك هذا القول ناشئتنا الأغرار مع أنه من البديهيّات، إذ لا يُعقل أن تكتب إلى محبوبتك كما تكتب إلى رئيس أساقفة باريز.

(1) ده كارت (Descartes)، الفيلسوف الفرنسي الشهير، صاحب المذهب الكارتيزي الذي يقتضي التجرّد من كلّ المعلومات السابقة والبناء من جديد، وكان بدأ بالشكّ في الوجود ثمّ انتهى باليقين لقوله إنّ آلة الشكّ هي الفكر، فالفكر إذًا موجود والمفكّر موجود. أنا أفكّر، إذًا أنا موجود.

احذر من البقبقة ومن النوع الكورنايلي [1] واترك هذه الجزالة للوعّاظ على المنابر، فإنّه ليس شيء أسهل من الرعد والقصف والارتجاز والإدهاش. وإنَّ أقبح المغنيّن النعّارون الزعّاقون. وأيٌّ من تفيهق خرج من الطبيعة ولا بدّ له من الرجوع إلى الحالة الطبيعية بحكم الضرورة. لأنك إذا كنت محلّقًا فوق السحب فلا تقدر أن تبقى محلّقًا بدون نهاية، بل عليك أن تنزل بقارئك أخيرًا إلى الأرض.

إنَّ رواية مشخّصة، يصفَّق فيها عند كلّ شطر، تترك السامع طوال الليل مشدودًا على كرسيه، لأنه متى بُدئ بالهذيان فلا يعرف أين ينتهي، فهو ينتهي إمّا في «پند» [2] أو في المستشفى. وهكذا الشأن في القَصَص، فإنَّ الإنشاء المطنّب يكون غالبًا من دلائل المحال: في أوائل نشأتي كنت أنضح عرقًا حتّى أبلغ الأسلوب العالي الفخم وأمّا الآن فإنّي أفرّ منه.

عند هويسمان [3]

في أحد الأيام أخذني الأب ف... من آباء مار سولبيس Sulpice إلى هويسمان. وكان ساكنًا في منزل صغير نيّر بجوار «بون مارشه» ومن منزله يطلّ على حدائق أديار وساحات دور أيتام. وكلّ ذلك على نسق واحد سواء كان الأروقة أو الأشجار أو السكّان. فبعد أن انتظرنا نحو ربع ساعة فُتح الباب وخرج رجل طوال القامة أغلب [4]، عليه هيئة مصارع ولكن مصارع منهوك مغلوب. وكان متلّفعًا بشقّة صوف، يبرز من خلالها رأس منخفض مطاطئ وهو يرفل في قميص نوم خَلَق بلون البراغيث. فلمّا أقبل على الأب عانقه ودخل وإيّاه وأنا في أثرهما إلى غرفة هي غرفة السفرة. وكان على حيطانها صور شمسية وتصاوير تمثّل المسيح وصلبه وتعذيبه... وقد ألقت الشمس صفرتها على هذه التهاويل [5]. وكان على المدخنة بين إنائين منصّة شعاع للقربان من طرز لويس السادس عشر ومن فوق هذه المدخنة التي تحوّلت إلى شكل مذبح يوجد مصلوب كبير من الجبس والخشب الأسود مع باقة من البقس. وكان يستنشئ الإنسان في تلك الغرفة رائحة العفونة والندوّة التي لا بدّ منها في صوامع الكنائس وفي المستشفيات.

(١) نسبة إلى الشاعر Corneille، وكان يذهب إلى التعالي في البيان.
(٢) Pinde: جبل في بلاد اليونان خاصّ بآلهة الشعر.
(٣) هويسمان (Huysmans)، أديب فرنسي بليغ، صاحب تآليف، ولد سنة ١٨٤٨ ومات سنة ١٩٠٧.
(٤) غليظ العنق.
(٥) التصاوير.

فجلسنا أمام نار ضئيلة تصلّ فيها جذوتان من الوقود وأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث. فكان أول الحديث على صحّة الكاتب، فقال إنَّه أصبح لا يثق بالطبّ والأطبّاء وإنَّه استسلم إلى الله، أفليس الله أدرى بما يوافقنا؟ نعم، أنه يألم ولكن ربّما لم يكن يألم بقدر ما يستحقّ، إذ عليه تكفير آثام كثيرة. ثمَّ أخذ يروي طريقة تعبُّده، فقال إنَّه يقرأ المسبحة الوردية وأنه كان يراها بادئ ذي بدء من قبيل الحركة الآلية لأنه كان مسمّمًا بالدعاوى الأدبية اللغوية.

ثمَّ قدّمني الأب إلى الكاتب، وقال له:

ـ هذا ابن بلدي جان جاك بروسون، أبوه كان رجلاً جيّدًا وكان طبيب مدرستنا الإكليريكية في «نيم»[1] وطبيبًا لجميع الأخويّات التي لنا في مقاطعة «الغارد». والدكتور بروسون هو من فرسان مار غريغوريوس...

فقال لي هويسمان:

ـ تتوخّى حرفة الأدب أيّها الفتى المسكين ولكن عليك أولاً بالتفكّر في خلاص نفسك... دخلت كاتبًا خاصًّا عند أناتول فرانس فلا تندب إلاّ حظّ نفسك. هذا كاتب كبير ولكن ينقصه الشيء الوحيد اللازم وهو الإيمان... نشأ في بيت تقوى بحسب ما سمعت وكان أبواه مسيحيَين. ولكن البأو وحبّ الظهور والتوق إلى تصفيق الناس له مع الميل إلى المخالفة... ذلك جعله في مركز غير محمود، وبالرغم من هذا المجد الذي أحرزه كلّه أنا لا أرضى أن أكون في مركزه.

ثمَّ تنحنح هويسمان وبصق في النار، وقال:

قد كنت أتردّد على أناتول فرانس، فكنت أراه ذا عقل كيّس أو ذا خُلق لطيف. فلهذا أرثي له إذ أراه يتدحرج على هذه المزلقة المدحاض. فمن قبيل تذكار المحبّة القديمة قل له ما يأتي:

ـ أيّها الأستاذ العظيم ألم تتعب من عبادة الناس؟ ألم يُصبك الدوار من تأليه هؤلاء الوثنيين لك؟ أنسيت نعمة المعمودية المقدّسة والقربانة الأولى. أيّها الأستاذ العزيز، متى جنّ الليل انهزم من وجه هذه البطانة التي تخفي عنك الحقائق تحت بخار الثناء. ونظير أمّك الصالحة ادخل إلى كنيسة قديمة ينتابها العامّة مثل «سان سيفرين» مثلاً وغطّ أصابعك في جرن الماء المقدّس، كما يغطّ نساء الحيّ وصغاره أصابعهم، واكفر بشهرتك هذه، صلّب واركع حنيّة من الكنيسة، واخلُ إلى ربّك وسل نفسك عمّا إذا كنّا جئنا إلى هذا العالم وشُرينا بدم يسوع المسيح لأجل أن نكتب هذه الوقاحات؟

---

(١) مدينة في جنوبي فرانسة.

ففي اليوم التالي نقلت إلى أناتول فرانس الموعظة بحذافيرها، فقال لي بصوتٍ جافٍ:

ـ هويسمان هذا المسكين حطيء جدًّا وجميع هذا الإفراط في العبادة علامة سيّئة في هذه السنّ، فمتى صادفته ـ والكياسة تقابل بمثلها ـ قل له هكذا:

فرانس ينصح لك بأن تجري تحليل بولك.

الثَّبَت

كان مرّة يساوم على إحدى هذه القطع من بقايا القدّيسين التي يحبّها كثيرًا، فقال:

سينتهي بي الأمر بأن أجعل عندي جميع القدّيسين الذين في الفردوس. وإن كانوا يتذكّرون في الحياة الأخرى كوني قمت بضيافتهم في هذه الدنيا، فلا خير في أحد. فأنا واثق بخلاص نفسي. إنّه لا بدّ من وجود عذراء تمدّ لي يدها وتقول للأب الأزلي: «إنّني أعرفه فليس بأسود الصحيفة إلى الحدّ الذي يقال عنه. لقد بتُّ كثيرًا في غرفته».

ولكنّه يهمّه أن تكون الذخيرة ثَبَتًا Authentique صحيحة النسبة.

فسألته بائعة البقايا: وماذا تريد بذلك؟

فقال لها:

ـ يا قليلة الإيمان. الثبت هو الحجّة التي تثبت كون هذه القطعة بقيّة قدّيس. فإنّه بدون هذه الحجّة وبدون ختم المطران هذه البقايا ليس لها أدنى قيمة. هذا في نظر المسيحي لا في نظر جامع التحف. فأنا إنّما أبحث عن قدّيسين وشهداء وعلماء وعذارى مكفولين بأن لا شائبة فيهم.

طالي [1] وكليو [2]

إنّ هذا النقريس المراق [3] «ساردو» [4] أعطاني ذلك اليوم درسًا. فقد كنّا على الغداء عند بعض الأصحاب وجرى كلام على كتاب أو مقال جديد ظهر على قضيّة «بني نوندورف» أدعياء ولاية العهد الزاعمين أنّ نوندورف هو لويس السابع عشر. فأخذ ساردو يبرهن على صحّة خبر الخطف وأورد جميع الأدلّة والشواهد بحرارة إقليم بلاده البروڤانسية [5] على كون

---

(١) طالي (Thalie)، آلهة الروايات الهزلية في أساطير اليونان يمثّلونها بوجه مستعار وبإكليل من اللبلاب.

(٢) كليو (Clio)، آلهة التاريخ يمثّلونهاومعها درج ورق وصندوق كتب.

(٣) النقريس: النظار في الأمور المدقّق فيها؛ والمراق: الدخال في الأمور كأنه يمرق من حيث أراد، وفي الأصل Roublard.

(٤) ساردو (Sardau)، أديب فرنسي مرزحي روائي، ولد سنة ١٨٣١ وتوفّي سنة ١٩٠٨.

(٥) إقليم بروفانس في جنوبي فرنسا.

ابن ماري أنتوانت لم يمُت، وما زال يتكلّم ويعزّز ويستظهر حتّى ظننت أنه كان حاضرًا تلك الحوادث. فأردت أن أستشهد له بتقرير الأطبّاء التشريحي الذي حرّره «بللتان Pelletan» فلم ينجع فيه الدليل وأخذته الحدّة وانهال بالشتم على أولئك الناس. فقلت له أخيرًا:

يا عزيزي ساردو أراك تندفع في مسئلة لويس السابع عشر هذه اندفاعًا يخيّل للناس أنها عندك مسئلة عائلية. فهل لك دِعوة[1] في نسب ملوك فرانسة حتّى تجتهد كلّ هذا الاجتهاد في إثبات عدم الالتياط[2]؟

فضحك وهدأ روعه وخزر بعينيه المملوءتين خبثًا وهمس في أذني قائلاً:

الكلام بيننا. إنَّ خطف وليّ العهد يكون منه رواية تمثيلية من أبدع ما يكون. حال كون موته في الهيكل ليس فيه شيء روائي.

علم التعبية الأكادمية

ما زالوا على أذني في مسئلة الدخول في الأكادمي حتّى أقنعوني بلزومه وكان «هاليفي»[3] هو الذي توكّل بسحبي من مكان إلى مكان من بيوت الخالدين وكان يعطيني في فنّ التعبية الأكادمية دروسه. فكان عليّ كلّ يوم فرض معيّن مبيّن فيه كلّ شيء: الذهاب إلى هنا أو إلى هناك. إلى الكونتة فلانة... الكلام على كذا وكذا. التحدّث عن الكونت «دو شامبور» وعن «شاتوبريان» في مجلس العقيلة ب.: المبالغة في إجلال «ڤكتور هوغو»... إلخ، وكان أمام انتخابي عقاب شاهقة فصارت عندي حكة في هذه المسئلة لشدّة ما لقيت من الصعاب في طريق انتخابي. ومن الصعب أن يفهم الإنسان إلى أيّ حدّ هؤلاء «الأربعون»[4] مع كونهم فُسَلاء في تآليفهم دواه شديدو المحال في حياتهم. فإنَّهم يجسّمون حركة عقولهم كلّها دسائس وحيلاً. أفتعلم أنت أَخرق أتمَّ شروطًا في الخرق من ل... وهل سمعت بحماقة تشبه حماقة ب... وهذا الأبحّ المزكوم ب... الذي هو سيِّد المقعّرين[5] والمعسطلين[6] في عصرنا الحاضر؟ فهؤلاء المعاتية من عُفارِية[7] الدهر في مسئلة الدخول تحت القبّة... فيجب أن تتحمّل منهم نوعًا من الإرشاد

---

(١) الدِّعوة: بالكسرة، تُستعمل في ادّعاء النسب.

(٢) التاطَ: ادّعى ولدًا وليس له ولد.

(٣) هاليفي (Halevy)، أديب فرنسي روائي هزلي مجيد، كان من أعضاء الأكادمي، ولد سنة ١٨٣٤ وتوفّي سنة ١٩٠٨ وتقدّم ذكره.

(٤) أعضاء الأكادمي.

(٥) المقعّر: كثير الكلام، المتشدّق.

(٦) والمعسلط والمعسطل: الذي يتكلّم بكلام لا نظام له.

(٥) أي شياطين الدهر.

وأن تثبت كونك قادرًا أن تساويهم في التخضّع.ولشدّة ما ألحّوا عليّ في كتابة رقعة الترشيح حرّرت شيئًا بغاية البساطة فلم تعجب «هاليڤي»، وقال لي: إنَّك تُظهر زهوًا كثيرًا فغيّر النفَس، ثمَّ عمل لي مسودّة فنسختها بطاعة مدهشة ولم يكن فيها أكثر من أربع غلطات في اللغة الفرنسوية.

حجاب المستقبل

حاول رنان عندما بلغ به الكبر أن يكشف حجاب المستقبل. ولماذا؟ لأجل أن ينقع ما به من ظمإ الاطّلاع. وقال: آه ما أشدّ توقي إلى تقليب صفحات الكتاب الابتدائي الذي سيحمله أحداث الكتاتيب بعد مائة سنة.

وأنا أيضًا أحبّ أن أهتك هذا القناع الغاشي وعندي شغف بالاطّلاع ولكن ليس شغفي خياليًا محضًا كما كان شغف ذلك الوافِه الهَرِم[1] فلا أبالي بالأنابيق ولا بالبخار ولا بالكهرباء... فقد بقيت طويلاً تحت تأثير وساوس والعلم لكنَّني اليوم رجعت عن هذه الأباطيل فلست أعتقد بهذا العلم الذي ينتحل دعوى أنه هو وحده الشيء الصحيح. إنَّ هذا التبجّح هو وحده كافٍ للحكم عليه. فلو كنت أملك حقّ الخيار بين الكتب التي ستظهر بعد مائة سنة لكنت أختار قصّة رومان تنحصر في هذه النغمة: رجل كان يحبّ امرأةً لا تحبّه، أو كانت المرأة تحبّه وهو لا يحبّها. أو كان كلّ واحد من الاثنين متيّمًا بالآخر أو كان كلّ منهما شديد الشنان للآخر. فتأخذ هذه القصّة عدّة أشكال ولا يتجاوز ذلك مع إدخال عاشق المرأة أكثر من عشرة أو اثني عشر مقامًا. أو آخذ جريدة أزياء لأرى كيف يكون لبس النساء بعد وفاتي بمائة سنة. وهذه الخرق تنبئني عن الإنسانية في المستقبل أكثر من الفلاسفة والقُصّاص والوعاظ والعلماء.

هذا الولد نائم

كنت في أوّليتي مفرط الكسل ولم أعرف إلاّ متأخّرًا ما يسمّيه المعلّمون بلذّة الشغل. وكذلك كنت جامحًا خروطًا[2] فلم أكن لأحرّر حوادثي إلاّ في الساعة الأخيرة، أشبه بالمحكوم عليه بالموت، يكتب وصاياه آخر دقيقة من حياته. وكان لا يحفّزني إلى الشغل إلاّ الاضطرار، كالإملاق أو التقيّد بالوعد فكنت أنجز عملي إنجاز كفّارة مفروضة عليّ أساق إليها كرهًا. وذلك أنَّ قوّة الخيال كانت عندي ضعيفة وكان الدأب عليّ من أصعب الأمور. وكنت أجدُّ أن أُبدع

(١) يشير إلى رنان الذي كان في مبدأ أمره إكليريكيًا.

(٢) الخروط، بفتح فضمّ: من الرجال مَن يركب رأسه بدون معرفة.

في كلّ ما أكتب وأن أندر عن المعتاد، خلافًا لِما صرت عليه الآن فقد طأمنت فيما بعد من غلوائي. والسرّ في هذا كلّه أنني أبطأت في الدخول إلى الحلقة الأدبية الحقيقية فكنت في عنفوان الشباب الذي يحلم الناس فيه بالأكادمي والبانطيون[1] والأنفاليد[2] لا تسمو همّتي إلى شيء وآمالي قصيرة الأمد. فكان أبي يقول دائمًا: «هذا الولد نائم»، أمّا والدتي فكانت تفهمني أكثر منه نظرًا لشفوف فكرها وصدق حسّها. وكنت أرى نفسي أقرب إليها. وكان الوالد على العكس من الوالدة ميّالاً إلى النظريّات مولعًا بالتفخيم والتقعير يحذو حذو شاتوبريان، أحبّ المؤلّفين إليه. فإذا عنّت حادثة مهما كانت تافهة خسيسة خطب فيها كأنه أحد أنبياء يني إسرائيل. فكانت والدتي تفشُّ[3] وطب فخفخته ببدائهها المنطقية الفولتيرية الأسلوب. وكان لسانها زاهرًا بالأمثال العامية اللطيفة.

المجد والبابوج

قال:

ـ وكان يختلف إلى دكّاننا أشكال ألوان من أولئك البهائم الخالدين... بعد خروجهم من الأكاديميات القريبة. فكانوا في أثناء بحثهم عن الكتب يطيلون عندنا مجالسهم ويخوضون في الأحاديث وكنت معجبًا بهم كثيرًا وكانوا هم المجد كلّه عندي. نعم، لم أكن أرى المجد إلاّ في كتابة قصّة حسنة السبك أو حاشية رقيقة وأن يكون المرء كأحد هؤلاء المشيخة الذين يعجبون ببشاشتهم ونظافة بزّتهم وبعراهم الزاهرة بالبنفسج والأحمر والأبيض وأن يعيش في عصره كأنه ليس من أهل عصره وأن يجهل أترابه ولداته وأبناء زمانه ويصير خليطًا وعشيرًا نجيًّا لشيشرون وكورنايل ومادام دو سفينيه[4]. هذا كان عندي هو المجد.

فقلت له: والآن يا أستاذ.

ـ الآن يا ولدي المجد عندي هو أن يؤذن لي بأن أفعل ما أريد فأستقبل الوزراء وأصحاب المطابع وأنا بجلباب النوم وبالبابوج وأعيّن لهم مواعيد للملاقاة وأرفضها إذا شئت وأنظرهم طويلاً حتّى أخرج لمقابلتهم كما كانوا يُنظرونني. وبالاختصار، فالأكادمي الفرنسوية وهذا

---

(١) البانطيون: مدفن أعاظم الرجال في فرانسة.

(٢) الأنفاليد: هو البناء الذي نُقلت إليه تجاليد نابوليون بونابرت.

(٣) وفي الأصل Dégonfler.

(٤) أشهر كاتبة في فرنسة في الرسائل الخاصّة، (١٦٢٦ ـ ١٦٩٦).

الصيت وهذا الإكليل تمكّنني من أن ألبس في كلّ مكان وفي كلّ وقت لبّادتي الغبراء وأن أذهب إلى الأوبرة بالخفّ إذا طاب ذلك لي. فهذه فوائد صغيرة ولكن يوجد ما هو أجلّ منها. فإنَّ الأكادمي أحيانًا فوق القانون، وخذ لك هذا المثال:

التسلية البرّية

كنت مرّة أتنزّه في البرّية مع غانية لبّة [1] أصبتها كجنّية في غيضة من غياض بولونية. ولمّا كنت حسير النظر وقليل الحيلة في إخفاء عواطفي وكان يعوزني أهمّ الفضائل الاجتماعية وهي الرياء، جلست أنا وشريكتي على مقعد نتصابى بكلّ براءة. وإذا بناطور متعنفص [2] مترّع أقبل علينا، وقال:

- إنَّني أرعى حركتكما منذ ربع ساعة يا أشبه الغيلان. نبّئاني بأسمائكما.

وكانت معي بطاقة زيارة فدفعتها إليه مع ريال فوضع الريال في جيبه وطفق ينظر في البطاقة. فلمّا علم أنني من الأكادمي الفرنسوية انقلب من الفظاظة إلى منتهى الدماثة، وقال:

أرجو منك قبول العذر يا حضرة عضو الأكادمي فأنت تدري أنَّ أشكالاً وألوانًا من الناس تنتاب هذا المكان. وإن كنت قد تعرّضت لشيء فإنَّما هو بسبب هؤلاء الأولاد العفاريت فإنَّهم ليسوا بعميان إذا أرادوا أن ينظروا ما لا يجوز النظر إليه. ولولا ذلك لم يهمّني الأمر. فأيّ فائدة من وجود الغاب إن لم يكن للمغازلة والصبابة؟ إنَّما المصيبة في سراويل السيِّدة فإنَّه أحمر ساطع فيُرى من بعيد كأنه راية منشورة. فلو عوّلت السيِّدة على سراويل أسود لكان أوفق جدًّا وكانت العيون لا ترمقها إلاّ قليلاً. وعلى كلّ حال التواري واجب، أليس ذلك بصحيح؟ وما كان يلزم أن أجيء ولكنَّني لو لم أجيء لم أكن حظيت بمعرفة حضرتك يا عضو الأكادمي.

ثمَّ قال أناتول فرانس:

- فهذه الحرّية وهذه المزايا التي يمنحها المجد والذكر تمتدّ أحيانًا إلى عِتْرة الرجل العظيم. فالمسيو م. [3] المؤرِّخ كان له ابن أخ حسن الوجه لكنَّه كان في الذوق منحرفًا عن سنة الجمهور. فلأجل خاطر عمّه الذي كان من أساطين الجمهورية عيّنوه مفتّشًا للأكادمي. فكان ذلك من قبيل العهدة إلى الذئب برعاية الغنم. لأنه لم يمضِ إلاّ قليل حتّى لحظوا أنَّ توزيع العلامات لم

---

(١) لطيفة قريبة من الناس، وفي الأصل peu farouche.

(٢) تعنفص: زها وتكبّر، عاميّ فصيح.

(٣) يعني ميشله (Michelo).

يكن على حسب أهلية المرشّحين ومزاياهم في التعليم، بل على حسب مزاياهم البدنية. فكان الفائزون عنده دائمًا مَن كانوا أملد شبابًا وأطرى إهابًا، بل كان يستصحب منهم أناسًا إلى منزله بحجّة أنه يريد أن يلقي عليهم نصائح. فبالرغم من غلبة روح النظام وطاعة الأصغر للأكبر في الجامعة نشز بعض هؤلاء الشبّان على الطاعة لهذه النصائح السرّية وأبوا أن يلعبوا دور غانميد Ganymède لدى جوبيتر المعارف. فاعترضوا ولغوا وشاعت القضيّة وتقدّمت بها شكاوى.

وكان المسيو فاليار [1]، وزير المعارف العمومية يومئذٍ. وهو ممّن يسخر الناس منهم ويظنّونه بليدًا، والحال أنه أدهى ممّا يظنّون مع ثقل جسمه واحبنطائه. فهو أشبه بالفيل الذي يتمكّن من فتح شامبانيه ولا يكسرها؟ فأبى فاليار أن يحيل هذه القضيّة إلى القضاء، وقال: إنَّ المسيو م. هو أحد آباء الجمهورية ومن مفاخرها الذين لا غبار عليهم وليس عندنا مثله كثير حتّى نرمي تمثاله في الوحل. ومَن ذا الذي يهون عليه أن يدخل الحزن على مؤرّخ الجمهورية في شيخوخته. فإثم ابن الأخ لا يجب أن يمسّ العمّ ولا عمله. لا محاكمات في هذه القضيّة ولا فضيحة. وسنفهّم هذا المفتّش الشديد العاطفة أنَّ ليس له مكان في الجامعة وأنَّ عليه أن يستقيل. وهكذا تمّ وبُدّل بهذه الوظيفة وظيفة أخرى في الجزائر على ما أظنّ. ولم يعلم العمّ من هذه القصّة شيئًا. ولو لم يكن لذلك المفتّش عمّ من أعضاء الأكادمي لكان سيق إلى المحاكم. وبعد هذا فأنت حرّ في أن تنكر فائدة الأكادمي.

فداء الكتب العتيقة

اصطاد على ضفاف السين من خزائن الكتب القديمة خشارة من تآليف القرن السابع عشر والثامن عشر ليست من المرغوب فيه المستراد لمثله. فأبديت له هذه الملاحظة، فقال لي:

ـ يا عزيزي أمسيت غير قادر أن أنام الليل إلاّ وفي يدي كتاب عتيق جيّد أو رديء فصارت المسألة عبارة عن نوع من الرسوم. ثمَّ إنَّ الكتب ليس فيها رديء، كما ليس في النساء دميمات. نعم، إنَّ الكتب العصرية لا تستهوي نظري لأنها لم تعد كتبًا. وكنت فيما مضى أبتاع الكتب لأجل عناوينها وزينتها وحسن تجليدها. فأمّا اليوم فإنَّما أبتغي بها سلاحًا لمقاتلة الأرق.

ثمَّ إنَّ تبضّعي من هذه الكتب لا يخلو من وجهة إحسان وذلك كما كان رهبان الفداء [2] يفتكّون المسيحيين المقيّدين في الأصفاد عند الأعداء فتراني أفكّ بأثمان زهيدة ـ خمسين سنتيمًا

(١) ثمَّ صار رئيسًا للجمهورية من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩١٣.

(٢) وفي الأصل Les religieux de la merci، وهي رهبانيّة تأسّست سنة ١٢٢٣ للمسيح لأجل افتكاك الأسرى الذين في بلاد الإسلام.

أو فرنك مثلاً ـ أناسًا خيرة سقطوا في سُخام [1] الأوعية. وأهل الاعتقاد يقولون إنَّ ذلك الذي يكافئ على قدح ماء لا يترك عملاً بدون مكافأة فهو يحاسبنا حسابًا يهوديًا على حسناتنا وسيّئاتنا. فهذه الكتب البالية تبدو لك كتبًا غير قيّمة، لأنك يا ولدي في سنّ الاستخفاف. فاجتهد أن تكون محسنًا. واقتدِ بي أو بمار فرانسوا داسيز [2] الذي كان إذا صادف في طريقه أدنى رقعة مكتوبة رفعها عن الأرض بعناية تامّة لئلاّ يكون فيها اسم يسوع أو مريم فتتعرّض هذه الأسماء لدوس الأرجل، ففي أحد الأيام سأله أحد تلاميذه ـ ويظهر أنه كان شابًا لطيفًا غير ذي حفلة بالأمور مثلك: يا أبي بنديكتوس لماذا تلتقط جميع هذه الرقاع حتّى التي من كتابات الوثنيين. فأجابه: يا ولدي إنَّما أجمعها لأنني أجد فيها الأحرف التي يتركّب منها اسم الله ووالدته العذراء.

صحن نيڤير [3]

كان النقّاش ب... رفيق صباه ودرسا معًا في أيام التحصيل وأحبّا غانية، كان ب. هو الفائز بها. وكان أناتول فرانس يقول هذا أعزّ أصحابي وأشدّهم خلطةً بنفسي. ولكنَّه كان يقع فيه أكثر من الجميع. وكان يقول: ب. لا يخلو من براعة في النقش والأَوْلى أن يقال إنَّها طريق يتبعها لا قريحة من عنده. فقد حفر أشياء جميلة ولكن حفره نوع من النقل. وأيُّ مَن صبر صبره يقدر على الإتيان بمثله. ولكن ب. يعوزه علم آخر وهو علم أن يكون غنيًّا، وهو العلم الأعلى. فقد صار في هذه السنّ وليس في جيبه شيء، فتراه يركض وراء التزامات الحكومة. وكَمْ مرّة حملني على مساعٍ كانت ثقيلة عليّ. فما كان أحراه بأن يدّخر شيئًا من فضّته البيضاء لأيامه السوداء. ولكن السيِّد كان يحبّ الرفاهية وغضارة العيش وكانت عنده حليلة حسناء. ولعلّها جميلة إلى الآن إلاّ أنني من ثلاثين سنة ما شاهدتها. فقد كان يأدب المآدب ويدعو إليها الأدباء وطلبة التصوير فيأكلون ويشربون ويلهون ويلعبون وأحيانًا يصلون الغداء بالعشاء وهكذا مستمرًا إلى أنَّ ب. أصبح اليوم وهو من بني غبراء [4].

ولا أعلم هل باقٍ عنده إلى اليوم ذلك الصحن النيڤيري البديع التي كان يصمده على ظهر الموقد كترس مجد؟ فهذا الصحن لم يكن له. فقد كنّا مرّة مدعوّين عنده فدخلت فتاة

---

(١) سواد القدر، يقال له سخام وسخمة، وسخم الله وجهه سوّده وهو من العاميّ الفصيح، وفي الأصل Opprobre.

(٢) قدّيس طلياني الأصل.

(٣) Nevers: مقاطعة من فرانسة على نهر اللوار.

(٤) كناية عن الفقراء الذين يستفرشون وجه الأرض. وفي الأصل Sur la paille أي على القشّ وهو كما نقول نحن: على الأرض أو على الحصيرة.

بيدها صحن فيه أصداف مما يقال له التوتيا. فأخذت منها مادام پ. الصحن ونقدتها الثمن وقالت لها سنعيد لك الصحن بعد قليل.

فلمّا أفرغوا ما فيه ظهر في قعره منظر واقعة من التوراة وهي حكم سليمان، فنظر الجميع إلى هذه الصورة وافتتنوا بها وظهر أنَّ الصحن هو من صنعة نيڤير من أوائل القرن السابع عشر. وكان سليمًا ليس فيه أدنى صدع. فتحدّث الحضور هل نعيد الصحن أم لا؟ فقال المسيو پ.: ولماذا نعيده؟ أفلا ترى كيف يصنع هؤلاء بالتحف النفيسة؟ إنَّ هذا يكون من قبيل طرح الدرر أمام الخنازير. فلو أعدناه لهم لا يبرحون يستعملونه إلى أن يكسروه أو يقع في يد خبير يأخذه. فالعناية الإلهية أتت به إلى هنا وأيّ مكان لهذا الصحن أحسن من بيت رجل منسوب إلى الفنّ. إلاّ أنَّ بعض المدعوّين الذين داخلهم شيء من الحسد لاستئثار صاحبنا بهذه المضنّة[1] لم يتجمجموا إن انتقدوا كون أخذها بهذه الصورة لا يُعدّ مشروعًا. فقالوا:

ـ ممّا لا جدال فيه أنَّ إعادة فنّ كهذه إلى أجلاف كهؤلاء شيء يشقّ على النفس. ولكن ممّا لا جدال فيه أيضًا أنها لهم. فكان ينبغي أن يعرض عليهم شيء بمقابلة الصحن.

فقال صاحبنا:

ـ أن نعرض عليهم شيئًا؟ أنتم لا تعرفون هؤلاء. إنَّني إن أعطيتهم صحنًا من بضاعة السوق بدل صحنهم هذا لم ينتبهوا للمسئلة لأنهم جفاة فِدام. ولكن إذا جئت أقول لهم: ماذا تريدون عوضًا عن صحنكم هذا؟ لأنه صحن له شيء من القيمة أكون وضعت لهم البرغوث في أذنهم[2] فتهتاج تصوّراتهم ويتقاضونني بدل الصحن عيني رأسي.

فبعد أن تدبّروا طويلاً المسئلة ووازنوا بين المانع والمقتضي قرّروا الاحتفاظ بالصحن الذي لا يليق له أولئك الغلاظ وأن يُدفع لهم حلوان ملوكي.

فهتف پ. قائلاً: آه لا يكن هذا الحلوان ملوكيًا كثيرًا لأنهم حينئذٍ تخالجهم الشكوك!

وكان پ. كلّ نهار أحد بينما نحن عنده على الطعام كالعادة يتباهى بهذه الغزاة التي غزاها على الصحن إلى أن عيل صبري. فقلت له يومًا: پ. أنت حرامي. وبصحنك هذا أنت ذاهب إلى جهنّم لأنه إمّا إعادة المسلوب أو حلول الحوب. وكان پ. معتقدًا بالدين. فهزّ كتفيه وقال

---

(١) الشيء النفيس يضن به.

(٢) وفي الأصل Je leur mettrai la puce à l'oreille، وهو طبق التعبير العربي العامّي في هذا المعنى فإنَّ العامّة عندنا تقول: لماذا تضع له هذا البرغوث في أذنه؟ بمعنى لماذا تُقلق فكره بخبر كنت في غنى عنه؟ ويقولون مثلاً: كان فلان مستريحًا فجاء فلان ووضع له هذا البرغوث في أذنه. أي نبّهه لأمر كان خليًا منه.

لي إنّني لا أفهم شيئًا من الدين ولا من الآداب. وإنّه هو واثق بخلاص نفسه، بل إنّ الله يفضّل أن يكون هذا الصحن عنده ويرتاح إلى ظفره بهذه الطرفة... ومَن يدري فربّما يشترون منه صحنه في الآخرة. فسله إذًا إن صادفته، أباقٍ هذا الصحن عنده؟

عصا شاتوبريان[١]

ـ والذي أخبرتك عنه كان يعبد شاتوبريان من دون الله. فهو عنده أعظم عبقري أنجبته فرانسة سواءٌ فرانسة القديمة أم الحديثة. وكان يحفظ أجمل فصول الفيكونت على ظهر لسانه ويسردها بصوت جافٍّ غليظ وكان يرجع إلى شاتوبريان كأنه وحيٌ يوحى. ويزعم أنه لو أُصغي إلى شاتوبريان ما أعوزنا شيء لأنّ شاتوبريان كان تنبّأ بكلّ شيء ولكنّه على حدّ كساندرة[٢] ذهب وعظه صرخة في وادٍ. ولهذا تجدنا الآن حيث نحن، أي على شفا الفوضى والثورة العامية. وكان والدي يجعل في غرفته الخاصّة جميع تواليف شاتوبريان ويتّخذها ملاذه وضحكات قلبه. وعند موته وجدت في تركته ما يكاد يُبنى منه مسكن من كتاب "الرحلة من باريز إلى بيت المقدّس" ورواية "أتالا" وقصيدة "ناتشه"[٣].

وكان معجبًا جدًّا ببعض بقايا نفيسة من هيكله ومن ذلك ذخائر من شعره[٤] كانت وصلت إليه من مزيّن الفيكونت. وقد ظهر لي منها أنّ شعر شاتوبريان كان جثلاً غليظًا نافضًا[٥] مع ميل فيه إلى الصُّهبة. وربّما كان الفيكونت يخضّب بحسب ما لاح لي. وكان عندنا عصا لشاتوبريان لا أعلم من أين وصلت إلينا. وهي نفس العصا التي توكّأ عليها شاتوبريان عندما صعد جبل سيناء. وكانت خيزرانة عليها تفّاحة من العاج. وكنّا ننافس بها ونضن أن نبرزها إلاّ للأفراد المتميّزين وذوي النفوس الزاكية الذين يشعرون بهزّة الاتّصال بالعبقريّة. وبعد هذا فلك أن تحزر سورة الغضب التي أخذت والدي عندما فاجأ الخادم مرّةً تنفض أحد الأسرّة بعصا جبل سيناء

(١) شاتوبريان (Chateaubriand)، من أكتب كتّاب الفرنسيس يمتاز أسلوبه بعلوّ الطبقة والفخميّة وغزارة التصوّرات ورقّة الشعور وشفوف الحسن ودقّة الوصف ونصوع اللون. وكان من رجال السياسة ونُصّب وزيرًا للأمور الخارجية عند رجوع الحكم الملكي بعد الثورة. له من التآليف "آتالا" و"مميّزات النصرانية" و"الشهداء" و"الرحلة من باريز إلى أوشليم" و"آخر بني سراج" وهي الرواية التي ترجمتها إلى العربية وذيّلتها بتاريخ الأندلس إلى جلاء الأخير عن تلك البلاد سنة ١٦١٠ وقد ترجم ذلك بعض أدباء فارس إلى الفارسية من أكثر من ٢٠ سنة.

(٢) Kassandre في أساطير يونان كساندرة هذه، ابنة بريام وهيكوب، أوحى إليها الإله أبولون معرفة الآتي فلم تقل له ما يعجبه فغضب عليها وأعلن أنها ممسوسة فأصبح كلامها لا يباليه أحد، وصارت هذه اللفظة مثلاً لمَن يتكلّم ولا أحد يستمع له.

(٣) Itinéraire de Paris à Jérusalem، من تآليف شاتوبريان، ورواية Atala هي رومان صغير له يصف فيه معيشة أمريكا الهمجية، وقصيدة Natchez هي من قبيل الشعر المنثور موضوعها الإنسان والطبيعة لشاتوبريان أيضًا.

(٤) لا عجب إذًا إذا ادّخر الناس من بقايا الأنبياء.

(٥) الشعر الجثل الغليظ والنافض: الذي حال لونه، وفي الأصل Louchissant.

هذه! فمع أنه كان بعيد الغضب واسع الصدر غضب غضبة خفنا أن تنتهي بسكات يودي بحياته. وكان ينتهر والدتي قائلاً لها: اشحطي هذه الخبيثة اشحطيها [1] أبعصا شاتوبريان تُنفض الأسرّة؟ ثمَّ طفق ينظّف العصا بمنديل كان معه. وأخيرًا أتى بالعصا وخبّأها في أسفل خزانة كتب. ولمّا سكن غضبه أدرناه عن قضيّة طرد الفتاة بحجّة جهالتها وعاميّتها.

ولشدّة ما كان هذا الرجل الطيّب الذي هو والدي مواظبًا على قراءة كتب شاتوبريان أصيب بمرض الفُخَمِيّة والجهورة. فكنت تسمع هذا الرجل الساذج أثناء مساوماته ومحاوراته مع عامّة الناس في سفاسف من الشؤون يستعمل الأسلوب الفخم والألفاظ الطنّانة ولا يبرح يتكلّم بالإيقاع والإسجاع والفواصل وكلّ شيء عنده يصلح أن يكون ميدانًا للفصاحة. فعند أقلّ هفوة من هفوات الخادم، كأن تأتيه ببيضة قد زادت نضجها عمّا يجب أو قطعة لحم قد أشاطتها على النار، كنت تراه قد انبعق بالخطب كأنه الفيكونت منحدرًا من جبل سيناء معه لوح الشريعة في ذيل ردائه. وما دام جالسًا على المائدة لا يفتأ يتقعّر ويتلَهْوَق وبجانبه والدتي لا تبالي بصلصلته هذه كلّها أكثر ممّا تبالي بخرير النهر الجاري بالقرب من بيتنا. أمّا أنا فقد أنشأ ذلك عندي كراهية للفيكونت.

المودّة والعادة

كنّا نتغدّى عند «لابيروز Lapérouse» فعنَّ على الطعام ذكر زيد... فأخذ يناضل عنه نضالاً فيه من التفصّح أكثر ممّا فيه من الحدّة، ثمَّ قال: هو صديقي.

فقالت له العقيلة:

ـ أأنت لك أصدقاء؟ كلاّ، يا سيِّدي أنت ليس لك أصحاب وإنَّما أنت لك أُلاّف: فلأجل الدخول في صحبتك ومخالصتك لا يلزم سوى الثبات والفراغ. وأيّ امرئ رزقه الله خلق المواظبة والمحافظة على المواعيد يغشى مجلسك كلّ صباحٍ في ساعة معيّنة يدخل في قلبك ويقيم به. ففي الأيام الأول تتبرّم به وتجده ثقيلاً ملحاحًا ولكنّك لشدّة ما تراه في أول الأمر جلفًا غليظًا تنتهي بأن تراه في الآخر كيّسًا ظريفًا فتأخذ بالروايات والأحاديث عنه. ثمَّ تجعله سُخَرةً لك. وهذه علياء صور الحبّ عندك. ولا يمضي على ذلك شهر حتّى لا يعود لك غنى عنه فإذا أغبّ زيارتك عبست وانقلبت من أكره الناس وجهًا ولكنَّه إن غاب عنك ثمانية أيام فقد ودّعته ونسيته. وإذا رجع إليك لم تعرفه وأوشكت أن تنسى اسمه. ويأتي آخر فيتبوّأ مكانه عندك، فالمودّة عندك هي عبارة عن المواظبة والمجيء في الميعاد.

---
(١) اشحطه: أبعده، تستعملها العامّة في برّ الشام بمعنى الطرد وهي من العاميّ الفصيح.

فقال لها:

ـ قولي إنَّه الهوس.

فقالت:

ـ نعم، هو الهوس.

ـ أنت أشدّ صواحباتي ألمعيّة وأتمهنَّ ظرفًا.

من الزُقاق الضيّق

قال:

ـ السيِّدة شديدة المحافظة على المواعيد ودماغها دماغ رياضي. فالزيارات والمآتم والأعراس والمآدب للناس والمآدب عند الناس، كلّ هذا تمسك به حسابًا.

أمَّا أنا فعاجز في هذا الباب، فإذا ضربوا لي موعدًا جئت دائمًا في الآخر، هذا إن لم أنسه بالمرّة. ثمَّ إنَّني لا أقدر أن أذهب من نقطة إلى أخرى خطًّا مستقيمًا، بل أمشي دائمًا من الزقاق الضيّق وأطعم في المدنيّة وأبدأ بالسير في الميعاد ولكن تستهويني في طريقي أنواع الشهوات، فأنسى الساعة أثناء وجودي عند بائع العاديّات أو الكتب القديمة. ويصادف أنه عندما لا يكون بقي إلاّ نحو ربع ساعة للميعاد تطلع عليّ جنّية، فيصيبني ما أصاب مار بولس في دمشق. فلا أصل إلى منزل مضيفي إلاّ وقد صاروا في آخر الطعام، إمّا في الحلواء أو عند الشراب.

عريف شمبانية [1]

قال:

ـ إنَّ جان داركتي في خطر مبين. وأنا أراني معوِّلاً عليك يا ولدي في لقيان قصّة العريف الشمباني.

ـ العريف الشمباني؟

ـ نعم، في زمن الملك جان كان أحد العرفاء أي الفلاّحين أي أحد الصادقين يشتغل في حقله. فسمع أصواتًا هادّةً زاعقة تقول: «اذهب إلى الملك وقل له لا يناجز العدوّ المعركة» فالملك

(1) Champagne: مقاطعة من شمالي فرانسة. والعريف: هو دون الرئيس، وفي الأصل الفرنسي Vauvsseur وهو الصغير من أصحاب الإقطاعات.

جان ناجز الحرب، بالرغم من السماء. فدارت عليه الدائرة في «بواتيه»[1] وأخذ أسيرًا هو وابنه. فماذا تقول في هذه القصّة؟ إنَّ الإكليريكيين الذين يدّعون جان دارك قد أخذوا تلك النبوة المزعومة عن هذا الفلاّح ونحلوها جان دارك.

ولست أدري أين عثرت على هذه القصّة ثمَّ فقدتها. فمنذ مدّة طويلة أدور حول هذه العذراء وأفقد ما أجمعه من أخبارها وذلك بما أصابني من المحن والتزمته من تحوّل سكن ومن فراق نساء... فذهب ذلك بكتبي وأوراقي. وقد وجدت مرّة نسخة الخطّ التي من كتابي تاييس في المطبخ، كانوا يريدون أن يجعلوا منها عفاصًا[2] لقارورة الحلواء. فلا تتزوّج أبدًا يا حبيبي، فقلّما يسعد امرؤٌ بالزواج، لا سيّما مَن كان منتسبًا إلى حرفة الأدب. ماذا صنعوا بقصّة فلاّحي هذا؟ هل ضوى إليك منه خبر؟ كلاّ، هو كالكبريت الأحمر. مع أنَّ هذه القصّة تفسّر كلّ شيء من هذه القضيّة الغامضة وهي مفتاح دهليز أطروحتي[3] ولا أتذكّر أين وجدت هذا الأثر؟ أفي خزانة كتب السنات[4]، عندما كنت قيّمًا عليها، أم في أحد الكتب، حينما نقّادًا للتآليف في جريدة الطان. فلست أجده الآن، فها أنا ذا يا ولدي أتطارح على ركبتيك، إذ أصبح في قبضة يدك شرف معلّمك هذا الشيخ وشرف عذرائه. إنَّ الظفر بنصّ كهذا يكون له رنّة باهرة. فخبر الفلاّح هو المفتاح. وقد يجادلون في خبر فلاّحي هذا ولكنّي أجعل لدى أخمصيّ هذين كلّ مَن هناك من رهبان. ونَقَلة عن مكاتب الرهبان، فإذا لم يتهيّأ لي أن أصفعهم بنصّ صريح فيا للعار!

ـ القضيّة هي قضيّة الملك جان ومعركة پواتيه، فلا جرم أنَّ عريفك هذا يوجد في كتب فرواسّار[5].

ـ نعم، يا حبيبي هو هذا. فرواسّار. أين أضعت عقلي؟ إنَّك لربّ الحمية والألمعية. إنَّك ملك كريم فاذهب يا ولدي بلا تردّد إلى المكتبة الوطنية ولا تعُد منها إلاّ ومعك قصّة هذا الفلاّح. إنَّ فرواسّار هذا هو نِعم المؤلّف. كان يجمع من هنا ومن هناك ولكن يوجد لآلئ يتيمة في

---

(1) بلدة على مسافة ٣٣٢ كيلو مترًا من باريز، إلى الجنوب الغربي منها. اشتهرت بكون العرب وصلوا إليها سنة ٧٣٢ وانتصب فيها الميزان بينهم وبين أمم الفرنج فاستمرّت الحرب عدّة أيام كان الوجه أولاً فيها للعرب. إلاّ أنهم انكسروا في الآخر، قيل بما شغلهم عن القتال من حمل الغنائم، وقيل بالخلاف فيما بينهم وبين أهل أوربا. يجعلون الفضل في تخليص أوربا ذلك اليوم من سلطنة العرب لشارل مارتل، والد شرلمان، لأنه كان بطل تلك المعركة الفاصلة التي كان لها ما بعدها. ثمَّ في بواتيه أسر الملك جان الملقّب بالصالح Jean le bon سنة ١٣٥٦ كما هو وارد في المتن.

(2) ما يُلفّ به راس القارورة، وفعله بالفرنسي Coiffer.

(3) صديقنا وزميلنا الأستاذ العلاّمة الشيخ عبد القادر المغربي، من أعضاء المجمع العلمي العربي، اختار الأطروحة ترجمة لكلمة Thèse.

(4) مجلس الشيوخ.

(5) فرواسّار (Froissart)، مؤرّخ فرنسي حرّر ماجريات عصره من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٤٠٠، وكانت رواياته بدون ترتيب ولكنّها على جانب من الرقّة والطلاوة.

مجاميعه. كان يأخذ عن كلّ الأسانيد وكأنه صحفي من صحفيّي هذا الوقت. نعم، فاذهب يا ولدي إلى دار الكتب وذهابك بهذا الصباح أحسن من ذهابك المساء وبهذا المساء خير من الغد. فارأف بحال مؤرِّخ مسكين وقع في الحيرة. إنَّني منذ فقدت قصّة هذا العريف شرد عنّي الكرى وذهبت شهوة الطعام وولّت لذّة الحياة.

فبقيت ثمانية أيام متوالية ملازمًا دار الكتب لا أبرحها ونخلت أجلاد فرواسّار الثمانية بالمنخل فما عثرت للعريف على أثر. وبعد ذلك جئت إلى مربع سعيد فقوبلت بفتور زائد.

ـ هل قرأت فرواسّار بأصباره؟ لعلّك قلبت صفحاته بقفا إصبعك، كما لو كان رومانًا، لأنك ملآن شبابًا ولجاجًا ولست أنقمهما عليك وإنَّما يجب أن ننبذ قضيّة جان دارك ظهريًّا، فلا نتكلّم بها بعد الآن لأنَّ تاريخي بدون العريف الشمباني يعود بلا طعم ويصير أشبه شيء بأكلة خبيص.

ـ لعلّه يوجد في جان لوبل Jean Lebel؟

ـ نعم، هو هذا يا حبيبي. عريفي الشمباني هو في جان لوبل. لكَمْ فكّرنا في ذلك وهو لا شكّ في جان لوبل. إنَّك لملك حفيظ. اذهب سريعًا إلى دار الكتب الوطنية. وخذ جان لوبل فهو مؤرِّخ بارع، ودليل ذلك أنَّ فرواسّار سرق منه وانتحل لنفسه. ستحمل إليّ الغداة على جناحيك خبر العريف الشمباني، إنَّني على ثقة من ذلك.

فذهبت وبحثت وأحفيت ولم أجد في جان لوبل شيئًا. وكان أناتول فرانس على أوفاز قاصدًا إنكلترة فودّعته وكان وداعًا خاليًا من الانعطاف.

ـ يا صاحبي سنتلاقى بعد خمسة عشر يومًا. لعلّك في هذه المدّة تكون ظفرت بعريفي الشمباني. وإن كان أملي من جهّتك ضعيفًا. فإنَّني لا أراك ميمون اليمين وكان يجب عليّ أن أعهد بهذا العمل إلى أناس من الأخصّائيين. ومع هذا داوِم البحث إذا شئت، لأنه من العبث أن تضيّع وقتك في جان دارك بدون العريف.

وجاءتني منه بطاقة بريدية من لندرة تاريخها أول أغسطس ١٩٠٣ يقول فيها هكذا "قد صادفنا مجازًا صعبًا. هل ظفرت لي بالعريف؟".

فكان الجواب سلبًا. ثمَّ عاد أناتول فرانس من لندرة إلى باريز وكان هاتيك المدّة منصرفًا عن جان دارك إلى رنان ينقّح ويراجع الخطبة التي يريد أن يتلوها أمام تمثال رنان في تريغيه[1].

(١) Trèguier: بلدة صغيرة في سواحل شمالي فرانسة، هي وطن أرنست رنان وقد تقدّم ذكر هذه الخطبة.

ثمَّ قال عن رنان:

ـ هو ذلك الذي لم يكن يتكاءده نصّ. فكان يجب أن أقتفي أثره في قضيّة عريفي.

وفي أواسط سبتمبر شخص إلى الجيروند. فجاء منه برقيّة هذا نصّها "يا ولدي العزيز أتضرّع إليك بأن تجد لي عريفي. معلّمك الشيخ أناتول فرانس".

فقرأت وراجعت في دار الكتب الوطنية كتب فرواسّار ولوبل وجميع المؤرّخين المعاصرين وغير المعاصرين، ممّن تكلّموا عن الملك جان ومعركة پواتيه. وسألت شامبيون الأب والإبن وهما "تندّسا عن هذا الخبر من أوسع الناس اطّلاعًا، ممّن يتردّد إلى دكّانهما، وفليا هذه القضيّة فليًا فلم يوجد أحد يعرف رسًّا من هذا الخبر.

ثمَّ عاد أناتول فرانس من الجيروند فأرسل إليّ بالسريع أن أوافيه إلى مربع سعيد، فجئته. ومن عادته في أوباته أن يزداد حنانًا وعطفًا فبالغ في الإلطاف وعاد إلى الموضوع. فبعد أن راغ مدّة حول الميناء دخل. وكان كلامه هكذا:

ـ لست أستقصي منك شيئًا من خبر ذلك العريف المسكين، فقد بذلت جهدك إلى أقصى درجات الاستطاعة. وكذلك جماعة دار الآداب في بوردو [1] لم يكونوا بأحظى منك. فقد دلّلتهم جميعًا على الأثر ومضوا ينهبون الكتب في الإحفاء والقصّ نهبًا ولكنّهم عادوا مثلك بخفَّي حنين. ثمَّ تقدّمت في التحرّي إلى أحد أساتذة ريمس [2] وقلت: ما دام عريفي شمبانيًّا فلنتقدّم إلى رجل شمبانيّ مثله. فإذا بالأستاذ المذكور لا يرضخ من هذا الخبر قليلاً ولا كثيرًا. فصحّ ذلك المثل القائل: "تسعة وتسعون خروفًا وواحد من شامبانيه فهذه مائة بهيمة" فلا نتكلّمنَّ بعد اليوم في هذا الأمر، فالحياة قصيرة جدًّا وهذا العريف كأنه قد سحره ساحر فلندع جان دارك إذًا فإنَّ عندي مواضيع أخرى. فماذا تقول في "رابليه Rabelais"[3]؟ فقلت له:

ـ من جان دارك إلى رابليه أرى الطفرة خطيرة.

---

(١) La faculté des lettres de Bordeaux.

(٢) Reims: مدينة شهيرة في شمالي فرانسة من جهة المارن، فيها البيعة البديعة التي تُعدّ من أحسن بيع أوربة. أصابتها مدافع الألمان في الحرب العامّة وفيها تنصّر وتعمّد كلوفيس، أول ملوك فرانسة، سنة٤٩٦ فصارت شنشنة عند ملوك الفرنسيس أن يتتوّجوا فيها. وفيها كفّر للملك كارلوس السابع على يد جان دارك.

(٣) رابليه (Rablais)، كاتب فرنسي، ولد في شينون بين سنة ١٤٨٣ وسنة ١٥٠٠، وكان طبيبًا ومعلّمًا للتشريح ثمَّ صار قسّيسًا. وله تأليف عظيم فيه ما فيه من النظريّات الواهية والخيالات ولكنَّه يشفّ عن محبّة خالصة للحقّ وولوع أكيد بالنقد. وفي لغته القديمة عذوبة يستحليها الفرنسيس كثيرًا.

ـ لا تظنّ الأمر بهذه الدرجة، فإنَّ قسّيس «مودون»[١]، نظير راعية «دومريمي»[٢]، أوشك أن يُجزى بالنار. وأصابه ما أصابها من الوقيعة وابتركوا في عرضه كما ابتركوا في عرضها. ما عليك إلاّ أن تسأل «إتيان دولّه Etienne Dollet» الذي هو ناشر كتبه ومن المعجبين به، فإنَّك تعلم أنَّ مؤلّف كتاب Rantagruel[٣] لم ينجُ من بطش اللاهوتيين إلاّ بأعجوبة. والحق، أنَّ هذا العفريت، ضرّاب الرمل في المواسم، كان صلاً من الأصلال وداهيةً من الدواهي. كان يتباله ويتحامق ويترنّح في الطريق ترنُّح السكارى. فاعلم أنَّ هذا الأديب الطبيب اللاهوتي الحقوقي السياسي كان يكرع من الزيت أكثر ممّا يكرع من الخمر. وكان يتعمّد إضحاك الناس لاستمالتهم. وأنت تدري أنَّ السكارى هم دائمًا خفاف على الروح. ولا جرم أنَّ لهم إلهًا يعتني بهم وأنَّ هذا الضحك هو سلاح هائل في هذه الدنيا. وما عدت أتذكّر مَن قال: «إنَّ دهاء المرء هو على قدر بشاشته» فلهذا أقول إنَّ رابليه لم يكن بليدًا. وكان التعليم المسيحي القديم يجعل الغمّ من الكبائر. وهذا حقّ. فأرى أنَّ رابليه هو أكبر كتّابنا لأنه أكثرهم مجانة. وكذلك جان دارك كانت تميل إلى الانبساط. وكان بينه وبينها وجوه شبه أخرى. فقد كان رابليه يحبّ فرنسا حبًّا على النمط الحديث. ولم تكن عصبيّته لها عصبيّة دين ولا حمية جنس، بل فرانسة كانت عنده هي أزاهير الزنبق أي هي الأسرة المالكة، سلالة مار بولس الحليم. وكان هذا الرجل العجيب الذي عنده من كلّ فنّ خبر وطنيًا متحمّسًا ذا نزعة عسكرية عريقة.

خزانتا الكتب

ثمَّ أخذ بيدي نحو الدهليز الفاصل بين الغرفة وخزانة الكتب، فلمّا صرنا في منتهاها رأينا من النافذة مكتبتين متناوحتين متماثلتين وعلى رأس الواحدة نسخة عن جان دارك من الأجرّ، استصنعتها البرنسة دورليان. وعلى رأس الأخرى تمثال من تراب مطبوخ لرابيله، صُنع في تور Toursوكلّ من المكتبتين مكتظّة بالكتب والوثائق. فأمّا الكتب التي على جان دارك فتجليدها على غرار واحد. وكلّها مغطّاة بجلد دبيغ أملس وعليها شعار تلك العذراء. والسيف الذي

(١) Meudon: البلدة التي كان رابليه قسّيسًا لها.

(٢) Domremy: قرية على نهر الموزل من مقاطعة نوفشاتو من شمالي فرانسة، ولدت فيها جان دارك ولا يزال البيت الذي ولدت فيه محفوظًا.

(٣) هو اسم أحد التأليفين الكبيرين اللذين حرّرهما رابليه وموضوعه تصوير مطامع الملوك وأهوائهم وانغماسهم في الترف وظمأهم الذي لا يروى.

بسند تاج فرانسة بين زهرتَي زنبق وهناك نعوت مخطوطة بالأزرق والأحمر كأنها صفحة من كتاب القدّاس. أمَّا الكتب المتعلّقة بكاهن مودن (رابليه) فتجليدها أقلّ نعومة وهي من جلد المعز المراكشي.

ثمَّ أطلعني على مجموعة مرجّلة[1] ملأى بالآثار القديمة المتعلّقة برابليه كصوره وصور مساكنه وصور أصحابه. وكذلك على مجموعة أخرى لصور جان دارك. وأخذ يقلّب في صفحات الاثنتين ثمَّ شرع يتنهّد الصعداء ويتذكّر العريف المفقود وأغلق مجموعة العذراء آسفًا ضجرًا، وقال: هو ذا السمّ. هو ذا السرّ الذي لم ينحل طِلّسمه. وعاد فضمّ إلى صدره مجموعة رابليه كما يضمّ الأب ولده وأخذها إلى غرفته وأخذ يروزها معجبًا بها، ثمَّ يقول: هذا هو الفرح والمرح. هذا هو الدرياق لذاك السمّ.

العذراء جان دارك ذيل طيّارة

ثمَّ قال:

لنصنع كتابًا على رابليه. ولندع جان دارك ولنترك هذه العظمة للمتنسّكين. ثمَّ ذكر أنَّ رنان قال له مرّة وهما على غداء سلتيّ[2]: «أيّها الشابّ تُعنى بسيرة جان دارك، فهذا الموضوع المجيد طافح بالأوهام. سراب يحسبه الإنسان من بعيد ماء. والحقيقة، أنه عبارة عن بعض نصوص صحيحة أو مزوّرة وبعض أكاذيب وأساطير وشيء من التمثيل وشيء من السياسة وشيء من الخرق وشيء من الحماسة الدينية: ذيل طيّارة فيه من جميع الخرق وقصاصات الورق وهي مربوطة بخيوط غليظة، فإذا هبّت ريح الحماقة طيّرت في السماء هذه الآلة الحمقاء. فأنصحك يا ولدي أن لا تُعنى بهذه اللعبة الصبيانية» لقد أصاب لعمري رنان فيما قال. ثمَّ خرجنا وفي الطريق أخذ يرسم خطّة رابليه وأجمع الرحلة إلى تور، بعد أن كان ينوي السفر إلى أورليان من أجل جان دارك.

قال لي: قد انتهينا من أمر جانيت (جان دارك) هذه لأنَّ خبر ذلك العريف شرد من يدنا بلا رجوع. وقد يجوز أن يكون اشتغالي بهذه العذراء ممّا يجرُّ عليّ نغصًا كثيرة، فإنَّ جماعة القسوس كانوا لا يألون في تجريعي كؤوسًا مرّةً من أجل تلك الفتاة المقدّسة عندهم. فلهذا نترك

---

(١) المرجل: الذي فيه صور.

(٢) الجنس السلتي Celtique: هو من الأجناس الهندية الجرمانية التي لا يُعرف مبدأ هجرتها إلى أوربا ومنها اليوم أهالي بلاد الغال في إنكلترة وأهل إيرلاندة وأهل ولاية بريتانية بفرانسة وهي وطن رنان وجول سيمون من كتّاب فرانسة. ومن السلتيين مارسل كاشين، زعيم الفرقة الشيوعية في فرانسة. أخبرني هو بنفسه أنَّ بلدته تبعد نحوًا من ٢٠ كيلو مترًا عن بلدة رنان. ومن السلتيين في إنكلترة المستر لويد جورج، رئيس وزراء إنكلترة الأسبق.

الكلام عنها. نعم، قد كان الموضوع بديعًا وكنت بدأت ألمح بصيصًا أشبه بالبصيص الذي يراه الإنسان وهو سائر في أحد الأسراب إذا قارب آخره. ولكنّني وحلت في قضيّة هذا العريف الذي لم يكن أحد ينتاشني منها».

هذا، وبينما كنت أحد الأيام في مكتبة الأمّة أليقت على المذكّرات التي طبعتها جمعيّة تاريخ فرانسة نظرة أخيرة فرأيت مجلّدًا رقيقًا اسمه «قصّة الفاليين [1] الأوائل الأربعة»، طبعه «سيمون لوس». ففتحت الكتاب ومن أول نظرة ظهرت أمامي قصّة العريف الشامباني. وكان مضى عليّ إلى ذلك الحين ثلاثة أشهر وأنا أقصّ أثره.

فغدوت ثاني يوم إلى مربع سعيد ظافرًا لكنّي احتجنت الخبر هنيهةً وتركته يتكلّم في الموضوع، فقال:

ـ لا بدّ أن يوجد في فرانسة مَن يعرف قصّة هذا العريف، أفتراني مضطرًّا يومًا من الأيام إلى نشر إعلان في الجرائد أتحسّس فيه خبر هذا الرجل؟ لقد أضعت عليك وقتك يا ولدي. نعم، في سنّك هذه الوقت ليس بذي ثمن ولكنّه لمثلي أنا هو ثمين عزيز. فهو أشبه بالحسوات الأخيرة من شراب لذيذ. أأموت يا تُرى بدون أن أظفر بعريفي؟ حقًّا قد قصّرت هذه القصّة أجلي. وكان عليّ أن أتقدّم في لقيان هذه الضالّة إلى جمعيّة «واسطة الباحثين ومحبّي الاطّلاع» بدون تردّد ولا مراوغة. ولكن أطروا لي سعة اطّلاعك وثقوب فكرك، فالحقّ الذي لا بدّ من الجهر به هو أنَّ لمعان ألمعيّتك أعظم من بعد غورك. ولا يقدر الإنسان أن ينكر عليك حدّة ذهنك شأن أهل الجنوب ولكن هذه الخفّة في الروح لا تلائم المباحث الغامضة والدروس المتينة. كان يعوزني جُرَذ أنبار فاتّخذت لنفسي شعلة نار».

فأنا تركته يفيض بجميع بثّه وبعد ربع ساعة بادرت إلى سدّ البثق قائلاً له:

ـ أستاذي العزيز، قد وجدت لك ضالّتك.

ـ أتراك هازلاً؟

ـ كلاّ، قد ظفرت بقصّة العريف وها هي العلامة معي.

ـ وأين عثرت عليها يا ولدي؟ أفي كتب فرواسّار؟

ـ لا.

ـ أفي جان لوبل؟

---

(١) الفاليون: هم سكّان فرانسة القديمة Chronique des quatre premiers Valois.

ـ لا، بل في خبر الأربعة الأوائل الفاليين.

فبقي هنيهةً مدهوشًا مشدوهًا وطفق يضع نظّارته على عينيه ثمّ يرفعهما وأخذ يقوم ويقعد ويمشي في الغرفة ويمسح ذيل ثوبه بيده مثل العجائز ويمرّها على جبهته.

ـ أين كان عقلي؟ نعم، قصّة الأوائل الفاليين الأربعة. هذه كنت قرأتها وكتبت عليها مقالة. آه كَمْ فرجت هذه اللقطة من كربتي وخفّفت من وقري. إنّني أشعر بنفسي أفتى ممّا كنت بعشر سنوات. لنترك رابليه يا ولدي ولنعد إلى جان دارك. ستغضب من ذلك السيِّدة العقيلة وتصبح كالبومة المغيظة ولكن لا بدّ من المضيّ في طيّتي، فهو موضوع متّسع متشعّب الأطراف. آه ما أجمله وما أليقه لهذا الوقت! سنباشر الشغل من هذه الساعة ولو كنت بقيت مؤمنًا يا ولدي الأعزّ لكنت أقول لك: جُثِيًا على الركب. جثيًا على الركب. لنحمد السماء وننشد أناشيد الشكر وتسابيح الحمد. ولكنّي كما تعلم متشكّكٍ مرتاب. ولقد شكّكت فيك فكان الواجب عليّ نشيد الشكر لك دون غيرك بسعة اطّلاعك الغضّ وتوقد ذكائك الجنوبي الحارّ.

النذر

ثمّ أخذني بين ذراعيه وعانقني. وأقسم أنني شعرت بشيء من الرطوبة على خدّي. ولكنّها دمعة لم تكن لي، بل لجان دارك والعريف. ثمّ ذهب وجاء برفرف إسبانيولي ذي خشب مذهّب، وقال لي:

ـ تضع هذا فوق موقد الشتاء يا ولدي. فهذا هو جائزتك أو أشبه بنذر يذكّرك بعريف شامبانية وبعذراء أورليان وبمعلّمك الشيخ».

وعناق آخر. وهناك أخرج من جيوبه تماثيل صغيرة منسوخة عن تماثيل «تناغرا»[1] وأخذ يمسحها بذيل ثوبه.

ـ قد مسحتها بزيت الكتّان لأنه يعطي الجفصين نضارة الجلد فاجعلها يا ولدي فوق مدختنك.

لطيفة

ـ في زمان «ديدرو»[2] كان رجل عنده ولد بلغ سنّ الشباب وهو لا يزال أبله. فقال له في أحد الأيام:

---

(١) من بلاد يونان القديمة، اشتهرت بحسن تماثيلها من الخزف.

(٢) ديدرو (Diderot)، من أكبر فلاسفة فرانسة وأعظمهم مشاركة في متعدّد العلوم وممّن أسّسوا الإنسيكلوبيدية ونشروا فلسفة القرن الثامن عشر وألقحوا بتعاليمهم الثورة الكبرى. مات عام ١٧٨٤ وقد ذكرناه في موضع آخر.

قد انتهى تحصيلك للعلم، فأنت الآن يوناني مجيد ولاتيني صريح. وقد درست اللاهوت والتاريخ وعلم الأنساب وعلم الرقص... ولكن بقي عليك علم الدنيا. وهو علم لا يملكه أبرع أساتذة التربية. فخذ هذه الرسالة إلى العقيلة فلانة... المقيمة بالبلدة التي تجاورنا. أدّها إليها من قِبلي. فإنَّها سيِّدة متناهية في الظرف والذكاء والجزالة. ولقد قتلت أمور الدنيا خبرًا. وممّا لا أكتمك إيّاه إنَّها ممّن لم يكنَّ يحتقرن تكريمي إيّاها وإعجابي بها. فأنا سأرجوها أن تعطف على الابن عطفها على الأب. فاذهب إليها يا ولدي. فإنَّني لا أشكّ أنك بالاحتكاك بها تصير قريبًا من أتمّ الشبّان أدبًا وكَيَسًا وبزاعةً[1]: فذهب الولد وأدّى الرسالة ووجد العقيلة مستعدّة لإعطاء الدرس فوضعته على منصّة عثمانية[2] وشرعت تراود وتداور بجميع الطرق الممكنة حتّى تتوصّل إلى إذابة ثلجه، فكانت كأنها تنفخ في رماد. وكلّما ازدادت هي طموحًا ازداد هو احترازًا. تدنو فينأى وتتكلّم بالحبّ فيتكلّم في التوقير. وأخيرًا لجأت إلى حيلة الإغماء المعهودة التدريسية. آه أكاد أموت من هذا الدخان... إلخ.

فبدلاً من أن يسرع إلى حلّ الأربطة وما أشبه ذلك للتنفيس عن السيِّدة أسرع إلى الجرس، يستصرخ به الخدم[3] ففتحت العقيلة عينيها، وقالت له: آه يا أيّها السيِّد ما لم تقدر عليه عندما كنّا فردَين أتكون مليًّا به بعد أن يحضر الخدم والحشم؟

مطامع ڤييني[4]

ـ كانت تحقيقاتي الأولى عن «ألفرد دو ڤييني» هزؤًا. فقد كنت غرًّا ساذج القلب. وكنت آخذًا عن أبي، بائع الكتب، حبّ تعظيم الأُصَلاء والأشراف إلى درجة الهوس. مع أنَّ نسب «ألفرد دو ڤييني» هو من قوارير وأصالته رقيقة الحاشية. وكان يتظاهر بطهارة الأخلاق والبُعد عن الحكومة. والحقيقة، أنه كان ذا مطامع واسعة عجز عن إدراكها. حلم أنه يكون مهذّبًا لابن الإمبراطور فلم يحصل على مراده ولمّا لم يتمكّن من أن يكون «بوسويه أوفنيلون»[5] تحوّل إلى الصلاح والاستقامة.

ـ إنَّ الذي يميّز الإنسان عن الحيوان هو إتقان الكذب وحسن البيان».

(١) بزع الغلام بزاعة: صار كيّسًا ظريفًا، وفي الأصل Poli et galant.
(٢) Ottomane: نوع من المقاعد العريضة.
(٣) أخطأ الأستاذ فرانس بإذنه لكاتبه بروسون بقيد أوابده وضبط شوارده، فقد يكون سبق لسانه في مجلس خاصّ مرتفع الحشمة بعيد التكلّف إلى حكاية مثل هذه لمجرّد الاحماض فلم يكن يجوز لبروسون أن يأثرها عنه على أنها من آدابه التي يوصي بها.
(٤) ڤيني (Alfred de Vigny): شاعر إفرنسي قاصّ كثير البحث في الآداب والفضائل والصبر والثبات وعزائم الأمور، (١٧٩٧ ـ ١٨٦٣).
(٥) ورد ذكرهما في غير هذا الموضع.

ما مال قلبه إلى أحد ـ رجل أو امرأة ـ إلاّ كان أول همّه أن يكشف له نقائصه. فيذهب في استقصاء عيوبه وعاداته المضحكة كلّ مذهب. ولا تجده شافيًا غليله إلاّ حيث يجد الحركة معوَجّة. أمّا الناس الذين هم على أتو سديد فلا يلتفت إليهم ولا يهمّه أمرهم. وكانت بساطته الظاهرة مملوءة باختلاف النيّة. فطالما سمعته يصف رجلاً من أخلص إخوانه بزيغه في الحبّ عن الجادة... ويقول إنَّه ممّن حضر الزُّحَليّات[1]. وهو بعد ذلك يتمثّل بمثله الذي طالما كان يكرّره: وللناس فيما يعشقون مذاهب. وربّما نال من بعض أعضاء الأكادمي في هذا الموضوع... وربّما قذف أحد أصحابه بهاجرات. ثمَّ عاد فقال: إلاّ أنه مع هذا باهر الحصافة. وكان له صاحب من رفاق صباه. فكان يقول عنه: ذو أيدٍ خفيّة. لا يقدر أن يمنع نفسه من التقاط شيء يعجبه أينما وجده.

قيل له مرّة إنَّ صاحبه هذا في الباب، فنادى جوزيفين أمام عشرة أشخاص، وقال لها: احذري أن تدعيه وحده في الطاق الأدنى إذ هناك ما هناك من الأثاث.

ولمّا وصل إليه حيث هو جالس هجم عليه يعانقه ويقبّله في خدّيه ويشحذ عليهما رأس أنفه الطويل، وبعد لأيٍ انتهى من ضمّه، وقال له بصوت لطيف:

ـ أيّها الحبيب. الآن كنت أذكرك أمام هؤلاء السادة. حقًّا إنَّ حضورك يفرج عنّي[2].

إنّما الفضيلة عجز

وأحسن شيء ترغّبه به في إنسان هو أن تبالغ له في ذمّه. وهو يخشى الطهارة والطاهرين والكمال والكاملين. ويرى الفضيلة عجزًا والطهارة نقصًا في الخلقة[3] ويقول إنَّه يجب معالجة هذه الأمراض كما يعالج السلّ وفقر الدم. وكان لا يعتقد بالحبّ المجرّد من النفع ويروي على ذلك كثيرًا من السيَر.

(1) نسبة إلى زحل Saturnales وهي أعياد كانت تقام في رومة، تُرتكب فيها أنواع الفحش والعهر ويُستباح فيها كلّ شيء حتى ضُرب بها المثل.

(2) ما أراه في هذا وفيما سبق من هذا الفصل ممّا طوينا منه شيئًا ولجأنا في بعضه إلى الكنايات إلاّ ماجنًا يروّح عن قلبه بأمثال هذه الحكايات.

(3) وهذا أيضًا من المزاح، إذ يستحيل كون رجل في عبقريّة أناتول فرانس يجهل كون العجز إنّما هو في استرسال الأنفس إلى الشهوات لا في فطامها عنها. وما كان أناتول فرانس في هذا الأقاويل إلاّ على مذهب بعض الأدباء الذين يقدّمون النكتة على كلّ شيء ويرسلونها على علاّتها.

علم الصبابة

كان يقول:

ـ الأصل هو الحبّ وما عدا ذلك فقصص مولَّدة وإنشاء محبَّر. وأحسنهنَّ عشقًا أبصرهنَّ بالفنّ وأوسعهنَّ تجربة ماضية وحظًّا عظيم الخلط بين العشق والشباب. فإنَّ الشباب سكران بنفسه[1] يرى الدنيا كلّها مرآة له. أمَّا الحبّ فعلم بأصول هو معساة بالتنقيب ومزيد الاعتناء. وقبل الخمسين من العمر لا يجوز للمرء أن يخوض في حديث الحبّ وقد تكون عند بعض النساء مواهب طبيعية تؤهّلهنَّ للعالمية في هذا الفنّ وهنَّ بعد في سنّ الأربعين».

وروى أحاديث طويلة في هذا المعنى. وأخبر عن فتاة غريرة كانت تراوده على أخذ صورتها الشمسية معه وهو في ثوب الأكادمي وبيده السيف وعلى رأسه القبّعة ذات الرأسين وتكون هي في دراعتها وبيدها إكليل من الزهر وأمامهما على منضدة رواية «تاييس»[2]، قال: وبقيت هذه الغادة خمسة عشر يومًا تغاديني هذا الرجاء وتراوحه وأنا أدفعها بقولي إنَّ ذلك مخالف لشروط الأكادمي وخليق بالطرد منها وأضرب لها الأمثال وأخبرها كيف طُرد من تحت القبّة كلّ من «فورتيير»[3] والأب «سان بيير»[4] لأسباب كهذه. فقالت لي: «أمَّا الأب هذا فلم يظلموه في الطرد بسبب كهذا».

وكانت هذه الفتاة بالمكان الذي لا وراءه في البلاهة وذكر من قصصها ما يدهش[5].

لا شيء على عروة ثوبه

قال:

ـ نعم، ما عدت أحمل شيئًا من الأوسمة ولا من علامات الأوسمة منذ حادثة دريفوس

(١) العرب يقولون شباب أبله أي أنَّ الشباب هو غرّ عن كلّ شيء.
(٢) من قلم أناتول فرانس وقد مرّ ذكرها.
(٣) فورتيير (Furetière)، أديب فرنسي عاش بين سنة ١٦١٩ وسنة ١٦٨٨ وألّف معجم لغة كان سبب الخلاف بينه وبين الأكادمي.
(٤) سان بيير (Saint Pierre)، أديب فرانسي، له كتاب غريب في وقته لأنه تصوّر فيه مشروع السلم العامّة وهذا منذ نحو مائتي سنة، (١٦٥٨ ـ ١٧٤٣).
(٥) ممّا طويناه على غرّه كما طوينا كثيرًا من الفصول برمّتها واجتزأنا من بعضها بالقليل الذي يُغني عن الكثير.

ومنذ طلسوا اسم زولا[١] من جوقة الشرف. وهل المؤلّف الحقيقي يا تُرى في حاجة إلى طرف هذه الشريطة يضعه في عروة معطفه؟ فإن كان معروفًا بالفعل فإنَّ تآليفه تَسِمه بما لا يسمه به جميع وزراء العالم. لعمري، إنَّ هذه الأوسمة والرتب ليس لها أدنى قيمة في جانب الأدب. وقد يفهم الإنسان معناها بعض الفهم فيما له تحلّى بها رجل عسكري قام بعمل من أعمال الأبطال. فإنَّ العسكري يلبس لباسًا عسكريًا خاصًّا يجوز أن تضاف إليه بعض أنجم تدلّ على البطولة. أمّا الأدباء والعلماء فليس أمرهم كذلك. إذ لو وضعت كلّ نجوم السماء على عروة جبتي فهل يحمل ذلك المارّين على أن يقولوا: هو ذا مؤلّف تاييس أو جان دارك. وإن كانوا يعرفون مَن هو هذا المؤلّف فأيّ حاجة إلى تلك اللعبة؟

وُرَيْدات مار فرانسيس

قال:

ـ لمّا كنت أعرفك شديد الاعتقاد بمار فرانسيس أتيتك من إيطالية بوردة عجيبة أصلها من خوارق العادات. انظر إلى أوراق هذه الأزاهير تجدها موسومة، فإنَّ الراهبات يذهبن لاجتنائها ويضعنها في طيّات كتب الصلاة حتّى تذبل ثمَّ يلصقنها برؤوس من الورق المقوّى ويبعنها بالشيء الطفيف من زوّار رومة. ومَن ذا الذي من الزوّار يعزّ عليه دفع ليري[٢] في شراء وردة عليها يواقيت من دم القدّيس فرانسيس.

ـ لعلّك تعرف قصّة الوريدات القدسية؟ قيل والله أعلم أنَّ القدّيس شعر بتجربة شديدة شيطانية[٣]... وصادف ذلك في فحل الشتاء وكان الثلج طامًّا بستان الدير وكلّ شيء نائمًا أو ميتًا تحت الجمد إلاّ الشيطان الرجيم، فقد كان مستيقظًا. وقد اشتدّت الحال بالقدّيس إلى أن ظنَّ نفسه مغلوبًا فلم يكن أسرع منه إلى أن نزع قميصه ورمى بنفسه مجرّدًا في علّيقة من سياج البستان.

---

(١) زولا (Zola)، كاتب من أشهر كتّاب فرانسة، هو صاحب الأسلوب الطبيعي في القصص المسمّى عندهم L'école naturaliste، وقد اختلف الناس في استحسان مشربه وعدمه ولكنّهم أجمعوا على قوّة بيانه ومتانة عبارته، (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢). ولمّا جرت حادثة دريفوس اعتقد أنه مظلوم وأنَّ الوطنيين يحاولون تغليب السياسة على العدل فرفع عقيرته ونشر رسالة اسمها "أشكو"، وكان له في دعوى دريفوس موقف شهير. ولمّا مات زولا أبّنه فرانس بقوله "كان دورًا من أدوار الوجدان البشري" وقال "إنَّ أنصار السلام الذين سيكون لهم ملكوت الأرض إن لم يكن ملكوت السماء سينادونه بالمعلّم الصالح. وهو اللقب الذي لا أُطلقه عليه إلاّ وأنا أجهش بالبكاء. وتأليف زولا في القصص وغيره أشهر من أن يشار إليها.

(٢) فرنك إيطالي.

(٣) ما أشبه هذا الرجل بأحمد فارس الشدياق فإنّه لا يملّ أصلاً من النكات على القسّيسين والنساء مع الفرق بينهما بأنَّ أحمد فارس كان يحرّر هذه الحكايات بقلمه وينشرها وهذا إنّما يروي عنه كاتبه ولا نعلم هل كان أناتول فرانس يروي هذه الأحاديث لتُكتب وتُخلّد أم كان يلقيها في مجالس تبذّله لمجرّد التفاكه.

فكان من الشوك أن أزهر وتفتّح منه هذا الورد الذي أنت تراه مع كون الثلج نازلاً والفصل ليس بفصل تفتق الأكمام كما لا يخفى. إنّما كانت هذه معجزة لتخليد نصرة القدّيس على الشيطان. وها أنا ذا أهديك هذه الوردات بعد أن اشتريتها ممّن وثّقن لي الخبر. ولعلّك ترسل معلّمك الشيخ في داهية إذا جاءك من هذه الأزهار بطِلّسْم يذهب بالقوّة[1]... فكن أمينًا فقد حملتها على صدري ولم أشعر بأقلّ تأثير للوردة الفرنسيسكانية...

التيس في الدير

قال:

ـ ممّا يدهشني أنهم لم يبيعوني في نفس السوق في رومة بعض شعرات من ذنب "غوبيو"[2] أو طاقة من زغب "الأطرغلّ"[3] البرّي الذي كان هذا الذئب يربّيه فيدجن. كما أنهم لم يبيعوني بعض أمتار من الفلانلاّ المنسوج من صوف ذلك الحمل الذي أنقذه مار فرنسيس من المجزرة، تذكارًا للحمل الإلهي الذي محا خطايا البشر. إنّ راهبات مار فرنسيس هؤلاء كثيرات القصص والحكايات يروينها بسذاجة مشوبة بخبث وفيهن كثير من شبه "لافونتين"[4] ويدور في خلدي أحيانًا أن أجعل حدًّا لقصصهنّ. يقلن إنّ ذئب غوبيو هذا الذي كان خبيثًا مفترسًا، مات حتف أنفه بعد أن بلغ منه الهرم وكانت نهاية أمره عبرة لمَن يعتبر. فقد كان يدخل إلى البيوت، فلا يؤذي أحدًا ويتمشّش مع الكلاب العظام التي تتركها هذه له. وأصبح لا يذعر منه أحد، حتّى إنّ الأولاد الصغار كانوا يتنزّون على هذا الأطلس العسال ويلعبون على ظهره. وكان الحمل الصغير الذي مرّ ذكره قد وضعوه عند راهبات القدّيسة "كلير"[5] وقد أذنوا له بالمبيت في الدير بالرغم من كونه ذكرًا وذلك إكرامًا لخاطر القدّيس فرنسيس. وكان الراهبات يدلّلنه كثيرًا وكل منهن تسابق الأخرى على أخذه ليبيت عندها، وهذا ما دام صغيرًا. ولكن الحمل الصغير كبر يا صاحبي وانتهى الأمر بأن صار تيسًا وخسر حشمته مثلي ومثلك. فصار تحمّله في

---

(١) هنا عبارات اختير حذفها.

(٢) Gubbio: ناحية من إيطالية.

(٣) هو القماري، والعامّة تقول ترغلّ.

(٤) جان لافونتين (La Fontaine)، الشاعر الإفرنسي، نسيج وحده في نظم القصص المولّدة والحكايات الموضوعة على ألسن الحيوانات والطيور. وفي قصصه ما لا ينطبق أحيانًا على المبادئ الأدبية ولكنّها غاية الغايات في بُعد الغور ولطف الصنعة وأمّا أمثاله المسمّاة "بالفابل" فقد صارت الكتاب العامّ في العالم لهذا الموضوع وعجز الناس عن تقليدها. فهي أساطير على ألسن العجماوات مملوءة حكمةً ووعظًا وراء سذاجة سطحية هي السهل الممتنع بعينه. ولم يعهد أنّ شاعرًا أو حكيمًا أوتي هذا الأمد الأقصى من البلاغة وعلوّ الطبقة وعمق الغور في ظرف متناهٍ كهذا في البساطة والسهولة وإرسال النفس على السجيّة. ولد لافونتين في سنة ١٦٢١ في باريز سنة ١٦٩٥.

(٥) راهبة عذراء، ولدت في آسيز من إيطالية وهي بلدة مار فرانسيس، ويُنسب إلى الراهبة كلير هذه رهبانية عذارى، (١١٩٣ ـ ١٢٥٣).

الدير مستحيلاً، إذ بدأ يقرضم الورق وأيّ ورود: تلك الفسائل التي جيء بها من أصل الورد المقدّس الموسوم كما مرَّ بك. وكان يصنع أشياء أخرى لا أقدر أن أقولها لك... إلى أن ضاق به الذرع. فالتمسوا من ذئب غوبيو أن يعود مفترسًا وسِيْدًا عملّسًا ويأكل الذي أصبح مُسْتَتْيِسًا. وهكذا لبّى الذئب التقي إشارتهم واسترط حمل مار فرنسيس لمّا صار تيسًا.

الأكادمي بدون قبة

لماذا الحكومة الجمهورية تتحمّل وجود هذه الجمعيّة، التي هي عبارة عن أخويّة أناس رجعيين؟ لا سيَّما أنَّ الثورة الكبرى كانت قد ألغتها. ولمّا أسّس بونابرت ديوان العلماء[1] لم يرد أن يسمع بذكر الأكادمي، فتشفّعوا بها لديه فرضي بإبقائها، لكنَّه غيّر لها اسمها فصار يقال لها: مدرسة اللسان والأدب. ونزلت إلى الدرجة الثانية. فرجوع الملكية أعاد الأوّلية لابنة الكردينال العظيم. فأمّا الآن فهي دولة في وسط الدولة. إذ عندنا مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ والأكادمي. فمجلس النوّاب الذي يتألّف بالاقتراع العامّ هو في الحقيقة قاعة انتظار لمجلس الشيوخ وللأكادمي. وعند الأربعين[2] لباقة تامّة في تألُّف رجال السياسة، ولو كانوا يعنون بالإنشاء والتأليف عنايتهم ببعض الانتخابات لكنّا بذذنا عصر أغسطس[3] وعصر لويس الرابع عشر[4].

---

(١) الذي يقولون له l'Institut.

(٢) العدد المحدود لأعضاء الأكادمي.

(٣) أغسطس قيصر، ولد سنة ٦٣ قبل الميلاد ومات سنة ١٤ من بعده، وكان في مبدأ أمره ثالث ثلاثة في الحكم مع أنطونيوس وليبيديوس ولكنَّه بعد ظفره بأنطونيوس سنة ٣١ ق.م. انفرد بالولاية وصار إمبراطورًا وأحسن السياسة وأقام القسط ووزّع العدل ووسّع الفتوحات فأنسى بحسن إدارته ما ارتكبه من تغيير نظام الجمهورية والاستئثار بالأمر. وازدهرت في عصره الفصاحة والآداب ونبغ مثل هوراس وفيرجيل وتيت ليف وغيرهم من أساتذة وفتهم ووقت من بعدهم. وكان لأغسطوس اليد الطولى في إحياء دولة القلم هذه بجانب دولة السيف. وبالجملة فعصره في الدولة الرومانية هو عصر لويس الرابع عشر في فرانسة وعصر الرشيد أو المأمون في دولة العرب.

(٤) هو أعظم ملوك فرانسة، أبوه لويس الثالث عشر وأمّه حنّة الأوسترية، ولد سنة ١٦٣٨ وتولّى الملك ٧٢ سنة وهو عهد لم يعهد مثله في الطول لأحد وإنَّما يوجد مَن يقاربه وهو الإمبراطور فرانسوا جوزيف الذي مات أثناء الحرب الكبرى. فقد تولّى ٦٨ سنة. والمستنصر الفاطمي بمصر فقد تولّى ستّين سنة. وكان عمر لويس الرابع عشر عندما خلف أباه خمس سنوات، فكفلته أمّه ووزر لها الكردينال مازارين. ولمّا بلغ لويس الرابع عشر الثامنة عشرة ولّي الملك بنفسه وبقي هو القابض على الزمام بالفعل مدّة ٥٤ سنة وكان هو كما يقال الكلّ في الكلّ، وقال تلك الكلمة المشهورة «الدولة هي أنا» فذهبت مثلاً. وكان يعتقد في نفسه أنه ظلّ الله علىٰ الأرض وأنه ملهم أفاض الله عليه جزءًا من علمه كما أتاه الخلافة عنه في حكمه. وكان موفّقًا في وزرائه وقوّاده فظهر في زمانه أعظم الكفاة في الإدارة والاقتصاد مثل كولبر، ناظر المالية، وغيره، وأشهر القواد في الحروب مثل البرنس كوندي وتورين ولوكسمبورغ وكاتينا وفوبان، هذا الذي كان قريع دهره في تحكيم الثغور وتشييد الحصون. فلمعت الدولة الفرنسوية في أيامه ما لم تلمعه في عهد آخر دانت له المقاصد ودنت الأمور الأباعد وباشر حروبًا عديدة مع الدول الأوربية حالف النصر فيها لواءه فصارت الدولة في أيامه هي مركز أوربة وبيدها التقديم والتأخير. ولطول أيام ملكه وقوّة ملكته ونبوغ أعاظم الرجال في عصره وتوالي فتوحه وطوائله وقرّ في نفسه أنه هو الشخص المقدّس الذي إرادته وحدها هي الشريعة وهواه هو العدل. فكان مجلس النوّاب وكان الوزراء وكان الأمراء وكان رجال الدين أجمعين أدوات في يده. وبلغ من قوّة اعتقاده بوجوب حصر كلّ شيء في مجرّد إرادته أن ذهب إلى أنه لا حقّ لأحد في فرانسة بأن يدين بغير عقيدته هو وأنَّ الناس على دين ملوكهم. فأصدر أمره =

تجد الواحد قد تبوّأ في جميع المناصب وتربّع في جميع الدسوت، فكان من النوّاب ثمّ من الشيوخ ثمّ صار وزيرًا ثمّ رئيسًا للجمهورية. وهو بعد هذا لا يقنع إلاّ بكرسي في الأكادمي. فليس بعد الأكادمي سوى النعش. وإنّ هذا الطمع الأسمى إلى الأكادمي مصيبة على جميع مجاري القانون السياسي. فإنّ جوّ الأكادمي الذي يتنفّس به هؤلاء القوّاد والأساقفة والشرفاء إنّما هو رجعيّ لا ريب فيه. فمن جهة هم أعداء الحكم الجمهوري ومن جهة أخرى يتمتّعون بالمقام الرسمي ويسكنون في قصر من قصور الدولة. ولهم ثوب خاصّ هو في الحقيقة مسخرة ولكنّه ثوب رسمي أيضا. ثمّ إنّهم ذوو ثروة عظيمة، ولا تكاد توجد عانس [١] إلاّ وهي توصي عند وفاتها للأكادمي بريع ملكها وبعصافيرها وببّغاآتها وسنانيرها. فالأكادمي توزّع كلّ سنة عددًا عديدًا من الأكاليل والجوائز وتنفق وتؤدّي الجرايات والرواتب. وليست ميزانيّتها المالية خاضعة لسيطرة أو مراقبة، فلهذا تجد أكثر هذه الأموال ذاهبة إلى الأخويّات الدينية والجمعيّات الكاثوليكية وإلى الناقمين وإلى الذين يحسنون التفكّر ـ أي الذين لا فكر لهم ـ فتحت هذه القبّة تتحرّك شركة هي في الحقيقة آلة فساد أدبي لغوي ولن تجد طريقة إلى الحمل عليها وهدمها، بل أشهر ساستنا يقدمون على أنواع الدناءات والسفاسف لكي ينالوا شرف الدخلة فيها.

إلاّ أنّ ج. ب. أعطاني رأيًا لا يبعد أن يفي بالغرض وهو حيلة قانونية لا يدركها إلاّ مَن كان يهوديًا مثل ج.ب. فقد قال لي: يجب ضرب الأكادمي في صندوقها.

قال لي: إنّ الأكادمي هي الآن حرّة.مطلقة اليد في جميع أمورها المالية لا يسيطر عليها مسيطر في دخل ولا خرج، فهي في هذا المعنى مستقلّة تمام الاستقلال. قال الرباني ج.ب.: فهذا شيء فظيع لم يسمع به وهو أيضًا مخالف للقانون. لست أدري ماذا الذي يثير حفيظته من جهة الأكادمي. وإنّما أدري أنه ساخطًا عليها. وهو يقول إنّ الدولة تشرف على جميع الدواوين والإدارات في أمر الوارد والصادر فينبغي أن نقترح عدم تأدية شيء للأكادمي أو من الأكادمي إلاّ بقرار من نظارة المالية. ويسار بالقضيّة الهوينا وتلبس الكفّ خمل النعام ويقال إنّ الهدف المرمي من ذلك هو الاجتهاد في مصلحة المجمع والمحافظة على مجده ووقاره وغير هذا من ألفاظ

= بإلغاء أمر نانت الشهير الذي كان أبيح به للبروتستانت ممارسة شعائرهم الدينية واضطرّ هؤلاء إلى أن يدينوا بالمذهب الكاثوليكي أو أن يخرجوا من أرض فرانسة فخرجت منهم أقوام لا تحصى ودخلت في الأمم الأخرى. ونبغ في أيام لويس الرابع عشر أكتب الكتّاب وأشعر الشعراء وأفصح الخطباء ومنهم راسين وبوالو وكورنايل وموليير ولافونتين أئمّة اللغة الفرنسية الذين بهم يُقتدى وعلى مثالهم يُحتذى. ومنهم بوسويه وفنيلون وفليشيه في الإنشاء والخطابة. ومنهم لابروير ولاروشفوكولد في حكمة الأخلاق. ومنهم باسكال في الفلسفة. ومنهم سان سيمون ورتز في التاريخ. ومنهم بوسين ولولورين ولوبرون وبرولت ومانسارد وجيراردون في الفنون الجميلة. ولفولتير كتاب اسمه "عصر لويس الرابع عشر" هو من نخبة كتبه.

(١) البكر التي طال مكثها بكرًا ولم تتزوّج، وفي الأصل الفرنسي vieille fille.

المداهنة. وأخيرًا إن ساء خُلق الأكادمي من هذه السياسة يبرم في مجلس النوّاب قرار عُمّي مفرط ضدّ لهذا المجمع. وما داموا يلغون الأخويّات الدينية فماذا يمنعهم من إلغاء الأكادمي؟ وأيّ مركز لها في الديموقراطية؟ وكذلك يمكن إخراجها من المباني التي تحتلّها، فهي فيها من زمان نابليون، فإن صارت الأكادمي بدون هاتيك القبّة، فكيف يصير بحالها؟ تصير أشبه بالخَلْع المطبوخ[1] بدون خردل. نعم، إنّ مجرّد إنذارها بالإخراج من مبانيها كافٍ في حملها على الطاعة وعندها نرضى بشبه المشارفة على خزانتها. ثمّ يقال إنّه ما دامت التأدية والصرف موقوفين على رضى الدولة فلماذا لا يودع المال من الأصلِ في خزائن الدولة ويجري تأديته من هناك. وبهذا نكون وصلنا إلى المراد ويعود مالها محجوزًا تحت يد الحكومة فينتف جناحها وتعود أفقر من فارة. وعندما تعدم الأكادمي قبّتها وخزانتها فماذا يكون منها؟

مهنة الموت

قال:

ـ لم تكن مهنة القتال من الحرمة والكرامة عند الأوائل بالدرجة التي يريدون أن يخيّلوها لنا. تذكر قصيدة هوراس[2] إلى أيكسيوس ذاك الذي هجر الفلسفة لأجل الخدمة العسكرية.

وقرأ أناتول فرانس القصيدة وأخذ يفسّرها «أصبحت تريد أن تنافس العرب في كنوزهم! وأخذت بأعداد الأصفاد لفرسان البارتيين[3]! لعمري، أهون أن يعود «التيبر»[4] إلى منبعه من أن أراك تترك مدرسة سقراط[5] من أجل مدرسة المرّيخ»[6].

(١) لحم يُطبخ بالتوابل في وعاء من جلده، والأصل الإفرنسي andouille.

(٢) هوراس (Horace)، شاعر لاتيني، ولد سنة ٦٤ ومات سنة ٨ ق. م. وكان صديقًا لأغسطوس قيصر ولميسين، صاحبه المشهور بحماية الآداب والمعارف. ومع هذا فقد كان مستقلّ الفكر يرى السعادة في مشي القصد والاعتدال في الاستمتاع بلذائذ الحياة.

(٣) أمّة كانت تقطن جنوبي بحر الخزر يظنّ أنّ بقاياها لا تزال بين التركمان والأكراد. كانوا كأنهم مولودون على صهوات الخيل وأشدّ ما يخشى بأسهم هو عندما يظهرون الفرار فإنّهم يكرّون على العدوّ وهو مطمئنّ فيرمونه بنبال قلّما تخطئ، فلهذا كان إدبارهم أشدّ خطرًا من إقبالهم حتّى ضُرب به المثل فقيل: فرّ فرار البارتي. لمَن يصمي عدوّه وهو مدبر.

(٤) نهر رومة.

(٥) سقراط (Socrate)، فيلسوف من أكبر فلاسفة يونان، كان معلّم أفلاطون، ولد سنة ٤٦٨ ق. م. ومات سنة ٤٠٠. كان جانحًا في حياته إلى العزلة فلم يكن يقرئ تلاميذ في مدرسة ولا يؤلّف كتبًا وراء مكتبة. وأكثر تعليمه إنّما كان للعامّة في محافلهم ومواسمهم. ولم يكن مذهبه وضع قواعد عامّة يوجب السير عليها ولكن تربية العواطف البشرية في الإنسان على ما هي عليه. فلم يكن يفكّر في مقاومة مجرى الطبيعة. وكان كثيرًا ما يحمل على السوفسطائيين ويسخر منهم. وما زال يوسعهم قرصًا ولذعًا إلى أن ضاقت به صدورهم فاتّهموه برقّة الديانة وحاكموه وحكم المجلس عليه بالموت بشرب السمّ، فتجرّع كأس الحمام بسكينة مدهشة. وقصّة موته مذكورة في تاريخ فلاسفة يونان بالعربي وما فاه به من الكلمات وهو يجود بروحه دليل على علوّ درجته في سلّم الإنسانية.

(٦) المرّيخ أو Mars في الأساطير هو إله الحرب، أبوه المشتري وأمّه جونون.

ماذا يراد من هذا القول؟ هو أنَّ مهنة القتال هي أخسُّ المهن لا تليق بدماغ فيلسوف. وإذا كان أحد أقدم على الدخول في العسكرية، فإنَّما ذاك على أمل الكسب والنهب وليس ثمّة شيء ممّا يسمّى حبّ الوطن. وقد كانت هذه الأفكار السائدة في فرانسة القديمة. وكان القدماء من مؤرّخينا ينعتون العسكري بأشنع النعوت وكان يسمّيهم «مونستريله»[1]: وصفاء وأتباعًا ومشاة. ويقول عنهم فرواسّار: مستأجرون وسلَبَة وفجَرَة. ولم يكن إلاّ في أيامنا هذه أن جعلوا صنعة الاستبسال[2] في الصفّ الأول. وهكذا فقد جدَّ عندنا جرم جديد هو بغض العسكرية. ولم يكونوا في فرانسة القديمة يكبرون أن ينادى «فلتسقط الحرب» فقد كانت الحرب منحصرة في طبقة من الأمّة هي التي في الروع تزحف على رأس الجيش وهو المؤلّف من عصائب من المرتزقة ومن اللقطاء وممّن إذا قاتلوا لم يعرفوا لماذا يقاتلون ومَن يقاتلون. ومن أجل تولّي هذه الطبقة كبر الحرب كانت الأمّة تغضي على قحة الأشراف وتتحمّل امتيازاتهم وما كانوا عليه من الاستثناء القانوني. ولكن الأمّة كانت تعتقد أنَّ هذه الفئة لا تحسن عملاً غير الجلاّد. فكان الصانع يصنع والتاجر يتجر والقاضي يحكم والقسّيس يصلّي، والشريف يحارب. وكان يُعدّ مضحكًا أنَّ أحد السوقيين يعاني صنعة القتال. وكان الملك هو العسكري الأول في المملكة. وأظنّ أنك لا تنسى القوارص التي نالوا بها بوالو وراسين من أجل تواريخهما للملك. إنَّ المساواة بين جميع أبناء الأمّة في الخدمة العسكرية إنَّما هي من فتوحات الثورة الكبرى فصار جميع الفرنسيس اليوم أبطالاً وكلّ مَن أظهر الاشمئزاز من الموت فليس بفرنسي عريق.

المجنون المرسيليّ

كانت جوزيفين غفلت عن مجنون دغَرَ على أناتول فرانس بغتة وأخذ يقبّل ركبتيه ويسقس جُرْمُقه[3] بدموعه ويزفر قائلاً: أنا من مرسيلية، كنت حذّاء عندما تجلّت لي الحقيقة فبادرت إلى بيع دكّاني وتركت امرأتي وأولادي وأتبعتها. وها أنا ذا آتيك بدستور يكفل سعادة الشعوب فإنَّك أنت محبّ حقيقي للإنسانية».

وبينما هو يقول هذه الكلمات إذ أخرج كتابًا مخطوطًا ومسدّسًا. فأخذ أناتول فرانس يريغه عن المسدّس ويحاول تسكين هيجانه، فقال له:

«مهلاً مهلاً يا حبيبي ولنتكلّم همسًا لأنَّ أعداء الإنسانية هم بالمرصاد».

---

(١) مونستريله (Monstrelet)، حاكم كمبراي من شمالي فرانسة، له تاريخ عن حوادث وقته من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٥٣.

(٢) استبسل: استقتل يريد أن يقتل أو يُقتل لا محالة، وفي الأصل الفرنسي le métier de mourrir.

(٣) الجرمق، بضمّتين: الخفّ الصغير، أصله فارسي.

فتنفّس المجنون الصعداء، وقال له: "إنَّني لعالِم بذلك وقد بذلت كلّ جهد حتّى أخلص منهم، فإذا هم يحاولون تهوير قطار مرسيلية ويرشون الحوذيّة لأجل أن يدوسوني أو يهرسوني. ولكنّي أنا وصلت إليك يا محبّ الإنسانية وأدّيت الأمانة وها هو ذا كتابي".

فأخذ فرانس الكتاب يتصفّحه وقال للممسوس: "كنت في انتظارك يا صاحبي، كنت في انتظارك" وضمَّ المسكين إلى صدره، وأثناء هذه المعانقة أخذ المسدّس إلى يده. وقال له: "كتبت ما طالما فكّرت به. وما كنت لا أجسر أن أعلنه فالآن صرت أقدر أن أموت مستريحًا. فيجب نشر هذا من أجل سعادة الشعوب". فأجاب المجنون ودموعه كالمزراب: "نعم". فقال فرانس "خذ عربة، وقبل أن تعرف عصابة السوء أنك جئت إلى هنا اذهب إلى المطبعة ف.، ولقد كنت أرافقك إليها لكن أخاف أن أُعرف، فأنا أكتب لك كتابًا أوصيهم بك فيطبعون لك تأليفك. وداعًا إذًا أيّها الفيلسوف وعليك بالعجلة والتشمير" ثمَّ أخذ قصاصة ورق وثبج[1] عليها بعض كليمات. وقال له إنَّني ألصق الغلاف حذر شيوع السرّ. فذهب المسلوس بكتابه وبمكتوب التوصية مسرعًا، وقال فرانس: لقد قضيناها ساعة حامية.

فقلت له: أيمكنني أيّها الأستاذ أن أسألك ماذا كتبت.

قال:

- كتبت: هو ذا مجنون في دوره الحادّ، آذنوا بالهاتف[2] أقرب مستشفى لكم وداوروا المجنون وراوغوه إلى أن يكون أُخذ وأُضفى عليه القميص.

مروحة الجلد

رغب الأستاذ إلى السيِّدة العقيلة أن تبتاع له من السوق مروحة جلد.

- مروحة جلد؟ أين تريد أن أجد لك هذا؟ إنَّما كانوا يستعملون مراوح الجلد في زمن الملك لويس فيليب في أسعد أيام جدّتك.

- جدّتي لم تكن ممّن يروّح، بل كانت بيّاعة أرزاق للجيش.

- ولماذا تريدها مروحة جلد؟

- لأنَّ الإنسان يقدر أن يكتب عليها.

(١) ثبج بتحريك الثلثة وتخفيف الباء أو تشديدها: كتب كتابة معماة، وفي الأصل الإفرنسي grifonner.

(٢) لا بأس بالهاتف الذي اصطلحوا عليه لترجمة لفظة تليفون فإنَّ الهاتف في اللغة هو الذي يُسمع صوته ولا يُرى شخصه، وهي أخفّ على اللسان من التليفون وما دمنا نجد في العربي الأصيل فلا موجب للدخيل.

ـ وماذا يكتب عليها؟

ـ شعرًا.

ـ تريد أن تكتب أشعارًا على مراوح؟

ـ أريد أن أكتب على مروحة واحدة وليس المعنى أني أبغي أن أجعل ذلك مهنتي.

ـ تخطئ أن لا تعمل ذلك مهنتك. فقد يجوز أن تكسب بذلك قوت يومك. ولمَن هي مروحة الجلد هذه؟ ما أظنّها إلاّ لسيِّدة.

ـ لا مريّة في أنك لا تبغين أن أنظم أشعارًا وأُعنى بنسخها على مروحة من أجل رجل.

ـ يا ربّ، بل كنت أفضّل ذلك. ثمَّ أنبئني. هل هذه السيِّدة صبيّة أو يظهر بالأقلّ أنها صبيّة؟ هذه المروحة من جلد هي بنت فكرها بدون شكّ. فهي قادمة من بلدها وتبغي الأوبة إلى منزلها وبيدها غنيمة. ولا تسل عن تأثير مروحتها هذه ليلة الزفن في دار المديرية. فهي ترفع من مروحتك علَمًا خفاقًا وتختال هناك بأشعارك وتوقيعك. يا سيِّدي لا أجد أحدًا أسذج منك. لك شهرة بكونك أرقّ كتّاب عصرك وفي الحقيقة إذا أقررت على رقّ أناملك أقرَّ بالرقّ كتّاب الأنام لك. ولكن في الحياة يا سيِّدي تسير سيرة صبيّ في المدرسة. إنَّك لعلى وَرَه يحيّر العقول. أيُّ سليطة سلقة تأتيك فتكلّمك بكلمتين تكون مشيت وراءها. وددت لو عرفتها هذه غانية المروحة!

ـ إيه يا سيِّدتي هي إحدى صواحباتك.

ـ إحدى صواحباتي. إحدى صواحباتي. على رسلك. فإنَّني أعرف أن أنتخب الصواحب، فلسن حُمْقًا ولا متطلّبات. ظننت مثلي ذاهبة في الأسواق، تبحث عن مروحة جلد؟ مروحة جلد؟ لماذا يا سيِّد؟ الجواب: لأجل أن نرى السيِّد أناتول فرانس منتطقًا بأيّ عَيْهرة من العياهر ويكتب لها عليها بخطّه ومن قريحته تذكارًا. أنت حرٌّ يا سيِّدي أن تجعل نفسك ضحكة فأمّا أنا فلا أشتري هذه المروحة.

ـ حسن يا سيِّدتي إذًا أنا أذهب.

ـ تذهب أنت. نعم، تذهب وتعمل من الحماقات ما تعمل: وإنَّك لدافع من أجل هذه الألعوبة كلّ ما يتقاضونه منك. يطلبون خمسمائة فرانك فتقول: هي هذه. إنَّني أعرفك جيّدًا. ويا ليت تلك اللعوب تصدق معك كما صدقت معها، بل هي طموح وربّما كانت جماعة آثار، فهل تدري ماذا تصنع بمروحتك الجلد؟ تروّح بها زفّتين أو ثلاثًا ثمَّ تبيعها من أحد المولعين بجمع الخطوط يرتاح أن يضمّ إلى مجموعته شهادة على أفنك أو على تهتّكك. وما أرى مروحتك الجلد إلاّ قد صارت إلى "بارتو".

ثمّ نهض أناتول فرانس ومشى، فقالت له: إلى أين أنت ماضٍ؟

ـ إلى جادة الأوبرا لأجل أن أشتري مروحة الجلد الذي أخرجتك من جلدك.

ـ استأنِ قليلاً حتّى آتي معك فإنَّك لا تقدر أن تخرج منها بسلام.

الركبة العسكرية والركبة الطاهرة

قال:

ـ حصل معي مساء أمس حادثة مخزية. وقد كان مبدأها بشكل ملائم. وأنا معترف لك بكلّ ما جرى[1]. فيكون باعترافي ما يكفّر عن حماقتي.

كنّا على العشاء عند فلان... وكانت مائدة طويلة عريضة مُسَرْهَدة[2] وكان جلوسي على كرسي الشرف على يمين سيِّدة البيت. وهي امرأة نَصَف في سنّ الخمسين لكنَّها رداح بضاض[3] ثمرة خريف شهيّة. وبينما كنّا على الطعام نتحدّث إذا شعرت من تحت المائدة بضغط على ركبتي فبقيت مبهوتًا. وعهدي بهذه السيِّدة إنَّها حَصانٌ رَزانٌ فمضيت في حديثي. وإذا بضغطة أخرى. فماذا كنت تصنع لو كنت في مكاني؟ نعم، لست بأدونيس وتلك العقيلة ليست بالزهرة. وما أنا في ريعان الشباب وهي أيضًا تجاوزت الخمسين وما عهد الناس بها إلاّ الفضيلة، ولكن هذا ممّا يزيد الرغبة فيها، ولعمري لئن لم أكن شابًّا فلا تزال النفس خضراء. وإذا بالضغطة الثالثة. فقلت في نفسي: هذه دعوة صريحة. هذا أمرٌ جزم. ماذا كنت تصنع في مكاني[4]؟ فقابلت الشيء بمثله وجسست الركب المناوحة بالتصوّر والتخيّل وتساءلت عمّا إذا كانت تلك الركب إلى الداخل أو إلى الخارج. إذ هناك نوعان. وأنا أعترف لك بكوني من أنصار المنعطف إلى الداخل. لأنني أرى في هذه النوع من الركب شيئًا من الحشمة والانقباض. وما أتذكّر صاحب هذا التقسيم وإنَّما أقول إنّه في غاية الإصابة. فقد سمّى القسم الأول بالركبة العسكرية والقسم الثاني بالركبة الطاهرة.

فصرت أنا حيران في هذا اللغز: أركبة الجارة عسكرية أم طاهرة؟ أمَّا ركبتي فهي بين

---

(١) قد أصابت السيِّدة العقيلة في وصف أناتول فرانس في الصفحة السابقة بكونه أكتب كتّاب زمانه، فإذا جاء إلى الحياة رأيت فيه خلائق صبيان المدارس. وقد يكون أراد الترويح عن قلبه باحماضات يتبذّل بها في مجالس خُلصانه فلم يكن يحسن بمَن كان حافظ سرّه وقد أفاد من برّه أن يصوّره صغيراً بعد أن عرفه الناس كبيراً.

(٢) المسرهد: المنعّم المغذّى.

(٣) مكتنزة اللحم، وفي الأصل Dodue.

(٤) الأستاذ يكرّر جملة ماذا كنت تصنع في مكاني؟ وكأنه يقول إنَّ هناك قضاء مبرمًا في إتيان هذا الأمر فلا محيد عنه. والحال، أنَّ ما يصنعه ذوو الحياء في مثل هذه الحالة وهو بسيط جداً. وهو القيام من المجلس.

العسكري والتعبُّدي. ولعلّك تجد تفاصيلي هذه تافهة مبتذلة[1] لأننا في هذه الأوقات العجيبة قد امتهنّا جميع الاصطلاحات مع أنَّ الركبة هذه هي للعبادة أفلا تليق بمَن نتّخذها إلهةً ونرجو منها السعادة؟ وعبادة الله تعالى هي بالجثوّ على الركب ولا يمكن أن يعبد الإنسان به دائمًا، ولا بدّ له من السعي والكسب، هذا بشهادة أكابر القدّيسين. والوقت يتّسع لذا وذاك[2]. ثمَّ انحنيت موهمًا أنَّ منشفتي سقطت وأنني أبغي لمّها فجعلت يدي تحت المائدة. فماذا وجدت يا صاحبي؟ وماذا فاجأني؟ إذا بخوان السفرة هو الذي كان يضغط على ركبتيَّ، فإنَّه كان واسعًا فضفاضًا ففتلوه حتّى صار مثل العقدة وصارت هذه العقدة تصطدم بركبتي[3].

فقالت لي تلك السيِّدة الكاملة:

عمَّ تبحث فإنِّي أراك حائرًا؟

حديقة الأمثال الغنّاء

بعكس ما كان عليه والدي من التفاصح والفُخَمية كانت والدتي هي البساطة بعينها. ولا جرم أنني ورثت هذا الانشاء منها. فقد كانت تقصّ أحسن القصص وتجعل لكلّ شيء قالبًا. ومهما كان الموضوع تافهًا أو عاميًّا إذا مرَّ على شفتيها اكتسب طلاوةً ورونقًا. فكانت محادثتها يا صاحبي أشبه بحديقة: حديقة من حدائق الأقاليم التي من العادة أن تكون مبقلةً وروضةً وجنّة أزاهير ورياحين معًا يجتمع فيها اللذيذ بالنافع ويجني منها الورد وثمر التوت الإفرنجي معًا. ولم تكن والدتي راسخة في علم الكتابة ولم تكن تقرأ سوى كتاب الطبخ وكتاب الصلاة ولكنَّها ورثت من أهلها نصيبًا وافرًا من الأمثال القروية، كانت تنثرها نثر الأزهار على محادثاتها. وقد كانت أحكامها عندي هي أول ما لصق بذهني من صيغ الطيب من القول ومن صدق الحسّ. وقد أورثتني حبّ الأمثال حتّى إنَّني لأحرص جدّ الحرص على قراءة مجامع الأمثال بأسرها وتجد دائمًا على منضدتي كتاب «لورو دولنسي»[4] كلّما طلبت نفسي الجمام، طالعت فيه، فإنَّه أشبه بدورة صغيرة تعملها نفسي في تلك الجنينة الملأى بالأزهار والثمار معًا فتعود منها مستريضة باسمة. والناس يحقرون اليوم هذه الأمثال ويجدونها دون درجة مفاهيم الديمقراطية. وقد حكّ في صدري طويلاً أن أؤلّف مجموعًا للصبيان، لأنني لا أكتم عنك يا حبيبي أنني

---

(١) وهذا ما يجده كلّ قارئ أديب.

(٢) هو المثل: ساعة لقلبك وساعة لربّك.

(٣) هذا ما بقي من هذا للفصل بعد أن طوينا جانبًا من عباراته.

(٤) لو رو دو لنسي (Le Roux de lincy)، أديب إفرنسي واسع الاطّلاع، ولد سنة ١٨٠٦ وتوفّي سنة ١٨٦٠.

عملت كتبًا برسم الأحداث، منها كتب جوائز وكتب مدارس ولكنّي لا أبوح بها لأني لا أزال خائفًا من أن أكون لم أحسن فيها الصنعة. فأسهل جدًا أن يكتب الإنسان للكبار من أن يكتب للصغار. فالكبير تقدر أن تقنعه بفائدة كتاب وتحمله عليه فيقرأه ويمدحه. وأمّا الصغير فإذا ملَّ الكتاب فليس لك به حيلة، فقد يخرق الصحيفة ويعمل منها عروسًا أو فُلكًا.

وكان بودّي أن أقطف من حديقة الأمثال تلك مجموعة، أنضدها بحسب الأيام والأشهر فمن شهر دسمبر يتعلّم الصغار ما يتعلّق بعيد الميلاد ورأس السنة وسقوط الثلج. ومن شهر مايو الأنيق ما يتعلّق بالربيع والورد. ومن شهر أغسطس ما يقال في الحصاد. ومن شهر أكتوبر ما يقال في القطاف. وكثيرًا من الأمثال على الخمر المسلّية للهموم، فكان يصير كتيّبًا لطيفًا يوازي في الحجم وربّما في القيمة أمثال لافونتين.

الجنرال يتمرّن

كان ماهرًا في استنباط الجهة المضحكة من الأشخاص والأشياء ولبيقًا في معاشرة الطيّاشة[1] الذين يواظبون على ازدياره وتعظيمه أن يُنزلهم إلى ميدان الرقاعة ويجعل منهم مواضيع تسلية. فكان بوسعهم أسئلة ومخالصة وبين هذا الإحفاء والاحتفاء يتمكّن من الاطّلاع على أسرارهم فكان بعد ذلك يجرّدهم من أستارهم ويكسوهم ألقابًا وينبزهم بها على طريقته المعهودة حتّى يصيروا أضحوكة لكلّ مَن عرف بقصّتهم وحتّى لا يقع عليهم نظر أحد إلاّ استغرب ضحكًا.

وكان في طليعة هذه الطبقة الجنرال ف. وهو مثال لبطل من أبطال الروايات الهزلية: ذو سبال صهب عالية وعلى جمجمته شبكة شعر كأنها نسيج العنكبوت وله صوت صهصاق: صوت القيادة العسكرية. وكنت تراه وهو في بهو ساكن الطير ضيّق الرقعة مكتظّ بالأثاث والرياش محشوّ بالبسط والسجّادات يزمجر كأنه على ظهر جواده في الصفّ.

وكان عند الجنرال ف. فتاة في محلِ الزواج اسمها سولانج. فكان أناتول فرانس يخفي الأسئلة عن سولانج ولا يفتأ يذكر سولانج. سولانج أضوأ من النهار. سولانج أكتم سرًّا من الليل. سولانج تتقن كلّ شيء: العزف بالبيانو، الحلواء. تكاد من رفقها ترقم على الماء. تمتطي الجياد كأحسن الفوارس. من العابدات القانتات. وبالجملة فهي درّة فريدة. وهي زنبقة بديعة. ولكن سولانج لم توفق يا ربّ إلى بعل. فهذا أثمه على الجمهورية. لأنَّ سولانج لا تملك جهازًا. ومكث الجنرال ف. زمنًا طويلاً في المستعمرات، فجاء منها بحميات كثيرة ولكنَّه تخلّص منها بالتمرينات

---

(١) في الأصل Hurluberlus.

البدنية اليومية. فحيث كانت قد أخفقت جميع الوسائل: الكينا والأشربة والحبوب ومناطق الصوف، نجح التمرّن نجاحًا فائقًا. ولكن هناك تمرُّن وتمرّن.

وسأل أناتول فرانس القائد قائلاً: أشعر يا جنرال بعض الأحيان بألم في أمعائي.

ـ الحقّ في ذلك عليك. قلت لك: عليك بالرياضة البدنية.

ـ أتنصح لمثلي في هذه السنّ الحلقات والحبال العمودية والعارضة الثابتة؟...

ـ الرياضة البدنية المعتادة كلّ صباح.

ـ كلّ صباح، وأين؟

ـ في نفس غرفتك عندما تنهض من سريرك.

ـ ويكون الإنسان متبذّلاً.

ـ لا ريب في ذلك. إذ لا بدّ أن تكون العضلات كلّها حرّة مستريحة. أتريد مثالاً؟

ـ لم أكن أجسر أن أطلبه منك.

ـ مدّة خمس دقائق تدور في الغرفة دبيبًا على اليدين والرجلين. هل فهمت؟

ـ ما فهمت جيّدًا.

ـ أعيد لك الكلام. تبدأ بحركة سريعة خفيفة أشبه بحركة كلب صيد في أثر أرنب. ثمَّ بعد ذلك مدّة خمس دقائق تجمز من فوق الكراسي وتضرب برجليك. وأخيرًا تجعل نفسك ميتًا.

ـ هذا دور غير عسير.

ـ هو أعسر ممّا تظنّ. انظر يا حبيبي فرانس. تتمدّد بطولك كلّه مستلقيًا على ظهرك ثمَّ استلقى الجنرال بنفسه على البساط. وقال:

ـ وتبسط ذراعيك.

ـ مثل يسوع فوق الصليب.

ـ نعم، مثل يسوع، إن كنت تريد. لا أحبّ هذه التشبيهات الكفرية. ولكنَّك غير قابل الإصلاح مع عبقريّتك. ثمَّ ترفع رجليك شيئًا فشيئًا. ومن ثمّة لا تحسّ بالمغص ولا تحتاج إلى الطبيب ولا إلى الصيدلي. إذا واظبت على هذا كلّ صبيحة تعود إلى الفتاء، كأنك قبل اليوم بعشرين سنة.

ـ إيه! إنَّ هذا لممّا يستحقّ الاعتناء.

ـ ويعود بطنك كأنه بطن صبيّ.

ـ أو بطن مراهق.

ـ انظر إلى بطني أنا.

ثمَّ قام الجنرال وضرب على بطنه مفتخرًا، كأنه يضرب على طبل. وقال: لا تجد هنا أدنى أمت ولا عوج ولا ترى شيئًا من الشحم. بطن رجل عمره عشرون سنة، مع أنني بلغت الثالثة والستّين. كلّ مَن عندي حتّى سولانج يعملون هذه التمرينات[1].

الصورة المركّبة

لم يكن يمضي يوم لا يأتي فيه مصوّر أوربي أو أميركي إلى مغنى سعيد. وكانت جوزيفين تحاول عبثًا منعهم من الدخول، فكان الواحد منهم يصعد الدرج ويتبوّأ قرصها ويركّز مسند التصوير في جوز الممرّ ثمَّ يشرع في التدخين بصُنْبوره[2] وهو جاثم صابر غير عجل ولا مستوفز حتّى إذا خرج الأستاذ تَقفَه.

ومن عادة الأستاذ أن يحسن مقابلة الرسّامين. نعم، قد يتبرّم بدمورهم[3] وهجومهم ولكنَّه ينقاد في آخر الأمر.

ـ لماذا ارتسم بعد أن صرت في هذا العمر وبعد أن تشنَّن الجلد واشتعل الرأس شيبًا. آه لو كنت في شرخ الشباب! ولكنّي بلغت الستّين. نعم، لست أنطنيوس[4]، هذا أعلمه جيّدًا وما يرسمونني إلاّ لأجل فائدة التسجيل ولأجل الإعقاب. فإذا كان للإعقاب فليرسموا شيئًا بهيًّا ولا يرسموا شيخًا فانيًا مهذارًا مرتعشًا. أفلا ترون براكستيل[5] كيف كان لأجل رسم زُهرته[6] ينظر إلى ملامح أجمل بنات يونان. فهذا ما يليق بكم إن تعملوه لأناتول فرانس فاعتاموا أجمل الرجال وخذوا من هذا القدّ ومن ذاك ترف الأعضاء واستعيروا من ذلك سيماء الوجه واضفوا على كلّ هذا ذوائب مسترسلة ذات لون كلون الياقوت الزعفراني. ولست أعلم في الحقيقة ما

---

(١) وبعد هذا الفصل فصل عنوانه «من أجل جلد البنطلون» يتعلّق بقصّة عسكرية كان أناتول فرانس يرتاح إلى سماعها من الجنرال ويستعيده إيّاها فطويناه بحذافيره.

(٢) ترجمة pipe.

(٣) دَمَر على القوم: دخل عليهم بغير إذنهم.

(٤) شابّ من آسية الصغرى كان مقربًا عند الإمبراطور أوريانوس الروماني، وكان يُضرب المثل بجماله.

(٥) براكستيل (Praxitéle)، نحّات يوناني طائر الصيت، ولد سنة ٣٩٠ ق. م. في أثينة، والتماثيل التي صنعها للزهرة كانت شهيرة عند الأوّلين.

(٦) Vénus.

هو هذا اللون لكنّني قرأت في الكتب أنه من أبدع الألوان. ثمَّ اكتبوا تحت هذه البدائع: أناتول فرانس.

فإنَّ هذا يعطي صورة حسنة لأحفادنا وحفيداتنا فيقولون عندما يرون صورتي: مع هذا لم يكن أناتول دميمًا.

الهيكل المتألم

الصعوبة كانت على المصوّر هي في حمل الأستاذ على جلسة ملائمة. فإذا مضت هذه الصعوبة أطاع الأستاذ كالولد الصغير. وسهّل بنفسه صنعة الرسّام ولم يقف لأجل خاطره عن قلب نظام منزله وتغيير عادته.

ـ أين تريد أن أتمثّل؟ أيعجبك مركزي هذا؟ وقميص نومي؟ هل هو داخل في خطّتك؟ أم تجده غريبًا؟ فعندي ما أستبدل به. وكمتي أتراها زاهية بقدر ما تريد؟ عندي من الكمم ما شئت، فأتكمّم لك بالتي ترضيك. وفي الحقيقة كان المصوّرون يحرّكونه كيفما يشاءون. وكثيرًا ما كانوا يضعونه على كرسي ويجعلونه دائمًا ملتفتًا، لأنَّ أحسن صوره ما أخذت من جانب. وهو كان يعلم ذلك. وكانوا يضعون في حجره كتابًا بقطع النصف مفتوحًا ويمنعونه من تشبيك رجليه ومن التلفّت ومن تحريك رأسه. إلاّ أنهم كانوا عاجزين عن شيء واحد وهو منعه من الكلام.

وكانوا إذا انتهوا من عملهم امّغط أناتول فرانس وأخذ يتنفّس قائلاً:

ـ الإنسان هيكل متألّم.

ثمَّ ينظر إلى الصورة فلا تعجبه في سريرة نفسه لكنَّه يخفي زهده فيها وينحي على المصوّر بالتقاريظ التي تنقض الظهور: هذا «روبين» هذا «ميكال أنج» بمثل هذه الصورة يغلب الإنسان الدهر. تآليفه تمضي ولكن صورته هذه تبقى خالدة. وهلمّ جرّا.

ولكن لا يكون المصوّر وصل إلى الباب حتّى يقول أناتول فرانس:

ـ يا له من خبّاص مخرفش[1] الحمد لله على كوننا غير مجبرين أن نحكي صورنا.

قبلة المجذوم

قال بروسون، جامع هذه النوادر:

---

(١) في الأصل الفرنسي Barbouilleur ومعناه التخليط؛ وفي العربية خرفش الشيء: خلطه، ومثله الخبص وهذا من العاميّ الفصيح.

ـ في هذه الصبيحة يوم الأربعاء وكان يوم مقابلات عند الأستاذ حصل لي عارض غَثْيان لا أعلم أهو من قبل برد أو من سبب آخر؟ فصار الأمر أنني كنت ملتاث المزاج وأنَّ العارض زال ببعض نقاط من الروم وما عدت أشعر بشيء منه. فلمّا انصرف الزوّار أقبل عليّ الأستاذ، وقال لي:

ـ أراك قد أُغمي عليك يا ولدي كما أُغمي على «إستير» أمام «أحشوروش»[1] من أين جاءتك هذه النوبة؟ قل لي. أهفوت هفوةً في الليلة الماضية؟

ـ اضطّجعت البارحة باكرًا مع عذراء.

ـ مع عذراء؟

ـ نعم، مع عذرائك أنت جان دارك.

ما أظنّ أنَّ هذه العذراء هي التي بلغت بك هذه الشدّة.

ـ هذه هي المرّة الأولى التي جرت لي، لا بل ـ حتّى لا أكذب ـ هي المرّة الثانية. وأول مرّة رنح عليّ كنت في المدرسة في يوم الفصح بينما كان القسّيسون والشمامسة يرتلون قصّة آلام المسيح. فما شعرت إلاّ وكلّ شيء يدور حواليّ وسقطت إلى الأرض مع الغصن الذي كان بيدي.

ـ لله درك ما أشدّ تقواك، تفطّر فؤادك عند رؤيتك آلام إلهك.

ـ كلاّ، لم يكن هذا هو السبب لكن طال التقديس وأنا أكاد أموت جوعًا إذ لم أكن طعمت إلاّ كسرة خبز ناسّة[2] ثمَّ إنَّ رائحة الغار وزهره ممّا كان قد حوّل الكنيسة إلى غابة ملتفّة قد أثّر فيّ.

ـ أأنت رغيب المعدة؟

ـ أظنّ ذلك.

ـ أريد أن أقول لك يا ولدي شيئًا فقل عنّي ما شئت: أنا رجل لا أحبّ المرضى. ويقشعرّ بدني من الآلام. وهو خلق بي من أصل فطرتي. فعندما كنت في ستانيسلاس[3] كان ما يقال له مجمع مار ڤنسان دوپول[4]، فكنت أرى التلاميذ الذين هناك ذاهبين جائين بين مخادع المرضى،

---

(١) اسم يهودي للملك من ملوك الفرس يُظنّ أنه داريوس الأول، تزوّج بإستير، ابنة أخي مردخاي، أحد اليهود الذين شملهم سبي بابل، وقد كانت إستير بحظوتها عند الملك سبب العفو عن اليهود الذين كان هامان وزيره قد بالغ في أذاهم وانتهى الأمر بشنق هامان (٥٠٨ ق. م.).

(٢) خبزة ناسّة: يابسة.

(٣) المدرسة التي تربّى فيها.

(٤) أحد قدّيسي الفرنسيس، ولد في بوي (Pouy) من مقاطعة لاند (Lande) من جنوبي فرانسة سنة ١٥٧٦ وتوفّي سنة ١٦٦٠، وهو مؤسّس أخويّة راهبات المحبّة والرهبانيّة العازرية وجمعيّة تربية الأولاد اللقطاء.

يأخذون إليهم الخبز واللحم والعقاقير، وربّما كانوا ينتهزون هذه الفرصة لأجل أن يبيعوهم مسابح وأيقونات. وكانوا يعظونهم ويحملونهم على الاعتراف بالذنوب. ولم يكن الهمّ الأكبر عندهم شفاؤهم من المرض وإنّما تهيئتهم للموت. وكنت أرى حول كلّ من أولئك المحتضرين امرأته وأولاده عليهم سيماء الرثاء وتكلّف الحزن... فكان هذا التصنّع وكانت كلّ هذه المكاره ممّا تخبث له نفسي. كلاّ، لست أنا ممّن يقبّل المجذّمين. أقسم لك. ثمّ ما هي فائدة هذا التردّد إلى العليل؟ نعم، هو من باب الرحمة وهو له مكان في التصوير والتمثيل، ولكنّه شيء آخر عند الفعل. فإنَّ الإنسان إذا كان يتململ على فراش المرض لم يرد أن يشاهد أحدًا. وأَوْلى به أن لا تقع عليه عين أحد، إلاّ إذا كان الطبيب أو الممرّض. وأمّا الآخرون فإنّهم ثقلاء مزعجون مرّاءون. إنَّ من أمجد الخلائق لديّ وأنفس ما أحبّ أن أرى عليه أصحابي وغاشيتي هو الصحّة والبشاشة.

جاءني المسيو فلان... ذلك اليوم بحليلته وهي صبيّة. أو بالأحرى لم يجئني بها، بل أرسلها بشفاعة وهي استكتاب مقدِّمة. وكانت رعبوبة ناعمة رادة، ولكن يا أخي أيّ لون كان لها! كانت بيضاء برَهْرَهة [1] كأنها كفن. لا ترى نقطة دم تجول في بشرتها. لست في هذا المعنى قصصيّ المشرب والله يعيذني من محبوبة تبصق رئتَيها. بعضهم يذهبون إلى أنَّ الآلام تحلّي. وكتبوا على ذلك كثيرًا. كلاّ، يا صاحبي إنَّ الآلام لا تحلّي، بل تكرُّه، وجدير بالإنسان أن يفرّ منها.

لي عاطفة نحوك لأنك حادّ الذهن، متلهّب الذكاء، تفقه كثيرًا من الأمور، ولست بمقيَّد بالأوهام، ولكن ثق أنَّ في هذه العاطفة التي عندي نحوك مدخلاً عظيمًا لصحّتك، فقد ظهرت لي إلى هذه الساعة مبنيًّا بالكلس والرمل وأرجو أن تكون هذه الغَشْية التي أصابتك هذا الصباح عارضًا فذًّا.

ـ أنا أرجو هذا أيضًا ولكن الأمر ليس في يدي فلنفرض أنَّ هذا العارض تكرّر، فماذا؟
ـ أحبّك أقلَّ من الأول بكثير.
ـ وإن أُصبت بشلل فجائي؟
ـ لا تعتمد حينئذٍ عليّ! وأواسيك بعدم التثقيل بالعيادة. وأقول في نفسي: قد عرفت شابًّا من «لانغدوك» [2] كان ملآن حياةً ونشاطًا وعارضة. والآن أمامي مسكين هامد يتذبذب

(1) الجارية الشديدة البياض.
(2) Languedoc: بلاد في جنوبي فرانسة قاعدتها طلوزة، فتحها العرب، وأقاموا بها طويلاً ومدينة نيم هي في ذلك الصقع.

ويصطك بعضه ببعض. فأنا صديق وفيٌّ له وإنّما أهتف: لا، ليس هذا بروسون. ليس هذا بروسون. خذوا عنّي هذا القرد الذي بلا ذنب.

الأول والثاني والثالث

يأخذون عليّ سعة علم الرجال الذين تدور عليهم مقاماتي. ويقولون لي: "في أيّ عصر عاشوا، ومن أيّ طبقة كانوا، يتكلّمون بلغة واحدة هي لغة رنان أو لغة "ڤولتير"[1] أو "لغتك أنت" ويضربون المثل "بتاييس" و "كرنكبيل" فأجيب: هذه هي الشنشنة الأصولية التعليمية فرجال "كورنايل" كانوا كورنايليين ورجال "راسين" كانوا راسينيين. ف "فادر"[2] تتكلّم مثل "يواس"[3] ومثل "برين داندين"[4] ومثل "يوحنّا الصغير"[5]. وتأمّل في بغّالة "جيلبلاس"[6] فإنّهم بينما هم يمسحون بغالهم يستشهدون بـ "تاسيت"[7]. فانتقاد هؤلاء يتخطّاني إلى أعاظم كتّاب الفرنسيس.

ثمّ يعيبون عليّ ضعف مخيّلتي. فأقول إنّ المخيّلة الشديدة هي أُمّ التخبّطات وهي رعناء البيت. وددت لو أُذن لي في تصنيف أقاصيص أبطالها من المجرّدات الصرفة كما في الأمثال المعتادة عند الحقوقيين فيقال: بريموس، سكندوس ترتيا، كوارتا[8].

---

(١) ڤولتير (Voltaire)، أشهر من أن يُعرّف، معدود من رجال العالم لا من رجال فرانسة وحدها، كان محيطًا شاملاً برع في العلوم كلّها وخرج في جميعها رأسًا، وغلبت عليه الفلسفة والشعر والإنشاء وهو النمط السهل المتمنّع الذي لا يجاريه فيه مجار جلاء ورقّة وصفاء ووجازة وجمع الكمّية إلى الكيفيّة فقلّما كتب عالِم من علماء الدهر بمقدار ما كتبه فولتير في متعدّد المواضيع وكان غرضه الذي تدور عليه تآليفه هو إطلاق حرّية الإنسان واحترام الحقوق والعقائد. ولم يكن فولتير منزّهًا عن الخطأ وإنّما كان كثير الإصابة باهر الخصل، وهو المؤسّس الأعظم بتآليفه للثورة الفرنسوية الكبرى والانقلاب الاجتماعي الذي حصل في أوربة.

(٢) فادر (Phèdre) في الأساطير امرأة تيزيه (Thésée) وابنة مينوس (Minos) وباسيفايه (Pasiphaé) تعشقت هيبوليت (Hippolyte)، ابن زوجها، وباحت له بهواها إيّاه. فاستعصم وخيّب مراودتها له فانتقمت منه بأن فعلت كما فعلت امرأة العزيز مع يوسف عندما امتنع من إجابتها إلى ما أرادت وذلك بأنّ فادر قالت لزوجها، والد هيبوليت، إنّ ابنه أراد بها سوءًا. فغضب تيزيه واستجاش على ولده غضب الإله أبولون الذي ردّاه من عربته فسقط ميتًا. إلاّ أنّ فادر ثار بها عذاب وجدانها لمكيدتها هذه وما زال يلذعها حتّى شنقت نفسها. وقد مثّل اثنين من شعراء الأقدمين سينيكا وأوريسيد هذه الأسطورة في المرزح ونظم منها راسين رواية هي أبدع بدائعه.

(٣) ملك يهوذا بعد موت آتاليه التي كانت ملكة يهوذا واشتهرت بعسفها وفجورها وقتلت أولاد الملك أوشوزياس كلّهم إلاّ يواس الذي أنقذه الرباني الأعظم يواد ونادى به فيما بعد ملكًا.

(٤) برين داندين (Perrin Dandin): شخص تخيّله رابليه (Rabelais) في كتابه على أنه قروي حسن السيرة كان يحكم في الدعاوي فيحسن فصلها كلّها. وقد استعاره راسين أيضًا في روايته "محبّي الدعاوي" Les Plaideurs وجعله القاضي المغرم بمنصبه الذي يودّ لو قضى حياته كلّها في الجلسة. وقد استقضاه الشاعر لافونتين أيضًا في أحد أمثاله.

(٥) من أشخاص راسين في رواية Les Plaideurs.

(٦) جيلبلاس (Gil Blas): اسم اخترعه القاصّ الإفرنسي لوساج (Le Sage) المولود سنة ١٦٦٨ المتوفّى سنة ١٧٤٧ وجعله محور رواية في العادات المعشرية. وصار جيلبلاس علمًا لشابّ سريع الفهم تفن يعيش من الطوارئ.

(٧) مؤرّخ لاتيني شهير، عاش بين سنة ٥٥ و١٢٠ بعد المسيح معروف بجلال العبارة ومزيّة الإيجاز وله تآليف ممتعة، وقد سبق ذكره.

(٨) أي الأول والثاني والثالث Primus, Secundus, Tertia, Quarta.

أمّا من جهة النحو، فإنَّ الزجّال «بيرانجه»[1] كان أعلى كعبًا من «ڤيكتور هوغو» فإنَّ لغته أخلص عرقًا في الفرنسية وأجلى وأوضح وهي من طرز إنشاء القرن الثامن عشر، ذلك الإنشاء البليغ. ولا أقول إلاّ لك وهمسًا في أذنك، مخافة أن ينهالوا عليّ بالسبّ والشتم: إنَّني أوثر أغاني بيرانجه على قصائد «ڤيكتور هوغو».

الإحسان الباطل

غضب غضبة شديدة في أحد الأيام على أولئك البنات الجريئات التَّرِعات اللائي يتسألن كتبًا وتقادم لبعض الأعمال الخيرية.

ـ قد أفلتت جوزيفين في هذه الغدوة فتاة من نوع الخيل الضابرة[2] دميمة الخلق إلى حدّ الرعب، بذيئة عِنْفصًا[3] نعّارة صخّابة[4]، في لباس كلباس الجنّية «كارابوس»[5]. دغرت عليّ هذه الفاجرة وأنا في غرفتي دون أن تقرع الباب ووضعت في أنفي، كما تضع لك مسدّسًا، كتابًا من كتبي لا أتذكّره. ثمَّ قالت لي وهي تتحالى:

ـ يا أستاذي العزيز! يا أستاذي العزيز! أبغيك تكتب لي توقيعًا صغيرًا على هذا الكتاب لطيفًا مثل جميع ما تكتب. فإنَّ هذا لأجل لعبة يانصيب. فقلت لها:

ـ ليس عندي لا قلم ولا حبر.

ولكن هذا القردة كان معها قلم فناولتني إيّاه فكتبت به بكلّ صراحة «إلى مادام فلانة... الخيّرة، ليس حبّ الخير بأن يجاد على الناس دون أن يجاد بالنفس».

أغبى من شاعر

كان من عادته إذا وصف أحدًا بالغباوة أن يقول: «حيوان كأنه شاعر». فسألته مرّة: «مَن هو الشاعر عندك؟ أتراه «ڤيرجيل»؟».

قال:

ـ لا.

---

(١) بيرانجه (Béranger)، أشهر شاعر إفرنسي في الأزجال والأغاني، ولد في باريز عام ١٧٨٠ ومات عن ٧٧ سنة وسارت أهازيجه ومقطوعاته سير أعلى طبقة من الشعر المرقّص.

(٢) بالضاد المعجمة وهي التي تجمع أيديها ثمَّ تثب فتقع مجموعةً أيديها، وفي الأصل Haquenée.

(٣) في الأصل Arrogante.

(٤) في الأصل Criarde.

(٥) Carabosse: جنّية يقال إنَّها كانت سعلاة سليطة حدباء لا تعمل إلاّ السوء.

ـ «بوالو» أو «راسين»؟

ـ الشاعر عندي هو «كورنايل» و«ڤيكتور هوغو». على أنَّ «لوكونت دو ليل»[1] هو أشعر من هؤلاء قاطبة. آه لو كنت عرفت هذا. هذا في الحقيقة كان حيوانًا تائهًا. وقد كان أزهى من زنجي وأجهل من سمكة شبّوط. تجرّأ هذا الهبّال على ترجمة شعر هوميروس وهو لا يعرف كلمة واحدة من اليوناني.

دفتر الجوائز والأشعِرة

طُبع في إحدى الجرائد أنَّ أناتول فرانس هو ابن أخ للمطران «تيبو»[2] أُسقف «مونبلييه»[3] وأنه بواسطة عمّه دخل في إحدى مدارس الكنيسة وتعلّم على نفقتها. فقال أناتول فرانس:

ـ ما سمعت في حياتي بذكر هذا المطران ولو كان من ذوي قربانا لكان والدي تبجّح به كثيرًا. ثمَّ كيف يمكن أن يكون هؤلاء علّموا مجّانًا ولدًا لم يكن ينعقد به أدنى أمل. فإنَّ أساتذتي لم يتفرّسوا فيّ شيئًا من النجاح، ولم أنل ولا جائزة. وكنت أودّ أن أظفر الآن بدفتر الجوائز. نعم، لم أحصل على جائزة. لأنَّ في مدرسة ستانيسلاس في زماني ـ ولي الأمل أن تكون هذه الحال تغيّرت ـ كانت الجوائز تبعًا للإيثار لا للاستحقاق. ومن هناك ارتضعت وأنا بعد صغير أفاويق العلم بمظالم الاجتماع وعرفت ما بين البشر من عدم النصفة.

ـ مثل جان جاك[4].

ـ لا تضحك. فإنَّ الهمّ الذي كان يساور أساتذتنا في توزيع هذه الأكاليل من الورق هو تجريد سمعة المعهد وإثبات كونه مغرس فسائل أريستوقراطية. فكلّ مَن انتهى إلى نبعة شريفة كان حقيقيًا بأن يذكر اسمه في هذه الجوائز أربعًا أو خمس زفّات. فدفتر المكافاءات كان أشبه بكتاب أشعرة

---

(1) لو كونت دو ليل (Le Comte de Lisle)، شاعر إفرنسي، ولد في جزيرة بوربون، له ديوان القصائد البربرية والقصائد القُدمى. ترجم شعر هوميروس وصوفوكل وتيوكربت، ويقال إنَّه أتقن الترجمة، (١٨١٨ ـ ١٨٩٤).

(2) تيبو (Thibault).

(3) مونبلييه (Montpellier): مدينة في جنوبي فرانسة على مسافة ٧٥٧ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي من باريز. عدد سكّانها ٨٠ ألفًا وفيها مدرسة جامعة، استولى عليها العرب عندما استولوا على جنوب فرنسة في القرون الوسطى.

(4) جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau): هو طريد فولتير في الفلسفة والإنشاء وبعد الصيت وتهيئة الثورة الفرنسوية. وكان يذهب إلى كون الأوْلى بالمرء أن يعود إلى الطبيعة. وكان يعتقد بحسن طينة الإنسان وبضرورة التعاهد الاجتماعي الكافل لحقوق الجميع. وكما ألقح بسحر بيانه وخارق فصاحته الثورة الفرنسوية الكبرى فقد رشّح الأفكار لفنّ القصص، المعبّر عنه بالرومانيتسم وهو الأسلوب البياني المخالف لأسلوب الأساتذة الأصليين المعبّر عنه بالكلاسيك Classique وهو الذي انفسح فيه المدى للحسّ والخيال دون العقل المجرّد. ومن منازع الرومانيتسم أو الأسلوب القصصي الرجوع إلى تقديس الديانة المسيحية وتعظيم شأن القرون الوسطى والتنويه بفضل السلف والتعمّق في آداب الأمم الأخرى.

للبيوتات القديمة. وأيّ أسامي يا صاحبي! ماري هكتور ديودوني [1] ڤالراند دولا ڤانلرانديير [2] إيف غرينيك دو مارساي [3] وبالاختصار فكلّ أولاد إخوة المسيو «دو پورسونياك» [4] والكونتة «دسكاربانياه» [5].

ـ إلاّ أنّ «تيبو» [6] اسم إفرنسي لطيف خالص النسبة. وهو أصيل أيضًا «تيبو دو شامبانيه».

ـ لم يكن تيبو الصغير في شيء من هذا الشرف.

ـ ولقد أخذت بثأرك بعد ذلك وكللتك الأكادمي قبل أن صرت من أعضائها.

ـ نعم، لأجل «سيلڤستر بونار» اسمج رومان عملته.

ـ إيه يا سيِّدي الأستاذ هو طرفة الطرف.

ـ طرفة في البرودة. ولكن لنترك سيلڤستر بونار الآن ولنعد إلى المدرسة. إنّه في ميدان التحصيل كانت بعض الأكاليل تُعطى في فنّ الرسم والتعليم الديني والحفظ لطبقة الأهالي كأولاد المحامين وأولاد كتّاب العدل وأولاد الأطبّاء. أمّا في أصناف المائدة العليا فكان التمييز لأبناء البيوتات.

بسطة الجسم لا العلم [7]

ـ كانت تلك الجوائز تذهب إلى مَن كان من الطلبة أكنز لحمًا لا أثقب فهمًا، وممّا لا مريّة فيه أنني لم أكن ممّن ينال الجائزة ولا إقبال الأساتذة. وكنت ضئيلاً شَخْتًا كأنّما رجلاي إبرتان.

مع إنّي كنت مغرمًا بالمجد. كان يوم الجوائز عندي يوم خزي وغضب وقشعريرة ولم أزَل من رعب ذلك اليوم في مثل جلد الدجاجة. فكان ينبغي أولاً شرح المقابلة بين كورنايل في جزالته وراسين في رقّته وبيان المصارعة بين الألم والواجب. أمّا الإفاضة في الآلام فكنّا نخرج منها ظافرين لأننا أوشكنا أن نكون بأجمعنا في ستانيسلاس من أمثال «بوليكتوس» [8] المُثل

---

(١) ماري هكتور ديو دوني (Marie Hector Dieu-donné).

(٢) ڤالراند دو لا ڤانلرانديير (Valrand de la Valrandière).

(٣) إيف غرينيك دو مارساي (Yves Guerinec de Marsey).

(٤) دو پورسونياك (De Pourceaugnac): اسم اخترعه الشاعر الهزلي الأكبر موليير يمثّل تحته رجلاً من الأقاليم قادمًا إلى باريز ليتأهّل بفتاة حسناء وجعل عليه من ضروب السخرية ما يُضحك الثكالى.

(٥) دسكاربانياه (d'Escarbagnas): اسم وضعه موليير أيضًا فصار علمًا على كلّ مَن يتمسّك بالنسب والأصالة إلى حدّ الرقاعة.

(٦) تيبو (Thibaut)، اسم عائلة أناتول فرانس.

(٧) لفقنا قسمًا من هذا الفصل أيضًا لأننا نعتقد أنّ الأستاذ كان يتكلّم تحت تأثير الغضب.

(٨) بوليكتوس (Polyeucte): من المسيحيين الأوّلين قُتل لأجل دينه فصار شهيدًا ونظم كورنايل في قصّته مأساة تمثيلية فريدة في بابها.

العليا في المسيحية وفي طاعة الحكومة. ثمَّ أخذ أناتول فرانس يمثّل الخطيب في خطبة الوداع. فكان يزمجر ويتقعّر مثله قائلاً: أيّها الصبيان والشبّان لكم أن تتمتّعوا بحقّ الجمام في هذه الإجازة. فالراحة مشروعة. والله تعالى قد استراح في اليوم السابع. فلكم أن تتأمّلوا في الطبيعة. لكن عندما يظلم الأفق بغتةً في شهر أغستوس وتحبسكم العواصف عن الخروج من البيوت فافتحوا خزائن الكتب الأبوية واقرأوا «سنيكا»[1] واحفظوا «بوردالو»[2] وتلذّذوا بقراءة «باسكال»[3] واصطبغوا بصبغة «ماسيليون»[4].

فكنّا نصغي إلى هذا الخطاب ونحن نمصّ أصابعنا في أفواهنا. وكنت أعود إلى البيت وليس معي شيء يُذكر سوى دفتر الجوائز وصورة الخطبة. فكان والدي يتلقّاني بدون حفاوة. ولكن والدتي هي التي كانت تسلّيني وهي التي من البدء لم تيأس من ولدها مع أنَّ أساتذتي لم يكونوا يغبّون والدَيَّ شهرًا بدون أن يأتوا إلى دكّاننا ويزهّدوهما بي. فمَن يسمعهم يخال أنه من العبث المحض أن يُنفقا درهمًا واحدًا عليّ، إذ كلّ هذه النفقات الوجيعة هي كمَن يرمي الفضّة في النهر. فلن أتعلّم شيئًا وخير لأهلي أن يبادروا إلى إخراجي من المدرسة ووضعي في مخزن تجارة. أمّا من جهة الكتب فلم أكن أصلح إلاّ للرزم والحزم. وكانت والدتي تبكي بعين كالعين الجارية وكان والدي في غمّ قاتم الأعماق ممّا يسمع. والصحيح ـ وهو شيء أقدر أن أقوله الآن ـ إنَّه لم يكن أجدُّ وأشيَح منّي. وكانوا يظنّونني فاتر الهمّة لأنني كنت دائمًا في شغل بخالصة نفسي لا يني عقلي دقيقة فذّة عن التفكّر. وكنت أقرأ جميع الكتب التي في دكّاننا من جميع الأنواع. وآلم أشدّ الألم إذا جاء أحد يأفكني عن حياتي الفكرية. وكنت هيّابًا جدًّا وقليل اللياقة. فإذا أُلقي عليّ سؤال ـ ولا أزال كذلك إلى اليوم ـ تتزاحم الأفكار والتصوّرات في منطقي يضاد بعضها بعضًا. فكنت أول ما أجهد نفسي به هو تخليص نفسي من هذا الاختلاط. وكان خطائي هو في كوني أُشهِد أستاذي مراغمتي هذه فكان يظنّ أنني مفلس من كثرة ما كنت موسرًا. وكانت

(١) سنيكا: فيلسوف روماني، صاحب تأليف على طريقة المشّائين، ولد سنة ٢ بعد المسيح ومات سنة ٦٦، وكان والده معلّمًا للبيان في رومة ومهذّبًا للإمبراطور نيرون في صباه ثمّ غضب عليه وقتله.

(٢) روردالو (Rourdalou): من أفصح خطباء الفرنسيس، كان من رهبانيّة الجزويت وله مجموع مواعظ شهيرة، (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤).

(٣) باسكال (Pascal): من عبقريّي الدهر ندر أن يوجد له نظير في العالم بقوّة إدراكه وحدّة ذكائه. يقال إنَّه في الثانية عشرة من عمره اطّلع على قضايا إقليدس الهندسية بدون أن يراها في كتاب، بل بمجرّد توارد الخواطر. ولمّا صار في الثامنة عشرة اخترع طريقة للعدد. وله اكتشافات كثيرة طبيعية وتحقيقات رياضية لم يُسبق إليها. وكانت عبارته من البلاغة بحيث أنَّ كثيراً من كلماته جرت مجرى الأمثال. ومن أعظم تآليفه كتاب «الأفكار» الذي لم يكمله. وضعه في محاسن الدين المسيحي فنشر بعد وفاته شذرات غير مرتبطة. وله أيضًا كتاب «الإقليميّات» حمل فيه على الجزويت حملة شعواء وانتصر لفرقة «الجانسينسيت» التي كانت لا تقول كثيراً بالجزء الاختياري في عقيدة القضاء والقدر وكان مركزها الدير المعروف «بور رويال» وقيل إنَّ باسكال لمصابه وهو عابر على جسر نويلي (Neuilly) صدمة أرعشت دماغه فأخذت تتراءى له مناظر غير صحيحة وصار يرى كأنَّ هوّة تنفتح أمامه لتبتلعه، وأنَّه بعد هذا الحادث التجأ إلى الديانة والله أعلم، (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢).

(٤) ماسيليون (Massillon): من مصاقع الخطباء الدينيين بفرانسة، كان معروفًا بعذوبة نطقه وبلاغة خطابه، (١٦٦٣ ـ ١٧٤٢).

فواتح كلامي صادقة مصيبة لكنّهم كانوا من أول جملة يستغربون ضحكًا فيفلّ ذلك من عزيمتي، وكنت في ذات صدري أعرف أنني غير مخطئ لكنّني كنت ألوذ بالسكوت أنفةً وحياءً. وبالجملة، فكنت معدودًا من الأولاد الذين لم يفتح الله عليهم.

وقبل وصولي إلى الشهادة البكالوريّة[1] جاء هؤلاء السادة وأقنعوا أبي بأنه إن لم يضعني في المدرسة داخليًا أخفقت في الإمتحان. فعارضت أمي في هذا معارضة شديدة وبواسطتها لحسن الطالع لم أذُق من نعيم الحياة المدرسية الداخلية إلاّ النصف فكنت أُطعَم الظهر في المدرسة ولك أن تقول لم أكن أُطعَم شيئًا تقريبًا. وعندما كنت أشمّ شمأزيزة[2] بيت السفرة التي كانت تشبه رائحة المراح[3] كانت تلقس[4] نفسي عن الأكل. ثمَّ إنَّ الطعام كان من الجشوبة بحيث لا يطاق. هكذا كنت أراه فأعافه. فطعامنا في البيت كان بسيطًا لكنَّه كان شهيًّا خالصًا، نأكل البيض ولكنَّه البيض الجديد بعد المعاينة والذي لا تحسّ منه رائحة القش واللحم، ولكنَّه اللحم الغريض الذي لا تشمّ منه ذفرة الشمع والسمن، ولكن أخلصه. والبقول والفواكه ولكن أطراها. وكنّا نشرب الخمر ولكن أعتقه. وكلّ هذا على خوان بسيط في جفان ظراف لطاف. فكانت أمّي في دهقنة[5] الطعام تجمع الإعجاز إلى البساطة.

ـ وكذلك ابنها في الإنشاء.

ـ أيّها المداهن! دعنا نتكلّم في التباين الذي نحن بصدده! وهو أنَّ ذلك الغلام الوحيد المنعّم المسرهد المسرهف[6] الذي كأنه آنسة حييّة صار أمام مائدة من رخام أسود حفر عليها القدماء أسماءهم تخطر ببالك بلاط المقبرة! ثمَّ هناك تلك القصاع من الخزف الغليظ وهاتيك الأغطية التي لم تكن تعرف النظافة وتلك الأقداح المعدنية المقعنسسة التي كان يرسب من خمرها المقتول بالماء شيء أشبه بالطباشير ذو لون بنفسجي وأضف إلى ابتذال الصحون جفاء الخدم الذين كانوا يغمسون أصابعهم الفظيعة في المرق والصبغ.

وكان في أثناء الطعام يجلس أحد الطلبة على كرسي في وسط القاعة ويلثلث[7] في بعض

---

(١) الشهادة المسمّاة بالبكالورية هي المرحلة الأولى لطلاّب الجامعات ومتى حازها الطالب انفتحت أمامه أبواب المدارس العليا التي يبغى فيها الإخصاء.

(٢) الشمأزيزة: الرائحة التي يشمئزّ منها الإنسان.

(٣) بالضمّ مأوى البهائم وهو من العاميّ الفصيح، والعامّة تفتح الميم.

(٤) لقست نفسه عن الشيء: خبثت.

(٥) دهقن الطعام: ألانه، عن الأصمعي.

(٦) سرهد الصبي وسرهفه: بمعنى أحسن غذاءه.

(٧) لثلث الكلام: لم يبيّنه أو تردّد فيه، وفي الأصل الإفرنسي ânonner.

الكتب الدينية: «رولين»[1] أو حياة القدّيسين. ومعلوم أنَّ الإنسان لا يحسن هضم غير ما يستطيبه من الطعام فلهذا يخال لي أنَّ بلع تلك القراءات الدينية مع ذلك الطعام الخشن كان ذا عمل كبير في قلّة عقيدتي. وما قدرت طول حياتي أن أنسى إساءة أولئك المعلّمين المغترّين الذين أرادوا أن يذهبوا سرور والد بابنه.

وهنا جفا صوت أناتول فرانس وزمجر قائلاً:

ـ بعد انتخابي عضوًا في الأكادمي بقليل بينما كنت مجتازًا ساحة المرزح الفرنسوي أقبل عليّ إكليريكي طاعن في السنّ باسطًا يديه، وقال لي بصوت مرتعش «اسمح لي أن أهنّيك يا ولدي العزيز» وأراد أن يعانقني فأبعدته عنّي بغلظة. وهو هو ذلك الذي في حداثتي لم يجدني صالحًا إلاّ لخسيس المهن. فلم أملك نفسي إن صحت به: «أَوْلى لك يا نذل».

التلميذ الذي به صرع

كنت أكتشف هذه الحقيقة من الصغر وهي أنَّ الفضيلة لا تكافأ لكونها فضيلة وأنَّ الرذيلة لا تعاقب لكونها رذيلة فالمكافأة والمجازاة تقعان علينا في المدرسة وفي سائر أدوار الحياة كما يقع البرد في مارس. وليس ذوو القلوب الطاهرة هم الذين ينجون من شآبيب المطر ولكن الذين هم متسلّحون بالمظالّ. أمّا في مدرسة ستانسلاس فإنّ مظلّتي كانت الثبات ورباطة الجأش فقد كنت لا أبالي أساتذتي كما كانوا هم لا يهتمّون بي.

وكنت جالسًا على طرف المقعد وبجانبي طالب ضئيل صغير الجسم في حدة الفأر وحركات القرود. ففي أحد الأيام حذفني بمسطرته فسقطت محفظة أوراقي فانحنيت لأتناولها فسمعت صوت صرصر الغضب من فوق رأسي «أناتول، تيبو، أنت ممنوع من النزهة يوم الخميس» فأشرق عليّ بغتةً أنَّ نجاتي لا تكون إلاّ بزيادة الطين بلّة. فبدلاً من أن ألتقط محفظتي قذفت بالمحبرة والمقلمة والكتبُ والمسطرة... وسقطّت أنا نفسي غائصًا في الحبر. وأصابني سكات. فأسرعوا إليّ وفتحوا النوافذ وفركوا لي يديَّ وقالوا «انظروا إلى صفرة وجهه» وبعد أن كان قد حلَّ عليّ الغضب حلّت مكانه الرحمة. وذهبوا بي إلى محلّ المرضى وسقوني منعشًا ثمَّ أرسلوني إلى أهلي وأصحبوني بكتاب يقولون لهم فيه، يجب أن يدعوني أستريح في البيت أيامًا، ومن ذلك الوقت ارتفعت عنّي التأديبات وظنّوا بي استعدادًا لمرض الصرع.

---

[1] رولين (Rollin)، مؤرّخ إفرنسي، كان رئيسًا للجامعة وله تاريخ للرومانيين، (١٦٦١ ـ ١٧٤١).

لذة الألم

كنت مرّة في جلسة قاموس اللغة وكان يومًا قمطريرًا زمهريًا فجلست أنا و"بورجه"[١] إلى جانب الموقد نصطلي. وكان وجهه كئيبًا ترهقه غبرة، فقلت له:

ـ ماذا بك يا بورجه، فإنّني أراك ملتاثًا؟

ـ كلاّ، فإنّني ولله الحمد بخير ولكنّي حضرت نزع فلان... فكان شيئًا مفتّتًا للأكباد. قد تألّم آلام الذي طحنه الدولاب. ولم أشاهد في عمري مَن عُذّب عذابه، فكأنَّ الروح كانت تأبى إن تُفصل من الجسد. فيا لها من مصارعة! إلاّ أنني أعود فأقول: هو خيرٌ له.

ـ كيف هو خيرٌ له؟

ـ نعم، هو خيرٌ لنفسه. فإنَّ حياته كما تعلم لم تكن مثالاً للعفّة والطهر. وكان ينقاد كثيرًا إلى شهوة البدن وثورة الدم فأنعم الله عليه باحتضار شديد العذاب تمحيصًا لذنوبه. فمات وقد انتدح له أن يندم، وإنّني لأغبطه على هذه الميتة الزؤام[٢].

وبينما بورجه يقول ذلك كان يخلد إلى الموقد ويدغل[٣] في دائرة عبَدَة النار. ونعله كاد يكون من جملة الحطب. وهو يتلو علينا عظة في لذاذة الأوجاع وحلاوة الأشجان، ويتمثّل بقول القدّيسة تيريزة "الألم أو الموت" فلم أستطع صبرًا وقدعته[٤] في وسط خطبته على فضيلة الصبر وضربت على كتفه قائلاً: "بورجه، خذ حذرك فقد بقيت تشيد بفضائل العذاب إلى أن صرت من حرارتك لا تحسّ بكون نعلك يحترق".

هل أنقذ "رينيه" الكنائس الكاتدرائية؟

على أنَّ هداية الفيكونت[٥] لم تخلُ من فائدة، وموت السيِّدة والدته كان منتَجًا فعلى

(١) بول بورجه (Paul Bourget): من كتّاب فرانسة المعدودين ومن أعضاء الأكادمي، أكان أناتول فرانس في الآخر يستثقل إنشاءه ولم يكونا متوائمين، إلاّ أنه لمّا مات فرانس وأبّنته فرانسة بأجمعها تحدّث بورجه إلى جريدة "البتي بارزيان" بالكلمات الآتية:
"كنّا رفيقَي صبا أنا وفرانس ثمَّ إنَّ السياسة "شيطان الساعة الخامسة" فرّقت بيننا فوقف عن انتياب الأكادمي حيث كانت موازرته في تأليف معجم اللغة ذات قيمة كبيرة. وإنّي أحفظ منه تذكارًا: صورة فوتوغرافية له وهو في سنّ الثلاثين سنة وقد كتب تحتها "إلى شاعري بول بورجه"، كان ذا فكرة نادرة وحسّ متناهٍ في اللطف".

(٢) الموت الزؤام: الكريه، وفي الأصل Mort atroce.

(٣) دخل شيئًا فشيئًا، وفي الأصل Insinuer.

(٤) قدعته: كففته، وفي الأصل Je l'ai arrêté.

(٥) يشير إلى شاتوبريان.

فرض أنّ رينيه[1] لم يخلّص نفسه فقد خلّص بعض كنائس قوطية. لقد غلا الناس كثيرًا في وصف تخريب الثوّار، والحقّ أنّ هذه سنة البشر فكلّ أمّة استبدلت بحكومتها تفعل فعل أولاد المدارس قبَيل العطلة فتحطّم كلّ شيء. ولا شكّ أنّ ذوبان الثورة حطّموا كثيرًا ونقضوا كثيرًا ونثلوا حتّى قبور ملوكنا، وعملوا ما عمله الهوغنوط[2]. وقد روى "مونتلوك"[3] قصّة عن مخرّب بروتستانتي فيها بلاغ تامّ فقد كان جاثمًا في رواق إحدى الكنائس يمثل بتماثيل القدّيسين ويضرب أعناق شخوص مريم العذراء اللطيفة التي كأزاهير الزنبق. وكانت بيده مطرقة فحطّم بها في طرفة عين ما رجّبته القرون والأجيال. فناداه ضابط من تحت: "أنزل فقد كفى" وصوّب نحوه بندقيّته ليخوّفه. فكان هذا الفَدْم يقول له "دعني أكسر واحدة أيضًا" وكان التخريب الثوري يسيرًا بجانب تخريب "الغاليكانيين"[4] و"الجانسينيست"[5] في الأدوار الغابرة، بل إنّ هؤلاء المتورّعين ضارعوا البروتستانت في هدم الأبنية القوطية التي كانوا يشنأونها أشدّ الشنان. فكانت لفظة "قوطي" عندهم مرادفة للفظة "بربري" حتّى إنّ جان دارك في القرن السابع عشر لم تكن بمقام التشريف والإجلال لغلبة الرأي بكونها قوطية، وإنّ ڤولتير نفسه هزأ بهذه العذراء في أبيات قالها ولم يكبّر هذا الأمر أحد.

وذكر "لابرويار" في كتابه "الأخلاق" ما يأتي: "جاروا تمامًا عن الأسلوب القوطي في بناء القصور والبيع"، ولم يقفوا عند حدّ العدول عنه ببناء الجديد، بل صاروا ينقّحون القديم على الوجه الأصولي. أنظر إلى مقدّم الكنائس التي مثل سان جرفه... وأخذوا يرفعون من كتب الديانة الأساطير التي كانت فيها ويستبدلون الشعر الڤيرجيلي المنقّح بالنثر الباقي من القرون الوسطى. وكان السكّير "سانتويل"[6] يقطّع أهازيج في مدح القدّيس "بنينيُهْ"[7]، شفيع

(١) رينيه (René): هو اسم شاتوبريان.

(٢) Huguenots: لقب البروتستانت الفرنسيين كلمة محرّفة عن الكلمة الألمانية idgenossen، ومعناها المتحالفون بموجب يمين.

(٣) مونتلوك (Montluc)، ضابط إفرنسي باسل، اشتهر بقسوته نحو البروتستانت وكتب تأليفًا اسمه Commentaires أي مذكّرات تاريخية، (١٥٠١ ـ ١٥٧٧).

(٤) Gallicans أي المنسوبون إلى مذهب الغاليكانيسم وهو ما ادّعاه بعض أحبار الكنيسة الفرنسوية من الحقوق والتصرّفات بإزاء بابا رومة فإنّ هؤلاء ومنهم بوسويه نسر "مو" زعموا أنّ العصمة لم تكن لذات البابا، بل لمجموع رجال الكنيسة تحت زعامته. وقالوا بوجوب طاعة المجامع العليا وتنفيذ القوانين المقدّسة وفصلوا بين سلطتَي الدين والدنيا ووقع إعلانهم هذا سنة ١٦٨٢ ونشأ عن ذلك خلاف بين الفاتيكان وملوك فرانسة. ولكن استقلال الحكومة الفرنسوية تجاه الفاتيكان لم يتمّ إلاّ في عهد الجمهورية. أمّا لفظة غاليكانيسم فمشتقّة من "الغال" اسم فرانسة القديم.

(٥) تقدّم ذكره هذه النحلة Jansénistes ولاصة مقالتها تضيق دائرة الجزء الاختياري في الإنسان، وكان منبع هذه الدعوة دير "بور رويال" واشتدّ في الدفاع عنها من أعاظم العلماء باسكال وأرنولد ولكن البابا أصدر عليها الحكم وناهضها الجزويت وانتهى الأمر بإغلاق باب هذا الدير في زمان لويس الرابع عشر. وأمّا لفظة جانسينيست فهي مشتقّة من جانسينيوس وهو أسقف هولندي ذهب هذا المذهب زاعمًا أنه استنبطه من أقوال القدّيس أغسطينوس. ويقال إنّه لا يزال في هولندة كنيسة صغيرة جانسينية لها نزر من التبع.

(٦) سانتويل (Santeul)، شاعر لاتيني اللغة إفرنسي النسب، له أهازيج دينية، ولد في باريز سنة ١٦٣٠ ومات سنة ١٦٩٧.

(٧) بنينيُهْ (Bégnigne)، قدّيس كان في بلاد بورغونية من فرانسة ويسمّونه شهيدًا لأنه قُتل في سنة ١٧٩.

"بوسويه"، ومن جهة أخرى ينظم شعرًا ليحفر على قبر كلبة إحدى الأميرات التي ماتت - الكلبة لا الأميرة - على أثر تخمة. وما زالوا على هذه الحال إلى الثورة. فلولا الثورة لم يبقَ عندنا كنيسة إلاّ وقد أُديرت هندستها على الطراز الجزويتي. وقد وجدت صورة متروكة عن "بتي رادل"[١] عليها كتابة فجيعة مذكور فيها "هدم كنيسة قوطية بواسطة النار في أقلّ من عشر دقائق".

ونظرًا لفهم شاتوبريان روح النصرانية، فقد عُنِيَ بحفظ كثير من معاهدنا الدينية القوطية من الدثور. وهذا أعظم ما قدّمه بين يدي مجده. وكذلك "روبسبيير"[٢]. نعم، روبسبيير هذا مع العيد الذي احتفل به للكائن الأسمى فإنَّه لا يجوز أن نغفل عن كون روبسبيير ذا فطرة دينية وإنَّه في سنّ الخامسة العاشرة أو العشرين نال الجائزة على قصيدة مدح بها مريم العذراء، ثمَّ بعد ذلك استحقّ الجائزة على خطبة في إلغاء العقوبة بالقتل. ثمَّ إنَّه لمّا ذهب بذلك الاحتفال العظيم مرتديًا ثوبه الأزرق وحاملاً الأزاهير والسنابل فأحرق تمثال الإلحاد في قصر التويلري[٣] كان القسوس يزيطون فرحًا قائلين: "الحمد لله ها نحن أولاء قاربْنا الرجوع إلى الشعائر الدينية. فالكائن الأعلى سيشقّ الباب ليسوع ومريم، وستعود الأيام السعيدة".

من أين جاء الڤيكونت هذا الميل إلى القوطي؟ أظنّه من إنكلترة التي كان هاجر إليها. وكان ڤولتير قد أدخل عندنا ذكر شكسبير وكانت روايته هامليت تمثّل في مرازحنا. وحصل للناس ولوع بنمط الحدائق الإنكليزية بما فيها من الأخربة الأثرية. وكان الطليان قد علّمونا في الحدائق عمل الكهوف والغيران. وسرت روح تمثيل الآثار الدينية إلى المرازح. فبمجرّد ما أُطلقت الحرّية بسقوط الباستيل[٤] انهال الممثّلون على القصص الدينية لِما فيها من الزخرف ومن الملبس المبرقش والطراز المفوَّف فكانت بداءة حرّية المرزح هي بالقسوس والرهبان. وبينما كانوا يغلقون الكنائس كانوا يقلّدون الرسوم الدينية في الملاهي.

فقبل ظهور كتاب "نبوغ النصرانية" لشاتوبريان كان علماء فنّ التمثيل نظروا إلى ما في الهيئة الدينية ومظاهرها من قابليّة التصوير والتمثيل.

---

(١) بتي رادل (Petit Radel)، أثري إفرنسي من أهل القرن السابع.

(٢) ماكسيميليان روبسبير (Robespierre)، ولد سنة ١٧٥٨ في آراس (Arras) من شمالي فرنسة، وقبل شبوب الثورة الفرنسوية كان محاميًا. فلمّا حصل الانقلاب دخل في جمعيّة السلام العامّ وصار العامل الأعظم فيها وغلب نفوذه على نفوذ زميلَيه الشهيرين دانتون (Danton) وهيبرت (Hebert) فتمكّن من أخذ الحكم بقتلهما وقتل كثيرين ثمَّ جاءت النوبة إليه كما هو الشأن في الانقلابات أكثر الأحيان فقُتل سنة ١٧٩٤، وهو الذي أعاد شيئًا من مراسم الدين إلى فرنسة وسمّاها بعبادة "الكائن الأعلى".

(٣) قصر في باريز يرجع تاريخ بنائه إلى عام ١٥٦٤، كان بلاَطًا لملوك فرنسة.

(٤) حصن في باريز مبدأ بنائه سنة ١٣٧٠ تحوّل فيما بعد سجنًا للحكومة. فلمّا وقعت الثورة سنة ١٧٨٩ كان أول ما فكّر به الشعب هدم هذا الديماس الذي كان رمزًا للسلطة المطلقة. وفي الغالب إذا وقعت ثورة في بلد فأول ما يقصد الثوّار اقتحام السجون وإطلاق مَن فيها سواء كان حبسهم بحقّ أو بغير حقّ. ولمّا كان هدم الباستيل في ١٤ تمّوز (يوليو) فقد صار هذا اليوم عيدًا للجمهورية.

لمّا كنت في العشرين من عمري كنت من أنصار الجمهورية، نظير سائر أترابي خلافًا لرأي والدي. فكنّا نتتبّع عورات الإمبراطورية. وكنت أنظم تحت عنوان "لعنات فاروس"[1] أشعارًا في "جريدة القوافي"[2] إلى أن كادت تلك الجريدة المسكينة تتشقّق من هذا الموضوع. وكنّا نحضر دروس المسيو "بوليه"[3] فكان هذا بحجّة سرد تاريخ "طيباريوس"[4] أو "جرمانيكوس"[5] ينحت أثلة الإمبراطورية الحرّة فـ"نيرون"[6] و"طيباريوس" و"كاليغولا"[7] كانوا رموزًا عن "نابليون الثالث"[8].

(١) فاروس (Varus أو Varrus)، جنرال روماني، كان من قوّاد الإمبراطور أغسطس قيصر، استدرجه أرمينيوس أو هرمان، زعيم الجرمانيين، إلى كمين اندفق عليه فأفنى ثلاثة جيوش بتمامها من العساكر الرومانية وذلك سنة ٩ بعد المسيح وفت هذا الخطب في عضد الرومان واستولى الأرق ليالي طوالاً على أغسطس فكان ينادي: فاروس. فاروس. أين ذهبت بجيوشي.

(٢) Gazette Rimée.

(٣) (Beulé): لعلّه شارل أرنست بوليه الأثري الإفرنسي الذي صار وزيرًا للمعارف العمومية سنة ١٨٧٣ ومات سنة ١٨٧٤.

(٤) طيباريوس (Tibére)، إمبراطور روماني، تبنّاه أغسطس قيصر في صغره وربّاه وولاّه عهده، وكان حكيمًا حازمًا إلاّ أنه في آخر أمره انقاد إلى الوساوس فساء خلقه وكثر عسفه.

(٥) جرمانيكوس (Germanicus)، قائد روماني من عائلة أغسطس قيصر، كان شجاعًا مستقيم السيرة، تغلّب على هرمان الجرماني واعتبط شابًا سنة ١٩ للميلاد.

(٦) نيرون (Néron): مضرب الأمثال في الظلم والغشم وإزهاق النفوس. هو في أوربة كالحجّاج بن يوسف عند العرب. كان أبوه رجلاً يقال له دوميتيوس، وإنّما تبنّاه الإمبراطور كلوديوس وأورثه الملك. وكان كلوديوس ربيب نيرون (الربيب: زوج الأمّ لها ولد من غيره) وذلك أنَّ أمّ نيرون كانت أغريبين (Agrippine)، ابنة أغريبين، ابنة أغريبا، ابنة أغسطس قيصر، وكان أبو أغريبين الثانية جرمانيكوس. وكان مولدها بكولونية من ألمانية وتزوّجت ثلاث مرّات آخرها بالإمبراطور كلوديوس عمّها. وبسببها هي اتّخذ كلوديوس ابنها نيرون ولدًا وولاّه عهده. فلم تصبر هي إلى وفاة زوجها، بل أماتته بالسمّ، تعجّلاً لنصب نيرون على عرش السلطنة. ولمّا تولّى نيرون الأمر وجد سيطرتها ثقيلة فأحبّ أن يتخلّص منها أولاً بإغراقها في البحر بحيلة مدبّرة. فلم تنجح تلك الحيلة فأمر أحد الضبّاط بقتلها، فلمّا جاء ليقتلها قالت له: "ابقر بطني" كأنها تريد عقاب ذلك البطن الذي حمل ذلك الوحش الضاري. وطابخ السمّ آكله. تولّى نيرون من ٥٤ إلى ٦٨ ب. م.

(٧) كاليغولا (Caligula) من نمط نيرون، تولّى الإمبراطورية من سنة ٣٧ إلى سنة ٤١ بعد المسيح، وهو ابن جرمانيكوس من زوجته أغريبين السالفة الذكر، وكان ظمآن إلى الدماء لا يرويه إلاّ سفكها ونُقل عنه أنه يودّ لو لم يبقَ في الشعب الروماني إلاّ رأس واحد حتّى يقطعه. وكان يقول لا أبالي أحبّني الناس أم أبغضوني بشرط أن يخافوني.

(٨) ابن أخي نابليون الكبير، أبوه لويس بونابارت، ملك هولاندة. ولد سنة ١٨٠٨ حاول في أيام شبابه الانقاض على الملك لويس فيليب فقُبض عليه واعتُقل مدّة إلى أن أُفلت من السجن فذهب إلى بلجيكا وبقي فيها إلى سنة ١٨٤٨ التي ثارت فيها الثورة على لويس فيليب فدخل إلى فرانسة وانتُخب نائبًا عن الأمّة، وفي ١٠ ديسمبر من تلك السنة انتُخب رئيسًا للجمهورية وأقسم يمين الأمانة للقانون الأساسي وبقي نحو ثلاث سنوات يتأهّب لقلب الجمهورية ويأخذ للسلطنة أخذها إلى أن صرّح ذات نفسه في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ فاعتقل رؤساء الحزبَين الجمهوري والملكي الشرعي وقمع ما بدا من نزوات الشعب لمنعه عن الاستبداد بالأمر وحلّ المجلس النيابي واستفتى الأمّة في مصير الأمور فافتته برئاسة الجمهورية إلى مدّة ١٠ سنوات ثمَّ في السنة التالية نادى بنفسه إمبراطورًا بموجب استفتاء آخر. وقد قسّم المؤرّخون ملكه إلى ثلاثة أدوار ففي الدور الأول كان رئيسًا للجمهورية، ومن سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٦٠ كان حكمه مطلقًا مستعينًا على ذلك بقانون الأمن العامّ الذي يشبه قانون "تقرير سكون" في الآونة الحاضرة في الجمهورية التركية. ومن ١٨٦٠ إلى ١٨٦٧ أدخل بعض الإصلاحات في الإدارة ونفّس من خناق الأمّة بعض الشيء وسمّي هذا الدور بدور الإمبراطورية الحرّة الذي أشار إليه أناتول فرانس. وكانت حروب نابليون الثالث كثيرة إرثًا عن عمّه منها: حرب القريم وحرب الصين وحرب إيطالية وحرب المكسيك ثمَّ حرب بروسية التي ذهب فيها ملكه. وكان أسره في سيدان في ١ سبتمبر ١٩٧٠ وبقي أسيرًا مدّة ثمَّ أُطلق سراحه، ومات سنة ١٨٧٣ بقرب لندرة، وبعد سقوطه أعلن الفرنسيس الجمهورية وردّوا الأمر إلى حافرته.

وكان يتكلّم أيضًا على "بوبي "[١] و"ميسالين "[٢] والإمبراطورة "أوجيني "[٣] وعلى ملاهي "كابري "[٤] واجتماعات "كومبيانيه "[٥] و"فونتانبلو "[٦].

فكنّا نصفّق عند كلّ كلمة. وكان يظهر لنا بوليه هذا شيئًا مذكورًا إلاّ أنه بعد سقوط الإمبراطورية رجع إلى الوراء وعاد كالعرجون القديم. ومن الناس من هذا شأنهم إذا ثار غبار الفتنة كانوا أساطين فإذا انقضى أمرها عادوا أضعف من مروحة. وقد كنت ألقى المسيو بوليه في أثناء الزيارات، فكان يخرج ومعه امرأته وهي المثل الأقصى في الدمامة وفي النهم إلى الطعام حتّى إنّ الناس أطلقوا عليها من شدّة رُغْبها اسم "نمس الموائد".

مديح مار لويس [٧]

إنّنا أصبحنا بعد كلّ هذه الانقلابات لا نقدر أن نفقه كنه ما كان الملك في نظر آبائنا. وقد

---

(١) بوبي (Popée): امرأة نيرون رفسها برجله فقتلها (٦٥ ب. م.).

(٢) ميسالين (Messaline): امرأة الإمبراطور كلوديوس ضُرب المثل بفجورها وانتهت حياتها بالقتل سنة ٤٨ ب. م.

(٣) أوجيني(Eugénie): امرأة نابليون الثالث، إسبانيولية مولودة في غرناطة سنة ١٨٢٥، لعبت دورًا مهمًّا في سياسة بعلها وكانت لها يد في تأريث نار الحرب مع بروسية. وقد أشار إليها أحمد فارس الشدياق في قصيدته التي يذكر فيها هذه الحرب المشؤومة كانت على فرانسة، فقال:

وقالت إلى برلين يا جندي انفروا	فتلك التي قد كدّرت صفوا حوالي
وتلك التي قد زاحمتني على العلى	ولم تك قبل اليوم تخطر بالبال
فلي قيصرٌ قرم عنيدٌ تهابُه	جميع ملوك الأرض هيبة رئبال
وقد ناب عنه في الإمارة زوجُه	ومعها رجالٌ من ذوي الحدس والخال

(٤) كابري (Capri): جزيرة في خليج نابولي، زجّى فيها الإمبراطور طيباريوس بقيّة أيامه وأرخى العنان لأهوائه وشهواته حتّى صارت لفظة كابري عنوانًا على الخلاعة والتهتّك.

(٥) كومبيانيه (Compiegne): قصر في "الواز" (بناه لويس الخامس عشر، وزاد فيه نابوليون الأول وبنى فيه بماري لويز النمسوية، وتزوّج أيضًا هناك ليوبوليد، ملك بلجيكا، بابنة لويس فيليب، وعُقدت بهذا القصر معاهدات وله مشاهد كثيرة).

(٦) فونتانبلو (Fontainebleau): قصر بديع يحف به غابة عظيمة فينانة السرح. بنى هذا القصر فرانسيس الأول وفيه تخلّى عن الملك نابوليون بونابارت عام ١٨١٤.

(٧) أو لويس التاسع، ابن لويس الثامن، ملك فرنسة، أمّه بلانش القشّالية، ولد سنة ١٢١٥ وصعد على العرش سنة ١٢٢٦ وملك ٥٤ سنة كان في أوائلها بكفالة والدته التي أحسنت السياسة وقمعت ثورات بعض الأمراء. ولمّا بلغ لويس أشدّه زحف إليه الإنكليز بممالأة بعض هؤلاء فظفر بهم في واقعة تايلبورغ وواقعة سانت ولمّا بلغه أنّ الدولة الصليبية في الشرق أوشكت أن تنهار أعمل في غزو الإسلام فجرد جيشًا عرمرمًا بالأساطيل وأناخ بدمياط في سنة ١٢٤٩ قاصدًا القضاء على المملكة المصرية إلاّ أنه انكشف في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ ووقع أسيرًا. ثمّ فدا نفسه وانحاش إلى فلسطين ولبث في الشرق سنتين ولم يعد إلى فرنسة حتّى بلغه وفاة أمّه التي كان باله مستريحًا في غيابه ما بقيت هي نائبة عنه. ولمّا آب إلى وطنه شرع في إصلاح أمور المملكة واعتنى بإقامة القضاء على قواعد العدل وأسّس مجلسًا عدليًا كان هو أساس البرلمان في فرنسة وأفاض على رعيّته الخير والإحسان إلاّ أنه كان شديد التمسّك بالكنيسة لا تأخذه لومة لائم في استئصال أهل البدع الذين يقال لهم الهراطقة. وفي ليامه علت كلمة رجال الكنيسة واردادت امتيازاتهم وكان من شدّة غرامه بغزو الخارجين عن الكثلكة أنه لم يتُب من بعد واقعة المنصورة والأسر والذلّ فاعتزم غزو تونس وتعلّق أمله بتنصير ملكها الحفصي فأناخ بساحة تونس الخضراء سنة ١٢٧٠ فأُصيب بالطاعون ومات بقرطا جنة. ولأجل فضائله في نفسه ولكثرة مغازيه في بلاد الإسلام وإرهافه الحدّ في الهراطقة جعلته الكنيسة قدّيسًا. فليس في ملوك فرانسة قدّيس سواه مع تشدّد أكثرهم في أمر الدين. ولمّا كانت واقعة دمياط ممّا يتعلّق بتاريخنا فلا بأس أن نذكر ما قاله عنها صبح الأعشى اكتفاءً به عن غيره: =

مملكة الفرنج القديمة وقاعدتها مدينة (فرنجة) بالفاء والراء المهملة المفتوحتين وسكون النون وفتح الجيم وهاء في الآخر وقد تبدّل الجيم منها سينًا مهملة فيقال فرنسة ويقال لملكهم ريد إفرنس ومعناه ملك إفرنس. والعامّة تقول الفرنسيس. وهو الذي قصد ديار مصر وأخذ دمياط وأسره المسلمون ثمّ أطلقوه. قال: وإنّ الفرنج في سنة خمس عشرة وستّمائة وهو مستولون على سواحل الشام يومئذٍ سار منهم نحو عشرين ملكًا من عكّا وقصدوا دمياط في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، رحمه الله، وسار العادل من مصر إليهم فنزل مقابلهم وأقاموا على ذلك أربعة أشهر ومات العادل في أثناء ذلك. واستقرّ بعده في الملك ابنه الملك الكامل محمّد فوقع في عسكره اختلاف تشاغل به فهجم الفرنج دمياط وملكوها عنوةً في سنة ستّ عشرة وستّمائة. وطمعوا بذلك في مملكة الديار المصرية. فبنى الملك الكامل بلدةً عند مفرق النيل: الفرقة الذاهبة إلى دمياط والفرقة الذاهبة إلى أشموم طناح وسمّاها المنصورة ونزلها بعساكره ولم يزَل الأمر على ذلك إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وستّمائة وقد اشتدّ طمع الفرنج في الديار المصرية وتقدّموا عن دمياط إلى المنصورة وضايقوا المسلمين إلى أن سألهم الملك الكامل في الصلح على أن يكون لهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقيّة وجبلة وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من سواحل الشام خلا الكرك والشوبك. فأبوا إلاّ أن يكون لهم الكرك والشوبك أيضًا وأن يُعطوْا مع ذلك ثلثمائة ألف دينار في نظير ما خرّبوه من سور القدس. فأعمل المسلمون الحيلة في إرسال فرع من النيل في إبّان زيادته حال بين الفرنج وبين دمياط انقطع بسببه الميرة عنهم وأشرفوا على الهلاك وكان آخر أمرهم إن أعرضوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الأماكن المتقدّمة الذكر ونزلوا عن دمياط للمسلمين وتسلّمها الملك الكامل منهم. ثمّ عاد إلى مصر وبقيت دمياط بيد المسلمين إلى أن قصدها الفرنسيس في خمسين ألف مقاتل ومعه الأفونش، صاحب طليطلة في أيام الملك الصالح أيّوب بن الكامل محمَّد بن العادل أبي بكر بن أيّوب في سنة سبع وأربعين وستّمائة وهجم دمياط وملكها عنوة وسار الملك الصالح فنزل بالمنصورة وسار الفرنج فنزلوا مقابله ثمّ قصدوا دمياط فتبعهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فقتلوا نحو ثلاثين ألفًا وأُسر الفرنسيس (أي مار لويس) وحُبس بالمنصورة بدار الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء. ووكّل به الطواشي صبيح "المعظّمي" ومات الصالح في أثناء ذلك واستقرّ ابنه الملك المعظّم مكانه في الملك ثمّ قُتل عن قريب وفوّض الأمر إلى شجرة الدرّ، زوجة الملك الصالح، وقام بتدبير المملكة معها أيبك التركماني ثمّ تسلّم المسلمون دمياط من الفرنسيس وأطلقوه فسار إلى بلاده فيمَن بقي معه من جماعته. وفي ذلك يقول جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر:

قل للفرنسيس إذا جئتَهُ	مقال صدقٍ من قؤول نصوح
أتيت مصرًا تبتغي ملكها	تحسب أنَّ الزمر ياطبل ريح
وكلّ أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسين ألفًا لا ترى منهمُ	غير قتيلٍ أو أسيرٍ جريح
فقل لهم إن أضمروا عودةً	لأخذ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باقٍ والطواشي صبيح

انتهى. فهذا خبر مار لويس في واقعة دمياط التي قال فيها القائل:

يا يوم دمياط ما أبقيت من شرفٍ	لـمَن تقدّم إلاّ أنت هادمهُ

ولمّا مات مار لويس في غزوته لتونس قال أحد الشعراء:

لك فيها دار ابن لقمان قبرٌ	وطواشيك منكر ونكيرُ

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية ما ترجمته:

"حصل الاقتناع عند الصليبيين بأنَّ ملك البيت المقدّس لا يؤمن أمره إلاّ بإسقاط مصر حصن الإسلام. وبهذه النيّة أعملت الحملات بأقصى درجات الشدّة على دمياط، أولاها كانت بالاشتراك بين مملكة القدس وبيزنطية بإزاء صلاح الدين الذي كان استفحل أمره (٥٦٥ هجرية ـ ١١٩٩ ميلادية) والثانية قام بها ملك القدس جان دوبريان (٦١٥ إلى ٦١٨ هجرية و ١٢١٨ إلى ١٢٢١ ميلادية) على الملك العادل وبعد موته على الملك الكامل. وبهذه النوبة سقطت دمياط بعد معركة حامية الوطيس إلاّ أنَّ الكامل استرجعها وقد تكرّرت هذه التجربة المشؤومة على يد لويس التاسع في صليبيّته فكانت النتيجة هي هي (٦٤٧ إلى ٦٤٨ و ١٢٤٩ إلى ١٢٥٠).

وجاء في دائرة المعارف الجغرافية التاريخية للويس غريغوار في الطبعة التي نقّحها موريس فال ما يفيد أنَّ غزوة مار لويس إلى الشرق كانت بضدّ إرادة أمّه وحاشيته ولكنَّه آلى أن يقاتل عند قبر المسيح. وأنَّ جموعه توافت في جزيرة قبرس. وأنه في وقعة المنصورة قُتل أخوه روبرت وأنه أظهر وهو أسير يرسف في القيد ثباتًا عجيبًا. وأنه فدا نفسه على شرط الخروج من دمياط وأداء ثمانمائة ألف بيزنطي ذهب. وذهب إلى فلسطين فأقام أربع سنوات يُصلح أمور الصليبيين ويفكّ الأسارى ويحصّن المعاقل الباقية. قال، وقد قدّسه الناس في عصره وأطلق عليه البابا بونيفاس لقب قدّيس سنة ١٢٩٧.

استطفّ لنا الوقت أن نرى ملوكنا كرؤساء جمهورية وأن نعلم أنهم رجال مثلنا. ولكن لم يكن الظنّ كذلك في القرون الوسطى ولا في القرن السابع عشرنفسه. فالملك في ذلك العصر كان يمثّل الله في الأرض ومن الله رأسًا كان يتناول تاج ملكه. وكان منزّهًا عن بعض المقابح. ولمّا ألّف "الاب دو شوازي"[١] تاريخ كارلوس السادس سأله "دوق بورغونيه"[٢]: "كيف تصنع لتقول إنّه كان مختلّ الشعور" وكان الاب ڤولتيريّ المشرب فأجابه: "أقول إنّه كان مختلّ الشعور. إذ لا يتميّز الإنسان بعد موته إلاّ الفضيلة". وقد دُهش لهذا الجواب جميع معاصريه ودُهش هو نفسه من الجرأة التي أبداها. فليست جان دارك هي التي أنقذت فرانسة. أقول لك هذا الآن ونحن نتكلّم فردين: إنّ الذي أنقذ فرانسة هو مار لويس. فلو قلت هذا لصفّروا لي. ويصفّر لي الخربان: المتديّنون والأحرار. وما أشدّ تعصّب الأحرار إذا تعصّبوا. ومع هذا فهذه هي الحقيقة، لم تكن نجاة فرانسة سنة ١٤٣٠ على يد جان دارك، بل بأعجوبة الملك مار لويس.

فقد كان الشعب يحفظ ذكرى هذا الملك الحليم الكريم الذي كان يجلس للقضايا تحت سنديانة ڤنسان. وكان قد صار ملكًا في السماء أيضًا حيث الإنكليز ليس لهم ملك. ولا ينكر أنه كان لهم القدّيس جاورجيوس ولكن كان لنا مار ميخائيل. وكانت لنا السيِّدة مريم العذراء التي لها الكلمة التي لا ترد لدى ابنها الحبيب. وكانت السيِّدة لا تفتأ تنسلّ من السماء لتتنزّه في براري فرانسة فكانت تفرح بها الأودية والعيون. أفكان يُعقل أنها ترضى بهلاك المملكة التي لها فيها كلّ هذه المعابد؟ ثمّ إنّه يأتي بعدها في الدفاع عن الفرنسيس في البلاط الإلهي مار لويس الرحيم الذي مات في الحرب الصليبية. فكان إكليله يلمع حتّى فوق الجباه المنخفضة من أخلافه. وكانت العامّة تظنّ أنّ المعيشة بفرانسة أخفّ مؤونة وأنّ العدل أقوَم قسطاسًا فيها ممّا هو في غيرها. وليلة دخول جان دارك ظافرة إلى أورليان قال لها أحد رجال الدين كلمة تترجم ذاك الشعور العامّ: "ماذا تقولين يا عزيزتي أفيجب علينا أن نصير إنكليزًا؟".

مديح الملكيّة

هذه الجملة تطلعنا على أعماق قلوب آبائنا: فلم يكونوا يريدون أن يكونوا إنكليزًا. انتبه لهذا جيّدًا! ولم يكونوا يعرفون أين هي إنكلترة ولا ما إنكلترة؟ وكانوا يقولون إنّ الإنكليز له

---

(١) الاب دو شوازي (L'abbé de Choisy)، كاتب إفرنسي، له رسائل ومذكّرات، (١٦٤٤ ـ ١٧٢٤).
(٢) يشير إلى البرنس لويس، حفيد لويس الرابع عشر، والد لويس الخامس عشر. تلميذ فنيلون الذي من أجله ألّف كتاب "تليماك".

ذنب من خلف. على أنه ليس الذنب هذا هو الذي كان مصدر هذا الاقشعرار، بل لم يكن آباؤنا يريدون أن يكونوا إنكليزًا، بل كانوا يريدون البقاء إفرنسيًا. ففرانسة كانت عندهم أحسن البلاد، لأنَّ ملوكها كانوا أجوَد الملوك وأعدلهم وأرحمهم. ومَن شاء أن يفهم مبلغ هذا الحبّ الذي كان عند الشعب لملوكهم فعليه أن يقرأ "جوانفيل"[1]. فهذا المسكين كارلوس السابع ورث صبرةً واحدة كلّ ما تراكم في نفس الشعب من ولاء ووفاء من أعصر متطاولة. فكان يكفي أن يثبت نسبه لمار لويس حتّى يظفر بالإنكليز. ولم يكن يضيره سوى اسم "إيزابو الباڤارية"[2]. فجان دارك، في أول ملاقاة لها مع كارلوس السابع، قالت له: "أنت الوارث الحقيقي لتاج فرانسة وأنت ملك وابن الملك. فأنا مرسَلة إليك لأجل أن أسير بك إلى ريمس حيث يكفّر لك". ولقد أدهشت الخلق هذه الرسالة العجيبة وأنا من جملة مَن دُهش لها. فإنَّ فرانسة كانت على شفا جرف هار وعاصمتها وأجمل مقاطعاتها صارت إلى أيدي إمّا الإنكليز أو البورغونيين. وبدلاً من السير إلى باريز، بعد تخليص أورليان، كان الذهاب إلى ريمس من أجل حفلة دينية.

فأنت ترى أنَّ المهمّ عندهم كان التكفير للملك ودهنه بالزيت المقدّس الذي لا يفنى، الباقي في كنيسة ريمس من القدّيس "ريمي" الذي كفّر للملك "كلوڤيس"[3] فهذا الزيت الذي كان قد نزل من السماء لا يمكن أن يسيل على جبهة ملك ابن زنا. وإذا كانت الحفلة قد تمّت فذلك حتمًا دليل على كون كارلوس السابع هو من صُلب كارلوس المجنون.

وكانت هذه المكانة لبيت ملك فرانسة بسبب طيب أخلاق الملوك ومهارتهم السياسة ولا سيّما باختلاطهم بالضعفاء من الأمّة. فانظر كيف أنَّ راعية ضأن مخبولة مثل جان دارك، تمكّنت في أيام حرب ومعها اثنان مجهولان، من الدخول على الملك بدون أدنى صعوبة. وتخيّل أنَّ راعية كهذه، إذا أرادت أن تنبئ اليوم رئيس الجمهورية بما أوحى لها الملائكة بشأن فرانسة وهي ترعى نعاجها، فماذا كان يصيبها؟ كانت تذهب إلى القسّيس فيقول لها: أنت مجنونة. ويسبّها. وتلحّ عليها الأصوات السماوية فتذهب على قدميها إلى دار المديرية فلا تقدر أن تواجه المدير.

---

(١) مؤرّخ إفرنسي صحب الملك مار لويس.

(٢) ابنة إتيان الثاني، دوق بافيار، امرأة كارلوس السادس، ملك فرانسة، كفلت الملك مرارًا بسبب الجنون الذي طرأ على زوجها. ويقول الفرنسيس إنّها أسلمت البلاد للإنكليز وكانت في نفسها غير طاهرة السيرة.

(٣) كلوفيس (Clovis)، ملك الفرنج، ولد سنة ٤٦٦ وكان أبوه شيلدريق الأول وأمّه بازين، تغلّب على الرومانيين في واقعة "سواسون" وعلى الألمانيين في واقعة "تولبياك" وأوقع بالبورغونيين والوبزيقوط وجمع في يده ملك بلاد الغال كلّها. وهو أول مَن تنصّر من ملوك فرانسة، عمّده مار ريمي في "ريمس" أو "رينس" ولمّا بدأ الأحبار والقسّيسون بمراسم تنصيره، قال له المار المارّ الذكر: طاطئ رأسك أيّها السيكامبري الشامخ واعبد ما كنت قد أحرقت واحرق ما كنت قد عبدت. فذهبت هذه الجملة مثلاً. أمّا سيكامبر فهو اسم شعب جرماني قديم ينمى كلوفيس إليه.

أتعرف ماذا كان نصيب جان دارك لو ظهرت في هذه الأيام يا ولدي؟ الحبس أو المستشفى أو الماء البارد على رأسها.

شيء ملوكي

كان هذا البيت الملكي في فرنسة ملآن شفقةً وحنانًا ولهذا كَمْ كانت من فضيلة تنطوي تحت هذه الكلمة «ملك»: كان الناس إذا تأوّهوا من حادث همهموا قائلين: «لو كان الملك يعرف» فالشرّ لم يكن إلاّ من جهل الملك بما وقع أو من سوء الحاشية والغاشية أو من كونه لا يزال شابًّا كثيرًا أو من أنه صار شيخًا كبيرًا. وكان نعت «ملوكي» يُطلَق على أجوَد الأشياء فيقال لبقلة لذيذة الطعم «عشبة ملوكية» ويقال للورق الصقيل من الطبقة العالية «ورق ملوكي» ولقطعة رشيقة من الشعر «غناء ملوكي» ولا نزال نقول «لحم بقر أو أرانب على النسق الملوكي» وقد تكون الكلمة صادرة من فم رجل جمهوريّ النزعة، ولكن الأمثال لا تغيّر عن مواردها.

ولم يكونوا يعيبون على الملك غرامه بالنساء، بل بالعكس كانوا يرونه القدوة الصالحة في هذه السبيل وكانوا يشكرونه على حسن الانتخاب ويعذرونه على اللهو، إذ لا بدّ من شيء يستروح به ويصرف عنه هموم الملك. وما يحسن أن تكون القوس دائمًا موتّرة كما لا يخفى. فالملك كان يفكّر دائمًا في أمر رعيّته. يفكّر في الليل ويفكّر في النهار. وكان حديثه على مائدته مع أعيان المملكة إنَّما هو في شؤون الأمّة. ولم يكن ثمّة ملوك صالحون وملوك غير صالحين، بل الجميع كانوا جيادات. وإنَّما لك أن تقول إنَّ منهم مَن كانوا مجدودين ومنهم مَن كانوا عاثري الجدّ. فالمنحوسون منهم إنَّما يمحص الله ببلائهم ذنوبهم وذنوب الأمّة معهم. ولكن السماء كان لا بدّ لها من أن تعطف، لأنَّ فرانسة هي مفتاح دهليز النصرانية. والبابا القدّيس غريغوريوس يشهد بأنَّ فضل تاج فرانسة على سائر التيجان كفضل الملك على السوقة.

وكانت هذه المحبّة التي لملوكنا في رعيّتهم آتية من قبل حسن إدارتهم، فكانوا في الاختلافات قضاة صلح ومعدّلين ومقوّمين لما أناد. وفي الحقّ أنَّ أفضل ملوكنا أداروا أمور فرانسة كما يستغلّ الفلاّح الخبير مزرعته، فإنَّه يستثمر منها ما أمكنه لكنَّه يحرص على أن لا ينهك قوّة الأرض وعلى أن لا يفرّط في المواشي. ومعلوم أنَّ الفلاّح في سني الجدب قد يفدي المزرعة بحقل واحد منها. وهكذا ملوكنا فقد كانوا يتخلّون عن مقاطعة من المقاطعات إمّا على أثر دبرة أصابتهم أو على سبيل الحلوان لبنتٍ من بناتهم يزوّجونها. فقدسيّة التراب الفرنسوي التي سال من أجلها ما سال من الحبر منذ ١٨٧٠ أي هذا المبدأ الذي هو آخر المبادئ، لم يكن ولد يومئذٍ، بل أينما كان الملك كان الوطن.

ذوقه في الطبيعة

كان العالم عند أناتول فرانس عبارة عن متحف كبير. وكان لا يستفزّه شيء من مناظر الطبيعة ولا من الجبال ولا من الأنهار ولا من المواقع الجغرافية، وكان يسمّيها "هنات زوائد" وإذا ذُكر أمامه منظر بديع، قال: "لا تسترسلوا إلى الخيالات، فما ثمَّ إلاّ تراب وماء وسحاب".

يسأل الإنسان: من أيّة بلدة أنت؟

فيقول له: من ليون.

فيقول: قد حفظت ذكرى حسنة لمار يوحنّا الذي عندكم.

ثمَّ يأخذ يسرد ما رآه في المتحف فلا يخرم من الفهرست حرفًا. وكانت ذاكرته من الأعاجيب لكن في الأمور الفنّية وحدها. ولم يكن ينسى باعة الكتب العتيقة والآثار القديمة. أمّا إذا أراد الرجل الليوني أن يعدوه عن الآثار القديمة والقطع النفيسة إلى "الغيلوتيير"[1] مثلاً فلا يذكر شيئًا: وإذا سأله: في أيّ فندق نزل؟ لم يعرف. غاية ما يعرف أنه فندق في ساحة فيحاء أشبه بساحة "الكونكورد"[2]، بدون تماثيل، وأنه كان الطعام فيه سيّئًا. ويذكر مطعمًا كان يهنأ فيه بسمن الضفدع. ولم يكن يحفظ جيّدًا غير الأمور التاريخية. فقد أعمل الرحلة إلى خليج "جوان"، ليرى المكان الذي نزل منه نابليون إلى البرّ لكنَّه لم يلتفت لا إلى جزر القدّيسة "مرغريتّة" ولا إلى فرضة الآنتيب[3]. وإذا لم يكن في الموقع الطبيعي شيء من الصور أو الآثار الكتابية أو الحفرية لم يكن في نظره ذا قيمة. وكان يعرف بلدي ومسقط رأسي نيم[4]، ويعرف أنَّ في متحف نيم الضئيل صورة صغيرة من "برودون"[5] لم ينتبه لها أحد.

بحذاء مخدّة العمّة

لم أنهض من فراشي اليوم إلاّ وقد جاءتني هذه الطيّاشة تغرّد لي بصوتها الرخيم: "لا بدّ لي من أن أتركك يا هرّي الكبير لأنَّ لي عمّة في "أزنيير"[6] هي على فراش الموت".

(١) الغيلوتيير (Guillotière): ضاحية من ليون فيها معامل الصناعة.

(٢) الكونكورد (Concorde): ساحة شهيرة في باريز من آثار لويس الخامس عشر، وكان تمثاله فيها وكانت تُنسب إليه، فلمّا اشتعلت الثورة سمّوها ساحة الانقلاب وصلبوا فيها لويس السادس عشر وماري أنتوانت وكثيرًا ممَّن أخنى عليهم انقلاب الدولة.

(٣) مواقع على البحر المتوسّط من جنوبي فرانسة.

(٤) مدينة في جنوبي فرانسة استولى عليها العرب في القرون الوسطى كما تقدّم، وقد خرّبها شارل مارتل أبو شارلمان خوفًا من أن يعود إليها العرب.

(٥) برودون (Prud'hon)، مصوّر إفرنسي.

(٦) أزنيير (Asnièr): بلدة غير بعيدة عن باريز.

قالت هذا ثمَّ أخذت تنثر «الذَّرور»[١] على عوارضها وتمسح بالحمرة شفتيها وتتنهّد قائلة: آه ما أشقاني! إنَّ عمّتي هذه لو عرفتها أنت لأحببتها، لأنها امرأة جواد. وهي التي ربّتني. يهمّني أن أصل قبل فوات الوقت، يا ربّ! كيف يذهبون إلى أزنيير؟».

وبينما هي تراجع تذكرة ساعات القطار كانت دموعها سيولاً على خدودها أشبه بالحمِّصات[٢] الكبار. فأزلجت لها شيئًا من الدراهم في جيبها فأومضت لها ابتسامة خلال الزوبعة. ثمَّ قبّلتني بشفاهها المحمّرة وخرجت وهي تقول:

- «سأخبرك عمّا يكون من صحّة عمّتي» فدعوت الله بشفاء عمّة عرفت كلّ هذه المعرفة أن تربّي مثل هذه الفتاة.

عندما يحصل في أيديهن شيء من الدراهم كلّ هؤلاء البنات، يكون لهنَّ عمّات مريضات في هذه الأطراف في «ڤنسان»[٣] أو «شارنتون»[٤] أو «أيسي لامولينو»[٥] وتجدهنَّ هرعن إلى هناك ليقعدن بحذائهن ومعهن ورقة المائة فرنك يأخذنها لهنَّ كما يزقّ العصفور فرخه بفتيتة من الخبز. لا جرم أنَّ هذه المخلوقات مؤثّرات في القلب ومملوءات شعورًا.

ڤيرجيل خادم المنزل

كان مقتصدًا في نفقات منزله فهفاهًا[٦]، لا يعرف الإسراف إلاّ في دكّان الآثار العتيقة. وكان تقِنًا في تنضيد رياش المنزل والاستكثار من الماعون، حتّى لا يعرف أين يضعه فيهجس في صدره أنهم يسرقون متاعه. وهناك فاسمع تأوّهات «هارباغون»[٧] على سُفَيْطه العزيز. وكَمْ من مرّة كنت معه في دكّان الأشياء العتيقة أو عند بائع الصور المختومة وقال لي لدى رؤية إحدى القطع أو أحد الرسوم.

- «هذا مسروق من عندي».

- مَن سرقه يا أستاذ؟

---

(١) في الأصل Poudre.

(٢) الحمّص بالتشديد والكسر، وفي الأصل الفرنسي poischiches.

(٣) ڤنسان (Vincennes): بلدة من جوار السين فيها قصر كان يسكن فيه ملوك فرانسة.

(٤) شارنتون (Charenton): عن ملتقى السين والمارن، بلدة فيها بيمارستان للمجانين فلهذا يكثر دوران اسمها فيقولون هذا رجل من سكّان شارانتون وهذا ممَّن يليق به الذهاب إلى شارانتون لمَن يريدون أن ينبزوه بكونه مجنونًا أشبه بقولنا في بيروت ولبنان: هذا يليق به سكنى العصفورية إشارة إلى مصحّة المجانين التي بقرب الحازمية.

(٥) إيسي لا مولينو (Issy-les-Moulineaux): بلدة على السين.

(٦) الفهفاه الحسن: القيام على المال.

(٧) هارباغون (Harpagon)، شخص اخترعه موليير في إحدى رواياته الهزلية جعله المثل الأتمّ للشحّ.

ـ ڤيرجيل.

مَن هو ڤيرجيل هذا؟ أهو اسم مستعار؟ إنّه كان يحبّ أن يكسو الناس صفات وألقابًا مستغربة، وكان يسرد قصصًا وأساطير ويطبّقها على مَن يريد أن يجعله مسخرة[١] فإذا لحظ سامعه منه أنه يزرِّف أو يزخرف[٢]، ادّعى أنَّ ذلك كلام عامّ. أمَّا ڤيرجيل هذا فكان خادمًا عنده قبل أن جاءت جوزيفين إلى مغنى سعيد بزمن طويل وكان مثالاً لحسن الخدمة والسمسمة[٣] والتشمير والإخلاص. ولكنَّه كان يقول عنه: يدعو أصحابه للسمر عنده أحيانًا، فيطيلون ويأكلون الفحيماء[٤] ويشربون خمري وشرابي ويتصفّحون كتبي. فقد وجدت بعض نسخ مذهّبة ممزّقة بالأصابع وعليها نقاط من الخمر. فهذا ما كان يستحقّ مطر الكبريت أكثر من كلّ ما يصنع ڤيرجيل... وهؤلاء الذين كانوا يزورون ڤيرجيل لم يكونوا أبناء طبقة عالية فربّما سرقوا متاعي.

الرجوع إلى الآباء

قال:

ـ صادفت ذاك اليوم في رواق «الأوديون»[٥] المسيو «جول سوري»[٦]. وكنت أعهده دهريًّا ملحدًا ماديًا فوضويًّا وكان في مدرسة «كوليج دو فرانس»[٧] يشرح لنا أجزاء المخّ ويستلّ خيوط الدماغ أو كان يبرهن لنا على عدم وجود النفس. فهذه المرّة وجدته غير ما كان عليه. ولقد سرد لي خلاصة إيمانه وهي أنه لا يعتقد بالله لكنَّه شديد العبادة لمريم العذراء ولقدّيسي فرانسة، مثل القدّيسة «كلوتيلد» والقدّيس «لويس» و«جان دارك» و«ڤنسان دو پول». وهو لا يعتقد بالأسرار[٨] المقدّسة ولكنَّه يواظب على سماع القدّاس كلّ يوم ويشهد صلاة الكهنة بعد العصر ويوصي أن يُدفن على حسب الطقس الكاثوليكي ويرتاح كثيرًا إلى عظمة الاحتفالات

(١) كان آية في الحفظ وسعة الاطّلاع محشوًّا ذهنه نوادر ونكات وأخبارًا فلا يرى شيئًا أو شخصًا إلاّ تذكر له مثلاً من التاريخ.

(٢) زرّف في الحديث: زاد فيه، والأصل الفرنسي Engolivement.

(٣) الخفّة والسرعة.

(٤) الأكل ليلاً.

(٥) الأوديون (Odéon): في باريز ثاني المرزح الفرنسوي.

(٦) جول سوري (Jule Sory).

(٧) معهد علمي تأسّس في باريز سنة ١٥٣٠ بناه فرنسيس الأول ودروسه مفتوحة للجميع بدون اقتضاء الامتحان يقصد الطلبة حضور دروس هذا المعهد لإكمال معلوماتهم بعد التحصيل في المدارس الأخصّائية العالية.

(٨) Les Sacrements أي المعمودية والتثبيت وحضور المسيح في القربانة والتوبة والمسح بالزيت وهذه الأسرار الثلاثة الأخيرة هي ما يتزوّده الكاثوليكي قبيل الموت.

الكنسية. وهو يعلم أنَّ هذه الاحتفالات ليست من الإله الحقّ، ومن أجل ذلك هو يحبّها. فديانته هي اتّباع الأوّلين. لا ينشد العلم، بل الأساطير. يقول: «قضيت حياتي أحتُّ أزاهير الأساطير فكنت شقيًا. فها أنا ذا في آخر عمري اشتدّ بي الظمأ إلى الأساطير وصارت تتقزّز من العلم نفسي ويُغانُ[1] من الفنّ على قلبي. إنَّ نوّار الأساطير يُزهر إزهارًا عجيبًا، تتفتّق أكمامها من حيث لا يعلم أحد. نظير الحبّة التي يحملها الطائر فيلقيها، فقد يراها ضاربة نتشها[2] في جبهة هيكل. فإليّ بالأساطير والأقاصيص فإنَّ بي لهبانًا إليها.

وبينما هو يسرد هذه العقيدة الغريبة حسر عن رأسه فأبرز جمجمة لامعة الصلعة ساطعة الحمرة كأنّما خرجت من تحت ماء حميم. ثمَّ أخذ يرسم إشارة الصليب، لا إشارة الصليب التي يعملها أولاد المدارس، كأنها من وراء ظهورهم، بل «سوري» يصلّب اليوم يا عزيزي كما كانوا يصلّبون في أيام الشهداء. وكان جبينه موسومًا بسِمة العبادة وهو يقرع على بطنه قرعًا مؤلمًا وكنت تسمع بطنه يرنّ رنين طبل «باسكيّ»[3]. وكان يردّد هذه الكلمات: «لا أعتقد بالله وإنَّما أعتقد بالمسيح الذي يحبّ الفرنج[4]. فأنا أصنع صرحةً برحةً شعائر الكاثوليكيين لا سحر الحماقة الجمهورية. انظروا إلى هؤلاء المعاتيه كيف يضحكون! فأنا أقرأ الرقى وأبخِّر على هجنة هذه الحشوة بالطقوس التقليدية الدينية. ورسم صليبًا فوق صليب.

وأخبروني عن جول سوري هذا الذي كان جاحدًا فصار من أسطوانات الكنيسة، أنه يمضي أوقاته بعد الظهر في «سان سولبيس»[5] ويسكر بخمرة التأمّل أمام تمثال العذراء الذي هناك من عمل «بوشاردون»[6] وقد يغلب عليه النعاس من طول التأمّل، فيغفي ويبقى نائمًا إلى الساعة السادسة فيأتي الجُلاذيّ[7] ويوقظه، فسيتيقظ ويحكّ عينيه ويقول للجلاذيّ: «يا حبيبي متى كنت أتعبّد لمريم العذراء فلا أريد أن أحدًا يزعجني».

---

(١) ورد في الحديث: أنه ليُغان على قلبي حتّى استغفر الله.

(٢) النتش: أول ما يبدو من الزرع ويقال له الشطأ.

(٣) Tambour de Basque مثل عند الفرنسيس لأنه طبل له دائره أجراس. والباسك: أمّة في جنوبي فرنسة يقول لها العرب الباشكنس.

(٤) في الأصل Les Francs وهو ما عرّبه العرب بالفرنج.

(٥) سان سولبيس (Saint Sulpice): كنيسة في حارة سان جرمان بباريز.

(٦) بوشاردون (Bouchardon)، نحّات إفرنسي.

(٧) الجلاذيّ: خادم البيعة، ومثله الوافه.

قال لي في أحد الأيام:

ـ ينبغي لنا اليوم أن نسرع في الخروج من البيت لأننا مدعون للغداء عند المسيو... في «باسي»[(١)] وأنت مدعوٌّ معي فقد ألحّوا كثيرًا. فعند الساعة الحادية عشرة خرجنا نجري على الأقدام من مغنى سعيد إلى جسر ميرابو. وكان طول الطريق يتشكّى: «آه ما أثقل هذه الأكلة، فإنَّ هؤلاء الناس غلاظ والمسيو... هو هوغنوتي[(٢)]، بل هو بابا الهوغنوت، فأبوه أو جدّه كان نبيًا يوحي الله إليه. والطعام في غاية الجشوبة عند هؤلاء البروتستانتيين. شبارق[(٣)] من لحم البقر الغث على النسق الإنكليزي وبُقول مطبوخة بالماء. فلماذا نذهب إلى جماعة كهؤلاء نعذّب أنفسنا؟ فالحياة قصيرة وأَوْلى بنا أن ندخل إلى مطعم من هذه المطاعم التي ينتابها الحوذيّة فإنَّ هؤلاء خبيرون بالطعام، يستجيدونه لِما يشحذ من شهوتهم دوام السير في الخلاء، فكنّا نتغدّى غداءً لذًّا. لكن لسوء الحظّ وعدت بالذهاب إلى هؤلاء الجماعة».

وصلنا، فلمّا ضربنا بالجرس جاء الخادم مبطئًا مدهوشًا وأدخلنا قاعة استقبال مظلمة أسرع بفتح نوافذها. ولم يكن فيها شيء من الأزهار ولا من آلة الزينة. وكانت الطنافس مغطّاة بالوثائر[(٤)] والتصاوير مستورة بالجرائد. والثريّا كذلك عليها غطاء من نسيج شفّاف: فقعدنا نحو نصف ساعة في هذه القاعة التي تشمّ منها رائحة المكان المهجور. ثمَّ أقبلت سيِّدة المنزل وقد تزيّنت وقشرت[(٥)] بسرعة وظهر عليها أثر العجلة لأنَّ التجصيص كان ناقصًا. ثمَّ بُدِئ بالحديث فكان باردًا لا يعدو الصحّة والجوّ وما أشبه ذلك. وكان يتخلّل الكلام فترات طويلة من السكوت. وأخذ أناتول فرانس ينظر إلى الساعة ذات الرقاص فيجد الظهر قد غبر. فكان يتنهّد تنهُّد المزهوق[(٦)]: لا رائحة أصلاً للقصف. لا نسمع شيئًا من خشخشة السفّود ولا من قعقعة الصحون. ولكن نسمع جيّدًا قرقرة[(٧)] بطن صاحبة البيت. إذ كان بطنها العظيم يهدل هديل القُمريّ في شهر أيّار. وكانت حنجرة العلاّمة، عضو الأكادمي، تعطيه الجواب.

---

(١) Passy: من ضواحي باريز.

(٢) بروتستانتي.

(٣) قطع اللحم.

(٤) الوثيرة: ما تغطّى به الثياب ، والجمع وثائر، وفي الأصل الفرنسي Housse.

(٥) قشرت المرأة وجهها ليصفو لونها.

(٦) المضيَّق عليه.

(٧) في الأصل الفرنسي Borborygme.

وأخيرًا ألقت السيِّدة هذا السؤال:

ـ أتتغدّون عندنا؟

ـ إيه يا سيِّدتي ما جئنا إلى پاسي إلاّ من أجل ذلك. أما دعوتنا أنا وبروسون؟

ـ نعم، دعوناكم للخميس القادم. أمَّا اليوم فقد جئنا من سفر. وأنا منتظرة زوجي لنخرج معًا ونتغدّى في المطعم. فإن شئتم طعمنا وإيّاكم فنكون بغاية الحبور أن نحصل على مؤانستكم مرّتين.

ـ كلاّ، يا سيِّدتي. كلاّ، فإنَّني خجلان: وإنَّني أكثر الناس سهوًا. ولست في الحقيقة سهوان، بل مشدوهًا. وكلاهما يؤدّيان إلى منتهى واحد. ندعو أنفسنا إلى حيث نحن غير منتظرين! لا شكّ أنَّني الرجل الذي هو أحقّ الناس بأن يكون سخرة هذه الكورة. وداعًا يا سيِّدتي وتقبّلي عذري ومزيد احترامي.

ولمّا حصلنا خارجًا، قال لي:

ـ لا شكّ أننا مسخرة. ولكن أَوْلى منّا بالسخرية هؤلاء «المومیه»[1] الحائزون قصب السبق في البخل وقلّة الكَيس. دعونا إلى الغداء فأخطأنا في الحساب وجئنا قبل الموعد بثمانية أيام فلم نجد عندهم ما يأكلون. هذه باءةٌ تفتر لها أنشط العزائم. ماذا تقول في هذه العقيلة التي تزعم أنها باريزية ولا تقدر أن تهيّئ لقمة عجلان. وكان بحسبها أن تدعو بالهاتف[2] وأن تنفذ الخادم والجارية إلى الشواء والسقّاء واللبّان والجبّان. ولكن هؤلاء قوم مُقتِرون محترمون ممّن يكشطون ما على قشرة البيض[3]. ولقد كنّا مستحقّين ما لقيناه يا صاحبي، إذ لماذا نذهب إلى لئام كهؤلاء؟[4]. إنَّني أتخيّل لو وقعت هذه الواقعة مع أمّي، ماذا كانت فعلت تلك المرأة الساذجة التي هي من غمار الشعب؟ نعم، كانت في طرفة عين مدّت الخوان ووضعت على المائدة الصحاف التي عليها الأزهار. ثمَّ هيّأت الدجاجة المذهّبة والتوابل الموافقة للفصل وعجّة البيض... إلخ.

فلنصلّح الآن خطأنا: ومال أناتول فرانس إلى دكّان جدّاد[5] وتغدّينا هناك وأكل أكل

---

(١) المومیه (Momiers): اسم لفرقة من البروتستانت مخالفة لجماعتهم.

(٢) التليفون.

(٣) Tondeurs d'œufs.

(٤) قال المتنبي «وعداوة الشعراء بئس المقتنى».

(٥) بائع خمر.

الهِلاع[1] حزّة من لحم بقر بالملح الخشن مع القثاء وأرجل غنم مع معجون البيض واللوبيا الحمراء وبعد أن انتهى من الطعام، قال وهو يمسح سباله:

ـ هذا ما يجدّد لي الشباب عن أربعين سنة.

كبير وكامل

نقلت له مرّة عن خبث أو عن خفّة كلمة نقّاد قال في حقّه: «أناتول فرانس ليس بكاتب كبير وإنّما هو كاتب كامل»، فقال:

ـ هذا الجلف يتكهّن مثل أتان بلعام[2] فيخرج الحقّ من فمه بينما هو ينهق. أنا كاتب كامل ولست بكاتب كبير. كأنَّ كاملاً وكبيرًا لم يكونا شيئًا واحدًا. فما هو الكمال؟ هو اجتماع كلّ الصفات اللازمة بدون نقص. فإذا جمعت أنا كلّ هذه الصفات، فماذا يريدون منّي بعد هذا؟ الحقّ أنه هو دابّة كاملة. يتكلّم على الكمال كأنَّ الكمال ممّا يدخل تحت قياس. إنَّ معلّم الكتّاب هذا لا يعرف ماذا يقول، فإنّي إذا قلت: «راسين كاتب كبير فيكون مرادي أنه كبير بالقياس إلى آخرين كـ «برادون»[3] مثلاً. ولكن متى قيس «راسين» بـ «بوالو»[4] فهو كاتب لا غير. فكلّ من راسين وبوالو كاتب كامل. فلهذا أنا مسرور من نظم هذا السخيف إيّاي في عداد الكتّاب الكاملين.

ليس لي إلاّ نفسٌ واحدة

أتريد أن تعرف مسيحيًا صادقًا؟ هو الدوق دو ب... فإنّه كان لا يلين إذا وصلت المسئلة إلى الدين. وكان نظير ابراهيم[5] ونظير بولييكتوس[6] لا يتلكّأ أن يضحّي بامرأته وأولاده في سبيل الذهاب إلى السماء. وقد كانت الدوقة امرأته أعضلت ولادتها عدّة مرّات، حتّى رأى الطبيب من الواجب أن ينبّه فكره إلى الخطر، فقال له:

---

(١) مفرط في الأكل.

(٢) قصّة بلعام معروفة وهي أنَّ ملك مواب أرسله ليلعن بني إسرائيل فركب أتانًا وسار لملاقاتهم فبينما هو في الطريق تجلّى ملك من السماء بيده سيف أمام الأتان فنطقت وأخذت توبّخ راكبها على قسوته فاهتدى بلعام للحقّ وعاد فبارك بني إسرائيل بدلاً من أن يلعنهم.

(٣) برادون (Pradon)، شاعر إفرنسي معاصر لراسين، كان يقاوي راسين بدون قوّة ويطاوله على غير طائل.

(٤) بوالو (Boileau)، من أشهر شعراء الفرنسيس، ولد سنة ١٦٣٦ في باريز وتوفّي سنة ١٧١١. وكان بليغ النظم، لطيف النكتة، منسجم الأسلوب. امتاز بالنقد وهجو البلداء والثقلاء والمدّعين بما ليس فيهم وشدّد الوقيعة بكل مخالف للطبيعة منابذ للعقل القويم والذوق السليم. كان صديقًا لمعاصريه كبار الشعراء كرنايل وراسين ولافونتين وموليير.

(٥) صلوات الله عليه، قصّته في تقديم ابنه اسماعيل للضحيّة معروفة.

(٦) بوليكتوس (Polyeucte)، من قدّيسي صدر النصرانية يعدّونه من أكابر الشهداء.

يا حضرة الدوق يلزم أن تمسك فيما تعلّق بالواجبات الزوجية، لأنه قد يكون بذلك ذهاب الدوقة.

فنظر إليه الدوق بازدراء، وقال له:

يا حضرة السيِّد أنا كاثوليكي صادق، أفضّل أن أفقد امرأتي على أن أفقد نفسي. فإنَّ النساء كثيرات وأمَّا نفسي فليس لي غيرها.

وبعد ذلك بمدّة سمع الناس نعي الدوقة دو ب... على أثر وضع معضل.

الحرمة لمار بولس

ممكن ائتلاف الروح الدينية مع كثير من الأمور التي لا علاقة لها بما وراء الطبيعة، خلافًا لِما يُظنّ في الغالب. مثال ذلك أني أنا إذا أكلت فوق الشِّبَع وأفرطت من المآكل التي أستمرئها وهي لا تلائمني، كالسمك المملّح مثلاً، تحصل لي في الليل أزمات روحية. وبينما أنا لا نائم ولا قائم تلوح لي صورة الدنيا بشعة. ويعروني التوجّه نحو الله، كما يعروني التململ على الفراش. ولكنَّ قليلاً من ماء «فيشي»[1] أو بعض نقاط من النعناع تبدّد أكثر الأوقات هذا النوع من الدوار الروحي الذي أصيب به پاسكال وتعيد عليّ المنام والسكون. فانظر كيف لعقة من شراب أو سفّةً من كاربونات السودا تكفي لإسقاطي من معالي پاسكال إلى مماحكات «برجريه»[2]. «احفظيني أيّتها الطبيعة ممّا وراء الطبيعة»، هكذا كان يقول «نيوطن»[3] ومن أعرق الناس في رفض ما وراء الطبيعة «غوردون بينيت Gordon Bennett» بدون مراء. فإنَّه مثال «لتوركاريه»[4] إلاّ أنَّ هذا المراغم على الدنيا، متى شرب كأسًا من الشامبانيه، تحوّل إلهًا وصار واعظًا. صادفته مرّة في آخر مأدبة وقد ترنّح من السكر وبكت عيناه من الخمر وكان يردّد عليّ: «أرأيت يا مسيو فرانس، أرأيت أنه بالرغم من كلّ ما عندك من الذكاء، سلّم بأنه يوجد شيء من فوقنا. ها أنا ذا أقوله لك. أنا غوردون بينيت. تأمّل جيّدًا. هناك من فوق يوجد شيء».

والحقيقة أنَّ صورة الإله عنده كانت خاصّة به وهي صورة عريقة في البروتستانتية. وكان التمس منّي لأجل عدد الفصح التصويري من جريدة «نيويورك هرالد» قصّة مستطرّفة. فاتّفقت

---

(١) فيشي (Vichy): من بلاد فرانسة، مياهها المعدنية أشهر من أن تُذكر، تفيد في أمراض الكبد والقناة الهضمية.

(٢) برجريه (Bergeret) يشير إلى نفسه.

(٣) نيوطن (Isac Newton)، ولد نيوطن في فولستورب سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧، وهو الذي انتبه لمبدأ جاذبيّة الأجرام الفلكية ولقاعدة تحليل النور كما هو معلوم.

(٤) شخص في رواية لوساج (Le Sage) الهزلية يمثّل المرابي الجامع للثروة بأيّة طريقة كانت.

وإيّاه على ألف وخمسمائة فرنك. فقد كان سبط الكفّ في الأخذ والعطاء. فأرسلت إليه قصّة «غاليون» و«مار بولس»[١] وإذا بجريّ[٢] من قبل غوردون بينيت جاء وناولني حوالة مالية قائلاً:

ـ مسيو غوردن بينيت مبتهج جدًّا بالقصّة التي بعثت إليه بها ويجدها من أبدع ما يكون. وقد تقدّم إليّ أن أجيء إليك وأقول لك إنَّك ما أبدعت ولا مرّة هذا الإبداع كلّه. وهو سيطبعها ويصحبها الرسوم لأجله هو وحده، إذ تكون فخرًا لخزانة كتبه. إلاّ أنه يرجو منك أن تصنّف قصّة ثانية على العجلة، ينقدك ثمنها ألفًا وخمسمائة فرنك أيضًا، لأجل جريدة "نيويورك هرالد" وفي هذه الثانية يرجوك أن لا تذكر مار بولس بسوء. لأنَّ القرّاء الأميركيين لا يحبّون أن يذكر مار بولس بشيء من هذا. فاهزأ إن شئت بسائر الرسل: بمار يوسف، بالسيِّدة مريم، بالباباوات، بكلّ القدّيسين الذين في الفردوس ولكن نكِّب عن مار بولس، فإنَّ كلمةً بحقّه تفقدنا كثيرًا من المشتركين.

الحبّ الظالم

قال:

ـ يوجد شيء أشدّ مضاضةً من العداوة أو الاستخفاف وهو الحبّ الظالم الغاصب. فأنت تشكو من أيام حداثة بدون دلال وعهود صبا بدون إرشاد ولا تشجيع ولا تعلم ماذا تقول. أمَّا أنا فكان لي أشدّ الأمّهات حنانًا. فكانت تعبد ابنها أناتول الذي لم يكن لها غيره وتجد فيه ثمرة حياتها. وكان كلّ ما بي من صالح هو منها وما بي من نقائص هو، بدون حاجة إلى القول، من أبي. هذا المسكين كانت تحبّه كثيرًا هو أيضًا. لكنَّها كانت تزدريه أكثر. وكانت تبغيني أن أكون ماجدًا شهيرًا موسرًا موفّقًا، محلّىً بجميع فضائل الأهلين، كما كانت تتمنّى لبعلها. فكنت محبوبًا من أجل اثنين. فهذا كثير كثير جدًّا يا صاحبي. وبالحقيقة كانت تسمّم حياتي وتشدهني وتعقل عقلي وتجعلني متردّدًا هيّابًا، وبسبب تربيتها التي وصلت فيها إلى الثلاثين وأنا تحت الحجر كنت أنكص عن اجتياز المخاضة التي بين الاحتلام والرُّجلة. فكنّا مسخرة نحن الاثنين. وكان قد استبان الشعر في ذقني وإذا أجرت الكلام عليّ حسبني الناس طفلاً.

وقد وصل بها الحبّ إلى أن صارت وهي أطهر النساء تعمل أبعد الأمور عن الكياسة وتتندّس عن تباشير صباباتي وتريد أن تعرف من هذا الموضوع كلّ شيء تفصيلاً. ولم تكن

---

(١) ولد في طرسوس من قيليقية أي ولاية أطنة اليوم، وقُتل في رومة سنة ٦٧ للسيِّد المسيح فكان من أوائل الشهداء.

(٢) ما يقولون له اليوم معتمد.

تستقصي منّي رأسًا عن شيء إلاّ أنَّ البوليس في أثر جان لم يكن إلاّ طفلاً صغيرًا بجانب هذه الأمّ البارّة المسيحية وهي تقتصّ أثر ابنها كيفما مال وكيفما نغشّ قلبه. فكانت، إذا عثرت بشعرة، بنت عليها قصّة طويلة عريضة. وقد أنسى صورة شمسية في أحد جيوب معطفي فأجدها في اليوم التالي منصوصة على مائدة كتابتي كأنها على مذبح كنيسة. وطالما لقيت فسيفساء المكاتيب التي كنت أُلقي بها في السلّة ملمومة ومرجوعة إلى أصلها قبل التمزيق. وأضف إلى ذلك بالبداهة ذلك القنوط الداخلي وتلك العيون التي تفيض بالدمع وتلك التأوّهات التي تدير الطواحين.

وكنت بلغت الخامسة والثلاثين من العمر ولم يقع أنَّ أمّي عرفت الرقاد قبل أن أروح إلى البيت. وكنت في نصف الليل أراها تحدّق بي والشمعدان بيدها. فإذا صارت الساعة الرابعة بعد نصف الليل، وقفت عليّ أيضًا ساكتة تحدّق بي، والشمعدان بيدها ثمَّ قبّلتني بكلّ لطف في خديَّ وانصرفت إلى مضجعها وهي تتنهّد وتصعد الأنفاس.

ملك الأكاسير

قال بروسون:

أتيت له بكتابة «الحجر الأبيض» الذي عهد إليه بتصحيح مسودّاته، فقال لي:

ـ كيف رأيت حجري؟

ـ رأيته من أثمن ما يوجد. وإنَّني أغبطك يا أستاذي العزيز على هذه الملكة التي تقدر بها على استنباط أوضح الحقائق العصرية من نصّ ميت.

ـ تريد أن تكون في مكاني أيّها الشقي الصغير! ما كان أشقاك لو أجابك الله إلى أمنيتك الحمقاء. تذكّرني أمنيتك هذه بقصّة ذلك الكيماوي الذي حدّث عنه برانتوم[1]. وذلك أنَّ كيماويًا عالمًا كبيرًا وشيخًا طاعنًا في السنّ، كان يملك أسرارًا لا يعرفها غيره ويركّب إكسير الحياة وغير ذلك من الوسائل لإطالة العمر. وكان عنده شابّ يخدمه في مراقبة المواقد والأنبيقات ويساعده كما تساعدني أنت. ففي إحدى المرّات أخذ هذا الشابّ يتأوّه كما تتأوّه أنت ويتمنّى أن يكون له العلم الذي لمعلّمه في أسرار الجواهر.

(١) برانتوم (Brantôme)، كاتب إفرنسي ألّف حكايات وأقاصيص وترجم كثيرًا من رجال عصره بعبارات لم يمشِ فيها الضراء ولا مال إلى التورية وكان في الوصف لا يرحم أحدًا، (١٥٣٥ ـ ١٦١٤).

فقال له الكيماوي الشيخ - وكان في سنّي تقريبًا - وأنا أيضًا أنزل عن كلّ أسراري الكيماوية وعن ماء الذهب وعن إكسير الحياة وعن جميع الجواهر، إن تيسّر لي الرجوع إلى مثل شبابك...

المطران كابرييير [1] عند أناتول فرانس

قال لي في أحد الأيام:

- تلطّف يا حبيبي بالمجيء غدًا الأحد باكرًا، لأنَّ السيِّد المطران "كابرييير"، ابن بلدك، آذنني بزيارته نحو الساعة التاسعة. فهذا الأُسقف المسكين مرشّح للأكادمي وهو يريد الوفاء بالمراسم على حقّها. وكان حقيقيًا بأن لا يجشّم نفسه هذا العناء لأنني منذ دعوى دريفوس [2] لا أذهب إلى الأكادمي ولا أعطي صوتي. إلاّ أنه أُسقف شريف يحافظ على الأصول.

وكان أناتول فرانس محبورًا بهذه الزيارة، لأنه كان يتوق إلى رؤية رجال الكنيسة يقيمون له وزنًا.

ففي صبيحة الغد، الساعة التاسعة كما قال، أقبلت عربة قديمة الزيّ فارهة كعربات الأشراف ووقفت أمام مغنى سعيد. فقال لي أناتول فرانس:

- خفّ للقاء المطران المرشّح.

ونزل المطران من العربة، ليس عليه شيء من أبهة الملابس الحبرية ولا من خيلاء الطيالس والأطالس، بل كان بمناسبة الصوم الكبير مرتديًا ملابس سودًا، قباءً بسيطًا وجبة ملمّعة بتلبيب [3] من مخمل خَلَق [4]. فإن لم يكن الإنسان يعرفه يظنّه خوريًّا من قرية.

فدخل في الدهاليز خاشعًا متضائلاً وأطال النظر إلى شخوص العذراء بجانب تلك التماثيل الوثنية. وكان وهو ملتفّ بأطماره الإكليريكية أشبه بعجوز مهرملة [5].

قال بروسون: وكنت شاهدته مرارًا عند والدي في نيم وفي بيوت أخرى من بيوتات البلاد، فذكرته بنفسي. فقال:

---

(١) كابرييير (Mgr. de Cabrières).

(٢) في دعوى دريفوس التي هزّت فرانسة كلّها كان أناتول فرانس مثل إميل زولا من الفئة المؤيّدة لدريفوس كما تقدّم.

(٣) ما في مواضع لبب الإنسان من ثيابه ويقال له طوق، والأصل الفرنسي eol.

(٤) ليس بجديد.

(٥) هرملت: العجوز بليت من الكبر.

ـ هو ذا أنت ولدي العزيز: أنني مدهوش من أن أراك هنا.

فأجبته:

ـ وأنا أيضًا.

فتبسّم ومسح على خدّي بيده المقفّزة بالحرير، يلمع من تحتها خاتم الجمشت. وكان أناتول فرانس قد احتفل بزيارة الأُسقف واحتبى بأضفى وأفخر جلابيب تبذّله وشدّ وسطه بنطاق مجدول ذي أزرار قديمة صفراء من قصب. وعلى رأسه قلنسوة أرجوانية ساطعة ـ لأنه كان عنده قلانس من جميع الأشكال ـ فكان التناقض بين المطران والكاتب عجيبًا. إذ، بينما كان المطران في أسفل الدرج أشبه برويهب فقير يرتعش من البرد، كان مؤلّف «حلقة الجمشت»[1] بقامته الطويلة، سابغًا عليها قباء الصوف وعلى رأسه قلنسوة حمراء، يظهر كأنه رئيس أساقفة. ثمّ نزل عدّة درجات وأخذ المطران بيمينه. وقال بصوت خاشع:

ـ يا سيِّدنا أرجوك أن تعتقد أنني أشعر كما هو الواجب عليّ بقيمة الشرف الذي أوليتني إيّاه.

ثمّ دخلا إلى المكتبة وجلس الواحد بإزاء الآخر. وفي الموقد المسجور نار عظيمة يُسمع لها زفير. فافتتح المطران الخطاب بالكلمات الآتية:

ـ أيّها السيِّد إنَّ بعض الأصحاب والأتراب والأشخاص، الذين لهم عليّ كلمة نافذة، رأوا أنَّ من الواجب عليّ الترشّح للأكادمي. ولست أجهل عدم أهليّتي للجلوس بين هذا العدد من كبار الأدباء ولكن ابنة الكردينال العظيم، لم تزَل تتذكّر محتدها الديني وعرقها الملوكي، فتذخر بعض كراسي لأركان الكنيسة. فإن دخلت تحت القبّة فلا يكون ذلك إكرامًا للقلم، بل لعصا الأسقفية. لقد تردّدت طويلاً في القبول لكنّهم لفظوا كلمة لا تغالب عندي وهي كلمة «الواجب». فلهذا قصدت أيّها السيِّد مجلسك. وإنّي شاكر هذه الفرصة التي أتاحت لي أن أرمق بعيني، قبل نزولي إلى القبر، أكبر كتّاب الفرنسيس في عصرنا.

وبينما كان المطران يسرد خطابه كان أناتول فرانس يلعب بفتخة[2] خاتمه الذهبي الثقيل الذي يزيّن بِنْصَرَه. فكان يُريغه ثمَّ يمسحه بذيل ثوبه ويظهر مستغرقًا في النظر إلى خاتمه هذا الذي كان عليه رسم «كوبيدون»[3] وهو عريان مصوّبًا قوسه.

---

(١) أحد تآليف فرانس القصصية.

(٢) الفتخة، بسكون التاء أو محركة: الخاتم. وقيل حلقة تُلبَس في الإصبع كالخاتم.

(٣) كوبيدون (Cupidon)، إله الحبّ عند الرومان.

ثمَّ شدّ المطران نغيته قليلاً، وقال:

ـ الحقيقة أيّها السيِّد أنني ما عرفت مزاياك في الإنشاء إلاّ بالسماع، إذ لم أقرأ ممّا كتبته سطرًا واحدًا. ويمكنني أن أعترف لك لماذا: ذلك لأنني لا أقدر أن أطالع شيئًا هو ضدّ أمّي.

ـ أمّك يا سيِّدنا؟

ـ نعم، أمّي الكنيسة المقدّسة.

ـ وأنا أعلم يا سيِّدنا أنك أنت واحد من مصابيح الكنيسة وأنَّ عقيدتك صافية وحميتك متلهّبة وفصاحتك جاذبة للقلوب... ولكنَّه ما تسنّى لي الاطّلاع على مناشيرك الأسقفية. وبعد، فإنِّي شاكر لك جدًّا على ما أوضحته لي وهي حقيقة عزيزة عليّ من حيث أنه لا يمكن الإنسان أن يكون كاثوليكيًّا خالصًا وجمهوريًّا حرًّا معًا.

ثمَّ سكت الاثنان عدّة دقائق. ثمَّ قال أناتول فرانس لأجل عدم قطع الكلام.

ـ أحبّ كثيرًا بلدتك الأسقفية ولا أزال أذكر ثلاث دمى من المرمر مجرّدة عارية تحلّي بجردتها ساحة «مونبليه» البهيجة.

فأشار المطران إلى كون هذه البنات المرمريّات، مع ما يكره من متجرّدها هذا، لا سبيل إلى إدخالها تحت المنع الأسقفي.

ثمَّ سكتا عودًا على بدء. ولكن أناتول فرانس أحبّ أن يحيي ذماء الحديث المحتضَر. فأخذ يطري ثروة متحف مونبليه، وعدد ما فيه من النفائس إلى أن وصل إلى تصويرة «الأسرار المقدّسة» التي من عمل «پوسين»[1].

فلمّا سمع المطران اسم پوسين اهتبل هذه الفرصة لإطراء تقوى ذلك المصوّر، وقال: «إنَّ عقولنا لا تبلغ كثيرًا من الأحايين شأو قلوبنا وإنَّ الإيمان لا ينفي العبقريّة». وشاهدنا «مار أغسطينوس»[2] و«باسكال» و«پوسويه».

---

(١) پوسين (Nicolas Poussin)، من أشهر مَن أنجبته فرانسة في فنّ التصوير، كان رأسًا للطريقة الأصولية المدرسية في هذا الفنّ. ترك عدّة بدائع من جملتها صورة الطوفان وصورة موسى، عليه السلام، عندما التُقِط من النيل.

(٢) قد مرّ ذكر باسكال وبوسويه وشاتوبريان، أمّا مار أغسطينوس فهو أحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية، ولد سنة ٣٥٤ في إفريقية ومات سنة ٤٣٠، وكان مطرانًا على «هيبون» بقرب عنّابة من برّ الجزائر. ويُحكى من خبره أنه كان في مبدأ أمره مسرفًا على نفسه منغمسًا في اللذّات البدنية إلى أن ضجر منها مرّةً وذهب إلى غيضة من غياض حديقته يلتمس الراحة ويتوارى من أصحابه. فبينما هو سابح في بحر التأمّل سمع هاتفًا يقول له: خذ واقرأ. فدهش وأخذ يفكّر من أين جاءه هذا الصوت وأيّة قراءة يأمره بها. فمضى إلى صديق له يقال له «آليب» فوجد أمام عينيه كتابًا ففتحه فإذا هو رسائل مار بولس. فأول عبارة وقعت عينه عليها هي هذه: «لا تقضِ عمرك في المآدب ولذّات البطن، بل اشتمل على سيِّدك يسوع المسيح وخذ حذرك من إرضاء شهوتك البدنية» فكانت هذه العبارة هي السبب للإقلاع عمّا كان فيه وكان =

خذوا حذركم من الڤيكونت

فلمّا سمع أناتول فرانس اسم شاتوبريان، قال:

ـ لا جرم يا سيِّدنا أنَّ شاتوبريان مَثل عظيم. لكنَّني لا أفهم على أيّ شيء؟ أعلى التقوى؟ أم على الشهوة؟ إنَّني لأعجب كيف أنَّ أساقفتنا يضعون شاتوبريان المتنفّج بين ممدوحيهم في صفّ آباء البيعة. إن كان شاتوبريان قد قام لكم بخدمة في كتابه «نبوغ النصرانية» وكتب قصصه الحاملة على الفضيلة فلا تستطيعون إنكار أنه كان شهوانيًّا.

ـ ولكن كتاب «الشهداء».

ـ في كتاب الشهداء وسق جميع الأدب الوثني القديم. ولا تنسَ أنَّ هذا الابن الطائع للكنيسة قد خلف جان جاك في السامة الدائمة وكره الحياة.

ـ قد خدم قضيّة الله والملك.

ـ نعم، يا سيِّدنا خدمهما بعكس المراد. قصد الإله كما قصد قصر التويلري، لأنَّ الله كان غنيًّا. ولم يكن ممّن يرى في الديانة إلاّ الفخمية والزينة والجهة الشعرية. إنَّ هذا الرجل العظيم، الذي تجعلون كتبه جوائز في مدارسكم، كان أفسق أهالي الأعصر الأخيرة. قد فاق في هذا جان جاك، بل هو جان جاك شماسًا سكران بخمرة التقديس. فهو هو أبو الحزب الكاثوليكي الجديد وهو هذا المتزيّي بغير ما هو أهله من الإيمان والتوبة، قد اكتشفت سمًّا جديدًا في الأدب اللغوي وهو سمّ لذيذ قابلناه نحن بالفرح الشديد: الإغراب في الشعر[1].

ـ ممّا لا مراء فيه أنَّ شاتوبريان هو الذي جدّد ذوق الآثار الوطنية بعد التخريبات التي بدت من حزب الانقلاب.

ـ إنَّ شاتوبريان كان أشدّ حربًا للصور من جميع الانقلابيين. نعم، إنَّه لم يحطّم صور القدّيسين لكنَّه ردّها إلى المتاحف. وإلى عهده هو كان الولوع بالآثار يقف عند أبواب المعابد.

= من ورعه ما كان حتّى بلغ من تعلّقه بالآخرة واحتقاره أمر الحياة الدنيا التي هي دار الآثام إن ذهب إلى أنه لا ينبغي للمرء أن يسعى في
شيء سوى الحصول على سعادة العقبى وأنَّ الوطن الحقيقي هو السماء. ولهذا كانت مقالاته أعظم مروج لمشرب الرهبانية في القرون
الوسطى. كانت له آراء في اللطف المخزون أو ما يسمّيه متكلّمو النصارى بالنعمة الإلهية توكّأ عليها البروتستانت والجانسينيت في محاوراتهم
الدينية مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد توسّع مار أغسطنيوس في جميع المباحث وشارك في أكثر العلوم وصنف جمًّا من الكتب وامتاز بفصاحة
الأسلوب ونبغ في تشريح الأحوال النفسية وقل إن وُجد في آباء الكنيسة مَن أثّر في قومه تأثيره.

(١) في الأصل الفرنسي Exotisme Poètique.

ولا يشمل سوى الأولمب[1]. فالفيكونت هذا ابن الكنيسة الهائل، أدخل السماء والعذراء والقدّيسين في صوان العاديّات الأثرية.

ثمَّ أشار بيده التي كان يلمع فيها الإله الصغير العاري متنكبًا للقوس ودلّ المطران على الأوعية الزجاجية التي ازينت بها الغرفة والتي فيها تماثيل العذراء وإلهات يونان في صفّ واحد.

ـ نعم، إنَّه بسبب الفيكونت نجد هنا تماثيل المسيح متآخية مع تماثيل بوذا ونرى الغواني فرشن مخادعهنَّ بحلل الرهبان التي تنبعث منها رائحة البخور والدهن المقدّس. لا جرم أنَّ شاتوبريان قد أسدى لكم يدًا غير بيضاء.

ثمَّ عاد السكوت إلى المجلس أثقل ممّا كان وجزل الحطب ينسّ نسوسًا، وحصل في جوّ المكتبة شيء من الكرب والحرارة. فنهض أناتول فرانس قائلاً:

ـ لي الأمل يا سيِّدنا بأنك ستُنتخَب.

ـ والله لا أعلم. عندي وعود ولكن لا يقدر أحد أن يضمن. فالخالدون المخلّدون هم أيضًا بشر وقد يتحوّلون عن آرائهم.

وخرج المطران فشيعه أناتول فرانس إلى كعب الدرج وتناول من عن كرسي هناك معطفه الجرد[2] ووضعه بتؤدة على أكتاف زائره، فقال له المطران:

ـ ما كنت أنتظر أن تكون هذه الخلعة من يدك.

المطارين تتعاقب

ويوم الأربعاء التالي كانت نوبة السيِّد «دوشين»[3] في المجيء إلى مغنى سعيد، لإكمال الواجبات التي يتحتّم على المرشّح للأكادمي القيام بها. فكان اللقاء على أتمّ ما يمكن من المخالصة والمؤانسة لأنَّ الاثنين سبقت بينهما المعارفة والمودّة في رومة عند «غياكومو بوني Giacomo Boni»، مدير الحفريّات.

فلمّا أقبل مدير المدرسة الفرنسوية في رومة نهض أناتول فرانس وعانقه، وقال له:

---

(١) مسكن الآلهة عند اليونانيين، ولك أن تلفظه وتكتبه الأولنب على النغمة العربية.

(٢) القديم من الثياب.

(٣) دوشين (Mgr. Duchesne)، أحد علماء الآثار، ولد سنة ١٨٤٣ ومات سنة ١٩٢٢. له مباحث ممتعة على مبدأ شعائر النصرانية، وكان مديرًا للمدرسة الفرنسوية في رومة.

ـ أهوى أن أخاطبك يا سيِّدنا بقولي: يا رصيفي العزيز. لأنك ستنتخَب للأكادمي ويكون ذلك خادمًا لمجدك ومجدها معًا.

ثمَّ عانقه ثانيةً، وقال له: أنت مرشّحي ولكنّي سأتجنّب الذهاب الذهاب لإعطاء صوتي تفاديًا من أن يضرّ بك. وقد تفقد بعض الأصوات بصوتي، فلست ذا رائحة طيّبة عند جماعة الأكادمي. ومن أيام دعوى دريفوس انقطعت عن الذهاب إلى هناك حتّى لو ذهبت لَما كان من المحقّق أن يسمح لي البوّابون بالدخول لأنهم أصبحوا لا يعرفونني. وما أسفت مرّة على عجزي كعضو من أعضاء الأكادمي مثل هذه المرّة. ولكنَّك ستخرج ظافرًا من المعركة ونصلّي صلاة الشكر على دخولك إلى الأكادمي لأنها في احتياج إلى زيادة الاعتبار. وكذلك لا يخلو الأمر من فائدة لك. فالأكادمي تكون لك غابة مقدّسة وكهفًا، فإنَّها مع كونها أشدّ كثلكةً من البابا وتعصّبًا للملوكية من الملك، هي الجمعيّة الوحيدة التي تعرفها الجمهورية، لا بل التي تراعيها وتحفّها وترفّها. وهي تخيف رومة نفسها. وإنَّ جملة «من أعضاء الأكادمي الفرنسوية» تكمّ عنك أفواه كلاب التفتيش المقدّس. فلا يستطيعون أن يشمّوا من تآليفك القيمة اللطيفة رائحة الروح العصرية التي لا يفتأون يذكرونها بالسوء.

ـ إن كنت عصريًّا يا سيِّدي فلي في ذلك شركاء ليسوا من أصاغر القوم. ولكن ما كان مقبولاً في زمان الملك الكبير[1] يُعدّ خارجًا عن الكنيسة في عهد الجمهورية. ففي ذلك العهد كان مجلس الأمّة يذبّ عن الكنيسة الغاليكانية مصباح سائر الكنائس في معارفها وفضائلها. أمّا اليوم فلم يبقَ أثر للكنيسة الغاليكانية، وساد حزب التمسّك بالانقياد التامّ. والله تعالى، لأجل أن يبتلي شعبه، نصب على سكّان سفينة مار بطرس نواتيًّا جاهلاً يسير بها في الزوبعة إلى الهلاك. ولعمري، ممّا يستحقّ الرثاء أن نسمع المسكين المجرّد من كلّ فهم يفسّروحي روح القدس. ويا ليته، مع الجهل التامّ الذي هو فيه، حاز ما يقوم مقام العلم وهو الحنوّ والإحسان والتسامح. ولكنَّه منذ عصب التاج لم يزَل يحرم ويمنع ويلعن. فترى يده دائمًا مرفوعة للحرم لا للبركة، وهو ألعوبة في أيدي حاشيته. وأيّ حاشية! يصوّرون له فرانسة البرّة العاقلة كأنها على وشك الخروج من الكنيسة. فقانون الفصل بين الحكومة والكنيسة قد أهلك الأساقفة الفرنسيس ويا للأسف. فكلّ مَن اعترف به من المطارين لم يبقَ لهم أدنى قول، بل صاروا متّهمين. أمّا أنا فقد استقمت على عواري ومضى عليّ زمن التغيير والتحوّل أن أخلص من نكايات القسوس الذين يديرون كلّ شيء من وراء الستار، جئت أنشد كرسيًا في الأكادمي. فترشّحي لذلك عبارة عن

(١) لقب لويس الرابع عشر.

احتجاج. فأنا أعارض أُسقفًا ملوكيًا أريستوقراطيًا بقسّيس خارج من الشعب يحبّ الكنيسة والجمهورية معًا. فإن قُدِّر لمطران مونبليه الفوز، فإنَّه يدخل معه تحت القبّة روح التعصّب الذي يقيّد القلب والعقل معًا.

ستصير خالدًا لأجل خطاياك

فأجابه أناتول فرانس:

لن يدخلها. كن على ثقة[1]. وسأصلّي صلاة الشكر لأجلك. بلى، ستتبوّأ قريبًا كرسي هذا الكردينال ماتيو الذي رووا لي عنه جمًّا من اللطائف المستعذبة. فأنت تخلفه لأجل أن يصفح الله عن خطاياك. وعليك أن تعمل لنا خطابًا ملآن عقلاً وعلمًا وبهجة. وأنا سأقرأ خطابك بكلّ خشوع لأنك أنت خطيب الصالحين الكاملين ورعويتك هي رعويّة العقل السليم وربّما لا يوفونك حقّ بلاغتك ويأتي دورك بالسماع فتضطرّ أن تصغي إلى كثير من الخطب المملّة. ومتى صرت إلى لجنة قاموس اللغة عرفت بلادة المناقشات النحوية.

النحو والكاتب

وكان أناتول فرانس يحبّ كثيرًا أن يردّد هذه الجملة: النحو شيء والكتابة شيء آخر. فالنحو علم والإنشاء هبة[2]. ويلد الإنسان كاتبًا كما يلد ذا صوت حسن. وقد يمكن الإنسان أن يزيد في محاسن صوته ويُصلح جرْسه أو سمعه بالترجيع والتمرين ولكنَّه لا يقدر أن يكون رخيم الصوت بمراجعة كتب الموسيقى. كذلك لا يقدر الإنسان أن يكون كاتبًا بزيادة التعمّق في علم النحو[3]. وبالرغم ممّا يحفظ النحويّ من القواعد الجليلة قلّما عهدنا نحويًا متخصّصًا يحسن تنميق صحيفة. فتراه، لأجل تطبيق قواعده، يعوّل على بلغاء الكتّاب الذين كلّ منهم ينفرد بأسلوب خاصّ على حسب مشربه. وقد يجد عند هؤلاء الكتّاب الأصوليين الغثّ كما يجد السمين. أودّ لو كانت جلسات القاموس مفتوحة للعامّة، فكنت أشهدها تسليًا. فإنَّ أسباب

---

(١) يظهر أنَّ أناتول فرانس كان لا يحبّ أن يخاطب الإنسان بما يكره، فقد سبق أن تمنّى الفوز في الانتخاب لمطران مونبليه. أو هو يحبّ أن يتسلّى ويهزأ. وفي الباطن لا يهمّه لا هذا ولا ذاك.

(٢) قال بعض مَن عرّف الكتابة من العرب، إنَّها صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية دالّة على المواد بتوسّط نظمها. قال: والروحانية هي الألفاظ التي يتخيّلها الكاتب في أوهامه ويصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه. والجثمانية بالخطّ الذي يخطّه القلم وتقيّد تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة.

(٣) وكَمْ من أزهري يستظهر الصبان والأشموني ولا يحسن كتابة رسالة.

السلوى قليلة في هذه الدنيا! وكنت أراك يا سيِّدنا تهذي مع أولئك الثرثارين الذين هم من قبيل "بنيلوب"[1]، فقال المونسيور دوشين:

ـ ما دمت قد ألقيت إلى يدي مِشْيَعة[2] امرأة "أوليس" فاسمح لي بغزل هذه الملاحظة على هذا المثال. إذا نظرنا إلى أشغال الإبرة التي تقوم بها النساء الكرائم اللائي يقلّ شغلهن فيكون طراز العقيلة "بنيلوب" ليس بشيء بالقياس إلى أعمالهن. وما عليك إلاّ أن تنظر إلى الإخفاف والمخاد والنمارق وحلل الكهنة التي تطرّزها العقائل الديّنات، والطريقة التي يزاوجن فيها بين الصوف والخز، فإنّ ذلك كلّه مّما يدلّ على شدّة الحفيظة التي في نفوسهن. ومّما يُحمد الله عليه، انصراف هذه الحرارة التي عندهن إلى هذه الأشغال التي وإن كانت تافهة فهي طاهرة. نعم، إنّ الله يناقشنا الحساب على الوقت الضائع. ولكن ثمّة فرقًا بين إضاعة الوقت واستعماله فيما لا يرضي العدل الإلهي. فعدم العمل ليس بعمل حسن بدون شكّ ولكنَّه خير من عمل السوء.

ثمَّ قال المطران لأناتول فرانس:

ـ إذًا أنت لا تذهب إلى الأكادمي. فما تصنع بالوقت الذي كان مخصّصًا للقاموس؟ في سبيل مَن تنفقه؟ أفي سبيل الله أم سبيل الشيطان؟ آه، لم أجئ إلى هنا اليوم لتعترف لي بذنوبك.

فانحنى أناتول فرانس بقلنسوته اللامعة وغضّ من بصره وجمع يديه إلى صدره المنخفض ودندن من خيشومه بالكلمات الآتية:

ـ بارك عليّ يا أبتا لأنني خطئت كثيرًا.

ـ نعم، يا ولدي العزيز السرّي قد خطئت وأثمت كثيرًا ولكن الخطيئة درجات. فهجر الأكادمي هي خطيئة عرضية ولكن اتّخاذ الخطايا والاسترسال إلى الشهوات يؤدّيان إلى الجحيم رأسًا.

ـ أأنت واثق بما تقول؟ لا أريد أن أصغّر نفسي بالتطفّل على بحث كهذا مع علاّمة متبحّر مثلك. فالوافه لا يحقّ له أن يطاول القسّيس. ولكنّي أفتح لك كنَّ صدري بكلّ سذاجة. الذهاب إلى جهنّم لا أخشاه على الضعفاء الذين يلبّون دواعي الطبيعة، بل على أولئك المتكبّرين الذين

---

(1) بنيلوب (Pénélope) في كتاب تليماك هي امرأة أوليس أمّ تليماك غاب عنها زوجها عشرين سنة وخطبها أناس كثيرون فأبت أن ترضى بزوجها بدلاً واعتذرت بأنها لا تتزوّج حتّى تكمل نسيجًا كانت تغزله، والحال أنها كانت تنقض في الليل ما تغزله في النهار. بضرب المثل بنيلوب للأمينات من الخوالف. ووجه التشبيه هنا أنَّ قاموس الأكادمي لا ينتهي أبدًا.

(2) المِشيعة: بكسر الميم فسكون ففتح، هي القفة التي تجعل فيها المرأة قطنها ونحو ذلك، وفي الأصل الفرنسي La boite à ouvrage.

يجتمعون في الكنيسة ليتقاسموا فيما بينهم البخور والثناء فيرتكبون أعظم الإثم: الإثم الذي كان العلّة في الكدح والنصب والألم والعشق والموت في هذه الحياة الدنيا: ألا وهو الكبرياء[1].

عين جوڤانس[2]

قالت له العقيلة المعهودة يومًا:

ثوب قشيب، ربطة رقبة جديدة، حذاء ملمّع. من مدّة أصبحت لا تعرف أن ترتكز على الأرض. تتعطّر وتتضمّخ بالطيب وتنثر ماء كولونيه. ورائحة النارنج تنبعث منك. ماذا أصابك، أتراك قد اكتشفت عين جوڤانس؟

ـ واحسرتاه! كلاّ، يا سيِّدتي. ولو أني وصلت إلى تلك العين لأصابني ما أصاب بطل الحكاية:

وذلك أنه كان رجل شيخ مثلي يفكّر في الآخرة وهو على حافّة القبر. فتناول عكّازه وسار إلى رومة ليفوز بغفران خطاياه قبل الموت. فقبّل خفّ البابا الذي قال له: أنا أحلّك من خطاياك. ولكن لأجل توبتك يجب عليك أن تذهب لزيارة بلاد "كوكانيه".

فهذه البلاد قد اختصّها الله ببركته الخاصّة. فربيعها دائم وفي جميع طرقها وعلى شوارعها موائد ممدودة تكاد تلتوي من ثقل ما عليها من اللحوم والثرائد والدجاج باللبن...إلخ. فيقعد الإنسان ويأكل ما يشاء. ثمَّ إنَّ الدكاكين مفتحة الأبواب ليلاً ونهارًا والناس ولاّجون خرّاجون يملأون جيوبهم بما تشتهيه أنفسهم حتّى لو اشتهوا صاحبة الدكّان لاختارت معهم الكياسة... وأنهار من خمر وبحيرات من إقط. وكلّ شيء مشاع في بلاد كوكانيه...

ـ والنساء؟

ـ والنساء كسائر الأشياء.

ـ ما أجمل هذه البلاد!

ـ نعم، نعم، يا سيِّدتي وكلّهن حسان وليس عندهن فظاظة. ولمّا كنّ يغتسلن كلّ يوم في عين جوڤانس، كنّ لا يفقدن شيئًا من نعومتهن.

ـ وصلنا إلى المراد.

(١) ما زاد أناتول فرانس على مآل قصّة الفرّيسي والعشّار الواردة في الإنجيل الشريف.

(٢) في أساطير يونان أنَّ جوبيتر حوّل إحدى الجنّيات عينًا جارية، مَن اغتسل فيها استردّ شبابه، وهي في الفرنسي: La fontaine de Jouvence.

ـ يصير الإنسان شيخًا فانيًا فيذهب ويغطس في ماء هذه العين. فبينما هو يمشي على العصا نقيّ بياض الشعر أدرد، إذ عاد شارخًا مرخيًا ذوائب كالذهب وعادت له أسنان جديدة.

ـ يظهر أنك في اندفاعك بالوصف قد نسيت الرجل التائب الذي أرسله البابا إلى بلاد كوكانيه.

ـ لا أنساه يا سيِّدتي، وكيف أنساه وهو شيخ مثلي. وكان عليه أن يستفيد من عين جوڤانس ذات العجائب. فبينما هو ينزع ثيابه ليسبح في الماء خطرت في باله قُدمى حبائبه. ولمّا كان رقيق القلب رجع فلبس ثيابه ومضى في طلبها، ليأتي بها إلى عين جوڤانس.

ـ ما أسرى تلك النفس!

ـ فلمّا صار يا سيِّدتي خارجًا من بلاد كوكانيه ضلّ الطريق، وعبثًا حاول أن يجدها فلم يهتدِ لوجهه. وهذا يعلّمنا أنَّ المرء، إذا ظفر بنعمة في مكان، فلا ينبغي له أن يفكّر في أصحابه.

ربطات رقبة هريديا[1]

ـ أتحبّ مقاطيع هيريديا؟ هذا نمط شاقّ ومركب خشن، يغلب عليه التعمّل لأنَّ هذا الشاعر يكره السهولة ويجمع وحشيّ الكلام، كما تجمع الصبيان الحصى وقطع الزجاج. وهو يغوص في القاموس غوص «تيوفيل غوتيه»[2] لكن هذا كان أقلّ ولوعًا بهذا الباب. ولمّا كانت تآليفه مستمدّة من القاموس، كانت هي بنفسها محتاجة إلى القاموس، فتفتقر إلى حلّ كالكتابات القديمة. رجل فسيفسائي، ليس لشعره معنى ولا مرمى، وإنَّما هو ألفاظ طنّانة وأناشيد من قبيل ما يغنّى به للأطفالليناموا. فصناعته لفظية كلّها وإن كانت لامعة في ظاهرها. وقد أودعها جميع كنوز آبائه. ومع أنه قد حُرم ميراث أهله، فقد كان مثريًا لا يخلو أصلاً من المال وكان بارع الجمال حسن الزيّ يعقد في رقبته ربطات وهّاجة مثل شعره. ثمَّ إنَّه كان من أدمث الناس خُلُقًا.

البرهان بالمستحيل

قال:

ـ في جعبة رجال الدين، أحسن برهان لاهوتي لإثبات وجود الله، هو المستحيل. أوَمن

(١) هريديا (J. M. de Heredia)، شاعر إفرنسي، ولد في جزيرة كوبا سنة ١٨٤٢ ومات سنة ١٩٠٥. كان من أعضاء الأكادمي، وكان شعره ممتازًا بصحّة التركيب والمتانة.

(٢) تيوفيل غوتيه (Théophile Goutier)، شاعر إفرنسي، نقّاد نبغ في النظم والنثر ونصر الأسلوب القصصي المعروف بالرومانتيسم، (١٨١١ ـ ١٨٧٢).

لأنني لا أفهم[١]. فإنَّ الفهم شيء إنساني ليس بإلهيّ. وعلى هذا، فلأجل أن يزداد الإنسان على خلاص نفسه أَمَنَةً، يجب أن يتطلّب أشدّ العقائد استحالةً، أو بعبارة أخرى، أشدّها تألّهًا. وربّما تقول لي إنَّ ديانتنا لا تقصر في هذا الموضوع عن أيّ دين من أديان سائر الشعوب. والحقيقة، أننا نحن زدنا في الاعتقاد كثيرًا وجعلناه تابعًا لجميع الضرورات، فكأنه ثوب قد أطيل لبسه فاخلولق ورقّعوه. تأمّل "جان غيرسون"[٢] أو واحدًا من جماعة "بور رويّال" عاد إلى الدنيا ودخل إحدى كنائسنا الحاضرة أو شاهد الحال في سيِّدة "لورد" أو سيِّدة "لاساليت"[٣] أو قلب يسوع الأقدس... فإنَّه كان يصيح: ما هذه الوثنية!

إذا كان المستحيل صورة يتجمّل بها الدين، فإنِّي حاضر أن أكون بوذيًّا[٤] أو أزدراشتيًّا[٥] أو مجوسيًّا[٦] أو من أتباع سينتو[٧] ليس لأني أرى هؤلاء في هذا أبعد منّا شأوًا، بل لكون هؤلاء أصحاب مستحيل غريب عنّا، فيظهر لنا أشدّ استحالةً وعليه يكون أعلى درجة.

نابليون مهرّج عالٍ

أجلى قصّة عندي عن هذا المهرّج السامي هي قصّة دخوله إلى ليون بعد فراره من جزيرة "ألبا"[٨] هذه هي في الحقيقة أجمل وردة في قبّعتي. فإنَّك تعلم كيف دخل إلى بروڤانس بشرذمة من جنوده القدماء ولم يكن معه لا جيش ولا مال، وأنه أرسل ثلاثة أو أربعة من جماعته إلى

---

(١) الحقيقة أنَّ وجود الواجب الوجود يفهمه الإنسان بالبداهة ولكن الكيف هو المجهول. وكون الإنسان يجهل كيفيّة شيء لا يستوجب إنكاره لوجوده.

(٢) جان غيرسون (Jean de Gerson)، ولد سنة ١٣٦٢ ومات سنة ١٤٢٨. كان من أعظم لاهوتيّي عصره، وكان العامل الأكبر في مجمع كونستانز الذي انعقد سنة ١٤١٤ لاستئصال البدع وحكم فيه على جان هوس، المصلح التشيكيّ، بالحرق حيًّا وأُحرق برغم كونه حضر بأمان من الإمبراطور سيجيسموند، عاهل ألمانية.

(٣) لا ساليت (La Salette)، كنيسة على اسم السيِّدة تُزار كثيرًا، ومثلها لورد (Lourdes) التي تُنسَب إليها العجائب.

(٤) بوذا أو ساكيموني، مؤسّس الديانة البوذية، انشقّ عن الديانة البرهمية ودعا الخلق إلى النيروانا وهو الفناء التامّ الذي ينبغي أن يكون غاية الأحياء.

(٥) نسبة إلى أزدراشت، خرج في فارس وقال بوحدانيّة الباري تعالى وإنَّه خالق النور والظلمة، وإنَّ الخير والشرّ حصلا من امتزاجهما، وإنَّه لو لم يمتزجا لَما كان وجود للعالم، وإنَّه لا يزال الامتزاج حتّى يغلب النور الظلمة ثمَّ يخلص الخير في عالمه وينحطّ الشرّ إلى عالمه وحينئذٍ تكون القيامة.

(٦) يقولون بالنور والظلمة وإنَّ إله النور اسمه يزدان وإله الظلمة اسمه أهرمن. وإنَّ بينهما حربًا. ويعبدون النار لِما فيها من النور. ومنشأ هذا المذهب في فارس أيضًا.

(٧) ديانة اليابانيين يقولون بإله أعلى وآلهة آخرين من دونه وإنَّ أرواح الصالحين بعد الفصال تسكن في أماكن نورانية وإنَّ أرواح الأشرار تهيم في الهواء فلا تقبلها الأرض و لا السماء. وكهنتهم لا يأكلون لحم الحيوان ولا يمكنهم تقديم الصلاة إلاّ بالواسطة، وهذه الواسطة تسمّى "تانسيوزاي زين" أي آلهة الشمس، وبواسطة البشر المتألّهين كالميكادو. وقد اختلط مذهب سينتو هذا بمذهب بوذا ومذهب كونفوشيوس.

(٨) جزيرة صغيرة شرقي كورسيكا، نُفي إليها نابوليون سنة ١٨١٤ وأقام بها مائة يوم.

"آنتيب" فألقوهم في السجن. وإنَّ البغل الذي كان يحمل دريهماته تردّى في هوّة. فبدأ فتحه فرانسة بصورة مشؤومة. فسار إلى "غرينوبل" و"ليون"[1] من طريق الجبال. ولمّا وصل الإمبراطور إلى قرب "آڤينيون"[2] غيّر لبسه وتزيّا بزيّ خادم وجلس بجانب الحوذيّ. ثمَّ وصلوا إلى ليون فكانوا من الجهة الثانية من جسر "غيليوتيير" وكانت عساكر الدوق "أنجوليم"[3] من هذه الجهة. فالفوضى والخلل بصحبة رجل آفاق محروم من الحقوق المدنية، أيُّ مَن قتله نال المكافأة العظيمة، كانا من جهة، والنظام والقانون والحقّ الشرعي والجيش كانت من الجهة الأخرى.

كان نابليون شجاعًا، إلاّ أنه كان مضحكًا. فقد تقدّم عابرًا الجسر وهو بزيّ عسكري من حرسه. وكانت له شارة وهيبة وهو على ظهر الحصان، فلمّا ترجّل صار قزمًا زريًّا. فمنع عساكره من المرور وراءه، إذ لم يكن معه جند يقدر أن يفادي بهم وبإزائه جيش الدولة، بل كان مراده أن يعبر الجسر ويتعرّف إلى الجيش ويصير هو الدولة. فلّما رآه العساكر الذين كانوا يعرفونه وضعوا كممهم على رؤوس الحراب وهتفوا: "فليحي الإمبراطور" وهنا هي النقطة التي بلغ بها نابليون شأو الضعة في الإضحاك، فإنَّه هجم على أحد الجنود الذين كانوا أقواهم هتافًا وهزّه كما تهزّ الخوخة[4] ثمَّ قال له بصوت صهصلق: "الآن قد خنت رئيسك وأنا لا أحبّ الخائنين، فآمل أنك تحت قيادتي تنسّيني هذه بمجالدة أعداء فرانسة" ومعنى ذلك بالفرنساوي "آمل أنك في صحبتي تزداد إيغالاً في الخيانة" وهذا الجندي الذي كان لو قتل نابليون صار سعيدًا كان قد بحّ وهو يصوّت "فليحي الإمبراطور"!".

كلمة تاريخية

ثمَّ قال:

ـ كان نابليون متقنًا هذا الفنّ الطليانيّ وهو تشريف السفاسف وكسوة الصغائر ثوب الجلال إلى الدرجة القصوى. حدّثني صديقي "كزافيه دو ريكارد" بنادرة لطيفة في هذا الباب. قال: كان جدّه في حرب "واترلو"[5] إذ كان عمره ١٧ سنة لأنَّ نابليون عندما أعوزه الجند، مال

---

(١) كلتاهما من مدن فرانسة الشهيرة.

(٢) من مدن فرانسة، كانت تابعة لإمارة برفانس. وسنة ١٣٠٩ انتقل إليها مركز البابا فبقي فيها إلى سنة ١٣٧٧ واشترى البابا أكليمنضوس السادس هذه المدنيّة من أمراء بروفانس وبقيت ملكًا للكنيسة إلى سنة ١٧٩١ فاستلحقتها الحكومة الفرنسوية.

(٣) أنجوليم (Duc d'Angoulème)، ابن كارلوس العاشر، ولد في فرساي سنة ١٧٧٥ ومات سنة ١٨٤٤.

(٤) في سورية نقول "كما تهزّ المشمشة".

(٥) قرية في بلاد البلجيك كانت فيها الواقعة الشهيرة بين نابوليون من جهة وبين الإنكليز والبروسيين متّحدين من آخرى، ودارت فيها الدائرة على الإمبراطور وانقضى سعده وذلك في ٨ يونيو سنة ١٨١٥.

إلى المدارس يجنّد من طلبتها. وفي ذلك الوقت كان الإنسان يطفر من درس التاريخ إلى التاريخ طفرةً واحدة. وكان نابليون يشكو من البواسير يوم واترلو، حتّى إنَّ بعض المحقّقين ذهبوا إلى أنَّ بواسيره ذلك اليوم كانت السبب في الهزيمة. فانظر بأيّ شيء منوطة مصاير الدول! تارةً أنف «كليوباترة»[1] وطورًا بواسير بونابرت. والحاصل أنَّ نابليون كان يريد أن يمتطي حصانه ولا يقدر من شدّة ألم البواسير. فأشار إلى ريكارد الذي صادف وقوفه أمامه أن يعاونه على الركوب، فطار ريكارد فرحًا بهذا الشرف وطأطأ رأسه وجعل يديه رُكُبًا، فلمّا وطيء عليهما الإمبراطور أشاله إلى العلاء بقوّة شديدة دفعته إلى الجهة الثانية من المطية فسقط إلى الأرض. فنهض نابليون أصفر اللون حَرِدًا وصاح به، «يا أبله، يا بهيمة، لا بدّ من رميك بالرصاص» فتأمّل في طالب علم كهذا صار جنديًا، وأول عمل باشره هو صرعة إمبراطوره! فلزم الإمبراطور وصار أتبع له من ظلّه. لأنه لَما كان الإمبراطور قد أمر برميه بالرصاص فلا يصحّ أن يتوارى من وجهه ويكون من النذالة أن يموت برصاص العدوّ. ولم يكن يدري بما حلّ بفرانسة وبسوء مصيرها، بل كان في رأسه فكرة واحدة «متى أُرمى بالرصاص؟» ولمّا وقعت الهزيمة أبصره نابليون في وسط الهمرجة فعرفه وضحك له قائلاً «يا ولدي لا تنسَ أبدًا أنك كنت المعين لإمبراطورك على اقتعاد صهوته يوم الدَّبْرة».

أفهمت المأخذ: من مسخرة مضحكة جعلها منقبة شهيرة.

قيصر لا يكون رخوًا

لا يمكن أن يكون قيصر عاجزًا عن القيام بواجبات الزوجية. وهكذا نابليون. ومحال أن لا يكون عرف وهو في جزيرة القدّيسة هيلانة[2] بقصّة امرأته «ماري لويز» مع «نايبرغ»[3]، بل

---

(١) كليوباترة (Cleopatra)، ابنة بطليموس أوليتيوس، ملكة مصر. ولدت سنة ٦٧ ق. م. وملكت مع زوجها إلى سنة ٥١ ق. م. فاستولى على المملكة الخصي فوتين وطردها، ثمَّ ردّها إلى المملكة قيصر إمبراطور رومة سنة ٤٧ وأحبّها وسكنت عنده في رومة إلى أن مات. ثمَّ استولت على قلب الإمبراطور أنطونيوس فطلّق من أجلها أوكتافية وأقطعها ممالك عديدة فأغضب بذلك الرومانيين وزحفت إليه جيوش أوكتافية والجنرال أغريبا فهزموه في أكتيوم من بلاد اليونان وفرّ هو وكليوباترة إلى مصر وحوصر في الإسكندريّة سنة ٣٠ فانتحر واجتهدت كليوباترة أن تجذب أوكتافيوس أخا أوكتافية فلم تفلح. فخوفًا من أن تقع في يد الرومان وتؤخذ إلى رومة ويشهر بها فصدت ذراعها وأدخلت فيه السمّ وماتت سنة ٣٠ وبها انقرضت الدولة اللاجيّة وذهب استقلال مصر. وقيل إنّها كانت بارعة الجمال منقطعة النظير في بهائها مع دهائها. وقيل إنَّ جمالها لم يكن مفرطًا وإنّما كانت تجذب الناس بذكائها وأدبها. والجملة الشهيرة التي هي: «لو كان أنف كليوباترة أقصر قليلاً لغيّرت وجه العالم»، هي لباسكال.

(٢) جزيرة صغيرة شرقي كورسيكا، نُفي إليها نابوليون سنة ١٨١٤ وأقام بها مائة يوم.

(٣) آدم آدالبرت كونت نايبرغ (Neiberg)، كان مدير الدائرة الخاصّة عند الإمبراطورة ماري لويز التي صارت تُدعى دوقة پارم بعد سقوط الإمبراطور، وتزوّجت بالكونت المذكر زواجًا سريًّا.

كانت حكومة لويس الثامن عشر تحرص جدّ الحرص على إعلامه بكلّ هذه الأخبار التي لم يكونوا يطلعونه على غيرها. ومع هذا فتغابى وأوهم أنه لا يعلم شيئًا وكان يتكلّم يوميًا عن قدوم ماري لويز عليه قريبًا ثمَّ كان يواصل احتجاجًا على احتجاج على حكومتَي بارز وفينّا لمنعهما أبرّ الحلائل ببعلها أن تشاطر زوجها الأسر. وأكرّر عليك أنه لم يكن يجهل شيئًا من هذا الأمر، وكان يأخذ أخبار ماري لويز كلّها، لكنَّه كان يلعب الهزيلى، أو بالأَوْلى، كان يمثّل مأساة. فالإمبراطور لا يجوز أن يكون في نظر الأعقاب رخوًا. وهكذا قد شهد للإمبراطور حليلته على ما كانت عليه من الفروك والخفّة شهادة مطنطنة بالأمانة الزوجية.

فلتسقط المخالب!

وكان نابوليون يلقي الرعب في قلوب النساء فيحذرن غضبه ورضاه، وكان يعاملهن جمعاء معاملة جوارٍ في القصر. وإذا ذهب إلى ليلة الزفن المتنكّر Bal masqué صدر الأمر إلى كلّ نساء الحاشية بأن يذهبن كما يصدر الأمر إلى الجنود بالذهاب إلى العرض. وكان يأتي متنكّرًا من قدمه إلى رأسه ولكن كان يكفي أن يلحظ الناس ذلك الرجل وإحدى يديه على حجره والأخرى من وراء ظهره حتّى يفهموا أنه هو الغول. فكانوا يرعدون إذا مرّ من جانبهم. وفي إحدى المرار وضع يديه على عينَي إحدى الراقصات الشابّات فصاحت: "آه ما أقبح هذه الأيدي!" فنفر واحتجّ قائلاً: "كلاّ، ما بهنَّ من قبح. انظري إليهن ترينهن بيضًا لطافًا".

فإنَّ نابليون كان معجبًا بيديه وقدميه.

تاريخ طبيعيّ

ـ كان نابوليون نظير جميع الطارئين من وراء الألب غريب الأطوار محبًّا للتنفج: فلمّا استشار في اختيار أشعرة السلطنة أشير عليه بالأسد ملك الحيوانات فلم يعجبه، فقيل له عن الديك الغاليّ أو الجليقي [1]، فقال:

"لا أريد ديككم فهو حيوان يعيش على المزبلة ويأكله الثعلب، وإنَّما أريد النسر، هذا الطائر الذي كأنه صاعقة والذي ينظر في شعاع الشمس وجهًا لوجه".

أسباب استنبطها من التاريخ الطبيعي.

(١) كان الغاليّونا (Gaulois) و الجلالقة يتخذون الديك شعارًا لهم.

ـ لا إنكار أنه كان ذا قوّة حافظة خارقة للعادة لكنَّها منحصرة في الإعداد لا في التصوّرات. أشبه بذاكرة تاجر أو حاسب. وكان يقول: «المسائل مخزونة في دماغي كأنها في قمطر. فإذا شئت أن أختم مسئلة أطبق من القمطر طبقًا وأفتح آخر، وإذا جئت أنام أغلق كلّ الطبقات فأنام».

وكان يقول:

ـ «لا أستطيع أن أحفظ بيتًا من الشعر. ولكنِّي أحفظ عن ظهر قلبي جميع ما يتقدّم لي من التقارير عن الأحوال». وكان إذا سأل سؤالاً لا ينتظر ريثما يأخذ الجواب، بل يواصل الأسئلة بعضها وراء بعض. فسأل مرّة سيِّدة في ليلة راقصة سؤال ضابط حدود عن تذكرة مرور: أمتزوّجة أنت؟ ألك أولاد؟ كَمْ ولد لك؟ متى تسافرين؟ والحاصل أنه أخشن من جندي قائد عشرة.

ذهب بدعوة إلى مدينة أورليان سنة ١٨٠٨ فاحتفلوا به من خوفهم منه احتفالاً عظيمًا وأنفقوا نفقات أخربتهم إلى عشرين سنة. وجاء أعيانهم جميعًا يقفون لدى مروره صفوفًا من الجانبين. وتبارى المطران والمدير والقائد وسائر ذوي المناصب في التزلّف والتبصبص. ولمّا كانوا على السفرة التفت نابوليون إلى أحد أعضاء المجلس البلدي، وسأله:

ـ كَمْ يبلغ عدد أهالي المدينة؟

ـ من ٤٠ إلى ٥٠ ألف نسمة مولاي.

ـ أأربعون أم خمسون، يجب عليك أن تعرف ذلك بالتمام.

ثمَّ سأل سؤالاً آخر:

ـ ما هي المسافة من هنا إلى مصبّ جدول أورليان؟

ـ لا أعلم بالتمام مولاي.

ـ بل يجب أن تعلم.

ثمَّ ألقى السؤال نفسه على سائر الحاضرين. فأجاب بعضهم: فرسخ[2] وأجاب الآخرون:

---

(١) Caporal.

(٢) الفرسخ المعبَّر عنه بلفظة Lieue، هو أربعة كيلومترات.

فرسخ ونصف فرسخ. فهزأ بتناقض كلامهم. ثمَّ اندرأ على رئيس المجلس البلدي، فسأله: كَمْ عنده من النقد في الصندوق.

فأجابه: ثلاثمائة ألف فرنك مولاي.

فقال له: جيّد فسأحفظها عندي.

فسال العرق من جسم الرئيس ونقده المبلغ ولم يعد المال إلى مدينة أورليان إلى هذه الساعة. نعم، إنَّ رئيس البلدية أورليان صار بارونًا بأمر الإمبراطور.

أعظم البطون جرمًا

- كانت أمّه «لوتيسيا» تصلح أن تمثّل في مرزح هزلي. وما كان يراه الناس فيها وقارًا أنَّ هو إلاّ سخط وقطوب دائم. وكانت من قبيل الساحرة التي يروّع بها الصغار في رومة، أو من نمط «مادام برنل»[1] شديدة الضنّ سيّئة الظنّ. وكانت في ذات نفسها مغتاظة من نابليون، غير راضية عمّا اتّسق له من الفوز والمجد. أفلم يأخذ نابليون منزلة أخيه البكر يوسف؟ أفيمكن أنَّ الإرث في الأُسر الشريفة الكورسيكية يذهب إلى الأخ الثاني؟ فالإرث عند آل بونابرت هو فرانسة وممالك أخرى. فكان نابليون يبوّئ أخويه يوسف ولوسيين وشقائقه عروشًا[2] ويرقيهم أسرّة هم وجميع الحاشية حتّى يصل الأمر إلى «جونو»[3] هذا الذي لم تكن له أدنى مزيّة. وبعد

---

(١) مادام برنل (Madame Pernelle)، امرأة تخيّلها موليير في رواية تارتوف (Tartuffe) صخّابة سيّئة الخلق.

(٢) والد نابوليون شارل بونابارت، ولد في إجاكسيو من كورسيكا سنة ١٧٤٦ ومات في مونبليه سنة ١٧٨٥ وتأهّل سنة ١٧٦٤ بمارية لتيسيا
راموليـنو هذه الذي يتكلّم عنها أناتول فرانس في هذا الفصل؛ فولدت ثمانية أولاد وماتت هي في رومة عام ١٨٣٦.
والأولاد الثمانية هم: الأول يوسف، ولد في كورسيكا سنة ١٧٦٨ وصار ملكًا على نابولي سنة ١٨٠٦ ثمَّ ملكًا على إسبانية من ١٨٠٨ إلى
١٨١٣، ولمّا انتهى أمر نابوليون في واترلو رحل إلى الولايات المتّحدة ثمَّ عاد منها إلى أوربة ومات في فلورنسة سنة ١٨٤٤. الثاني نابليون
ولا حاجة إلى التعريف به. الثالث لوسيين، ولد في إجاكسيو سنة ١٧٧٥ وصار رئيس مجلس الخمسمائة وبرنس كانينو، ومات في إيطالية
سنة ١٨٤٠، وله ولد هو الأمير بيار بونابارت، والد الأمير رولان المولود سنة ١٨٥٨. ثمَّ الأميرة ماري حنّة إليزة، ولدت في إجاكسيو سنة
١٧٧٧ وتزوّجت بفيليكس باتيوشي الذي صار برنس دولوك، وماتت ماري في تريسته عام ١٨٢٠. ثمَّ لويس وكانت ولادته في إجاكسيو
في ١٧٧٨، صار ملكًا على هولاندة من ١٨٠٦ إلى ١٨١٠، ومات في ليفورنة سنة ١٨٤٦، وهو والد نابوليون الثالث. ثمَّ ماري بولينه المولودة
في إجاكسيو عام ١٧٨٠ وتزوّجت بالجنرال لوكلاك سنة ١٨٠١ ومات عنها فتأهّل بها البرنس كميل بورغيز وصارت دوقة غواستالاّ وماتت
بفلورنسة سنة ١٨٢٥. ثمَّ كارولين ماري أنونسياد، ولدت بإجاكسيو سنة ١٧٨٢، تزوّجت بيواكيم مورا ثمَّ صارت دوقة برغ وكليف ثمَّ
ملكة نابولي وكانت وفاتها بفلورنسة سنة ١٨٣٩. ثمَّ جيروم المولود بإجاكسيو في سنة ١٧٨٤ صار ملكًا على وستفالية من ألمانية من ١٨٠٧
إلى ١٨١٣ وتوفّي سنة ١٨٥٠ وله البرنس نابوليون جيروم، والد البرنس فيكتور نابوليون المولود سنة ١٨٦٢، ولجيروم أيضًا الأميرة ماتيلد
التي ماتت سنة ١٩٠٤. وآل بونابارت طليان ارتحلوا إلى كورسيكا.

(٣) جونو (Junot)، جنرال فرنسوي، كان من مصاحبي نابوليون. وافقه في حروب إيطالية وفي غزاة مصر وأصابه عارض جنون فانتحر
سنة ١٨١٣.

واترلو التجأت أمّ نابليون إلى رومة فكانوا في الأسواق يصفّرون لها. وقالت عنها الدوقة «دالباني »[1] كلمة أرسلتها مثلاً: "هذه المرأة هي أعظم البطون جرمًا في النصرانية".

لا حاجة بي إلى المجد

ـ وبالرغم من هذا كلّه فكان عند نابليون حسّ عظيم بالمعقول وبهذا تمكّن من الشعب. وأكثر ما يظهر إدراكه لروحية الشعب هو في تنقيحاته للمونتيور الجريدة الرسمية. فكانوا يقدّمون له المسودّات فيملأها تطليسًا وتنقيحًا بملاحظات سديدة فصيحة. مثلاً، أثناء حرب إسبانية كتب محرّر الجريدة هذه العبارة: "إنَّ الإمبراطور بقوّة أقلّ جدًّا من قوّة العدوّ، أحرز عليه نصرة تامّة" فكتب على الحاشية: "يا حيوان!" أنا لست محتاجًا إلى مجد وعندي منه ما يفضل عن حاجتي، وإنَّما أنا محتاج أن يُظنّ أنَّ عندي جنودًا، ممّا ليس عندي في الحقيقة" فضرب على الجملة بقلمه وكتب: "وزحف الإمبراطور بعساكر أكثر جدًّا من قوّة العدوّ فأحرز عليه نصرًا مبينًا".

ومثال آخر: كتب إليه أحد المديرين من ولايات الجنوب أثناء حوادث انتقاض على الحكومة: "إنَّ الثوّار اعتصبوا بالأحراج فأرسل الشرطة في أثرهم، وإنَّه يرجو أن يتمكّن من القبض على البُلُط[2] وسوقهم إلى الثكنة" فأجابه: "بأن يترك الجمّاح[3] وشأنهم لأنهم لا يكونون عساكر حيادًا وعند أول طلقة مدفع يولون الإدبار. ولكن ليرسل الشرطة لأنَّ هؤلاء على الأقلّ عسكر".

الرجل العظيم ليس برجل

ـ كان مضحكًا وكان عليلاً. وقد مات كلّ من أبيه وجدّه بالسرطان. فورث منهما الرخاوة وشيئًا من العُنّة. فكان هذا الرجل العظيم غير رجل في هذا المعنى أو قليل الرجلة. وما على المستطلع إلاّ أن يقرأ ورقة الضبط التي حرّرها الجرّاحيون الإنكليز عند الكشف عن الجثّة. فقد تولاّهم الدهش من منظر جسد نابليون الأنثوي. وما كان طول حياته يعبأ بالنساء وإنَّما عشق امرأة واحدة وهي: الحرب والمجد. فهو كسائر المستبدّين سلب الدنيا راحتها لِما وجده من النقص

(١) دالباني (d'Albany)، من بلاد الأيكوس.
(٢) الفارّون من العسكر.
(٣) الجمّاح: هم الفارّون من الحرب لا يمكن ردّهم.

في نفسه. أتعرف لماذا نمّق جان جاك كتابه «التواثق الاجتماعي»؟ هو لأنه كان ساخطًا على الدنيا فيريد أن يشعل النار في أطراف الأرض. وتجد في الشرق أنَّ الخصيان هم الذين أحدثوا كلّ الثورات والحال هكذا عندنا، فبعد سنة ٨٩ [1] كان اللقطاء والمنابَذة [2] والحُدْب والعرج والمقعدون وذو العنّة هم الظاهرين في ميدان السياسة. ولم يكن نابوليون بهذا العجز كلّه عن النساء ولكنَّه لم يكن مسلّة فرعون. فلو افترضنا أنه أحبّ أو تعلّق قلبه أو أحسّ بهذه العواصف وتلك السكرات التي يشبّهها أفلاطون بـ «خيل جامحة بعجلة النفس» فلم يكن عنده الوقت اللازم لمثل هذه الحالة، بل كانت حياته نوعًا من حياة الكلاب، فقد كان يكتفي من الرقاد بثلاث ساعات لا غير وينهك جميع الناس الذين حواليه. فهو لم يكن بشرًا ولكن آلة صمّاء متحرّكة.

اتفّق له مرّة وهو بمصر أنه صبا إلى امرأة وهو معها على المائدة، فلم تكن نفسه عنها بنجيحة حتّى أمسك بإبريق الماء وصبّ منه على ثوبها، ثمَّ ذهب وإيّاها إلى غرفته بحجّة أنه يريد أن ينشف الثوب وزوجها قاعد ينتظرها.

عجز قيصر

ـ هذه الجزيرة، سانت هيلانه، تظهر لنا في خلال غيوم التاريخ نظير جبل سيناء. ويكفي أن ندقّق النظر في التقارير والتذاكر المخلّفة عمّن رافقوا الإمبراطور إلى منفاه وفي «الميموريال» [3] نفسه لنعلم الصورة المضحكة التي انتهت بها هذه المأساة. ولم يكن السير «هودسون لو» من اللؤم والخبث إلى الحدّ الذي زعموا، ولكن أسيره كان لا يطاق. فقد كان يظنّ نفسه لا يزال عاهلاً. ومن قبل نفيه إلى سنت هيلانه عندما كان في «ألبا» أقام هذه الجزيرة وأقعدها. فشرع في حفر مرفإ وامتهاد طرق وسنّ قانونًا لأهل الجزيرة. ولو تركه سجّانه في سنت هيلانه يركب رأسه لكان حوّل الجزيرة إلى مقاطعة فرنسوية. وفي الحقيقة كان يذوب حسرة على فقده الحكم والقدرة على العفو وعدم إمكانه توبيخ الوزراء وإعلان الأوامر، وفرض الضرائب، وإحباط المؤامرات. فحركة هذا الرجل كانت من الأعاجيب وكان فيها شيء من المرض. ولا شكّ أنَّ السبب فيها راجع إلى التواء في أصل بنية الرجل. وممّا لا يخفى عليك أنه كان مقتصدًا جدًّا في

---

(١) الثورة الكبرى.

(٢) الذين لا يُعرف لهم أصل.

(٣) الميموريال (Mémorial)، هو تأليف بقلم «لاس كاز» يجمع أحاديث نابوليون عمّا لقيه في كلّ أدوار حياته.

الباه، فقد أحبّ جوزيفين[1] وصبا قلبه مرّتين أو ثلاثًا ولكن هذا قليل جدًّا على إمبراطور مثله. وتأمّل كَمْ كان يتأتّى له من هذه الفرص بمكانه هذا! أمّا هو فقد كان يفرّ من هذه الفرص بدلاً من أن يتورّدها.

وكانت سيرته نحو "كوستين" الفتّانة سيرة جندي قائد عشرة من كورسيكا. فبينما كانت مرّة مع جميع نساء الحاشية في التويلري وقد قمن صافّات بين يديه إذ مشى نحوها وخاطبها بصوت جافّ كأنه صوت معلم رديف:

ـ هل تحبّين دائمًا الرجال؟

انظر إلى مقدار غِلَظ هذا الرجل الذي يخاطب سيِّدة بمثل هذا الكلام وينسى أنه ملك ملوك.

فأجابته:

ـ نعم، مولاي، لا سيّما إذا كانوا مهذّبين.

لله درها من صبيّة أخذت بثأر جنسها. فلا يوجد رجل ذو أخلاق يستجيز هذا الفعل، ولقد تركته بجوابها حائرًا لا يدري ما يقول. وفي الواقع كان لا يهوى النساء، بل يحتقرهن. ومن الناس مَن يقول: "لم يكن يهوى لعدم انتداح الوقت له" والمسئلة أبسط من هذا. أنه لم يكن يهوى النساء لنقص في خلقته. ونظيرُ جان جاك كانت عبقريّته من قبل نقصه. وأنَّ الطبيب الذي كشف عن جثمانه عند تحنيطه لم يذر شيئًا مجهولاً من هذا الأمر. فقد قرّروا أنه لمّا وُضع جسم الإمبراطور مجرّدًا كانت هيئته هيئة نسوية وكان البطن متمدّدًا أكثر من المعتاد. فإذا كان ابن "لاتيسيا رامولينو" قد شعّث الدنيا وجعل عاليها سافلها وأسال الدماء كودق السماء فما ذاك إلاّ من أنه كان سريسًا[2].

جوبيتر أشبه بسكابين[3]

كان نابليون يضرب بعرقه إلى تلك الأمّة المتقلّبة المتلوّية الولود التي لها مزيّة إنبات

---

(1) جوزيفين (Joséphine)، كانت زوجة الكونت دو بوهارنية (De Beauharnais) فقُتل زوجها في الثورة الفرنسوية فتأهّل بها الجنرال بونابارت سنة ١٧٩٦، وصارت إمبراطورة سنة ١٨٠٤ ثمَّ طلّقها نابوليون لخمس سنوات من زواجهما وتزوّج بماري لوز، ابنة فرانسوا الثاني، امبراطور النمسا. وهذه، بعد واترلو تزوّجت بالكونت نيبرغ كما تقدّم ثمَّ بالكونت بومبيل (Bombelles)، وماتت سنة ١٨٤٧.

(2) عاجزًا عن الباه.

(3) سكابين (Scapin)، شخص خيالي اخترعه موليير في إحدى رواياته يمثّل الخبث والطمع والاحتيال مع مزيد الحذق واللبق في التصرّف.

القياصرة والباباوات والمغنّين والطهاة والساسة... "كاساندر"[1] والدكتور "تارتاليا"[2] و"ماكيافل"[3] و"مازرين"[4] والأب "غالياني"[5] و"پاسكين"[6] وغيرهم.

وكان أبناء وطنه يعرفونه ـ أبناء وطنه هم الطليان لا الكورسيكيون ـ فلمّا تردّد البابا في أمر السفر لتتويجه قال له الكرادلة: يجب الذهاب أيّها الأب المقدّس، يجب الذهاب. لأنّ هذا الرجل هو طلياني ونحن نؤيّده على البرابرة. فجاء البابا وتوّجه، وكانت مأساة مضحكة كما قال ألفريد دوڤيني. وهو الذي سمّاه: جوبيتر سكابين. لأنه كان مهرّجًا وكان عظيمًا جدًّا. وهذا الذي يُطرب الشعب. وكان يشبه لويس الرابع عشر لأنّ الملك الشمس[7] كانت له حفلة

---

(١) ملك مكدونية ثمّ ملك مكدونية ويونان معًا، تزوّج بتسالونيسة، أخت الاسكندر، وأهلك جميع أسرة هذا الفاتح.

(٢) مهندس رياضي طلياني.

(٣) ماكيافل (Nicolas Machiavel)، كاتب سياسي طلياني، ولد في فلورنسة سنة ١٤٦٩ وبقي ثلاث عشرة سنة ناموسًا للجمهورية الفلورنسية وناب عن وطنه في ٢٣ سفارة وأنفذ بمهمّ إلى قيصر بورجيا سنة ١٥٠٢ ثمّ إنّه نكب بعد رجوع الأمراء آل مديسيس ونُحّيَ عن منصبه وعُذّب واضطرّ إلى المعيشة في القرى فانصرف إلى التأليف وصنّف كتبًا عديدة اشتهرت بين الناس. وكان محور آرائه السياسية أنّ الغاية تبرّر الواسطة، وأنّ الدولة هي كلّ شيء وأنّ على الإنسان عند مسيس الحاجة أن يضحّي كلّ شيء في سبيلها فيبذل المال والدم والشرف وكلّ غالٍ لأجل إعلاء شأن الدولة التي هو من تبعتها. وسمّي هذا المذهب ماكيافيليسم وصار يعنى بهذه الكلمة حصر الاهتمام كلّه بالغاية والوصول إليها بأيّة طريقة كانت: وقد نشر فريدريك الكبير، ملك بروسية، كتابًا سمّاه "ضدّ ماكيافيل" ينقض فيه آراء هذا في كتابه المسمّى "بكتاب الأمير" الذي يزعم فيه أنّ كلّ شيء جائز لأجل الملك. واصطلح ماكيافل مع آل مديسيس في آخر عمره وكتب تاريخ فلورنسة في عدّة أجلاد، ومات سنة ١٥٢٧.

(٤) مازرين (Jules Mazarin)، أصله من عائلة صقلية استوطنت رومة، ولد سنة ١٦٠٢ وتعلّم عند الجزويت ونشأ باهر الذكاء فاستعمل في السفارات البابوية إلى أن جعل قاصدًا للبابا في فرانسة (١٢٣٦) فأقام بهذه الخدمة مدّة ثمّ دخل في خدمة الملك لويس الثالث عشر الذي بواسطته صار مازرين كردينالاً، ولمّا مات لويس الثالث عشر سنة ١٦٤٣ وتولّت كفالة الملك الملكة حنّة الأوسترية كانت كلمة مازرين عندها هي الأولى. وهو الذي عقد صلح وستفالية الذي انتهت به حرب الثلاثين سنة ١٦٤٨. ثمّ اختلف والبرلمان فأقام البرنس كوندي ضدًّا للبرلمان. ثمّ وقعت الوحشة وبينه وبين كوندي فهاج عليه البرلمان حتّى اتّفق الجميع عليه أخيرًا واضطرّ إلى الخروج إلى كولونية من ألمانية. ولكنّه بقي يدير السياسة سرًّا من منفاه. ثمّ جاء إلى باريز ونصّب تورين في وجه كوندي، ثمّ نشبت الحرب مع أسبانية فتحالف مع كرومويل وتغلّب على الإسبانيول وأضاف إلى فرانسة عدّة مقاطعات من أسبانية وألّف عصبة الرين التي ضمنت لفرانسة نفوذ الكلمة في ألمانية. ومات في سنة ١٦٦٨ وخلّف ثروة طائلة وهو الذي ربّى لويس الرابع عشر وعلّمه السياسة وزوّجه ماري تيريز الإسبانيولية وجعل هذه القربى بين البلاطَين.

(٥) غالياني (F. Galiani)، اقتصادي طلياني شهير، ولد سنة ١٧٢٨ ومات سنة ١٧٨٧، ومنذ كان في سنّ السادسة عشرة بدت عليه أمائر النبوغ واتّصل بأكابر العلماء فقدّروا قدره. وفي سنة ١٧٥٩ صار كاتبًا في سفارة بلاده بباريز وكان حزقّةً مفرط القصر، فكان رجال السياسة في البداءة يضحكون منه إلى أن عزم على الخروج من باريز ولكنّه لم يلبث أن استعاد ببسطة العلم ما فاته من بسطة الجسم، وصار له مزيد الحظوة في أندية باريز الأدبية والفلسفية بحسن محاضرته وسرعة حاضره وحرارة نكتته وكثرة تهريجه حتّى قال فيه "غريم"، الكاتب الألماني: "هو أفلاطون في أطوار آرليكن" (المراد بأرليكن الرجل الذي ليس له مبادئ معروفة). وقال "مار مونتيل"، الكاتب الفرنسي: "هو ألطف وأصغر آرليكن أنجبته إيطالية لكن على مناكب هذا القزم كان رأس ماكيافل" وترك غالياني مؤلّفات كثيرة في السياسة والحقوق الدولية وعلم الاجتماع وبعض روايات، ومات عن ٥٩ سنة. وكان يقول: مات جميع أصحابي ولا عيشة للإنسان بعد أصحاب. وهي كلمة حقّ لأنّ معيشة الإنسان ضنك إذا ذهب عشراوه.

(٦) نحّات في رومة، كان أجاد نحت تمثال فنُسب إليه. وكان السفهاء يذهبون ليلاً إلى التمثال فيكتبون عليه هاجرات بحقّ البابا والكرادلة.

(٧) هكذا كان يلقّب لويس الرابع عشر في بلاده.

تكفير ونصرات في الحروب وحظايا ومصائب، ومات ميتة ذات جلال... وإذا كان لنابوليون عبور «البيريزينا»[1] فلويس له عبور الرين وكلّ منهما تخاصم مع البابا. إلاّ أنَّ الملك كان دائمًا وقورًا حتّى في اللعب بالبيليياردو وكان قاهرًا للمسخرة وكان يحفظ شَعره العاريّة ولا يزال الإنسان يراه شريفًا سريًّا ولو على الكرسي المثقوب من أسفل. فإنَّ القروح لا تجعل الرجل الشريف ضحكةً ولو كان «ميشله»[2] قال بعكس ذلك.

أمَّا نابوليون فلولا العوام و«بيرانجه» لم تكن له هذه المنزلة.

فقلت له:

ـ وماذا تقول في خطبه وترسّله.

ـ كلّ هذا مزوّر يا حبيبي. كان عنده عصابة من الثقلاء يحفّظونه هذه الأشياء ويروون عن لسانه كلمات تاريخية: فإذا أراد هو التفاصح كان شيئًا باردًا جدًّا. كان يا ابني لا يعرف الإفرنسية ويرطن رطانة الطليان الذين يتكلّمون بلغتنا (وعدَّ له أغلاطًا اشتهرت عنه في هذا الموضوع).

❁ ❁ ❁

جعل لي أنفي أعوج

صوّر مصوّر اسمه «كاريير Carriere» الأستاذ أناتول فرانس مرّة فرمى هذا بالصورة في مشلّح[3] الحمّام. فقالت له العقيلة:

ـ كيف ساغ لك أن ترمي في مثل هذا المكان قطعة فنّ من كاريير؟

ـ وأيم الله إذا كانت هذه قطعة فنّ فليست على كلّ قطعة فنّ في المشاكلة قد عمل لي أنفي أعوج.

ـ قد عمله كما شاهده يا سيِّدي.

ـ مثّلني في يحموم من الدخان وفي فمي صنبور أدخّن به مع أني من عشر سنوات ما دخّنت إلاّ بسيكارات عقاقيرية.

---

(1) البيريزينا (Péresina)، نهر في الروسية.

(2) ميشله (Jules Michelet) المؤرّخ، أشهر مؤرّخ إفرنسي في الأعصر الحديثة جمع سعة الاطّلاع إلى قوّة التخيّل وسحر البيان فيقال إنَّ التاريخ الماضي بين يديه كاد يكون بعثًا بعد الموت. ولد سنة ١٧٩٨ ومات سنة ١٨٧٤ واشتهر بحريّة المشرب فمنعوه من التدريس لمعهد الإمبراطورية. وله مؤلّفات كثيرة في التاريخ من أشهرها تاريخ الثورة الكبرى.

(3) المشلّح: حجرة في الحمّام تُخلع فيها الثياب.

ـ إنَّه من الإثم أن تترك صورة كهذه في محلّ مهمل كهذا

ـ نعم، وكلّما نظرت إليها فهمت لذّة ابن آدم بهذه الحياة المحزنة.

برلين ثكنة عسكرية

قال:

ـ برلين مدينة جميلة منتظمة حسنة الاختطاط. ولقد علمت رأيي هذا بدون شكّ من بطائقي البريدية[١]، إلاّ أنه ليس فيها بناء واحد ذو هندسة خاصّة به. فالقصور ودور التحف والكنائس تحسبها نسخة عن مثلها عندنا. ولكن هناك مخازن عظام كُبّارة، بجانبها «بون مارشيه» و«اللوفر» اللذان عندنا، تعدّ أصداف جوز. وفي هذه المخازن لا تجد ما تلبسه فقط، بل تجد ما تطعمه. وأنَّ الفرنسي يجد نفسه في برلين غريب الديار لكن البرليني لا يخلو من رقّة. فإنَّهم كانوا يعرفونني كانوا يوسعونني بِرًّا وتكريمًا. على أنَّ الرفق هو في الجملة بعيد عن المشاة في شوارع برلين. فكَمْ من مرّة برغم شيخوختي وبياض شعري كان يصدمني أحد المارّة صدمة هي من العنف بحيث لا أستمسك على الرصيف. وأكلت ذات يوم ضربة على جهة الكبد في أثناء زحام، فكدت أهوي تحت العجلات، وبدلاً من أن يعتذروا لي، أفهموني أنَّ الخطأ هو منّي وأنني خالفت القواعد. لأنَّ في ألمانية بلاد النظام رصيفًا للصاعدين ورصيفًا آخر للنازلين. وأطلعوني على راهنامج مطبوع فيه بيان هذا... فكلّ الناس مأمورون بطاعة هذا الراهنامج بدون استثناء، إلاّ ضبّاط الجيش، فإنَّ هؤلاء لا يقاس بهم غيرهم. وقد سألت أصحابي البرلينيين الذين كانوا أحفياء بي جدّ الحفاوة: «فماذا يصنع على هذه الحال الساهون والشعراء والعشّاق؟» فأجابوني: «يذهبون إلى مركز الشرطة ويؤدّون الغرامات وقد ينامون في الحبس» فعاصمة ألمانية هي أنموذج النظام، لا تراعي خليلاً ولا في المنام. ومَن كان عاشقًا أو شاعرًا أو كان عقله سائحًا، فليذهب إلى البرّية.

ولأجل جريدة، نسيناها على مقعد في «تيرغارتن»[٢] جاء الشرطيّ وعمل معنا قصّة. ولحسن الحظّ كانت العقيلة تعرف الألماني مثل غوته[٣]، فتكلّمت معه ولمّا فهم أننا فرنسيس رقّ

(١) Cartes Postales.

(٢) تيرغارتن (Tiergarten) ومعناه جنّة الحيوانات. من أجمل شوارع برلين.

(٣) غوته (Gœthe)، أكبر شاعر ألماني ومن أكبر شعراء الكرة الأرضية، فخر اللغة الألمانية والمتكلّمين بها. ولد في فرانكفورت على المين (اسم نهرها ويقال لها ذلك تفرقة لها عن فرانكفورت أخرى) سنة ١٧٤٩ وتوفّي في فايمار في ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢، وهو سليل عائلة مليئة محترمة، بدت عليه منذ نعومة أظفاره علامات النبوغ وكان أكثر ميله إلى الآداب وأثّرت فيه لذلك العهد كتابات لسينغ، الأديب الألماني المشهور. ودرس نحو ثلاث سنوات في لايبسيغ ثمَّ تحوّل إلى ستراسبورغ، حيث كان من رفاقه هردرولانس وفاغنر وغيرهم من فحول =

خلقه وعذر فعلتنا هذه، بما نحن معروفون به من الطيش، وبأنَّ فرانسة بلاد لا نظام فيها ولا قيد، يتبختر الفوضويون فيها يمينًا وشمالاً كما يشتهون. وانتهت القضيّة كما هي العادة دائمًا بنُحلان صغير [1]. على أنني التزمت أخذ الجريدة بيدي طائعًا منقادًا إلى سلّة الخيوط الحديدية

= علماء ألمانية: وقرأ التوراة وشعر شكسبير وفنّ الأدب الألماني في القرون الوسطى. واتّصل سنة ١٧٧٥ بخدمة الغراندوق كارلوس أغسطس، أمير فايمار، ووزر له وهناك تدفّق بحر قريحته، فأخرج أبدع ما كتبه ألماني من نظم ونثر، فدوّى ذكره في كلّ البلاد وتناقلت كتبه الناشئة من قاصٍ ودانٍ. وقيل إنَّ قصصًا نمقه بلغ من تأثيره في شبّان عصره أنَّ منهم مَن انتحر بسببه. وسنة ١٧٨٦ سافر إلى إيطالية، فصنّف وهو في فلورنسة كتبًا عديدة ثمَّ صنّف في رومة. ولم يقتصر على القصص والروايات والفنون الأدبية، بل ساقه الشغف بجمال الطبيعة إلى النظر في التاريخ الطبيعي والتشريح. ولمّا ثارت الثورة الفرنسوية رأى فيها غوته بادئ ذي بدء انفجار نفوس غضبية، إلاّ أنه لم يلبث أن فهم أهمّيتها وما حدث بها من الانقلاب في أوربة. وكان يكره شيلر، الشاعر الألماني الكبير، الذي كان له في العبقريّة ثاني اثنين. ويقول إنَّ شيلر غمر ألمانية بسيل من التناقضات الاجتماعية. إلاّ أنهما تلاقيا ذات يوم في فايمار وتجادلا في بحث فلسفي على تحوّل النبات. فكان هذا الاجتماع وسيلة للتعارف والتوارد وصارا يدًا واحدة وتباريا في إخراج البدائع كلٌّ من جهته. وقد كتبا بعض التآليف معًا وما زالا كالشخص الواحد إلى سنة ١٨٠٥ إذ مات شيلر فحزن عليه غوته حزنًا لا يوصف. وكان يقول إنَّه فَقَدَ بموته نصف نفسه. وكان مع اشتغاله الدائم بالنظم والنثر وزيرًا للأمير في فايمار لا يألو جهدًا في خدمة وطنه في تلك الأيام العصيبة وفي حروب نابوليون. وقد تعارف غوته معه وقال له نابوليون عندما فارقه: «أنت رجل ناهيك من رجل يا مسيو غوته» ثمَّ اشتغل بالعلم الطبيعي ونشر كتابًا في الألوان، مخالفًا به رأي نيوطن في النور. وكان يراقب مجرى الحركة الفكرية في عصره ويجتهد في ترقية الأدب الألماني ببثّ روح النقد والتحقيق ونشر محاسن آداب الأمم الأخرى فيما بين الألمان. وبعد أن كتب ما لا يكاد يُحصى من الكتب والرسائل التي ملأ بها الآفاق مات في فايمار وقد بلغ مجده النهاية. وكان ذلك في أوائل أيام الربيع فقيل إنَّه في ساعاته الأخيرة رأى السجوف مسدولة على النوافذ فأمر بإماطتها وهتف. «النور. النور. زيادة من النور أيضًا» وهذه كانت أخريات كلمات ذلك الرجل الذي قضى حياته يجد في زيادة الاطّلاع واستيراء أنوار الحقائق وفي استقصاء أحوال البشر والتأليف بينهم وبين طبائع الوجود. وندر أن يكون قلب أحد شغف بحبّ الجمال والحقّ ما شُغفه قلب غوته. ووقع انطفاء هذا النور في عام ١٨٣٢. وسأُلحق هذه الخلاصة من ترجمة غوته بهذه النكتة.

وهي أنني سنة ١٩١٧ كنت في ألمانية، فدعتني الحكومة الألمانية إلى زيارة عواصمها ومدائنها الشهيرة مثل هامبورغ ولايبسغ ومونيخ وفرانكفورت وكولونية...إلخ، وبعثت نظارة الخارجية من برلين بأوامر إلى تلك المدن لإجراء ما يجب من الاحتفاء الذي لسنا الآن بصدده وإنَّما أذكر من جملة ما كانوا يتوخّونه من أسباب الحفاوة بالزائر، الطواف بدور التحف العديدة والقصور الفاخرة والمنازل التي كانت لأعاظم الرجال، كبيت غوته في فرانكفورت. ولمّا أدخلونا إلى هذا البيت، دفعوا إليّ الدفتر المعتاد أن يقيّد فيه الزائر اسمه أو أن يكتب فيه خاطرًا يعنّ له، فبدلاً من الاكتفاء بوضع اسمي وتاريخ زيارتي راعيت صفة صاحب هذا البيت فاخترت أن أنظم هذا التذكار شعرًا. وكأنَّ شيطان الشاعر الأكبر أحسَّ بما كان يخالج قلبي فأمدّني بنتف من عبقريّته، فكتبت الأبيات الآتية بدون أدنى تأمّل، كأنَّما كنت أوقّع بإمضائي، إلاّ أنَّ البيت الأخير ليس لي، فأردفت الأبيات به من باب التضمين وهي هذه:

مذ قيل هذا بيت غوته زرتُه	إذ كان للشعراء كعبة قاصدِ
هو سيِّد الشعراء عند قبيلِه	منه بجيد الدهر عقدُ فرائدِ
طأطأت رأس قريحتي في بابه	ولكَمْ رأت عتباتهُ من ساجدِ
إن لم يكن من أمّتي وعشيرتي	فالناس في الآداب أمّة واحدِ
أو فاتنا نسبٌ يؤلّف بيننا	أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ

وبعد مجيئي إلى برلين بأيام، أخذ بعض الأصحاب يطلعني على جرائد برلينية كالفوسيشي تسايتونغ وجرائد من فرانكفورت ومن هامبورغ وغيرها فيها وصف زيارتي لبيت غوته ونظمي هذه الأبيات ارتجالاً وترجمة الأبيات بالحرف.

وظهر أنَّ بلديّة فرانكفورت هي التي انتدبت العلاّمة المستشرق الأستاذ هوروفيتز، مدرِّس العربية في جامعة فرانكفورت لترجمة الأبيات إلى الألمانية، وهو من الأدباء الراسخين في العربية، سبق له تدريس هذه اللغة في عاليكر بالهند، كما أنه سبقت له ترجمة كثير من الشعر العربي، من جملته ديوان الكميت. فنشر الأستاذ هوروفيتز على هذه الزيارة وهذه المقطوعة مقالة ذهب فيها مذهب الغلوّ وجعل عنوانها «من شاعر الشرق إلى شاعر الغرب» وأين الثريّا من الثرى، وأين اللآلئ من الحصى.

(1) Pourboire.

المعدّة لوضع الأوراق. فأخذت العقيلة تتنهّد وتقول: «آه، لو كانت معي الآلة الفوتوغرافية، فكنت أحفظ بها هذا التذكار شاهدًا على الفظاظة الجرمانية» أمّا أنا فكنت أضحك.

أفجاءتك بطاقتي البريدية عن وصف مرور الحرس أمام القصر؟ كان ذلك حقًّا منظرًا من مناظر قرون غبرت. وكان المطر يومئذ كما هي عادة برلين في المطر. فالسماء دانية للأرض قاتمة والغيث يسح بالأسطال والأرطال والأطنان[1]. وكنت أكاد أعجز عن حمل مظلّتي. وإذا بالحرس مارًّا بجميع طنطنته العسكرية وبالبوق والطبل كأن لم يكن شيء. وكانت جزمات الجنود تقرع الأرض والماء يسيل من الحمَّر الذي كانت مبلّطة به الطريق ويلاقي الماء النازل من السماء. فكان منظر هؤلاء المساكين يذكّرني بشخوص النحاس التي على حياض قصر فرساي. وكان شيئًا مضحكًا فأتذكّر واحدًا يقرع بالطبل، على رأسه خوذة مستطيلة عريضة بحجم الولد والمطر يسيل عنها كما يسيل عن فَقار سقف مسنّم. وكنت أرى الماء على أنفه وسباله، أشبه بشلاّلات صغيرة وهو مع ذلك ماضٍ غير مبالٍ يضرب بعصاه وهي تعود مدفوعة بالهواء. فلمّا شاهدت هذا المنظر، أحسست بجرحٍ في عواطفي القومية وتضرّعت إلى عظيم القدرة وأنا تحت مظلّتي بهذا الدعاء: «إن كنت يا إلهي موجودًا، فازكم هذا الطبّال الغِطريس واجعله يفطس في وسط العرض أو فلتصطكّ تفّاحة عصاه الثقيلة على وجهه الصفيق» ولكن يا للأسف، الآلهة لا يسمعون دعاء الأبرار، بل يتسلّون بإظهار الجور على العدل، فإنّني أنا يا ولدي كنت الذي أصابه الزكام، بمجرّد رؤية هذا الضارب بالطبل.

ودخلنا عصر يوم إلى قهوة وطلبنا جعة. فإذا بصاحب القهوة أقبل مغيظًا يقول: «يجب أن تخرجوا من هنا، لأنَّ هذا المكان خاصّ بالضبّاط»، فقالت العقيلة: «قل لهم إنَّك ضابط في جوقة الشرف» فاخترت التحوّل إلى قهوة أخرى.

وهؤلاء الضبّاط هم في الحقيقة آفة برلين. ولولاهم كانت الحياة فيها مقبولة. فلا يرى الإنسان غيرهم ولا يسمع نغية سواهم ولهم الصدر في كلّ مكان. وإذا كنت في المركبة الكهربائية أو العجلة الحافلة، يمرّون قبلك ولو كنت قاطعًا ورقة من الدرجة الأولى. فهذه أمور لا تتأتّى في باريز، فلو أنَّ ضويبطًا في باريز، استجاز أن يصدم عجوزًا في طريقه، لأوقع به الناس. ومع هذا، فالضبّاط فيهم هناك شيء أعلى ممّا فيهم هنا.

وفي برلين مطاعم وسط جنان، أكثرها في الضاحية، وهي برهو أسعارها وفراهة خدمتها ولذاذة طعامها، ممّا يندر نظيره. فتأتي إليها العائلات والأخدان وتجد لكلّ عائلة مائدة خاصّة بها تحت الشجر. وكلّ مَن هناك يتمتّع بحرّيته، كأنه في مخدعه الخاصّ. وأحسن أوقاتها هو فصل

(١) الطنّ بالعربي حزمة القصب والعلاوة بين العدلين، وعند الأوربيين الطنّ (Tonne) مقدار ألف كيلوغرام.

الصيف كما لا يخفى. فيتذوّق الإنسان طراوة الليل وطيب الجعة وبهار الأطعمة وألحان الموسيقى. ولست ذا مسكة في علم الموسيقى ولا لي أذن ولكن العقيلة في هذا المعنى تدلي بملكة قوية. فقد أخبرتني أنهم يصدحون هناك بالموسيقى العالية لأشهر أرباب الفنّ: «باخ»[1] و«بيتهوفن»[2] و«ڤاغنر»[3] و«شومان»[4] و«ليتز»[5] أمّا أنا فمثل «كانت»[6] الذي كان قليل التمييز في الموسيقى ولم يكن يشعر إلاّ بالموسيقى الغليظة أي العسكرية.

(١) باخ (Sébastien Bach)، من أعظم موسيقيّي الألمان عائلة (Bach) ظهر فيها عدد من نوابغ هذا الفنّ إلاّ أنّ أبعدهم صيتًا جان سباستين باخ، (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠).

(٢) بيتهوفن (Beethowen)، ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٢٧ بفينا، وكان أبوه منشدًا في كنيسة أمير كولونية. ولم يمل قلبه في مبدأ أمره إلى فنّ الألحان، إلاّ أنّ مطالعة كتب باخ وهندل بعثت فيه الغرام بالموسيقى فجاء إلى فينّا ولزم موزارت فتفرّس موزارت فيه النبوغ. فأخذ عنه وعن معلّم آخر اسمه شنك وقضى أكثر حياته في قرية بادن بقرب فينا. وتفوّق بالموسيقى الآليّة وألّف ٣٥ قطعة للبيانو وكان يجمع الفصاحة إلى حسن الإيقاع وأُصيب أخيرًا بالصمم.

(٣) ڤاغنر (R. Wagner)، ولد في لايبسيغ في ٢٢ مايو سنة ١٨١٣ ومات في البندقيّة سنة ١٨٨٣ ومال في حداثته إلى الأدب وألّف في سنّ الخامسة عشرة رواية تمثيلية. إلاّ أنّ مطالعة ألحان بيتهوفن صرفته إلى الموسيقى فأخذ يجتهد فيها ملازمًا دار الألحان في لايبسيغ ومواظبًا على الوضع والتأليف. وتنقّل في عدّة بلاد كونيكسبرغ ودرسدن وريغا ثمّ جاء إلى لندرة ثمّ استقرّ بباريز سنة ١٨٤١ وقيل إنّه على أثر عاصفة في البحر ألقى في روعه بعض ملاحن نظم من أجلها «السفينة الطيفية» ولم يحصل لتآليفه إقبال في البدء لكن بعض منظوماته أخذت تثير الرغبة في درسدن فجعل فاغنر رئيسًا لمنشدي المرزح في تلك البلدة ومنشدًا روحيًا لملك الصاكص. ولمّا حصلت حوادث سنة ١٨٤٨ في ألمانية على أثر ثورة باريز كان فاغنر ممّن اتُّهم بالشغب وعُرف بنزعة التجدّد فحُكم عليه بالصلب، وهرب إلى زوريخ فنظم هناك ألحانًا ووضع إيقاعات أحدثت انقلابًا حقيقيًا في الموسيقى الألمانية ولُقّب بـ «مطرب المستقبل» وألّف كتبًا تشير إلى منزعه هذا نظير «الفنّ والثورة» و«ثمرات الفنّ في المستقبل» وغيرهما. وبقيت حركة فاغنر الموسيقية غير مؤثّرة في فرانسة، بل قد جرّب تلحين أناشيده في بعض مرازح باريز فلم تصادف إقبالاً وتعنّت عليه الفرنسيس كثيرًا فلم يكن ينسى لهم تحاملهم هذا إلى آخر حياته. وأقبل على فاغنر لويس، ملك الباڤيا، وأجرى عليه راتبًا وفتح له مرزح مونيخ فكان أحسن مضمار لجواد قريحته. وسنة ١٨٧٦ أسّس فاغنر مرزحًا في مدينة بايروت (Baireuth) ليكون مستقلاً به وطبقت شهرته الآفاق ووقع على رئاسته الاتّفاق. وهو معدود من أعظم مبدعي هذا القرن والفضل لله «يزيد في الخلق ما يشاء» وقُرئ «يزيد في الحقّ ما يشاء».

(٤) شومان (Schumann)، موسيقي ألماني مولود في «سويكاو» من بلاد الصاكص سنة ١٨١٠ وكانت وفاته سنة ١٨٥٦. كان فيه نزعة فطرية إلى الموسيقى فتعلّم أصولها بنفسه بمطالعة هايدن وموزارت وبيتهوفن، وجدّ كثيرًا في هذا الفنّ محاولاً أن يبلغ درجة باغانيني في العزف بالبيانو، إلاّ أنّ عارضًا أصاب يده اضطرّه إلى ترك هذه الآلة وتجرّد للتأليف وكان يصدر «الصحيفة الموسيقية» ولا تعاب مقاطيعه إلاّ بقصرها، حال كون الأوربيين يحبّون الإطالة كما لا يخفى، والعرب إذا أرادوا ضرب المثل بالطول قالوا: «مثل الموّال الفرنجي».

(٥) ليتز (Liszt)، موسيقي مجري خارق للعادة كان لا يُجارى في البيانو، صار في الآخر قسّيسًا فنظم من الأناشيد الروحية كلّ نادرة ولم يُقلع عن التطريب الدنيوي، (١٨١١ ـ ١٨٨٦).

(٦) كانت (Kant)، فيلسوف ألماني رياضي، من أعظم مفكّري العالم وأعمقهم تأثيرًا في قومه. ولد في كونيكسبرغ سنة ١٧٢٤، وكان أبوه سروجيًا فقيرًا، فكان له عمّ ذو يسار هو الذي علّمه على نفقته وتغرّب عن بلده قليلاً ثمّ عاد إليه ولم يبرحه حتّى مات سنة ١٨٠٤ وكان لا يفارق مخدعه إلاّ إلى المدرسة حيث يُلقي الدرس الذي عليه ويعود فورًا إلى بيته. وبدأ بالتبحّر في الرياضيّات ثمّ في الفلسفة. ولم يكن يستحسن فلسفة فولف الحُكمية ولا فلسفة هوم اللاإدرية، بل كان بين الاثنين قوامًا. وقد بسط فلسفته في كتابه «نقد العقل المجرّد» وهي تلخّص بكون الإنسان لا يعرف الأشياء بنفسها، بل يعرفها بالمظاهر التي يتناولها بها بحسب تركيب عقله وحسّه أي أنّ معلومات الإنسان كلّها مبنيّة على ما يتراءى له من الحوادث المشهودة والمحسوسة. وعليه ليس في استطاعة الإنسان بمجرّد العقل أن يرقى إلى معرفة ما يهمّه علمه أكثر من كلّ شيء وهو الله تعالى وخلود النفس والاختيار. وأكمل «كانت» بحثه بكتاب آخر سمّاه «نقد العقل العلمي» فأثبت فيه وجود الإرادة والنواميس التي تديرها واستخلص من ذلك وجود الحقائق التي لا تكفي الفلسفة النظرية لإثباتها. وبهذه الحقائق انتهى إلى تقرير وجود الواجب الوجود وخلود النفس والاختيار الأدبي.

فلأجل أن تقصف قصفة كهذه في باريز، لا يكفيك أقلّ من ذهب واحد. وأمّا هنا، فإنّك تخلص من كلّ هذا المقصف، بطعامه وشرابه وسماعه، بخمسة ماركات. ونادرًا أكلت لحمًا بهذه الطراوة وشربت جعة عليها مثل هذه الرغوة. وكلّ من المتنابين يقدّمون له رقعة عليها حسابه فيذهب إلى دكة الحساب فيدفع ما عليه. فلا يوجد شيء أعظم اقتصادًا ولا أقرب منالاً.

وهل كان هؤلاء القوم يستلطفون هذه الموسيقى فعلاً: ألحان باخ وبيتهوڤن وڤاغنر؟ لا أعلم. وربّما كانوا في هذا الباب مثل "كانت" ومثل هذا الداعي يؤثرون الموسيقى الغليظة أي العسكرية.

ذهبنا إلى "بوتسدام"[1] والألمان يعجبون بها كثيرًا ويرونها فوق "ڤرساي"[2] وأمّا "شارلو تنبورغ"[3] فهي "سان كلو"[4].

قضيّة الأعلام

ـ حصلت لنا كارثة. كانت القصور ودور التحف ذلك اليوم مقفلة الأبواب ولا أعلم السبب، فالعقيلة لمعرفتها الألمانية مثل غوته، أخذت تتحدّث مع القيم الذي استأنس لحديث سيِّدة حسنة البزّة كهذه. فمن قصّة إلى قصّة أخبرها كيف يمكنها أن تنال مرادها من الدخول، بأن تعدل عن الرتاج الكبير إلى باب سرّي صغير، فتنسلّ منه إلى القصر وتجعل في يد البوّاب نحلانًا يسكت به. وهكذا كان.

فلمّا دخلنا إلى قبو فريدريك، عليه عَلم النسر البروسي، أبصرنا أعلامًا فرنسوية لا تُحصى، مأخوذة في حروب نابوليون وحرب السبعين، مخرّقة مثقّبة بالرصاص مسودّة من البارود، لا تزال عليها أعداد كتائبها وبعضها لم يبقَ منها إلاّ صعادها، من فوقها العَلم الإمبراطوري. فلمّا وقع بصر العقيلة على هذه الألوية فاضت دموعها ولأيًا أمكنني أن أسكّنها.

ـ يا سيِّدتي ما هذا! وماذا تقولين في الأنڤاليد[5]؟ لا شكّ أنكِ رأيتِ هناك من الأعلام الألمانية بقدر ما رأيتِ هنا من الأعلام الفرنسوية. هذه المسئلة أشبه بلعب الورق، هذا يخسر وهذا يربح. فإن لم يكن أحد يخسر، فكيف يمكن أنَّ أحدًا يربح؟ وهذا السجال هو الذي يضع

(١) مدينة بقرب برلين، فيها قصر "صان سوسي" بناه فريدريك الكبير.

(٢) مدينة بقرب باريز، كان فيها قصر للويس الثالث عشر يقصدوه وقت الصيد، ثمَّ زاد عليه لويس الرابع عشر المباني الفخمة الحاضرة.

(٣) أحد قسمَي برلين الكبيرين.

(٤) محلّة تابعة فرساي على نهر السين.

(٥) قصر في باريز فيه آثار حربية وأعلام مأخوذة من الألمان كما في برلين أعلام مأخوذة من الفرنسيس.

الشعوب على الأرض الغبراء ومن كثرة ما يربح الواحد يخسر ومن كثرة ما يخسر يعود فيربح. ومنذ ألوف من القرون لا تزال قضيّة الأخذ والردّ في الرايات والأعلام قائمة على قدم وساق.

تضحية الطعام

بينما نحن خارجون من المكان الذي كنّا فيه، صادفنا ثلّة من الجند حاملين جفنة من يخنة البطاطا وكانوا ماضين راضين مسرورين وعليهم سيماء الهدوء التامّ. وكانت رائحة الطبخ قد استوقفتنا، لأنَّ هذا النوع من الطعام، إذا كان مطهوًّا جيّدًا لا يفضَّل عليه شيء. وإذا بشَمقْمَق[١]، من لون العُسبر[٢]، قد مرّ بغتةً، وبلغنا فيما بعد أنه المارشال الأكبر. فلم يكن إلاّ كلاّ ولا، حتّى رأينا هؤلاء الجنود قد خفّوا وأهرعوا وصارت مسامير نعالهم العسكرية توري شررًا كالزناد.

فقلت للعقيلة:

ـ الآن قد اعتراني القلق. فأخشى، إذا نشبت الحرب بيننا وبين ألمانية، أن تدور علينا الدائرة.

ـ ولماذا؟

ـ لماذا؟ تسألينني لماذا؟ أفلا تنظرين أمامك؟ أفلا ترين أدلّ الدلائل وأصدق الإرهاصات؟ أتظنّين أنه يوجد في فرانسة جنود، ينبذون "يخنة" البطاطا وهي حسنة الطهو، لأجل القيام صفًّا أمام قائد كبير ولو أنه ميخائيل رأس الملائكة بأجنحته الذهبية؟

بوذا

اشترى أناتول فرانس مرّة تمثال بوذا من أحد باعة الآثار ولبث طول الضحوة يبحث عن مركز ينصبه فيه. ففكّر في وضعه في بهو الاستقبال، ثمَّ رأى أنَّ الإله لا يرتاح إلى مسكن فيه العذراء بقدّها الطبيعي. فقال لي:

ـ لا يمكن أن نجعل بوذا مع العذراء في محلّ واحد. ثمَّ أخذ الإله إلى غرفة الأكل ووضعه على رأس المدخنة وحسب أنه أحسن صنعًا. ولكنِّي اعترضته بأنه لم تجرِ العادة في تزيين الغرف بالأصنام، إذا كانت مفروشة كهذه الغرفة بأثاث من القرون الوسطى.

فقال لي:

ـ إنَّ بواذي هذا غلطة في التاريخ. وأقدر أن أقول، كما قال ذلك القسّيس الذي أدخلنا إلى

---

(١) الشمقمق: المفرط في الطول، والأصل الفرنسي Escogriffe.

(٢) قيل النمر وقيل المولود من ضبع وذئب، والأصل الفرنسي Panthère.

كنيسة في نورماندية من القرن الرابع وفي صدرها مذبح فخم، من طرز أيام الملك لويس الخامس عشر، مصنوع من المرمر اللانغدوكي: "هذا المذبح خطأ تاريخي لكنَّه خطأ لذيذ" فأنا يمكنني أن أقول مثل هذا عن بواذي ولكن لا يجوز وضع إله في غرفة طعام، لا سيّما ونحن لا نعرف جيّدًا عقليّته. أمَّا الآلهة الذين عندنا فنعرفهم ومنهم جمّ قد أنزلوا عن عروشهم، بخلاف بوذا الذي هو في عنجهية قوّته والذي هو أكثر الآلهة اليوم تبعًا. ثمَّ أخذ التمثال ووضعه في غرفة النوم على منضدة بين المدخنة والنافذة.

وفجأةً وصلت العقيلة، وقالت له:

ـ وأيم الله هذا فكر عجيب وهو اقتناءوك هذا البوذا. أين عثرت عليه؟ ما أراه إلاّ مصنَّعًا. زِنْه قليلاً. أفلا تراه خفيفًا؟ هو من خشب الحور وأخاله من صنعة الطليان. أصحيح أنك ابتعته من عند بيّاع عاديّات؟ فلا شكّ في أنك دفعت فيه ثمنًا كاويًا. فأنت مستحقّ لذلك، إذ كان يمكنك أن تستصحبني في شرائه، لأنني ذات خبرة في البوذا وأنت حديث العهد بمعرفته. فأخذ الأستاذ يذب عن سمعة بوذاه، إلاّ أنه في اليوم التالي قال لي: "قد أعطيتك عذارى وقدّيسين كثيرين، لكنَّك خليٌّ من البوذا وهذا لا يجوز. فإنَّ رجلاً كريمًا مثلك لا يقدر أن يستغني عن بوذا، فخذ هذا".

قدم إنكلترة

قال: سأحدّثك عن قدم إنكلترة.

ـ كنت من أيام في حديقة "مونسو"، فبصرت بخنفساء مطروحة على ظهرها تحاول النهوض. فمددت لها مظلّتي وساعدتها حتّى قامت ودبّت. وإذا بإنكليزية برزت. ومن أين عرفت أنها إنكليزية؟ كلّ ما فيها يعلن أنها إنكليزية المحتد: قامة رجال وشعر مرسل بدون ترجيل وسحناء بلون الخمر وأسنان كأسنان البيانو وجميع المقابح. فإنَّ الإنكليزية، إذا بدأت تسمج، فلا تقف عند حدّ. وكان وطنيكم "ريفارول"[1] يقول: "إنَّ الإنكليزيّات لهنَّ ذراعان كلتاهما عسراء" وكذلك، إذا كانت الإنكليزيّات حسانًا، كنَّ زُهَرات. وأمَّا هذه التي صادفتها، فكان أنفها في دليل "بديكر"[2] وهي ماشية خطًّا مستقيمًا كأنها جندي معتَرَض. ثمَّ داست برجلها خنفسائي المسكينة. وبأيّ رِجل! حينئذٍ فكّرت في مصر والهند.

---

(١) أديب صحفي إفرنسي مشهور بقوارص كلامه.

(٢) بديكر (Bædecker): الدليل المشهور الذي لا تخلو منه يد سائح.

التقليد والصابون

التقليد هو نوع من الهوس عند «مورّا»[1] فهو يبرهن لك بكلّ طريقة على أنك أنت مقلّد بدون أن تشعر. نعم، ويسألك بكلّ بساطة:

ـ أتغتسل يا صاحبي؟

ـ نعم، كسائر الناس.

ـ كسائر الناس؟ إذًا تسلّم بمبدإ الغسل. وكيف تصنع؟

ـ آخذ صابونًا...

ـ قف! لماذا تأخذ صابونًا؟ إذ ليس كلّ الخلق يستعملون الصابون. ففي هذه الأرض الواسعة أقوام كثيرون، كما في إفريقية مثلاً، يستغنون عن الصابون. وإنَّ الصابون وُجد جديدًا.

ـ يا ربّ! إنَّني أستعمل الصابون كما كان يستعمله أبي وجدّي...إلخ.

ـ أفرأيت؟ هو ذا أنت إذًا مقلّد ومن الحزب الملكي.

اليدان

جاء رجل طلياني وترجّى أناتول فرانس أن يأخذ مثالاً عن يده، تلك التي نمقت «تاييس» و«كرنكبيل» فرضي الأستاذ بذلك. وبينما كان الأخصّائي المذكور يغمّس يد الأستاذ في الجفصين، أخذ الأستاذ يقول: أحسّ أنهم يؤلّهونني. ثمَّ جاء الرجل بمثال من سكب الرمل عمّا كان هيّأه من الجفصين. وكان عند أناتول فرانس يد من مرمر، أتى بها من رومة، فأخذ يقابل بينهما، وقال عن اليد التي من المرمر:

ـ لا يخامر قلبي أدنى شكّ بأنَّ هذه يد إمبراطور. انظر إلى هذه الفسحة بين الإبهام والشاهد ويلحظ فيها أثر كُلاّب. ماذا كانت تمسك هذه اليد؟ صورة خطبة أو أمر عامّ؟ وثاق أسر أو عصا قيادة؟ ثمَّ عاد إلى مثال يده. فقال:

ـ أمَّا أنا فلم أقبض إلاّ عُصيّة القلم.

ثمَّ عاد إلى اليد الرومانية، وقال:

---

(1) مورّا (Charles Maurra)، من الكتّاب المعروفين اليوم في فرانسة. هو وليون دوده (Daudet)، ابن الكاتب الشهير ألفونس دوده، رئيسا تحرير الجريدة الملكية (l'Action Française)، ومن زعماء الحزب الملكي الكاثوليكي. وقد تقدّم تأبين مورّا لأناتول فرانس.

ـ انظروا ما أحلاها! يُراءى للإنسان بأنها يد امرأة: أرى فيها يد قيصر. أتعلمون أنه كان يونانيًا في بعض الأمور الجوهرية؟ وما ثمَّ من عار. فقد كان هكذا كسائر رجال القِدَم. ماذا ملّست هذه اليد؟ قد ضمّت وقد قادت وقد كتبت. وكان وقتئذٍ عصر الأدب الذهبيّ. ففي زمن قيصر لم يكن الأدب مهنة، بل كان ملكة عند رجال الدولة والقوّاد. أمّا اليوم فمشاركة القوّاد والساسة في الأدب خير لنا أن لا نذكرها. ثمَّ يعود إلى اليد، فيقول:

ـ الراحة مقطّعة بخطوط ذوات معانٍ. ولا أدري علم خطوط الكفّ وآسف على ذلك ولكن سيِّدة من صواحباتي تقرأ هذه الخطوط كما تقرأ أنت في جريدة. فلا محالة سأُريها هذه اليد، إذ ما هي إلاّ يد قائد أو رجل فعّال أو كاتب أو هي يد قيصر بنفسه.

ثمَّ عاد إلى الاستهزاء، فقال:

ـ أأمكنني الاهتداء إلى ما وراء هذه اليد المرمرية؟ ولا يزال كثير من النقّاد يزعمون أنَّ مخيّلتي ضعيفة. هذه اليد يا حبيبي ـ ولك أقول كلّ شيء ـ جاءني بها أبخل شحّاذي رومة. وناهيك من قوم لا نظير لهم في بخلهم. فهذا الرجل كان نوعًا من "سيلان"[1] كان له أنف أفطس وجبهة مقرّنة وعينان كلّ منهما بلون مختلف عن لون الأخرى ولحية تيس. وكان يرود حول دور التحف يسأل السيّاح، فإذا عرف فيهم مَن عنده مسكة في الآثار جاءهم ثاني يوم بقطع إمّا يد قيصر أو رِجل الزُّهَرة. فتسأله أين الأولنب الذي تثير منه هذه الدفائن؟ فيقول: يا مولاي هذا سرّ لا يُعطى وإنّما أعرف مخابئ بين الكروم. وسأذهب هذه الليلة من أجلك.

فمن سيلان هذا جاءتني هذه اليد وغيرها من نفائس الآثار. فهل كان سيلان يذهب حقيقة إلى الكروم ويبعث هذه العاديّات من قبورها؟ لا أعلم. وأظنّ أنَّ سيلان هذا كان يكسر الآثار على غفلة في المتاحف لأنَّ حراستها سيِّئة في إيطالية كما في فرانسة. فكان يسرق الكِسَر ثمَّ يبيعها من هواة الآثار. نعم، كان يمثّل هذا الجاني بالشخوص التي أبقى عليها الدهر الذي هو أرحم من الإنسان. ولكن الضرر قد وقع، فلم يبقَ علينا إلاّ أن نجمع هذه الضنائن ونجيد حفظها وعندي فوق هذا تسريح من إدارة المكوس بإخراج هذه القطع من إيطالية. وقد تيسّرت لي هذه الرخصة على يد محسنة أو على يد جميلة وأنَّ ريالاً تعطيه من وراء الألب يصيّر الأيدي كلّها جميلة. فأنا غير مخالف للأصول أمام الناس وإن كنت مخالفًا لها أمام الله.

---

(١) سيلان (Silène)، إله كان ضحكة الآلهة في الأولنب. وقد ضبطنا الأولنب بالنون لأنَّ من عادة العرب أن لا يأتوا قبل الباء إلاّ بالنون بخلاف الإفرنج الذين يقولون (Olympe أو Tombouctou) فيجعلون الميم قبل النون ويكتبونها تمبكتو ويقولون (Ambic) أي الأنبيق ويكتبونها أمبيق.

ثمّ دخل زائر، فقال له أناتول فرانس:

ـ نقايس بين يد قيصر ويد خادمك هذا[1]. فافتح أنت بيننا أيّهما اليد العليا؟ فأنعم الزائر النظر ثمّ فتح بكون يد أناتول هي العليا. وقال: هذا ظاهر للعيان. فقال له فرانس: هذا ظاهر للعيان، أين؟

ـ هناك يا أستاذي، هناك. أفلا ترى ضخم سُلامى الشاهد؟ فهذه علامة العبقريّة... العبقريّة الأدبية. ومثل هذه العلامة كان عند ڤيكتور هوغو.

ـ أين هي علامة العبقريّة الأدبية؟ وبسط أناتول فرانس يده الطبيعة.

فقال المتملّق: هنا.

فقال أناتول فرانس: هذا يا حبيبي ورم!

فأخذ المداهن يشير إلى ما في يد أناتول فرانس من المعاني، وقال:

ـ ما رأيت في حياتي، بعد الخبرة الطويلة، يد شابّ مثل هذه اليد.

فضجر أناتول فرانس وغيّر الحديث وترك الأيدي. وبدأوا يتكلّمون على حصون باريز وأنه يُراد هدمها. فقال المداهن:

ـ غير مأسوف عليها. فهي قديمة جدًّا.

ـ قديمة جدًّا. هي من ٤٤ سنة أو هي من عمري وعمر يدي هذه!

فضحك الحاضرون وخرج المتملّق.

قصب السبق

كانت العقيلة على المائدة تطنب في وصف فصاحة "إدمون روستان"[2] وأناتول فرانس سامد، يأكل ولا يتكلّم حتّى انتهى الطعام، فقال وهو يمسح شفاهه ولحيته:

ـ روستان! روستان! مجده غير مدافع. نعم، غير مدافع في كونه نظم أسمج الأشعار العصرية من عهد فيكتور هوغو.

---

(١) Serviteur وهي كلمة التواضع التي يكنّي بها الإفرنجي عن نفسه وفي بلادنا يقولون الداعي، والمحسوب، وعبدكم. وهذا في الأزمنة الأخيرة، أمّا في القرون الوسطى فكانوا في بلادنا يقولون في هذا المقام "الخادم" نظير الإفرنج اليوم. إقرأ رحلة ابن جبير عن الشام وكتابات عصر صلاح الدين.

(٢) إدمون روستان (Edmond Rostand)، شاعر روائي إفرنسي، فصيح متفنّن في القول قويّ التصوّر، ولد في مرسيلية سنة ١٨٦٨ ومات في باريز سنة ١٩١٨، وكان من أعضاء الأكادمي.

كنّا نطالع فهرست سفطه الزجاجي المحتوي تماثيل "تاناغرا"[١] فقال:

ـ أتدري أنها صحيحة النسب. وليست محدثة مشبَّهة تشبيهًا. فإنَّه يوجد معمل[٢] لذلك في باريز وآخر في رومة.

ـ يظنّ الإنسان هذا التمثال ملعقة خردل.

ـ يا للإثم! هذا تمثال زهرة "عشتروت"[٣] قدمى الزهرات، وجدوه في خُرَب "ميسان"[٤] وبعث به إليّ مدير البعثة الألمانية هناك. يجوز أن يكون غبر عليها ألوف من السنين ويجوز أن لا تكون بهذه القدمية. تأمل أنَّ أحد الآثاريين، بعد اثنَي عشر قرنًا، استخرج من "بوي"[٥] التمثال الشهير المعروف بالعذراء السمراء. فيدّعي أنها من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر. والصحيح أنها من أيام رجوع الملكية. والتمثال الحقيقي كان الثوّار قد ألقوا به في النار. فعادوا وصنعوا مثله في أيام لويس الثامن عشر وورثت العذراء الجديدة من القديمة عمل المعجزات فعادت بها جَذَعة. ومثال آخر مَن يمكنه أن يميّز القديم من الحديث في رواق كنيسة "نوتردام" بعد أن جدّدها "ڤيوله لودوك"[٦] فزهرتي، التي هي عندك ملعقة خردل، يجوز أن تكون نسخة عن أخرى أقدم منها. وعلى كلّ حال، فهي من أربعة آلاف إلى ألفين سنة هكذا نازلاً.

ثمّ يُخرج تمثال إله الحبّ من قفص زجاج، وكان تمثالاً بديعًا، ويقول:

ـ هذا صحيح النسبة. انظر ما ألطفه. يظنّه الراءي ملكًا من تصوير رافائيل، أهداني إيّاه الأرمن واشتروه فيما أظنّ بخمسة إلى ستّة آلاف فرنك. قطعة منقطعة النظير. وكان يحسن بهم أن يهدوني غير هذا الشكل. نعم، إنَّ هذا الولد في غاية الجمال ولكنّي كنت أوثره جارية. فالحبّ عندي هو المرأة. ولست بيوناني. في هذا المعنى...

---

(١) تاناغرا (Tanagras) تقدّم شرحه.

(٢) استعمال معمل بمعنى (Fabrique) أو فابريقة الإفرنجية أي بمكان العمل ليس بعصري كما يظنّ، بل جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفّى سنة ٦٢٦ ما يأتي عند ذكر دمياط: "أنَّ بها غرفًا تُعرف بالمعامل، يستأجرها الحاكة لعمل الثياب" وقوله "تُعرف بالمعامل" دليل على أنَّ الناس كانوا يطلقون عليها هذا الاسم من قبل أي أنه ليس ياقوت هو الذي صاغ هذا الاسم المكاني.

(٣) آلهة القبّة الزرقاء عند الفينيقيين والسوريين اتّخذها اليونانيون آلهة الحسن وعبدوها وعبدها الرومانيون أيضًا. ومن هذا المثال وغيره تعلم أنَّ الغرب لم يزَل يعبد آلهة الشرق من قديم الزمان.

(٤) ميسان (Mycènes) في بلاد اليونان.

(٥) بوي (Puy) في فرانسة.

(٦) ڤيوله لو دوك (Viollet-le-Duc)، مهندس معمار إفرنسي، طائر الصيت، جدّد مباني كثيرة من القرون الوسطى في أيام نابليون الثالث. وترك تآليف قيّمة في علم الآثار، (١٨١٤ ـ ١٨٧٩).

كان يتحدّث على سفرة مادام فلانة إلى الأب فلان، فيقول:

ـ اليوم، كما في زمان طيباريوس، ديانات تتكوّن تحت أعيننا ولا نشعر بها وقد يذهبون إلى أنّ الآلهة الأوائل يُطرَدون بالقوّة من هياكلهم ويحلّ محلّهم آلهة محدثون. والصحيح أنّ الانتقال أبطأ وألطف مدخلاً من أن تشعر به القرون. فالانقلاب جرى في داخل الهياكل وفي داخل العقول. وبيان ذلك أنّ الكهنة أنفسهم تلقّوا علم اللاهوت الجديد وهذا ترشّح إلى القديم. وجاءت شعائر جديدة فانطبعت بها الشعائر الرسمية. فالديانة التي أنت ممثّلها ونبراسها يا حضرة الأب ليست هي ديانتك الأصلية. وليس يفيدك أن تستشهد بوفرة عدد الكنائس وكثرة كنوزها وحرارة المؤمنين. فإنّ هؤلاء المؤمنين هم في الواقع غير مؤمنين وليس منهم واحد يقبل العقيدة كما هي، بل أمتنهم في العقيدة هم الذين لا يريدون أن يفكّروا فيها، أي المتديّنون بدون رويّة. وأمّا الآخرون نظيرك يا حضرة الأب ونظير العلماء من رجال الدين، فإذا كنّا نتحادث في مجلس خاصّ كهذا، فإنّك تعترف بأنّ عقيدتك ليست بعقيدة الجارية التي تخدمك، وأنّ آراءك على الأبدية والجحيم والمطهر هي في وادٍ وتصوّراتها هي في وادٍ. إنّك تسلّم بعصمة البابا لكن بقيود وشروط تجعل هذه العصمة كأن لم تكن. ولست ترى نفسك جاحدًا في اعتراضك على كثير ممّا يرد في الكتب المقدّسة ولا تجد عقيدة «الحبل بلادنس» موافقة لعصرنا العلمي الفنّي كما بحت لي بهذا مرّة. فمثل هذه العقيدة إنّما تتلاءم مع القرون الوسطى. أمّا اليوم، في عصر «باستور»[1] و«برتلو»[2]، فهي غير مقبولة. إذًا أنت يا أبتِ برغم تقواك تقول ما يقول البروتستانت. وليس عليك أن تناكر في هذه التهمة، فالكنيسة كلّها هكذا. والوعظ اليوم أصبح عبارة عن مدافعات ومناضلات. ولقد أتيح لي أن أتحدّث مع كثير من المؤمنين والمؤمنات

---

(١) باستور (Louis Pasteur)، العلاّمة الكيماوي الفرنسي الذائع الصيت في الغرب والشرق. ولد في «دُول» من الجورة (Gura) في ٢٢ دسمبر ١٨٢٢ ومات بقرب باريز في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٥. كان إتمام باستور تحصيل العلم في المدرسة المعروفة بالنورمال أي دار المعلّمين وأخذ شهادة العالمية في العلوم الطبيعية سنة ١٨٤٧ ودرس الطبيعيّات والكيمياء مدّة طويلة في بعض مدن فرانسة إلى أن انتدبته دار المعلّمين إلى إدارة الدروس العلمية فيها وصار معلّمًا للكيمياء في دار العلوم سنة ١٨٦٧ وفي ذلك الوقت حقّق قضيّة الاختمار وعلّلها بوجود حيوانات صغيرة ميكروسكوبية وحصل من هذه التجارب على نتائج عملية في عمل الخمر والخلّ وفي حفظ الخمر والجعة. وهو الذي أوجد العلاج المناسب لأمراض دودة القزّ. ومن تحقيقات باستور في قضيّة التخمّر استفاد الأطبّاء فوائد أخرى جليلة منها ما كشفه الجرّاحي الإنكليزي ليستر، مخترع الضمّاد المطهّر، ومنها قضيّة التلقيح. وسنة ١٨٨٥ بدأ باستور بتجارب تلقيح الكلَب فأثارت هذه المسألة ما لم يثِره غيرها من حركة الاهتمام. وتأسّس مستشفى للكلَب اسمه مستشفى باستور واقتدت بفرانسة في ذلك سائر الأمم المتمدّنة.

(٢) برتلو (M. Berthelot)، كيماوي إفرنسي شهير، ولد سنة ١٨٢٧ ومات بباريز سنة ١٩٠٧، وكانت له اليدّ الطولى في الكيمياء العضوية. وكان برتلو من رجال الدولة ووزر مدّة.

والراهبات وذوي الأرواح الطاهرة البسيطة، فوجدتهم جميعًا متشبّعين من هذه الأفكار وكلٌّ ينحت من العقيدة ما يلائم قامته. وكلّ متّخذ لنفسه دينًا خاصًّا به. أمَّا الحقائق الكبرى فإمّا أنهم لا يحبّون أن يفكّروا فيها أو كأنهم يفتّتونها ليسهل عليهم بلعها. كَمْ سرًّا مقدّسًا عندنا؟ سبعة. لكن الناس صاروا يتناسونها، وأحبَّها إلى الشعب هو سرّ القربان، فإذا سألت واحدًا مثلي عن تناوله للقربان، أجابك: نعم، تناول القربانة الأولى وهو صغير، وكان ذلك في شهر مايو، وكان على المذبح ورد، وسبق التناول رياضة استمرّت ثمانية أيام، وما أشبه ذلك ممّا حفّ بتناول القربان من الحالات. أمَّا سرّ التثبيت مثلاً، فلا يكاد يتذكّره أحد، مع أنه سرّ جليل. أنت يا أبي معلّم اعتراف، ولو أنَّ ريح النعمة الإلهية جرّتني إلى الاعتراف، لَما اعترفت إلاّ عندك. ولكنَّك تسلّم بأنَّ الاعتراف اليوم تغيّر عمّا كان عليه في زمان القدّيس فنسان دو پول. فلا تقدرون أن تسألوا النساء تلك الأسئلة المعلومة، بل اقتصدتم في هذا الأمر كثيرًا. ولماذا تسألون عن أشياء أنتم على ثقة من جهتها وعلى معرفة خطايا هي مثل خبزنا اليومي؟ أصبحوا لا يمدّون أمامكم تلك الموائد السمينة من الموبقات وأخذوا يقتصرون على الزهيد من صغار اللَّمَم. فلستم اليوم بمعلّمي اعتراف، بل أنتم اليوم مديرو ضمائر وعلماء أخلاق. ومَن من الكهنة يقدر أن لا يحلّ رباط مذنب؟ فإنَّهم يستغنون عنه حالاً. وجهنّم، أفتتكلّمون عنها كثيرًا؟ أنا أعلم أنك لا تنكر وجودها ولكنَّك لا تعتقد بوجود أحد فيها. ثمَّ ترمون البروتستانت بالتغيير في العقائد! مع أنكم معاشر رومة أكثر مسايرة لتغيّر الأوقات من غيركم، وهو ما كان به قوامكم إلى هذه الساعة. فقد اَلتويتُم مع جميع التحوّلات والأخياف الاجتماعية. والطبيعيّات هي مربوطة كما لا يخفى بما وراء الطبيعة. وما قتل فلسفة مار توما وحكمة أرسطو إلاّ اختراع المطبعة الذي جعل بإزاء الكتاب المقدّس كتبًا كثيرة لا تُحصى. وكذلك كشف العالم الجديد وإيجاد النظّارات والمجهر والوقوف على الكبير الأكبر الذي لا يدرك وعلى الصغير الأصغر الذي لا يدرك، وعلى المساحات المجهولة وعلى السموات الجديدة والأرضين الجديدة. فهذه الطبيعة هي التي قتلت ما وراء الطبيعة.

واليوم نحن شهود انقلابات أخرى لا يطاق وصف أهميّتها، لكنَّنا لا نشعر بها حقّ الشعور، مثل أشعّة «إيكس»[1] والمغنطيسية والكهربائية، فيجب أنَّ الكنيسة تمتصّ هذه الأشياء كلّها أو تموت. وهي مفتقرة إلى فلسفة إلهية أخرى، كما هي مفتقرة إلى قناديل جديدة، فلا يزالون يستعملون في الكنائس الشموع التي يقسم التاجر أنها من النحل وقد تكون من الشحم.

---

(١) هي أشعة رونتجن بأسم كاشفها الألماني، بها يمكن التصوير لِما وراء الأجسام الكثيفة.

مع أنها بجانب النور الكهربائي[1] تُعَدّ لا شيء. وسيأتي يوم يعجز فيه الكاهن عن أن يقرأ عليها بعد أن اعتادت عينه الضياء الكهربائي الساطع. وهذه الفتيلة السابحة في الزيت العفن أمام بيت الجسد، فلماذا لا يعاض منها بأنفس المعادن وأعظمها سرًّا أي بقليل من الراديوم؟

زيارة أناتول فرانس لبروسون

قال:

ـ لا بدّ لي قبل سفري من أن أزورك وسأكون عندك غدًا نحو الساعة الثانية وأرى أين أنت وكيف أنت. وفي اليوم التالي، في الميعاد المضروب كان عندي، فابتهج بالمسكن والأثاث والحارة وكلّ ما هناك. فقال لي وهو ينظر في الأمتعة والرسوم:

ـ ما أسعدك، فقد نضدت بيتك كما شئت. أمَّا أنا فوجب أن أنتظر إلى سنّ الخمسين حتّى صار عندي منزل كمنزلك.

فعارضته قائلاً، أين هذا من ذاك، فإنَّ بيتك كناية عن دار تحف.

فقال:

ـ لا يُنكَر أنَّ مغنى سعيد أشبه بمعتمَل[2] الدكتور فوست[3]. وليس الواقع أني أحبّ هذه الأمتعة الغريبة وهذا الخرثي الذي ملأت به منزلي. ولو خُيّرت لآثرت زيّ القرن الثامن عشر وزيّ القنصلية[4] ولكن العقيلة احتفظت بهذين العهدين واحتكرتهما، فلكيلا تقع بيننا الحرب، عدلت إلى أزياء القرون الوسطى. فإذا ذهبنا إلى بائع الآثار اقتسمنا خطتينا بيننا، فعهد لويس الخامس عشر والسادس عشر هو حقّها، والقرون الوسطى بما فيها من القدّيسين والعذارى والذخائر هي حقّي. وليس المعنى أني أشتهي موت السيِّدة العقيلة ولكنِّي قد مللت هذا الرثّ الإكليريكي. وإنِّي أراك أنت أيضًا سامتًا سمت القرون الوسطى. ولك الحقّ في نضد منزلك على نمط ڤيكتور هوغو. فإنَّ رجال الأدب كالأطبّاء يحتاجون الاسم والاعتبار ومن أجل هذا وجدتَني علّقت تلك التماسيح المحشوّة تبنًا في سقف منزلي. فنحن جميعًا لا نستغني عن شيء من التنطّع.

---

(١) قبل الحرب العامّة أُنير الحرم الشريف النبوي بالمدينة المنوّرة بالنور الكهربائي.

(٢) المُعتمَل: هو ما اخترناه لتعريب Laboratoire.

(٣) شخص خيالي عند الألمان بُنيت عليه أقاصيص وروايات تمثيلية كثيرة، وهو عبارة عن رجل باع روحه من الشيطان بحطام الدنيا.

(٤) أيام الثورة قبل أن يكون نابليون إمبراطورًا، وهذا العهد ينتهي سنة ١٨٠٤.

البصلة الذهبية

قال بروسون:

ـ ذهبت إلى بلدي «لانغدوك» وجئت منه بكثير من القطع القديمة ومن جملتها ساعة من تلك الساعات القديمة التي هي على هيئة البصل[1]. فأخذ أناتول فرانس يقلب بلذّة زائدة هذه الكرة المصنوعة من الذهب والمينا الصقيل ثمَّ يعجب بآلاتها التي تشبه السفافيد الصغيرة. فألطفته بهذه الطرفة القديمة، وقلت له: ألا أنَّ الساعة غير صحيحة وأنها تمشي غير حاسبة أدنى حساب للشمس ولا للتقويم ثمَّ تنام نومة أصحاب الكهف، فلا تستيقظ ولا تدقّ، وبعد ذلك إذا انتبهت أخذتها الحمى فقطعت الأربع والعشرين ساعة في أربعين دقيقة.

ـ يا ولدي، إذا كانت غير صحيحة فهو خير لي، ولهذا أنا أستحسنها. أتظنّ أنني أضع تحت إبطي بجانب قلبي آلةً دقيقة صمّاء جاسية تكون بدون هوى ولا خيال. فالرجل الذي هو مثلي تليق به ساعة مثل هذه. فستكون لي هذه الساعة عضدًا في المواقف وإذا وصلت إلى محلّ العقيلة متأخّرًا، فلأجل تسكين ثائرها، أُخرج لها بصلتي الذهبية هذه فيكون وقوع الشؤبوب عليها لا عليّ.

المجد

وبينما هو قاعد يتحسّى قدحًا من شراب البرتقال، قال لي:

ـ أريد أن أجلس في محلّك، فهل تريد أن نتبادل المقاعد؟

فعملت إشارة القبول مع مزيد الرغبة. فقال:

ـ لا تربح شيئًا كثيرًا.

ـ أنت آثر كتّابنا وأعظمهم محبّة عند الشعب.

ـ قد يكون. ولكنّي بالغ التاسعة والستّين من السنّ ومقيّد بنظام الحمية. فإذا تشهّت نفسي شيئًا، جاء الطبيب وبيده القضيب كأنه «سانشو»[2] في جزيرة «باراتاريا». فأنا ملك لكنّني

---

(١) عهدنا منها آثارةً في بلادنا.

(٢) سانشو (Sancho)، خادم الدون كيشوط، بطل القصّة الخيالية الإسبانيولية التي لا يضحك الإسبانيول إلاّ منها. وكان الدون العظيم قد ولاّه جزيرة باراتاريا (Barataria) فاستقلّ بالحكم فيها وصادف من عناء الأمر والنهي ما يصادفه عظام الملوك. وقد روى صاحب القصّة عنه روايات هي النهاية في باب الإضحاك.

محروم التدخين وشرب الخمر والرفث إلى الحسان. ولا يحظرون عليّ مع هذا إنشاء الكتب، ولو فعلوها لكانت هي الوصاة الوحيدة المعقولة. فلهذا يا حبيبي أعشق الحسان من الآن وأعشق في الليل والنهار وفي الصيف وفي الشتاء، فإنَّما لهذا أنت في هذه الدنيا. وإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام. فما سوى هذا إلاّ دخان وخيبة وأحلام. وبالاختصار، فلا علم إلاّ الحبّ، ولا مال إلاّ الحبّ، ولا سياسة إلاّ الحبّ.

ـ رسمك مؤيَّد يا أستاذي. وإنَّما أظنّ أنَّ الرتب البيانية والسياسية تسهّل كثيرًا تصريف فعل «أحبَّ» والمثل يقول «لا سويسراني بدون مال» وكذلك لا سويسرانية بدون مال.

ـ موافق لك أنا على هذا. ومن أجل ذلك كانت لي مطامع، ومن أجل هذا صرت من أعضاء الأكادمي. وأعلم أنه لا يحتقر الإنسان مدارج الشرف إلاّ بعد أن يرقاها. فيجب عليك أن تكون طمّاحًا ولكنَّه يجب عليك أن تكون عاشقًا. فإذا صرت عضوًا في ديوان العلماء مثلي، تصير في جيبك الرخصة لتعمل ما تشاء. فاليوم أنا إن أردت أن أذهب إلى «الأوبرا»[1] بالخفّ وعلى رأسي قلنسوة النوم، بدلاً من اللباس والقبّعة العالية، فمَن هو المفتّش الذي يعارض خاطر واحد من الرجال الأربعين؟ فما يُعدّ شذوذًا عند سائر الناس ويذهب بهم إلى بيت المجانين، يأتي من قِبل مثل أناتول فرانس بدعة غريبة دالّة على حسن السريرة. فلا يقولون: أناتول فرانس اختلط عقله فأتى وهو بقلنسوة النوم إلى الأوبرا. كلاّ، بل يحملون ذلك، إمّا على سلامة القلب أو على التنادر.

وعندما خرج قال للمرأة البوّابة:

ـ شاقني جدًّا النظام الذي شاهدته في هذا المسكن، وودت لو أنَّ عندي خادمًا[2] مثلك. وقد بلغني أنَّ لك ابنتين وأنهما جمعتا بين الجمال والكمال، فقلت لبروسون ليأتِ بهما إليّ مرّة لأتعرّف بهما. وسأُوصي الناظر بهما. وداعًا أيّتها السيِّدة وداعًا. تعاهدي جيّدًا كاتبي. خادمك خادمك يا سيِّدتي.

فبقيت البوّابة مبهوتة لا تدري ما تقول.

الكستنات لا تزال سخنة

جئنا إلى ساحة البانتيون، فقال أناتول فرانس:

---

(١) الأوبرا (Opéra) أصله المرزح الذي تنشد فيه أشعار على لحن الموسيقى وقد يصاحب ذلك الرقص.

(٢) لفظة الخادم تقال للمذكّر والمؤنّث.

ـ على هذه الساحة رأيت تساقط القنابر [1] سنة السبعين، وكان الصبيان يفرحون بهذه المقذوفات، فلا تسقط كرة إلاّ تهافت عليها جميع صبية الحارة يجمعون شظاياها. وكانوا يحملون تلك الشظايا والنار لا تزال تشتعل فيها ويصيحون: «الكستنات ما زالت سخنة» فلا يستطيع المرء إلاّ أن يُعجب بشجاعة أولئك الصبيان. وكانوا يعطونهم على كلّ قنبرة يفرقعونها سنتيمَين. ولعمري، ليس بغالٍ إعطاء سنتيمَين جائزة على عمل يُبسل فيه الإنسان نفسه للهلاك.

لي أنسة خاصّة بهذه الحارة من باريز، فقد أقمت بها أيام صباي وكنت إذ ذاك معدمًا لأنَّ والدي كان غضب عليّ من أجل قرضي للشعر، وكان عنده هذا الرأي ـ وهو عجيب من تاجر كتب مثله ـ وهو أنَّ نظم الشعر حرفة خسيسة كثيرة الغوائل. قد يجوز بيع دواوين الشعر للضرورة فأمّا نظمها والتوفّر عليها فلا يجرّان إلاّ إلى السجن أو المستشفى. نعم، كان هذا المسكين محقًّا لأنَّ الشعر جاء بنا إلى الأكادمي.

وكنت ساكنًا وقتئذٍ في غرفة محرّدة [2] كأنها عشّ خطّاف. فكنت إذا أردت أن أكتب أخرج إلى ما تحت الميزاب. فإذا اخلولقت السماء أن تمطر اضطررت أن أكتب وأنا على سرير النوم من شدّة ضيق تلك الغرفة. وكانت لي جارات فكنت أعطيهن دروسًا وهنَّ يعطينَّني أيضًا، ولكن علمهن كان هو الأعلى، أي علم الحبّ.

لا، لا بانطيون

لا أعلم لماذا قلت له وقد مررنا أمام البانطيون:

ـ هنا يا أستاذي العزيز سترقد رقادك الأخير بجانب حبيبك ڤولتير وأعدائك مثل جان جاك وهوغو.

فلم تخرج هذه الكلمات من فمي حتّى اغبرّ لونه ونأى عنّي مغضَبًا، وقال:

ـ حَرْمى والله [3] أنك لقاسي القلب غليظ بأن تزرع طريقي بمثل هذه الأشجار المرّة. ثمَّ مَن

---

(١) Obus تواضع كتّابنا اليوم على تعريب هذه الكلمة بقنبلة وجمعها على قنابل. ولم أدر وجهه لأنَّ القنبلة هي الطائفة من الناس ومن
الخيل وهي بفتح فسكون ففتح، ثمَّ إنَّ القنبلة بضمّ فسكون فضمّ هي آلة يصاد بها أبو براقش، ثمَّ إنَّ القنبل بضمّ فسكون فضمّ بدون تاء
هو الرجل الغليظ وهو أيضًا الغلام الحادّ الخفيف الروح. والقنبل أيضًا شجر وكذلك القنبل بفتح فسكون ففتح الطائفة من الخيل والناس
من الثلاثين إلى الأربعين. فليس من مناسبة بين أحد هذه المعاني وبين هذه الكرة المحشوّة بالمواد المفرقعة. والذي أراه أنَّ أول مَن استعمل
هذه اللفظة بالعربي إنَّما استعملها بالراء لا باللام تشبيهًا لها بالقنبرة وهي طائر، ويقال قنبراء وقد تخفّف فيقال قبَّرة بضمّ فباء مشدّدة
مفتوحة، ويقال دجاجة قنبرانية أي برأسها فضل ريش قائم. والعامّة يقولون لهذا الريش الزائد قنبرة، فكأنَّ الذي سمّى الكرة التي يقذفها
المدفع قنبرة لمح مشاكلتها للطائر أو للدجاجة مع الريش الذي في رأسها والذي يماثله مقبض الكرة الرفيع.
(٢) بالحاء المهملة أي جملون، والأصل الفرنسي Mansarde.
(٣) أما والله.

قال لك إنّهم يضعونني هناك؟

ـ لقد وضعوا زولا هناك.

ـ هذه غمزة منك.

ـ كلاّ، يا أستاذي العزيز ما هذا إلاّ بيان لإعجابي، وقد أكون أخطأت الكياسة لكنّني حسن النيّة.

ـ أسامحك. ولا نتكلّمنّ عن البانتيون[1]. وأنت ستودع البانتيون يومًا. ففي وصيّتي مذ هذه العشيّة سأكتب ذلك. فلا أضطجع على السرير إلاّ وإرادتي مضطجعة معي، فأوصي بأن يدفنوني كسائر الناس في مقبرة الحارة. وأقول لهم: "إن كان لا مندوحة لكم عن وجود ساكن جديد للبانتيون فعلكيم ببروسون فإنّه عبقري. عبقريّته في أن يُغمَّ بقيّة أيام أستاذه الشيخ بأحاديث الموت. وهو يتقن زرع الطريق القصيرة الباقية لهذا الشيخ بأشجار البروق[2] ودم المسيح[3]".

ثمَّ نزلنا في شارع "سوفلو"[4] فوقف في دكّان كتبي من خزنة الكتب العتيقة فاشترى بخمسة وعشرين فرنكًا كتابًا "لكنتيليان"[5] فوجدت الصفقة غالية، فقلت:

ـ كلّ هذا المال لمؤلّف كان صديقًا "لدوميسين"[6].

ـ ماذا فعل معك دوميسين؟ ألم يصبّ في اختياره كنتيليان مربيًا لأولاد أخيه؟ على أني لم أشترِ هذا الكتاب لأجل دوميسينيوس ولا لأجل كنتيليانوس، بل لأجل "بوغيو"[7] الذي نشر هذا الكتاب من قبره، بعد أن كان رأى بدّالاً يلفّ بورقه السمك المقدَّد. أفلا تراه؟ هو مطبوع هذه الطبعة النفيسة في رومة. وماذا تقول في هذا التجليد الذي لا يزال في متانته، بعد أن مضت عليه ثلاثة قرون أو أكثر. وكنت آليت أن لا أشتري كتابًا من أجل نفاسة تجليده أو حسن نقشه

---

(١) لو قيل للشيخ إنَّك ستُدفن في السماء لَما طاب له ذلك لأنه كلام يذكّره بدنوّ الأجل.

(٢) البروق: بفتح فسكون ففتح، شجر يقال إنَّه إذا غامت السماء اخضرّ، وفي الأصل الفرنسي Asphodèle.

(٣) شجر تضفر من زهره الأكاليل التي توضع على نعش الميت، وفي الأصل الفرنسي Immortelle.

(٤) سوفلو (Soufflot).

(٥) كنتيليان (Quintilien)، عالِم لاتيني من رجال القرن الأول للمسيح، قيل كان مولده بإسبانية، وكان يعيب على أهل عصره اتّخاذهم الفصاحة والخلابة آلة للمدافعة أمام القضاة. وهذا يخطر في البال الحديث الشريف وهو: إنَّما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم فلعلّ بعضكم أبلغ من بعض فاحسب أنه صادق فاقضي له بذلك فمَن قضيت له بحقّ مسلم فإنَّما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها. وفي رواية: أنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فمَن قضيت له بشيء من حقّ أخيه فإنَّما اقطع له قطعة من النار.

(٦) دوميسين (Domitien)، هو إمبراطور روماني، أخو تيطس وابن فسبانينيوس، ملك من سنة ٨١ ب. م. إلى سنة ٩٦؛ وكانت أوائل أيامه سعيد لكنَّه طغى أخيرًا وسفك الدماء فقتلوه بمواطأة امرأته "دوميسيا لونجينا".

(٧) بوغيو (Pogge)، كاتب طلياني من فحول كتّاب عصر التجدّد، (١٣٨٠ ـ ١٤٥٩).

أو زينة طرّته[1] ولكنَّها يمين سكير. وإذ كنت قد حنثت فيها، فأريد أن أجازي نفسي وأُلطّفك بهذا الكتاب، ليكون زينة لخزانة كتبك فتضعه على منصّة الشرف، مخالفًا لموضع سائر الكتب وظهره نحو الحائط وحرفه إلى جهة النور، بحيث تتلألأ أقفاله اللطيفة الغريبة، فيكون لذلك وقع في نفوس زائريك، إذ كلّ مهنة لا غنى فيها عن المخرقة ولا سيّما حرفة الأدب. فأنت لا تقرأ كنتيليانوس ولا تحتاج إلى تفيهقه وتقعّره، وأنتم معاشر أهل «لانغدوق» عندكم البيان ترتضعونه مع اللبن. فمَن جاءك واستلطف كتابي عندك كأني بك تقول له: هذا شيخ فإن أهداني إيّاه في عنفوان شبابي. وكان هو أيضًا من المؤلّفين وتآليفه اليوم مطروحة في زوايا النسيان يعلوها الغبار ككتب «كنتيليان».

الشوك للأحياء والورد للأموات

صرنا في حديقة «اللوكسنبورغ»[2]، فقال:

ـ أحبّ كثيرًا هذه المعاشيب الخضر وهذه المخارف[3]. فعندما كنت قيّمًا لدار كتب اللوكسمبورغ كنت أجد قصر مجلس الشيوخ هو المدرسة والحجر والحبس، وبستان اللوكسمبورغ هو النزهة والفسحة. وهي فسحة ملأى بالورد. وكَمْ مرّة كنت أستطيل الجلسات، فأترك المكتبة ولا أسأل عن آبائنا الشيوخ الذين هم أشبه الناس بالغلمان، يلعبون حول حوض ماء ويعملون مباني من الرمل.

فقلت له:

ـ هو ذا أحد أصحابك. وأشرت إلى تمثال «لوكونت دوليل».

فقال:

ـ يا للعضيهة!هذا من القاذورات. وأعلم أنَّ دوليل لم يكن صاحبي، وما كان أكثر من رصيف لي في حفظ خزانة كتب السنات.

ـ هو شاعر عظيم.

ـ قد يكون. ولكنّي ما عهدت في حياتي في بهيمة الأنعام أغبى منه. ما كان أزهاه! وما كان أجهله! هذا المترجم لهوميروس لم يكن يعرف كلمة من اليوناني وكان يلجأ دائمًا إلى التراجم

---

(١) Ex-libris.

(٢) محلّ انعقاد مجلس الشيوخ Le Sénoat.

(٣) الطرق بين الأشجار.

اللاتينية والإفرنسية، وما تيّسر له ولا مرّة أن ينطح رأسًا النصّ اليوناني الأثير. وأضف إلى هذه المساخر خلقًا سيّئًا. فما كان لوكونت دوليل يحسن غير الهجو والقذع. وتراني مسرورًا من أنهم جعلوا تمثاله بهذا الشكل فيبقى أضحوكة إلى الأبد.

ـ قل ما شئت. فإنَّه لا شكّ ـ بعد زمن طويل ـ في أنهم ينصبون تمثالاً آخر لقيم آخر في خزانة كتب السنات. وما أحسن نصفك الأعلى منصوبًا هنا، بل قد ينحتون لك تمثالاً على طول قدّك بثوب روماني.

ـ حسبك. حسبك. إنَّك تسمّم حياتي بتصوّراتك.

ـ وبجانب تمثال المرمر الرائع أو التمثال النحاسي تمثال غادة حسناء.

ـ حسن، فالآن صرت أقدر أن أتنفّس. فإن كانت هناك غادة حسناء فلا بأس أن أبقى إلى الأبد على عمودي. وأقعد عاقلاً...

ـ أو رمز من رموز رصيفك لوكونت دوليل بأجنحة خافقة.

ـ كلاّ، لا أبغي الأجنحة الخافقة ولا أهوى الجواري ذوات الأجنحة، ثمَّ إنَّني أكره الرموز لا سيّما الرموز العصرية. وهي بحسب العادة عبارة عن غلبة البلاهة والتفاهة[1] وأمّا أنت فمنحوس صغير وقد جدّت عندي الرغبة في أن أسترجع منك كتاب كنتيليان البديع الذي حرمت نفسي إيّاه لأجلك أيّها الجُوَيْحد للمعروف. فكلّ ما تنزّهنا به من المخارف والخضرة والحياض والأزاهير والحمائم البواغم، ممّا كان خُيّل لي أننا في جنّات عدن، قد ذوت نضارته عندي بما نفثت من فمك الماجن وأصبح في نظري جبّانة. وعدت لا أنظر أمام عينيَّ إلاّ هذا التمثال الجنازي الذي ما زلت أنت مصرًا بهذه القحة على وصفه.

ثمَّ سكت وصار يمضع برؤوس لحيته. ثمَّ قال:

ـ هذا التمثال لا خلاص لي منه. فإنَّ النحّاتين يجب أن يتعيّشوا. وستكون نفقته كبيرة وسيكون سمجًا. فما أولاهم بأن يؤدّوا هذه النفقة مذ اليوم. ولكن يقدّمون الأشواك للأحياء والأزهار للأموات.

---

(١) الأصل الفرنسي La niaiserie et la fadeur.

بالزاك[1]

كانت مادام فلانة...[2] شاكية ملازمة للفراش، فتقدّمت إلى العوّاد بأن يقرأوا لها بعض الكتب. فأشرت ببلزاك. فقال فرانس:

ـ لا أحبّ التآليف السمينة ـ خذوا هذا بالمعنى المجازي ـ فبلزاك يخيفني لأنه ثقيل، ضخم، سائل العرق، مختلط، مبتذل المواضيع، يحبّ المناقشات السياسية ويميل إلى الألغاز والأحاجي. هو من قبيل سعاة البيوت التجارية لكنَّه ساعٍ من الدهاة. وكثيرًا ما ينزل بالزاك عن طبقة "ساندو"[3] ومتى أجاد فليس بقاصّ لكنَّه مؤرّخ. وجميع تاريخ العصر الحديث هو في تآليفه.

فلم تعارض السيِّدة... ولم تنافح عن بالزاك إلاّ قليلاً، وانتهى الأمر باختيار "شاتوبريان" فأخذنا "مذكّرات ما وراء القبر" وقرأت ذلك الفصل الشهير وهو:

"وضعت والدتي في "سان مالو"[4] ولدها البكر فمات وهو في المهد. وكان المنزل الذي يسكنه أهلي في زقاق ضيّق مظلم من سان مالو، يُقال له زقاق اليهود[5]... والغرفة التي ولدت أمّي فيها مشرفة على القسم الخراب من حيطان المدينة وكان من نوافذ هذه الغرفة يسرح النظر في بحر يمتدّ إلى أقصى أمد البصر متكسّرًا موجه على الصخور. فكنت حيًا في حكم الميت عندما خرجت من بطن أمّي. وكان هدير الأمواج التي تثيرها العواصف، الدالّة على معادلة الليل والنهار، حائلاً دون سماع صراخي في المهد. وطالما قصوّا عليّ هذه التفاصيل فلم يكن حزنها ليفارق ذاكرتي. ولا يمضي يوم إلاّ وأتخيّل ما كنت فيه، فأرى الصخرة التي ولدت عليها

---

(١) بالزاك (H. de Balzac)، كاتب إفرنسي عظيم يقال إنَّه سيِّد كتّاب القصص، نبغ في هذا الفنّ بقوّة تخيّله وإصابة لحظه وشفوف حسّه بالحقائق ودقّة تصويره لأهواء النفوس البشرية، وكان مكثرًا مع الإجادة وإن كان قد أخذ عليه في بعض المظان من جهة متانة التركيب. (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠).

(٢) بعد أن أتممت ترجمة هذا الكتاب علمت أنَّ السيِّدة التي يشير بروسون، صاحب هذا الكتاب، وسيغور، صاحب الكتاب الآخر، إلى كونها ذات علاقة بأناتول فرانس هي مادام أرمان كاليافيه Madame Armand Caillavet. وقد بلغني من أحد الفرنسيس أنها كونتة نبيلة. وقد نشرت إحدى السيِّدات بحثًا عنها في "مجلّة باريز"، ونقلت جريدة الطان في تاريخ ٢ مارس سنة ١٩٢٦ خلاصته وقالت إنَّ المسيو إميل هنريو ذكر أنَّ هذه السيِّدة كانت متميّزة بذكائها وسعة إدراكها ووفرة أدبها وأنها هي التي حملت الكاتب العظيم على كتابة قصّته "الزنبقة الحمراء" وغيرها. وكانت تشحذ قريحة فرانس بجوارها له، وكتب إليها مرّة "متى كنت بعيدًا عنك رأيت نفسي بليدًا". وكتب إليها مرّة أخرى "قال هوراس عن فيرجيل إنَّه بسفره عنه احتمل معه نصف روحه أمّا أنا فلا يبقى لي بعد سفرك مقدار النصف".

(٣) ساندو (J. Sandeau)، قاصّ إفرنسي بليغ، ولد سنة ١٨١١ وتوفّي سنة ١٨٨٣.

(٤) سان مالو (Saint-malo)، من سواحل فرانسة.

(٥) سبحان الله، أزقّة اليهود ضيّقة ومظلمة حتّى في سان مالو؟

والغرفة التي فيها رمتني أمّي بالحياة والعاصفة التي تهدهدني[1] في منامي. وكأنَّ السماء جمعت هذه الحالات كلّها لتودع مهدي صورةً عن مصير أيامي». عند ذلك زعق أناتول فرانس:

ـ أيّة عائلة هذه؟ لم تكن مادام شاتوبريان لتضع كسائر نساء البشر، بل كان يلزمها البحر والبرق والعواصف. وهكذا كانت ولادة الزهرة في يوم أسود. فنساء الناس يكفيهن جراب من الماء، أمّا شاتوبريان الصغير فيلزمه الأوقيانوس. لا جرم أنَّ هؤلاء الجماعة كانوا بعداء عن البساطة. فقالت له مادام فلانة من فراشها:

ـ مهلاً، مهلاً، أنت القسوة بعينها. ما بدأت أشعر باللذّة بنغمة القصص حتّى جئت تقطع شاتوبريان إربًا إربًا وهو بعد في مهده فاصبر لمهاجمته أن يكون شبّ عن الطوق وذَرْه الآن يرضع بسلام.

ـ يقشعرّ جلدي من شاتوبريان. إنَّ هذا المتشدّق سمَّ شبابي لأنَّ والدي كان عابدًا للڤيكونت. وكان يحفظ من كتاب «نبوغ النصرانية» نسخًا مبعثرة ويضمّ أوراقها بعضها إلى بعض وهو في غرفته ومثلها نسخ كتاب «الدليل» وكانت هذه كتب مخدّته وكان يحفظها عن ظهر قلبه. ولشدّة غرامه بالڤيكونت انتهى بأن صار يتكلّم بالعظمة والتفخيم حتّى أنه كان لأجل عجّة بيض زائدة أو قليلة الدسم، أو شرحة لحم زائدة أو ناقصة الشواء يقعد فيوبّخ أمّي بنسق شاتوبريان هابطًا من طور سيناء. وكان عنده عدد لا أحصيه من رسومه وتماثيله. وطالما أمرني عند المساء، لأجل أن يتلذّذ، أن أقرأ له أشدّ الفصول طنطنةً من كتب محبوبه. ومن جملتها فصل على «الزياح»[2] كان لا يملّ استعادته مع أنه من أبرد الخلط الذي يتصوّره العقل.

محبرة شاتوبريان

ـ لمّا خرجت من مدرسة ستانيسلاس كان أولئك الناس أقنعوا أبي بأني لا أنفع لشيء، وأشاروا بتمريني على الأشغال التجارية. فلبثت نحو سنة أو أكثر أكتب فهارس ودفاتر ولم يكن ذلك العمل ليثقل عليّ. وإلى اليوم لا أجد شيئًا أستروح به عند التعب مثل الفهارس التجارية. وفي أحد الأيام كان أحد الأشراف من ذوي القصور والثروة الطائلة ومن أصحاب والدي يسأل عن واحد يحرّر له فهرستًا لخزانة كتبه العظيمة. فقال له والدي:

ـ ابني هو أحسن مَن يقوم بهذا العمل.

---

(١) هدهدت الصبيّ: أمّه حركته لينام، والعامّة تقول نمت بدون هدهدة. أراد أنه نام للحال من شدّة التعب فهو من العاميّ الفصيح، والأصل الإفرنسي Bercer.

(٢) تطواف ديني.

فذهبت إلى قصر ذلك السرّي وأحسن استقبالي، ثمَّ قال لي:

ـ انظر أيّها الشابّ إلى هذه المحبرة، فإنَّه من أسنى الشرف أن يغطّ الإنسان قلمه فيها.

فأخذت أُحملق في تلك الحبرة، فلم يتهيّأ لي أن أفهم لماذا يكون استعمالها بمثل تلك الدرجة من الشرف. فهي من هذا النوع المحفور بالسكّين الذي يعمل من صنوبر سويسرة. وقد يوجد إلى اليوم في أسواق بعض القصبات بالأقاليم من هذه المحابر القديمة. ولو كنت تنظر كيف كان ذلك السرّي يعتمل بهذه المحبرة لظننت أنه ممسك بالقربان المقدّس.

ـ «انتبه جيّدًا أيّها الشابّ، فإنَّ هذه محبرة شاتوبريان. وصلت إليّ من فلان» وبينما كان يقول هذا كنت أرى أنه يسمح بجميع ما عنده من الأسفار في تلك الخزانة التي كانت بالفعل ملوكية ولا يسمح بهذه الألعوبة.

ولكن نزلت بنا قارعة. وهي أنَّ صاحب المكتبة ذهب وتركني وحدي، فصعدت على سلّم الخزانة وأخذت أبحث في صوانٍ صوانٍ عن الكتب القديمة وأنت تدري أنه ما من شيء أشهى إليّ من صيد هذه الكتب النادرة. فصرت أحقّق أماكن طبعها وسكرت برائحة قدمتها التاريخية، فتذبذب السلّم من تحتي فتدحرجت ومعي نضد من الكتب وسقطت بها على المحبرة الثمينة. فنهضت سالمًا إلاّ من خدوش خفيفة. بخلاف المحبرة التي كانت في حالة تفتّت الأكباد. فإنَّ أحد الوعلين اللذين على قمّتها انكسرت يداه والآخر ذهبت قرونه والناسك فقد لحيته. فعرقت عرق الموت لمّا تجلّت لي الحادثة عن هذه الطامة الكبرى. فماذا يقول صاحب القصر عندما يأتي؟ سيقول إنّي من المخرّبين. فعلقت أطوف في أرض الغرفة. لأجد ما انتثر من المحبرة وأنا أمشي على أربعة وأخشى أن يفاجئني أحد وأنا على تلك الحال. فأظفرني الله بيد الوعل الواحد وقرن الآخر ولم يبقَ إلاّ لحية الناسك. ثمَّ إنَّني عثرت أيضًا على هذه اللحية. وكان ذلك فوزًا عظيمًا، فلجأت إلى الصمغ في إلصاق هذه الكسرات وجعلت نوعًا من الجِبارة على عراقيب حيوانات الدواة. وإذ كان لا بدّ من مضيّ وقت إلى أن يتمكّن الصمغ فأقمت سدًّا من الكتب في وجهها حتّى تبقى مستورة عن العيان.

وعند طعام الظهر قال لي صاحب القصر: كيف أنت وشغلك؟ إنّي أراهن أنك تنظم شعرًا وأنَّ لك فيه حظًّا، لأنك تقدر أن تقول إنَّني حبرت من دواة شاتوبريان. فليسوا كثيرين بفرنسة أولئك الذين يقدرون أن يدعوا هذه الدعوى.

ومضى حادث الدواة بدون أن يعرف.

فقلت أنا لأناتول فرانس وهو يقصّ القصّة:

ـ بالله عليك أيّها الأستاذ ألم تطرز هذه القصّة بعض الشيء؟ أفلم يكن سقوط تلك الأسفار على تلك الدواة أمرًا مقصودًا؟

ـ رجعت إلى شنشنتك في التعنّت! فأنه جرت عادة الناس كلّما رأوا رجلاً عمل في هذه الدنيا شيئًا من الجلبة أو صفّوه هم مع أعاظم الرجال بسبب أو بغير سبب، أخذوا يؤوِّلون كلّ حركة من حركاته وينشدون فيها سرًّا، كأنه لا يجوز أن يعمل شيئًا كما يعمله سائر الناس. فقد يأتيني أناس يسألوني عن أشياء تافهة من أعمالي في أيام الحداثة، كأنهم يريدون أن يستخرجوا منها مقدّمات الدهاء والعبقريّة. ويظنّون أنني عندما كنت ابن سبع سنوات، لا بدّ أن يكون في كيفيّة امتصاصي لإصبعي دلائل على أني أصير يومًا من رجال الأكادمي. ويرمونني بالرثاء والكتمان، إذا قلت لهم إنَّني كنت كسائر الأحداث وكنت أبعد الصغار عن التميّز وكنت في غاية الجبن. نعم، إنَّه أليق بترجمة حالي وأوفق لك، أنت الذي لا بدّ أن تروي هذياني هذا كلّه فيما بعد، أن يقال إنَّني كسرت محبرة شاتوبريان عمدًا، كراهية لأسلوبه، كما كان بولييكتوس Polyeucte الروماني يكسر الأصنام. وتزيد على ذلك أنني رميت المحبرة بمجلّد من كتب ڤولتير، ممّا يزيد في رونق القصّة. والحقيقة، أنني لم أكن ذلك اليوم إلاّ بليدًا قليل اللبَق.

من الحمام إلى النار

على أثر أوبته من سفر إلى أثينا[1] جاءت جوزيفين تقول: يا سيِّدي قد وضعت أضابير الرسائل كلّها في الحمام. وبالفعل كان الحمام ملان بالمكاتيب والرسائل والكراريس والبرقيّات. فقال لي:

ـ احرق كلّ هذا يا حبيبي.

فقلت له: فلعلّ هناك مكتوبًا ذا بال.

ـ ما أغرّ شبابك! أفلا تعلم أنه لا يوجد أبدًا شيء ذو بال في مكتوب. ثمَّ الحظّ أنَّ هذه المكاتيب قد مضى وقتها، فمهما كان الخبر منذ أربعة أشهر فقد مضى حكمه اليوم. إذًا ففي النار ففي النار.

ـ وإذا قدر أنَّ بين هذه المكاتيب مكتوبًا من سيِّدة حسناء...

(١) هي الرحلة التي كان يصحبه فيها نيقولا سيغور الذي تقدّم تلخيص كتابه.

ـ إنَّ سذاجتك توجب الشفقة. فاعلم أنه متى كتبت امرأة مكتوبًا سواء كانت حسناء أو لخناء فيكون إمّا باستجداء دراهم أو بالتماس عارفة أو بسبّ وشتم. وزد على هذا فالذين يكتبون مكاتيب سواء من الرجال أم من النساء، لا يكونون إلاّ من المزعجين. ولا شيء أكذب من هذا الترسّل الذي قام مقامه اليوم الإنشاء المختصر أسلوب البرقيّات والمكاتيب المستعجلة. وذلك كقولهم «اعمل لي هذه النعمة» و«أرجوك أن تقبل تأكيد وافر احترامي» و«خادمك المتواضع الطائع»[1] فهذه الصيغ أصبحت غير مقبولة في عصرنا الديموقراطيّ. وزماننا واحسرتاه زمان أخذ وعطاء وقد حلّت السفتجة محلّ الرسالة. فالقِ هذه المكاتيب بأجمعها في النار. في النار.

ـ فربّما كان فيها مكتوب منّي.

ـ فلا كانت تلك الرسالة ولا أمتعني الله بها. أتراني مفتقرًا إلى أسطارٍ معدودة منك، مهما كان من رشاقتها، حتّى أقدّر قدر كيسك ولطفك؟ وجميع المراسلين ما خلاك ثقلاء مزعجون، إن لم يخسروك من نقدك، أخسروك من وقتك. أفكلّ ما كتب لك إنسان بعض سخافات ووضع عنوانك ولصق ورقة من وسم البريد بثلاثة سنتيمات، يحقّ له أن يدخل في صحبتك ويغيّر لك مواعيدك وعاداتك ويفسد عليك برنامج حياتك؟ في النار. في النار. يا حبيبي كما قلت لك. لست خبيثًا ولكنّي أحبّ أن أحرق بعض الناس مع رسائلهم.

ـ أفلا تسمح لي بأن أعمل هذه التجربة؟ وهي أن آخذ مكتوبًا مختومًا بدون فحص والأعين مغمضة.

ـ لا. لا، أنا رجل صاحب مبادئ ولا أرضى بالخلل بالمساواة وأكون هكذا مشيت على المصادفة.

ـ على العناية الإلهية؟

ـ هما واحد.

ـ كنت أنتظر منك عطفًا أكثر من هذا. أفلم تقل لي أنت نفسك إنَّ حبّك الأول كان لمادام «دوسفينيه»[2]؟

ـ لا أنكر يا ولدي أنني لمّا كنت ابن عشر سنوات كان قلبي هائمًا بمادام دوسفينيه. وكنت عثرت على مجلّد من ترسّلها في دكّان أبي وكان فيه صورة هذه السيِّدة. فكنت أراها فتّانة

---

(١) ماذا كان يقول فرانس لو اطّلع على المجاملات الكتابية باللغات الشرقية والتي رشّحت العربية من الفارسي والتركي ولم يكن العرب يعرفونها في صدر الإسلام.

(٢) دو سفينيه (Madame de Sévigné)، أشهر مترسّلة باللغة الفرنسية لا سيّما في رسائلها إلى ابنتها الكونتة دو غرينيان، (١٦٢٦ ـ ١٦٩٦).

بحسب الرسم الذي رسمها إيّاه «مينيار»[1]. وكان عنقها يجذبني أكثر من إنشائها. فمن مضحك هيامي أني كنت أضع تلك الصورة على خدّي وأوسعها قُبَلاً، وكلّ هذا كان من الطيب الطاهر، أفلا تراه كذلك؟

الطرفة المجهولة

قال:

أفتريد مثالاً لصناعة الترسّل؟ مثالاً صحيحًا لا جدال فيه. هذا هو مكتوب العسكري الذي يهزأ به السفهاء:

«هذه الألوكة غايتها الوحيدة أن أعرّفكم أني بخير وأني أتمنّى لكم مثله، وأنه إذا أمكنكم أن تبعثوا لي شيئًا من الدراهم أكون مسرورًا كثيرًا».

فهذا هو الفصيح الذي يصيب الغرض رأسًا بدون زخرفة ولا شيء. فإنَّ العسكري هو حرّ صادق يهاجم الكيس غير مخاتل ولا موارب. وهذا ما يجوز شأو شيشرون ومادام دوسفينيه وڤولتير. ولئن غاب عنّا معرفة الجندي الذي وجد هذه الصيغة البكر، فإنَّه بدون شكّ قد كانت هذه الصيغة هي المستعملة في زمان «تورين»[2] وأيام نابوليون الكبير وفي عهده بوانكاره هذا. كلّما أعدت قراءة هذا المكتوب، وجدته عبقريّ الأسلوب فلا كلمة زائدة ولا كلمة ناقصة، كأنه إحدى الكتابات الرومانية في العصر الطيّب من أعصر رومة. انظر قوله: «هذه غايتها الوحيدة» غايتها الوحيدة خسئت الأكادمي أن تجد أبلغ من هذا. وماذا عساها تضع مكان هذه الجملة، أتضع جمًّا من الجمل والصيغ الكاذبة المتملّقة التي تمجّ أكثر من إناء خردل. وربّما عاب الجهلاء فعل Assavoir ، لبطلان استعماله ولكنَّه اصطلاح عُدْمليّ[3] لطيف، كثيرًا ما يدور في كتب الأوائل. وقد جاء في كلام رابليه. فهذا العسكري يكتب كما كان يكتب رابليه وكفاه بذلك مديحًا. وهي لهجة تشتمّ منها رائحة فرانسة الصالحة القديمة «أن أعرّفكم أنني بخير»

---

(١) مينيار (Migniard)، اسم مصوّرَين إفرنسيَّين أحدهما نيقولا والآخر منيار عاشا في القرن السابع عشر. ونيقولا هو الأكبر ولا نعلم مَن منهما هو راسم مادام دو سفينيه.

(٢) الفيكونت دو تورين (Turenne) هو والبرنس دو كوندي فرقدان في سماء الجنديّة الإفرنسية. كانا القائدَين في المعارك التي انتهت بنصرات الفرنسيس في فريبورغ ونوردلينغدن وسوميرهاوزن وهذه الأخيرة كانت أعظم عامل في صلح وستفاليه. وقد كان تورين يدًا مع الكردينال مازرين ثمَّ انقلب ضدًّا له ثمَّ استماله الكردينال ودفع في نحو كوندي فهزم تورين كوندي في ربض سانت أنطوان. وكان تورين قائدًا للجيش الذي تغلّبا على الإسبانيول وفي حروب هولاندة وفلاندر، وهو فاتح الألزاس وانتهت حياته في ميدان الحرب بكرة أصابته في وقعة سالزباك سنة ١٦٧٥. وكان مولده في سيدان سنة ١٦١١، ومع مزاياه العسكرية الباهرة كان متواضعًا وديعًا وحاز رتبة مارشال فرانسة.

(٣) قديم جدًّا، والأصل الفرنسي Archaique.

فالعسكري كالمدني يجوز أن يمرض، بل هو أكثر تعرّضًا للأمراض، بحيث أنَّ العياء الذي يعدّه المدني نقمةً، يعدّه العسكري نعمةً، لأنه يتيح له الاستراحة في المستشفى ويرفع عنه السخرة والسُّرى وسائر مهنة الأبطال، التي مع مشاقها العظيمة، ثوابها فلس واحد في النهار. وعليه يريد العسكري أن يقول: «هذه غايتها الوحيدة أن أعرّفكم أني في المستشفى» ويردفها بقوله: «وأتمنّى لكم مثل ذلك» بدلاً من أن يقول: «وأرجو أن تكونوا مثلي، متمتّعين بكمال الصحّة على سرير وثير، ليس لكم عمل إلاّ أن تُكبروا ناركم وتشربوا المياه المغلية». فهذا الجندي هو أنموذج الجنود والمترسّلين وهو رجل طيّب القلب. وعبارة كهذه من حقّها أن تبكي حنانًا لا أن تضحك. ولكن النوابغ هم دائمًا عرضة الهزؤ وأحاسن الأشياء مجهولة. فالعائلة الآن مطمئنّة على صحّة ابنها وهذه هي النقطة الكبرى. لأنه في خدمة الوطن لا يعرف الإنسان ماذا ينوبه، فأقلّ شيء يفضي بالجندي إلى ديوان الحرب. إذًا الوالدان استراحا، فالأب يضحك والأمّ تحكّ طرف مقلتها والقلوب تبتهج والكيس سينفتح. فأنت ترى براعة الاستهلال وكذلك براعة الطلب، حيث يقول: «وإنَّه إن أمكنكم أن ترسلوا لي شيئًا من الدراهم... إلخ»، إنَّه إن... هكذا يتكلّم المناطقة والفلاسفة «دي كارت» «بوسويه» «مالبرانش»[1] وأكرّر عليك، هذا الجندي يبذ الأكادميات الخمس «وإن أمكنكم أن ترسلوا لي شيئًا من الدراهم» هذا الولد الطيّب غير متحكّم. ولا يكتب لهم بخشونة: «ارسلوا لي دراهم» أو «ما بقي معي شيء من الدراهم»، بل يقول بكلّ رفق: «إن كان هذا لا يثقل عليكم يا والديَّ العزيزين» فأيُّ قلب من فولاذ يرفض التماسًا بهذه الرقّة. نعم، سيبعثون لك بدراهم. وستأتيك الحوالة قريبًا. وأنت تسرّ بها مهما كانت. فمن هنا يعلم الإنسان اعتداله في مطالبه وتوطينه النفس على الرضى بأحكام القدر. فالعسكري هو المثال للرجل المسيحيّ.

وبعد هذا، فماذا يفعل بالدراهم هذا الجندي الذي هو أنموذج جميع الفضائل الإنسانية والمسيحية؟ لا شكّ أنَّ المولعين بسوء الظنّ يقولون إنَّه سينفق ذلك في القصف والشرب وإنَّه ليس لأجل أن يروح نشوان كان أهله يبقّون الدم في العمل. فمن أين يعرفون ذلك؟ على أنه لو سكر ونادم ـ وهو ما يدلّ على ضعف معدته لا على ضعف إرادته ـ فلن يكون وحده في المعاقرة، كما يفعل المرّاؤن والمؤثرون لأنفسهم، بل يكون مع الرفاق وجميع الزمرة حتّى مع الأعداء كقائد العشرة والضويبط. فهذا منزع مسيحي، بل روماني، بل كورنايلي[2]. ولا يخفى أنَّ آباءنا

(١) مالبرانش (Malebranche)، فيلسوف إفرنسي، يرى تعليل كلّ شيء حتّى الأجسام بوجود الله والوحي، (١٦٣٨ ـ ١٧١٥).

(٢) نسبةً إلى كورنايل، ويُكنّى بذلك عن علوّ النفس.

الأوّلين كانوا إنَّما يحتفلون في الأفراح والأكدار بإدارة الأقداح وهم قدوتنا في كلّ شيء. أفلم يقل هوراسيوس، إنَّه ما من سبة في أن يخلع المرء عذاره أحيانًا من أجل صديقه. فهذا العسكري لم يقرأ كلام هوراسيوس ولكنَّه يعرف، بدون مطالعة في العلوم الأدبية، معرفة هوراسيوس فيجمع رفاقه ويذهبون إلى الحانة وربّما يذهبون في المساء إلى غير الحانة. على أني أنا لا أصدّق أنَّ مثل هذا العسكري العبقري يكون من الخلعاء الفاسقين. فإنَّ الأفكار العليا لا تأتي إلاّ من الفؤاد. وهذا العسكري له علاقة بدون شبهة مع بكر كاعب صافية مزدانة بجميع الفضائل، فهو يرنو إليها هائمًا ويشدّ على يدها ولا يقول لها شيئًا صريحًا، بل هو ممّن يغلب عليهم الفكر. وكتابته هذه تدلّ على اقتصاده البديع في الكلام. أمّا تلك الغادة فهي وصيفة عند كاتب العدل أو عند الجابي وربّما تكون ظئرًا عند الطبيب وعليه ليست إلى الآن عذارء.

ولا ننسَ الجملة الختامية التي يقول فيها "ولدكم إلى آخر الحياة" فإنَّ معناتها أنني مهما تقلّبت الأحوال يا والديَّ العزيزين وأنني ولو بنيت ببنت الملكة أو بابنة السمّان الذي يبيع بالجملة، فإنَّني لن أنساكما وإنِّي أتمثّل أبدًا لديكما كالرضيع أمام المرضع وإنَّ اسمكما هو الذي أتبسّم له في الساعة الأخيرة من الحياة فأنا ولدكما حيًّا ميتًا".

فماذا تريد فوق هذا؟ وقِس تضاؤل صيغ العصر الكبير إلى هذا الصوت الصادر من أعماق القلب. وتلك مثل قولهم "ولدكم وخادمكم الخاضع جدًّا الطائع جدًّا فلان" وما أشبه ذلك. كلّما تأمّلت في هذا المكتوب تجلّت لي في الناس قلّة الوفاء. فإنَّه هو المكتوب الذي يُكتب من عسكري لأهله، منذ وُجد العسكر وعُرف القتال بين الناس. ولم يعرف أحد اهتمّ في كشف اسم الرجل الأول الذي وضع هذه الصيغة التي لم تخلق ديباجتها الأيام ولقد أثبتوا العِظَم لرجال كثيرين هم بزعمهم من أفراد الدهر وليس فيهم مَن فرى فريّ هذا الجندي.

هوغو وبيرانجه

أشعر شعراء القرن التاسع عشر هو "بيرانجه" من جهة التركيب واللغة، فإنَّه يتكلّم بلغة القرن الثامن عشر مع مطاوعة السجيّة والذهاب مع الطبع، فليس في كلامه تصنّع "جان باتيست روسو"[1] و"لبرون بيندار"[2]. وهو يمثّل الأخلاق الفرنسوية، فشعره أكثره في صفة الخمر وفي

(١) جان باتيست روسو (Jean-Baptiste Rousseau)، شاعر إفرنسي غنائي مجيد، (١٦٧١ ـ ١٧٤١).

(٢) لبرون بيندار (Lebrun-Pindare)، شاعر غنائي إفرنسي، لقَّب نفسه بلقب بيندار اليوناني الذي يُعدّ من فحول شعراء العالم. وأين الثعلب من الأسد؟

الحبّ والمجد... وأمّا من جهة المشرب، فإنَّه وطنيّ النزعة أو حماسيّ المشرب لأنَّ الشيئين واحد. ولكن حماسته كانت دائمًا من بعد المعركة. لأنه هو نفسه روى بكلّ صراحة قصّة فراره من الخدمة العسكرية وقال إنَّه كان، كلّما رأى أناسًا من الشرطة، رفع لهم قبّعته وطأطأ لهم رأسه على الأرض. وإذ كان أصلع من الأصل فكانت صلعته تغنيه عن الرخصة العسكرية فكانوا يظنّونه ابن أربعين سنة.

تغيير السحناء

ل... تعشّى عند مادام فلانة...

إنَّه لعجيب الشكل غريب الطور، كان هذا الرجل محمّرًا وجهه كأنه غانية... نعم، هذا الضابط في البحرية[1] كان على كلّ من خدّيه ملء قرطاس من الحمرة. وفي جفونه نحو من نصف إقّة كحل. لا يريد أن يشيخ، بل يجتهد أن يحتفظ بشبابه بهذه التحاسين ولكنَّه غير مرتجع من الشباب شيئًا. وما أرى هذه الأدهان تمسكه إلاّ كما تمسك الموميا المصرية في حالة أشنع في النظر من الهرم عينه. فليست هذه هي الحياة وإنَّما هذا هو التحنيط. وقد كنت أرعاه ونحن على السفرة فكان يخطر ببالي هذا النوع من الطيور الصنعية المحشوّة التي عيونها من زجاج ممّا يحبّ المِلاء[1] وضعه على مكاتبهم.

قياس أقرن

كان مرّة بجانب رجل يحبّ البراز.

فقال له وهو خافض جناحه بنغمة هي غاية في اللطف:

ـ أستمحيك نعمة أن تتبدّل كرسيًا آخر بالكرسي الذي أنت عليه وتجلس بعيدًا بمقدار ثلاثة كراسي.

ـ ولماذا؟

ـ يا سيِّدي لست برجل أقابل الناس بما يكرهون فأرجوك أن تعفيني من أن أقول لك ما يسوءك.

ـ وأيم الله ما دمت لا تصرّح بسبب دعوتك هذه إيّاي إلى الابتعاد فلن أبرح مكاني.

---

(١) الملاء: جمع مليء، وهو الغني المتموّل، وفي الأصل الفرنسي Bourgeois.

ـ أنا يا سيِّدي ممّن يجعلون الأدب فوق كلّ الفضائل فاترك من تلقاء نفسك هذا المكان وإلاّ فإنَّك تضطرّني أن أقول لك ما لا يرضيك.

ـ حسبك. أنا هنا وأبقى هنا.

ـ أقول لك وهذه هي المرّة الأخيرة: أتريد أن تبرح مكانك؟

ـ لا.

ـ إذًا أنت أردت ذلك وتراني في غاية الأسف والله يشهد[1] أنني ما أذخرت وسعًا حتّى لا أسوءك. والسبب في كوني أرجوك التباعد قليلاً إنَّما هو يا سيِّدي سهوكة جسمك. فإنَّ الرائحة الكريهة تنبعث من آباطك وصدرك ورجليك. والشيطان نفسه لا يقدر أن يقيم بحذائك.

ـ أنت تحقرني. وغدًا اثنان من شهودي يأتيانك، للاتّفاق مع اثنين من شهودك على نوع السلاح في البراز، أتريد بالسيف أم بالطبنجة؟

ـ أبراز يا سيِّدي من أجل أني أستنشئ منك رائحة كريهة؟ تروَّ قليلاً، فليس هذا بكلام معقول. إنَّك إن قتلتني لم يقلّ نتن رائحتك شيئًا، وإن قتلتك ازداد نتنك عن ذي قبل كثيرًا.

دوشين[2] متلصص بحر

في هاتيك الأيام كان المطران دوشان لا يزال قسّيسًا ولكنَّه كان قد صار من الخالدين ودخل في أكادمية الكتابات الآثرية والآداب. وهذه الأكادميات، التي من الدرجة الثانية، هي كما لا يخفى أشبه بالأقارب الفقراء لابنة الكردينال الشهير: فوقع مرّة جدال بن الأب دوشين ورصيف له عالِم باللغة السلتيّة. وكان موضوع الجدال بأيّة لغة تكلّم آدم وحوّاء في الفردوس، أباللغة السمبرية[3] أم بلغة سفلى البريطونيين؟ فصار كلّ من القرنين يقاتل الثاني بالشواهد والأدلّة فانتهت الجلسة وهما يختصمان. فخرجا يكملان الجدال في الدهليز وعند الباب وفي الشارع وبين العربات والعجلات: ومن هناك بقي النضال يمتدّ إلى أن وصلا إلى منزل الأب دوشين وجلسا على المائدة، وثمّة حمي الوطيس عودًا على بدء.

وفي الآخر لحظ السلتيّ أنَّ الوقت قد طال وأزفّ ميعاد ذهابه، فقال للأب:

---

(١) في الأصل الإفرنسي: والسماء تشهد.

(٢) دوشين (Ducheane).

(٣) السمبريون (Cimbres)، جيل من البرابرة الشماليين اجتاحوا هم والتوتونيون بلاد الجلالقة قبل المسيح بقرنين. وإذا راعينا القاعدة العربية لزم أن نلفظ هذه الكلمة بالنون والباء فنقول "السنبريون".

ـ يا أبت أراك تتنفّس الصعداء وأرى هناك على المقصف قرصى حلواء تفوح منهما رائحة الروم[١] وهذه الحلواء اللذيذة تنبّهني أنَّ وقت طعامك مع السيِّدة قيمة منزلك[٢] قد حان فلا أريد تأخير هذا الميعاد اللطيف عنك. ولن أسألك إلاّ سؤالاً فردًا: أيوجد بواخر بعد الآن إلى «أوتويل»[٣]؟

ـ لا أقدر يا سيِّدي أن أجاوبك لأنه ليس لي خبرة بسير سفن المياه الحلوة.

ـ حقًّا يا أبي إنَّك كواحد من سلائل لصوص البحر البريتونيين لا يزال يغلب عليك الميل إلى الماء الملح. وخرج العالِم السلتيّ بدون أن يصافح الأب الذي هو أيضًا لم يبسط له يده.

وبقيا متخاصمين نحوًا من سنتين ثمَّ تصالحا في جنازة كانا ماشيين فيها متقاربين فوقع الائتلاف بينهما على رأي متوسّط. وهو أنَّ أبوينا آدم وحوّاء كانا يتكلّمان تارةً بالسمبرية وطورًا بلغة البريتون السفلى. فالسمبرية كانت لغة المحادثات العلمية والأدبية والمواضيع العالية، والبريتونية كانت تستعمل في أوقات الأنبساط والتبذّل.

إعادة نظر

ـ أحسن تآليفي هو ما لم يكن عليه أدنى إقبال مثل «التاريخ الهزلي» و«جان دارك». وأفقر تآليفي هي التي جميع الناس يطرونها مثل «تاييس» و«الزنبقة الحمراء».

إيضاح

ـ لماذا أذهب نحو الاشتراكية؟ أَوْلى بالمرء أن يذهب من نفسه من أن يُسحب بالقوّة.

حيلة تور[٤]

ـ أأخبرتك بحيلة تور؟ كلاّ، يكون حسنًا أن أحدّثك بها، لأنها تستحقّ أن تُسمَع.

كان ذلك في العام الماضي إذ ذهبنا إلى بلاد التورين فطفنا في قصورها القديمة. فكنّا نزور كلّ صبيحة قصرًا وكلّ ظهيرة كنيسة وكلّ عشيّة خزانة تحف، هذا بدون أن نذكر بائع الكتب وتاجر العاديّات.

---

(١) الروم (Rhum)، شراب يُستقطر من دبس قصب السكّر.

(٢) Madame la Gouvernante.

(٣) أوتويل (Tuteil)، محلّ.

(٤) تور (Tour de Tours)، مدينة بفرنسة وقد ذكر أنه عمل فيها حيلة لطيفة على رفيقته وعبّر عنها بكلمة (Tour) التي لفظها مثل اسم المدينة فكان جناسًا تامًا. وقد مرّ بك أنَّ أناتول فرانس مات في تور.

ففي أحد الأيام تركت العقيلة تستحمّ وانسللت. فبصرت بي ونادتني:

ـ أين تذهب يا سيِّدي في هذا الوقت؟

ـ إلى الكنيسة. إلى "سان غاتيين St - Gatien".

ـ أرجعت إلى الإيمان؟ لكن القسّيسين الآن نيام.

ـ كلاّ، يا سيِّدتي أفلا تسمعين قرع الأجراس؟ على أني لست ذاهبًا إلى هناك للعبادة، بل لمشاهدة البناء.

ـ انتظر دقيقة فأنا ذاهبة معك.

فوطنت نفسي على الصبر وعلمت أنَّ صبيحتي تنكّدت. وسرنا معًا إلى البيعة فكانت الحسان تطلّ من النوافذ ضواحك. وهذه ملاحظة لعلّك لاحظتها، فإنَّ "بنات السرو" كعصافير الليل يعشّشن غالبًا بقرب الكنائس. فإذا وصلت إلى بلدة لم تكن عرفتها من قبل ـ وهذا أمر اختبرته مرارًا ـ وجدت في أكثر الأوقات السلوى البدنية بجانب السلوى الروحية. فهذه العلاقة بين التقوى والغزل تجدر بالبحث والتقرير. وهو موضوع لطيف لنقّاب في شرخ الشباب مثلك، والخلاصة أنني، في زقاق صغير بقرب الكنيسة، بصرت بفتاة معتمدة على شباكها. مسدولة لها ذوائب يا ابني وأيّ ذوائب! غفارة من ذهب. ولها عنق! كاللبن يا حبيبي. فلم يخفَ عليها هيامي فغمزت بعينها. وكأنها تقول: "أنا حسناء ولست بصعبة. والحياة قصيرة. فتملّص ممّن معك وتعالَ فوافِني" وكانت الأجراس تقرع كأنها تقرع من أجلها. ولا شكّ أنه كان فيها من الإلهي أكثر ممّا في الكنيسة[1]. فملك حبّها قلبي وامتلأت جوانحي فرحًا وحمدت الربّ ولم أقدر أن ألبث ساكنًا وأحسست أنَّ النعمة بهظتني بوقرها. فأمّا العقيلة فكانت ماشية بجانبي عابسة فأدخلتها الكنيسة القاتمة الأعماق وقابلت الغمزة التي تلقّيتها بمثلها وأشرت إلى الغادة بأن تأتي إلى جهة المذبح. ثمَّ قلت للعقيلة: يوجد وراء المذبح الأعظم قبر ولد للويس الحادي عشر لا أدري أفتى أم فتاة؟ لكن بناء هذا القبر هو إحدى العجائب. مَن لم يرَه لم يقدر أن يفهم شيئًا من فنّ النحت والبناء عند الفرنسيس وهو في لطف الصنعة وغرابة الشكل وسط بين دورَي القرون الوسطى والتجدّد. بناء عديم النظير متناهٍ في الفخامة لا يعرف مهندسه العظيم.

فقالت العقيلة:

ـ هو ذا أنت مستطار جدًّا بهذا القبر. أفمن أجل ابن لويس الحادي عشر الذي مات يافعًا نهضت اليوم هذا النهوض الباكر؟ جيّد. فلنذهب وننظره.

---

(1) هذه مجانة لا تليق بمثل أناتول فرانس. وربّما لم يقُل ذلك إلاّ على وجه الإحماض ولم يكن يعلم أنه سيؤثر عنه.

ـ يا سيِّدتي يجب أن أقول لك: أمس عند «ليبودو»، بائع الكتب العتيقة، أهملت كتابًا بغاية الندور ويجوز أنَّ هذا الحيوان يبيعه. فلم أنَم الليلة الماضية من أجل هذا الكتيِّب. دعيني أذهب بضع دقائق وآتي وكتابي بيميني.

ـ جيّد. فلنذهب معًا إلى «ليبودو» فإنَّ ابن لويس الحادي عشر لن ينتقل من هنا.

ـ كلاّ، يا سيِّدتي لا أقدر أن أتحمّل ذلك. ولا أدعك تتكلّفين هذه المشقّة. فاذهبي وتأمّلي في قبر ابن لويس الحادي عشر، هذه الأعجوبة التي لا نظير لها، وهذا إلى أن أكون رجعت.

ثمَّ خرجت وتلاقيت مع تلك المخلوقة التي أسبغ الله نعمته عليها. ورجعت فوجدت السيِّدة في حنق شديد شعرها المستعار مشعّث وهي تهزّ مظلّتها وتصخب وترجّ الكنيسة كأنها «آتاليه» في الهيكل.

ـ أين قبر ابن لويس الحادي عشر؟ لن أبرح البيعة حتّى أراه. لأبرقنَّ إلى مدير المباني التاريخية. لأُعرّفنَّ ناظر المعارف العمومية. إنَّ هذا لا يجوز ولا يليق أصلاً. فإنَّك تذكر هنا قبرًا لابن لويس الحادي عشر وهؤلاء يقولون إنَّه غير موجود. وحاولت أن أسكّن روعها فلم يسكن. وكان الخوري أرسل يستدعي الشرطة. فلمّا رأيت المسئلة وصلت إلى هذا الحدّ أثبتُّ أنني بطل فقلت لها الحقيقة وصرّحت لها بصوت جازم قائلاً: «هؤلاء الجماعة غير مخطئين فإنَّ هذا القبر النادر المثال، مدفن ابن لويس الحادي عشر ليس هنا، بل في «أنجه»[1]».

فلمّا سمعت هذا الكلام أبلست وبقيت يومين لا تكلّمني فربحت بذلك يومين.

فتوى

ـ إنَّ «جوريس»[2] هذا وإن كان هائلاً فهو غاية في سلامة القلب فقد كان أمس على الغداء

---

(١) أنجه (Angers)، مدينة بفرانسة على مسافة ٣٠٨ كيلومترات إلى الجنوب الغربي من باريز، فيها كنيسة بديعة وقصر بدئ به في أيام فيليب أغوست وأُنجز في أيام مار لويس.

(٢) جوريس (Jean Jaurès)، أشهر زعماء الحزب الاشتراكي في فرانسة ومن نوابغ الاشتراكيين في العالم. كان آية من آيات الله في الفصاحة واللسن وسداد الحجّة وقوّة العارضة وقلّما قدر خطيب على مقارعته في البارلمان الفرنسوي. كان من مبادئ جوريس، عدا الأخذ بأيدي العملة والطبقات المستغَلّة (بفتح الغين) إلى مساواة الطبقات المليئة المستغِلّة (بكسر الغين)، السعي في تحرير الأمم المستضعفة التي بطشتها أيدي الاستعمار الغاشمة أو تخفيف ويلاتها بقدر الاستطاعة. وكذلك من جملة مبادئ جوريس محاربة الحرب ومقاومة كلّ تيّار عدواني بين أمّة وأمّة وتقوية روح الشعوبية التي يقال لها (Internationale) والتي معناها تضامن طبقات العملة في كلّ أمّة بعضهم مع بعض بإزاء الأحزاب القومية التي لا تفتأ تُشعل الحروب في العالم. ولمّا أوشكت الحرب أن تنشب بين ألمانية وفرانسة سنة ١٩١٤ كان جوريس أقوى عامل في مقاومة انبعاث شرارتها وكان يصرّح بأنَّ سفير الروسية في باريز هو الذي قرّر هذه الحرب وأقنع رجال الفرنسيس ويجتهد في إحباط سياسته. فثارت على جوريس خواطر أحزاب اليمين وحملت الحفيظة الوطنية واحدًا منهم على أن ذهب وقتل جوريس غيلة وكان عمره خمسًا وخمسين سنة. ومن الغريب أنه لمّا انتهت الحرب الكبرى طلبت عائلة جوريس والحزب الاشتراكي مجازاة القاتل فكان من =

عند العقيلة وهناك أخذ على عادته يخطب في موضوع الهيئة الاجتماعية المستقبلة "كلّ إنسان يصير في مركزه. كلّ شيء يكون شائعًا بين الناس. لا يكون أغنياء ولا فقراء، بل الأموال سويطة[1] بين الجميع" ولمّا كان يحوم في سماء المدينة الفاضلة أردت أن أداعبه بغرز إبرة في منطاده، فقلت له:

ـ والتحف النفيسة، ماذا تصنع بها يا جوريس في جمهوريتك الكاملة؟ فأخذت العقيلة تنظر في أثاث بيتها وأدوات السفرة الفضّية والتصاوير المعلّقة، ثمَّ قالت له:

ـ صحيح. أتبقون لي أدواتي الفضّية وتصاويري وتماثيلي؟

فقال جوريس:

ـ هذه تعود لطرز الإدراة.

فأردت أن أشحذ الشفرة جيّدًا، فقلت له:

ـ قل جوريس: نعم أم لا. أتكون هذه التحف تابعة السِّيدة أم للأمّة؟

فهتف جوريس وهو يضرب بقبضته على المائدة: للأمّة. للأمّة.

فقالت السِّيدة:

هذا هو. تدعو الناس إلى مائدتك فبعد أن يملأوا بطونهم يأخذون لك فضّتك تذكارًا وطنيًّا.

فأُفحِم جوريس، ثمَّ قال:

ـ بديهي يا سيِّدتي أنَّ هذه الصور المتلألئة وهذه التماثيل الناطقة بغير لسان وهذه النوادر النفيسة إنَّما هي ملك الجمهور.

ثمَّ عندما وصل إلى هنا تناول قدحًا من الشامبانيه واستأنف الكلام بلهجة أقرب إلى الاعتدال:

= المحكمة أنها اعتدته معذورًا وخلت سراحه. فقابل العملة والاشتراكيون هذا الاحتقار للحقّ بمجاهرة عظيمة اجتمع فيها ثلاثون ألف عامل طافوا حاملين الرايات الحمر في شوارع باريز. وكان أناتول فرانس ذا نزعة صعلوكية يحطب في حبل الاشتراكيين ويحضر مجامعهم ويحبّ جورس. ومرّة كان مدعوًّا عندي في أثناء المؤتمر الاشتراكي بلوسرن سنة ١٩١٩ عدد من زعماء الاشتراكيين الفرنسيس مثل مارسل كاشين وجان لونفه وبول ميسترال وفروسار ورينول فكان من جملة ما ذكروه لي في مقام الافتخار أنَّ أناتول فرانس هو منهم. فقلت لهم على سبيل استطلاع رأيهم فيه: ومَن أناتول فرانس؟ فقالوا لي: هذا من الطبقات العلى التي لا فوقها في كتّابنا. فقلت لهم: أصحيح أنه أكتب كتّاب فرانسة في الحاضر والغابر؟ فأجابني كاشين، وهو اليوم زعيم الشيوعيين: أمّا هكذا فلا. أمّا هكذا فلا.

(١) مختلطة.

ـ لكن، لمّا كانت هذه البدائع تؤلّف مجموعًا وكان بينها تناسب، يكون بربريًا إدخال الخلل عليه، وكنّا نحن معاشر دعاة الانقلاب لسنا من المخرّبين، فتبقى هذه التحف وديعةً عندك إلى أن يكون تمّ الانقلاب الاجتماعي وتكونين أنت القيمة المسؤولة عليها.

السيّدة الأرخنتينية

رغبت إحدى سيِّدات الأرخنتين إلى الأستاذ أناتول فرانس أن تعرّفه بولديها، لأنه هو أكبر كتّاب العصر الحديث وهي وأولادها لن ينسوا شرف معارفته هذا وسيجرّون به ذيول الفخّار في جميع أميركا الجنوبية. وقرأتُ الرقعة للأستاذ: مادام فلانة هي من أصحابي وولداها يقرآن عليّ الأدب والنحو الإفرنسي.

فسألني:

ـ كَمْ عمر هذه السيِّدة؟ يتخيّل الإنسان بهذا الطلب أيام ما كان شيخ «فرناي»[١] على فراش الاحتضار يبارك أولاد «فرنكلين»[٢] إلاّ أنني لست ممّن يقدر على صاعقة السماء وما أنا بالشيخ الكبير شيخ فرناي، ولا أُحسن إعطاء البركة ولا سيّما البركة على الفتيان. فلو كان ولداها فتاتين كان أوفق.

ـ هذه السيِّدة يا أستاذي تحبّك إلى درجة العبادة وعندها في بهوها جميع صورك. وقد ذهبت عمدًا إلى مرفإ «مالاكيه»[٣] حتّى تتأمّل وتخشع أمام باب البيت الذي جئت فيه إلى الدنيا. ودخلت إلى المخزن الذي كان فيه والدك وفيه اليوم تاجر عاديّات وأخذت كسرة من زجاج الدكّان وحفظتها في علبة صغيرة كأنها قطعة من عود صليب الصلبوت.

ـ أقول لك كَمْ عمرها؟

ـ ليس من السهل أن أحدّد ولكنّها عبهرة[٤] حسنة[٥] الشطاط والتمام وبالجملة فمن الجمالات[٦] الناضرة.

---

(١) فرناي (Patriarche de Ferney): إشارة إلى فولتير لأنه كان يقطن مكانًا اسمه فرناي على شاطئ بحيرة جنيف.

(٢) فرنكلين (Benjamin Franklin)، رجل سياسي صحفي معدود من بُناة الاستقلال الأميركي، وهو مخترع حربة الصاعقة، (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠).

(٣) مالاكيه (Malaquais) على ضفّة النهر، وهناك كان بيت والد أناتول فرانس كما مرّ.

(٤) العبهرة المرأة العظيمة، وفي الأصل Majestueuse.

(٥) القدّ الطويل.

(٦) بضمّ الجيم والجُمال مشدّدًا أو مخففًا: الجميل.

ـ أحمراء هي أم سمراء؟

ـ هي سمراء ذات عيون! وشعور! وعنق أغيد!

ـ يا ولدي لك أسلوب في تقديم زنبيل الخبز المبارك يشهي الإنسان الأكل. قل لهذه الساحرة الأرخنتينة أنني تحت أمرها، لا بل تحت أقدامها. وإنَّها في أيّ وقت جاءت، فأنا حاضر إلاّ أنني أسأل، أفلا يمكن إتيانها وحدها بدون أولادها، إذ لا أجد من الموافق تقديم غلمان جامزين كهؤلاء إلى أحد أعضاء الأكادمي.

ثمَّ جرى البحث في المكان الأوفق للإتيانة، فأمّا عند العقيلة فالأثاث أفخر إلاّ أنها أغير من نَمِرة، فربّما قلعت عين الأرخنتينية غيرةً وحسدًا. وأمّا مغنى سعيد فلا بأس به، وشكل المغنى مؤثِّر إلاّ أنَّ الفراهة ليست كما يجب: وممّا لا مناص منه تقديم الشاي وأقراص الحلواء للسيِّدة وأولادها الآتين لا محالة. فإن كانت جوزيفين ذلك اليوم ساكنة النفس مرتاحة إلى الخير، فكلّ شيء يكون على طرف الثُّمام؛ ولكن يا قدّيس سقراط إذا كانت جوزيفين ذلك النهار في أحد أيام بؤسها، فلا أمل أن نجد قطعة من السكر وتصبح المناشف والأغطية والملاعق في جبل الفقراء[1] ويجب تنظيف المدخنة من السخام وربّما يحصل انفجار في آلة الغاز، فأَوْلى بنا أن نحتاط للأمر من قبل. أظنّ أنَّ علاقتك حسنة مع جوزيفين وأنَّ لها عاطفة لها نحوك، فأنت استثمر هذه العاطفة بالكلام. واظهر لها أنك تبوح لها بما لا تبوح به لغيرها ومجّدْها تمجيدًا، لأنها أزهى من ديك حبش. فقل لها مثلاً: «إنَّ هذا الشيخ لا يُطاق من سوء خلقه. وإنَّ أميرة من البلاد البعيدة قد سمعت وهي في قصرها بما أنت قائمة به من ترتيب بيت أناتول فرانس وبحذقك في عمل الشاي فجاءت عمدًا، لأجل أن تتحقّق هذا الأمر بنفسها. وهي تريد إتيان مغنى سعيد لتقدّم لك أولادها يا جوزيفين لكن الشيخ غيور كالنمر فيدّعي أنَّ هذا شيء مزعج. وأنه ليس في المغنى حلواء ولا ملاعق ولا أدوات فضّية وأنك طول حياتك ما أحسنت عمل طاسة شاي. وأخيرًا فإنَّك لا تحبّين أن تري أحدًا في البيت وإنَّ وجهك بإزاء الأضياف وجه بومة» فإذا قلت لها هذا تطيب أخلاقها وتذهب حتّى إلى الحدائق العمومية لتسرق أزاهير تزيّن بها المائدة.

وبالفعل جوزيفين ذهبت إلى مخزن الشموع وابتاعت مقدارًا عظيمًا منها وزيّنت البهو الكبير الأدنى بهذه الشموع حتّى صار كأنه نعش.

---

(١) Mont de Piété: محل يرهن فيه الفقراء أمتعتهم. وقد ورد ذكر الدهقانة جوزيفين هذه في كتاب سيغور أيضًا ووصف كيف كانت متسلّطة على فرانس.

ووضع فرانس على رأسه كمّة أيام الاستقبال وتفخّل [1] وأقام شاربيه، ولمّا أقبلت الزائرة الكريمة، خفّ وأخذها بيديه وقبّل يدها. ونشب في مجاملات غزلية من حين وصولها إلى أن استقرّت في بهو الاستقبال فقدّمت السيِّدة ولديها اللذين كانوا حفّظوهما خطبة تعظيم ولفظاها. فقال لهما الأستاذ:

يا ولديّ تريدان إبداء ما عندكما من الإعجاب بتآليف هذا الشيخ، فأنا الذي قد بهره ما أنتما عليه من اللطف ومن مخايل الأنفة. حقًا يا سيِّدتي عندما أرى آثارك أنت أجد آثاري ضئيلة جدًا.

وكان الأولاد أتوا بنسخ من تأليف فرانس المسمّى «سلفستر بونار» لأجل أن يكتب لهما اسمه عليها. فقال:

دائمًا سيلفستر بونار. وهو أسمج تآليفي وأشدّها إملالاً. عملته على نيّة أن أنال جائزة الأكادمي وقد أحسنت عمله أو قل أسأته بحيث نلت تلك الجائزة.

وكان الولدان لابسين ملابس مدرسة «إيتون» [2] فسألهما الأستاذ:

ـ وأنتما يا ولديّ أخذتما جوائز في إيتون؟

فاستلقت السيِّدة على ظهرها من الضحك.

ـ وكان الولدان مجتهدين إلاّ أنهما غريبان في إنكلترة فلم يكونا يقدران أن يساويا أولاد الإنكليز ولكنّهما كانا يتكلّمان بالإنكليزية كأبناء هذه اللغة ويقرآن «ديكنس» [3] بصوت عالٍ.

فقال أناتول فرانس:

«أحبّ ديكنس كثيرًا فإنّه من أعاظم الكتّاب وكثيرًا ما شبّهوه بـ «دوده» [4] لكنّهم نقّصوا قدره بذلك. فإنّه لا ينكر أنّ دوده كاتب بارع ولكن يعوزه عمق الغور وأكثر بدائعه سطحية. أمّا ديكنس فتأليفه اجتماعي قائم على مبادئ، بخلاف دوده الذي ليس له غرض عامّ. ومن مزايا ديكنس محافظته على مكانته وشعوره بشرف صنعة الكاتب».

---

(١) تفخّل: لبس أحسن ثيابه.

(٢) إيتون (Eton): مدرسة بإنكلترة.

(٣) ديكنس (Ch. Dickens)، قاصّ إنكليزي، ولد في لاندبورت سنة ١٨١٢ ومات سنة ١٨٧٠. كان من المكثرين مع الإجادة وأنحى في جميع قصصه على رذيلة الرثاء والأثرة وغمز كثيرًا الهيئة الاجتماعية الإنكليزية بغير استثناء، وهو من أنبغ أهل القصص عندهم.

(٤) دوده (Alphonse Daudet)، قاصّ إفرنسي شهير، له تآليف يقرأها الجميع معجبين بدقّة لحظه وحرارة قلمه، ولد في نيم (بلد بروسون، صاحب الكتاب) سنة ١٨٤٠ ومات سنة ١٨٩٧.

ثمَّ وقّع بخطّه على الكتب، وقال:

ـ وأنت يا سيِّدتي، أفلا تريدين منّي شيئًا؟ أفتذهبين من هنا وأيديك فارغة؟

فتحيّرت الحسناء الأرخنتينية في الجواب، ثمَّ قالت:

ـ أريد أن أطلب منك شيئًا ولكن الموضوع هو بغاية الدقّة. وأخشى أن أكون أتيت بما يخالف أدب المعاشرة.

ـ أكلُّ هذا. فما عسى أن يكون هذا الموضوع؟

ـ هو موضوع نفسك.

ـ نفسي؟

ـ نعم، نفسك. لأني قلقة من جهة نفسك.

ـ آه مادام، فلو أنك تقلقين من جهة جسدي.

ـ لا تضحك. فإنَّك بدون دين. ونراك تعمل كلّ ما في وسعك لتهلك. ولمّا كان قلمك ساحرًا فإنَّك تهلكني أنا معك. لكنِّي سأقف في رأس المزلّة المدحاض وأجتهد أن أُنقذك.

ـ أثبتي جيّدًا يا سيِّدتي فإنِّي سأتعلّق بذيل ثوبك، ومهما صنع الشيطان فلن يزحزحني من هنالك.

ـ أفلا تفكّر يا سيِّدي في الآخرة؟

ـ أبدًا. أبدًا[1].

ـ أفتكفيك هذه الدنيا؟

ـ نعم، يا سيِّدتي فلست برجل طَمع[2].

ـ كَمْ أتوجّع لك أنت الذي أحرز كلّ هذا المجد.

ـ يا سيِّدتي، إذا كنت جالسًا على الغيمة التي تجلسين أنت عليها، استوى عندي الماء والخشب ولم أبالِ أنا في صفّ التيوس أم في صفّ الحملان.

ـ لا تتلقّى شيئًا بصورة الجِدّ. مع أنَّ الموت أمرٌ عظيم.

ـ كلاّ، يا سيِّدتي فلا شيء أهزل من الموت وليس في الجنازة منظر أقلّ معنىً من منظر الميت[3].

---

(١) وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم ألا يظنّون (سورة الجاثية).

(٢) أراد أن يقول عن نفسه ما قال أحدهم لأبي العلاء المعرّي إذ قال له هذا: لست أزاحمهم على الدنيا. فأجابه ذاك: ولا على الآخرة.

(٣) صاحبنا فات المعرّي وربّما فات أبيقور نفسه.

ـ قد تلقّيت تربية صالحة مسيحية وكانت أمّك برّة وبدأت بدءًا حسنًا وستعود كما بدأت.

ـ قد عدت يا سيِّدتي، فأنا أذهب معك حيث أردت.

ـ أإذًا طالبتك بوعدك، أفتريد أن تذهب معي إلى الكنيسة الإسبانيولية؟ فهي على دورة دولاب من هنا.

ـ هذه كنيستك؟

ـ نعم.

ـ لكنَّها خالية من الأبهة.

ـ لا حاجة إلى الأبهة وإنَّما المقصد النعمة.

ـ إذا رجعنا إلى النعمة فيوجد من النعمة حيث أنت أكثر ممّا في كلّ معابد باريز. حقًّا المعجزات هي هنا.

ـ لا نضلنَّ الطريق. تعالَ معي إلى الكنيسة.

ـ ولماذا لا؟ يقولون هذا قصص من زمان رجوع الحكم الملكي.

ـ ليست القضيّة قضيّة قصص، بل ثمّة معلّمو اعتراف خِيَرة يغسلون لك ضميرك جيّدًا.

ـ أريد أن أعترف. ولكن لك يا سيِّدتي.

ـ واحسرتاه! ماذا أصنع بذنوبك؟ وأنا حسبي ذنوبي. وأنت من جملة ذنوبي، بل أنت كبيرة آثامي.

ـ جعلتني لا شيء يا سيِّدتي.

ـ نعم، أنت كبيرة خطاياي لأنَّ معلّم اعترافي يمنعني من أن أقرأ كلامك.

ـ وتريدين أن تأخذيني إلى هذا الجلف. فهو سيحظر عليّ أنا الكتابة.

ـ كلاّ، بل يشير إليك بكتابة المواضيع الطاهرة ويتقدّم إليك في أن تنفق في خدمة الديانة ما أوتيته من النعم الإلهية التي قلّما أُوتيها أحد.

ـ أترينني أعمل غير هذا؟

ـ سواءً أردت أم لم ترِد فالنعمة[1] تعمل عملها.

ـ هي عاملة. هي عاملة.

---

(١) الأصل الفرنسي (Grace) وترجمتها "النعمة" والنصارى يريدون بها "اللطف المخزون".

ـ لماذا لا تأتي لنتلو صلاة صغيرة أمام تمثال العذراء؟

ـ لا نقل صلاة صغيرة، بل رياضة تِسْعيّة[1]، تسعيّة. أعملها أنا وإيّاك. لماذا لا نعملها؟ فعندنا من تماثيل العذراء والقدّيسين بقدر ما في كنيستك التي في شارع "ألما Alma".

الديناميت في وريقات اللف

ـ هناك حقائق مُرّة المذاق على الطبقات المتأثّلة والحكم الحاضر والمفهوم العامّ.

فمثل هذه الحقائق يجب عرضها على الناس بصورة تدلّ على عدم الاعتناء. فإنّنا قوم نكتب للملاء الذين هم في الواقع وحدهم القرّاء. فلا تهتكنَّ ستر الهيكل بيد خشنة، بل اهتكه تدريجيًا واخرقه أثر ذي أثير بثقوبٍ صغيرة خفيّة وبحجّة أنك تريد أن ترقّعه. إقطع من هنا ومن هناك خرقًا واعمل منها ألاعيب صبيانية وسهِّل على القارئ أن يفهم هو من نفسه ما لم ترِد أنت أن توضّحه له... يظنّونني ماجنًا ويقولون عنّي أحيانًا مشعوذ وأحيانًا سوفسطائي... والحقيقة أني قضيت حياتي أفرّق ديناميتًا في قصاصات ورق.

سِماط تاريخي

أميركية طلبت التعرّف بالأستاذ وأقامت الدنيا وأقعدتها وأتت بشفاعات من وزراء وأكادميين وتجّار عاديّات حتّى تفوز بنعمة قبوله لها.

فسأل أناتول فرانس قيّمة منزله جوزيفين عن الأميركية: أحسناء هي؟ فأجابت جوزيفين بإشارة مَن يصف زنبيلاً مفعمًا إلى طَفافه. فقال أناتول فرانس:

ـ جيّد أنا أقبل زيارتها.

فجاءت السيِّدة. وكانت من ربّات الجمال إلاّ أنها كانت ناضجة. فدعت الأستاذ إلى العشاء. فرضِيَ وقرّر أن يذهب. إلاّ أنَّ الرعناء لم تلبث أن كشفت بغيتها، فقالت له إنَّها ترجوه أن يكتب لها في نهاية الطعام خاطرًا لطيفًا ويوقّع بإمضائه ويضع التاريخ وذلك على سماط عندها صار تاريخيًا من كثرة ما عليه من الكتابات والتواقيع. فإنَّ أكثر أعاظم العالمَين القديم والجديد أكلوا على هذا السماط وكتبوا عليه. وقد طرزت الأميركة هذه الخطوط فبلغت نحوًا من ثلثمائة

---

(١) تسعيّة أو (Neuvième) ومعناها رياضة تستمرّ تسعة أيام.

إمضاء منها «ديبوسي»[1] و«ماترلينك»[2] و«ماسينيه»[3] و«روستان»[4] وأحد الكرادلة[5]...إلخ.

فلمّا سمع فرانس هذا الكلام تشكّى من معدته وكبده، وقال إنَّه مواظب على الحمية وإنَّ طبيبه يمنعه أن يأكل في المدينة، وإنَّه نسي ذلك، وإنَّ هذه المسئلة تتعلّق بها حياته وموته. وصرف الأميركية المفتونة به نحو الباب.

النفير العام وباخوس[6]

ـ كنت عند العقيلة في مربعها بالبرّية فأخذت أتحدّث إلى واحد من المزارعين فعلمت أنه حضر حرب السبعين وأنَّ أحسن رواياته عنها اثنتان. الأولى: إصابة رصاصة قائد مائة من الدارعين في أسته. وقد مات في هذا المسكين منها. وصاحبنا يكاد يموت من الضحك عندما يذكر هذه القصّة. والثانية: حكاية المحتال الذي عهد إليه بجلب خيل، كانت الحكومة ضبطتها وأمرته بالمجيء بها إلى ساحة الحرب. فهذا الرجل كان يذهب من محلّ إلى محلّ وكلّ محلّ يصل إليه كان يستقبله فيه شيخ البلدة ويقدّم العلائق للخيل والقرى للموكل بها، فيجد مأكلاً ومأوى وزاوية فيها نار يصطلي عندها. فما كان يتمنّى شيئًا سوى أن يدور من قرية إلى قرية بهذه الخيول إلى أن تكون وضعت الحرب أوزارها.

وكان عند الصباح ينهض فيستعلم عن الطريق، التي تؤدّي إلى محلّ الجيش، فإذا حقّقوا له الطريق سار هو بالعكس حتّى لا يصل أبدًا. وما زالوا يدلّونه على الطريق وهو يمشي إلى الجهة المخالفة إلى أن انتهت الحرب، فقضى تلك المدّة آكلاً شاربًا لاهيًا، وقد يسبّونه فلا يبالي بشرط أن يضلّ الطريق. ولم يكن الفلاّح الذي يحدّثني ينطق بكلمة لوم بحقّ هذا الفارّ من الحرب، لأنَّ محدّثي هو عينه من البُلُط، بل كان يروي قصّته بشيء من الإعجاب أو من الحسد.

ـ إذا نشبت الحرب يمشي فلاّحك هذا إلى القتال مع جميع أهل قريته.

ـ نعم، إذا مشى معلّم الأولاد والخوري في طليعة النافرين إلى الحرب. ويوم النفير يضعون دنًّا من الخمر أمام كلّ حانة فيكون لباخوس فيه الحكم الأول.

---

(١) ديبوسي (Debussy)، مؤلّف موسيقي شهير، (١٨٦٢ ـ ١٩١٨).

(٢) ماترلينك (Maeterlinck)، كاتب بلجيكي، ولد في غاند سنة ١٨٦٢.

(٣) ماسينيه (Massenet)، شاعر إفرنسي، ولد في سانت إتيان سنة ١٨٣٢ مات في باريز سنة ١٩١٢.

(٤) روستان (Rostand): تقدّم ذكره وذكر استثقال أناتول فرانس لشعره.

(٥) لعلّ وجود اسم روستان واسم الكردينال كان من أقوى الدواعي لعدول فرانس عن قبول دعوة الأميركية.

(٦) باخوس (Bacchus)، إله الخمر عند الرومانيين وهو المسمّى بديونيسوس عند اليونانيين. وفي الأساطير أنَّ باخوس هو ابن جوبيتر وأنه كان له مواقف محمودة في نصرة أبيه في حرب الآلهة مع الجبابرة.

صادفنا مرّة جنازة. فحيّا أناتول فرانس الجنازة بإعظام خارق للعادة. فقلت له: لماذا خفض هذه القبّعة. فإن كان للصليب أو للكاهن فأنت جاحد. وإن كان للميت فلا أظنّك ممّن يسلّم عليه لو كان حيًّا. فلزم أن يصير من الغابرين حتّى صرت تميل إليه؟

ففكّر قليلاً وقال: «كنت أحيّي مصيري» فقلت له: لماذا لا تحيّي هذا الوضم، فإنَّ هذا اللحم الذي عليه يكون طعام الإنسان كما يكون هذا المحمول على النعش طعام الدود. مصير واحد.

فقال:

ـ ما أقدرك على المغالطة.

ثمَّ قال:

ـ لنعِش بسلام حتّى نموت بسلام، فإنَّ الصعوبة ليست في الموت، بل في الحياة. فلا تدعونَّ كاهنًا مزعجًا إلى فراش احتضاري، ادعوا لي امرأة حسناء. وأحبّ أنَّ أيديًا جميلة تغمض عيوني عند الرقاد الأخير [1].

وكان كأفراد العامّة في نزوعه إلى الاجتماعات التي تقع في الساحات وشهود حوادث الطرق، فأينما تذهب العامّة يذهب وينظر ويؤوّل ويفسّر ويقايس ويقابل. فإحدى المرار وجدنا الرصيف الذي أمام «الأنستيتو» مسودًّا من الخلائق فقصدناه وتغلغلنا في وسط الجمع فشاهدنا مسطوحًا على الجرف جسد رجل غريق واقفًا عنده شرطي. وكانت الجثّة حالكة السواد كالأبنوس. وقد رسب على أطمار الغريق من مياه النهر شيء جمد فصار كالرماد. وكانت أظفاره البيض في أيديه الزرق المتشنّجة ممّا لا تطيب النفس برؤيته. فسالت قريحة الجمع بالكلام الزقاقي: «هذا زنجي رمى نفسه في الماء ليصير أبيض» وما شاكل ذلك.

فقال أناتول فرانس وقد تنهّد:

ـ هذا المزاح أليم في النفوس، لا سيّما أننا في باريز أبرّ بلاد الناس بالموتى. انظر إلى الجبانات ولا سيّما جبانات الضواحي فتجدها في الفصول الأربعة حدائق غنّاء. وإذا مرّت جنازة حسر

---

(١) وصيّة تذكّرنا من بعض الوجوه بوصيّة الحطيئة وهو يموت.

الجميع عن رؤوسهم متّفقين طرًا على حرمة الأموات. وترى أشدّ النساء إلحادًا يرسمن إشارة الصليب. فهذا الشعب نفسه يحتقر بقايا هذا الرجل الآن. الجواب لأنّ هذا الميت لم يتبع العادة والعرف. فهو ميت فقير لا يستحقّ الرحمة، لكن لو وضعوه على نعش لانقلب الهازلون رزناء وحسروا عن رؤوسهم. إذًا يوجد فنّ اسمه فنّ الموت. كما يوجد علم اسمه علم الحياة. والشعب يحبّ الجنائز الحافلة. فإذا أبصر هذه الجبال من الزهر مارّة في الطرق، شعر برحمة وحزن على قدر الثروة التي تدلّ عليها تلك الأكاليل. وقد يشعر بشيء من الرضى لأنه لا يكره أن يرى الجبّارين وسعداء الحياة الدنيا ذاهبين إلى التراب.

كيف أريد أن أُدفَن؟ أريد أن أُدفَن مثل «سان بوف»[1] الذي ذهب ذهاب رجل رجل عاقل بدون أن يحدث أدنى جلبة، كأنّما كان يمشي على رؤوس أصابعه[2]. فلا أُرسلت أوراق نعي ولا عملت حفلة دينية. وهكذا، فلنصنع ونكفِ الناس مؤونة هذه الرموز الثقيلة الباردة وإذا كان لا بدّ من سفر، فليكن بأخصر الطرق. وإنّني أربأ بالنساء عن أن أحزنهنّ بملاقاة مركبتي الأخيرة.

حضرت جنازة سان بوف فكانت مدنيّة. وكان على التابوت إكليل بنفسج بديع مرسل من عند مادام «جان دوتورباي». ولمّا أُنزل الجسد في اللحد، صعد الشاعر «لاكوسّاد» على أكمة وقال هذه الجملة البسيطة: «وداعًا يا سان بوف، ووداعًا أيّها السادة المشيّعون، وشكرًا بالنيابة عنه». فهذا هو أنموذج الجلال والنظام في الجنائز. فمَن أراد أن يشيّع أو مَن قدر أن يشيّع فليشيّع. ومن أسخف السخف الإطالة في المقابر ولا حاجة إلى الخطب في فناء الإلهة الصامتة[3]!

---

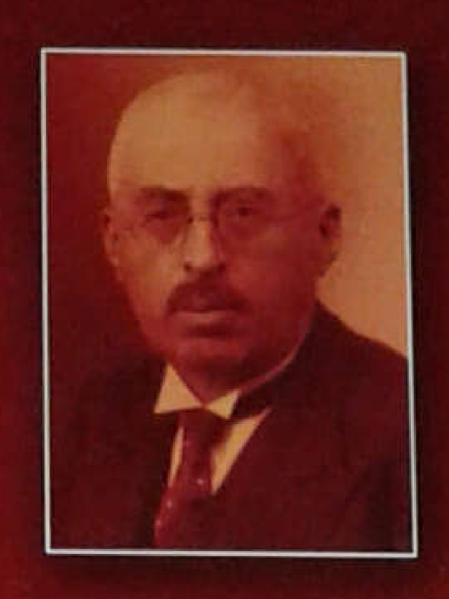
(١) شارل أوغوستين دو سانت بوف Sainte-Beuve، من أشهر المحقّقين في فنّ الأدب عند الفرنسيس، له كتابات ممتعة في النقد الأدبي وفي تراجم الأدباء وتشريح مذاهبهم، (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩).

(٢) لم يتيسّر لأناتول فرانس الذهاب من هذه الدنيا على رؤوس أصابعه، بل كانت له جنازة من أحفل ما عهد بفرانسة.

(٣) هذا النمط في الجنائز هو السنة الصحيحة عند المسلمين وبها أوصى أستاذنا الإمام الشيخ محمَّد عبده، رحمة الله، ليكون العمل بها عند وفاته. وقال أحمد شوقي متنبّي العصر: «جلال الموت في الموت».

فهرست المحتويات





١٨٦٩ - ١٩٤٦

"لم يعهد التاريخ دورًا من الأدوار خلُص من علاقة الشرقيين بالغربيين... وقد عمّ هذا التحاكّ، جميع أحوال الحياة وأركان العمران.

... إذًا الأخذ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان... لم ينحصرا في الأمور المادّية... بل شملا الأمور المعنوية والمسائل العقلية والشؤون الاجتماعية، إلاّ أنه لم يعرف التاريخ فيما مضى أي قبل ظهور الآلات البخارية والكهربائية، دورًا أتت فيه العلائق بين الشرق والغرب... كما في هذه الأيام الأخيرة التي ألقى فيها الغرب بجرانه السياسي على الشرق.

... فاضطرّ الشرق إذًا أن يأخذ عن الغرب، طوعًا أو كرهًا، كل ما يتسنّى له أخذه من أسباب المدنيّة... ويطبع بها مدينته العريقة. ويلقي على غرابتها ديباجته الشرقية احتفاظًا بقوميّته.

وليس المقصود أنّ محاضرات العرب بالآداب لا تُعدّ من الأدب... كلا فقد دخلت في العربية علوم الأمم المتمدّنة وآدابها... فازدادت بها كمالاً وكسبت بها صقالاً...

والقسط كلّ القسط... هو أنه لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأمّ العربية البرّة أمًّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندًّا.

ولمن أراد أن يكون خرّيجًا في العلوم السياسية والأدبية فاللسان الإفرنسي طراز المجالس... ووشي المحافل. وسترى مما سيأتيك من قصص هذا الكتاب وترجمة صاحبه "أناتول فرانس" آية فرنسة الحديثة في فنّ الإنشاء".

شكيب أرسلان